رشيد يوسف عطا الله
(تهاروفيم ڤيكتور)

تحقيق
دكتور علي نجيب عطوي

تاريخ الآداب العربية

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر



المجلد الثاني

١ - المؤرخون والجغرافيون
٢ - العلماء
٣ - النقلة
٤ - الأطباء
٥ - الفلاسفة
٦ - الفلكيون والرياضيون
٧ - اللغة في الأندلس
٨ - الأدباء
٩ - المؤرخون
١٠ - الفقهاء
١١ - الأطباء والفلاسفة
١٢ - اللغة في طور الانحطاط
١٣ - الشعراء
١٤ - النحاة واللغويون
١٥ - المؤرخون والجغرافيون
١٦ - ملحق في المؤلفات الغُفْل
١٧ - اللغة في طور الانبعاث
١٨ - الشعراء
١٩ - المنشئون
٢٠ - المستشرقون
٢١ - شعراء النهضة الحديثة
٢٢ - شعراء اصحاب نزعة رومنتيكية
٢٣ - شعراء الرابطة العلمية
٢٤ - شعراء الشعر الحديث

المؤرخون وَالجغرَافِيّونَ

مضت على العرب في صحاريهم دهورٌ طوال تقلّبت بهم أطوار الحدثان [1] ولعبت بهم صروف الزمان وكانت لهم شؤون طوتها الأيّام وجرّت عليها ذيول النسيان ولا يعلمها الاّ خالق العباد الذي لا يخفى عليه خافية في مكان ولا يعتري علمه سهوٌ ولا نقصان وما وصل الينا من أخبارهم إنّ هو إلاّ شذرات لو جُمعت في سفر لم تتجاوز صفحاته عدد البنان يعثر عليها المنقّب عن آثارهم في تواريخ من سواهم من الأمم بعد العناء الشديد وزيادة الإمعان.

ولم يزل هذا شأنهم حتى دخلت الكتابة بلادهم في النصف الأخير من القرن السادس للمسيح فدوّنوا شيئاً من آثارهم وغُلّت يد الضياع عن العبث[2] به. وما كاد يظهر الإسلام حتى ضمّ شملهم وظهرت طلائع جيوشهم على حدود مملكتي الفرس والروم. فوقف أربابهم في وجوههم وقفة المستضعف المستخفّ ثم ما عتّموا أن انقلب استخفافهم إعظاماً وإعظامهم هلعاً وفرقاً[3] من أُولئك الأبطال الغريبي الأزياء والخُطّة. وما كان إلاّ ردح [4]

---

(١) حدثان الدهر نوائبهُ.

(٢) غلهُ قدّهُ وعبث به لعب واستخف.

(٣) الهلع الخوف الشديد والجزع الزائد والفرق الخوف

(٤) مدة.

من الزمن حتى غُلب الفرس على أمرهم تماماً وكادت الطامّة نفسها تحيق بالروم لولا قضاء الله عزّ وجلّ فأُسقط في أيديهم[1] وعجزوا عن حماية مملكتهم الشرقيّة فتقلّص ظلهم عنها وأصبحت طعمة الفاتحين.

وأنشأ العرب مملكتهم على أنقاض هاتين المملكتين وأخذوا يجارون أهلهما في حلبه التمدّن ونبغ منهم أعلامٌ في كل علم وفنّ. ولمّا كان أوّل ما تتّجه إليه خواطر الملوك والشعوب حفظ أخبارهم وتدوين وقائع زمانهم حباً بخلود الذكر وطيب الأحدوثة ومباهاة الأمم المجاورة شرع القوم يعانون جمع حوادث تاريخهم الخاصّ وأعملوا مطايا[2] الأفكار في البحث عن أخبار أسلافهم في مظانّها[3].

فكان المعدن[4] الأول الذي اهتدوا اليه واستخرجوا منهُ دفائن تاريخهم شعر الجاهليّة. وقد قلنا فيما مضى أنّ شعراء تلك الأيّام ضمّنوا قصائدهم فضلا عن شؤونهم الخاصّة ما وقع لديهم موقع العجب من الحوادث المؤثرة في أذهانهم وهي كثيرة جداً. فكانت هذه المنظومات أحد مصادر التاريخ رجع إليه الكتبة لما شرعوا في تدوين الأخبار وتبويبها ولولاها لفاتنا شيءٌ كثيرٌ من أحوال العرب القدماء. وليس كلّ ما ذكر المؤرخون عن عرب الجاهلية استنبطوه من الشعر بل هناك أخبارٌ كانوا يتناقلوها خلفاً عن سلف ولم يشيروا اليها في شعرهم وقد أخذها عنهم وصانها من الضياع جمهور العلماء الذين عانوا الرحلة الى البادية للوقوف على لغات العرب وأساليب بلاغتهم في

(١) اشتد ندمهم وخاب املهم.

(٢) جمع مطية وهي الدابة الركوب اي انهم بذلوا اقصى المجهود.

(٣) جمع مظنة بكسر الظاء وهي الموضع الذي يظن فيه وجود الشيء.

(٤) معدن الذهب ونحوه منبته.

كلامهم كالخليل والأصمعي وغيرهما ممن مرّ ذكرهم. كما أن الشعر كان مصدراً لغير التاريخ أيضاً فقد عُرف منهُ جبال بلاد العرب وأوديتها ومياهها وحيوانها ونباتها وعُلم منهُ عوائدهم في أفراحهم ومآتمهم[1] ومعتقداتهم الى غير ذلك ممّا يُعنى الباحثون بالتنقيب عنهُ ويحتفلون به كثيراً طمعاً في إزاحة القناع[2] عن مجريات[3] تلك العصور المتقادمة وتمثيل معايش أهلها وبعثها حيّة للعبرة والفائدة.

هذا أحد مصادر التاريخ العربي وهناك مصدرٌ آخر غزير المادّة متشعّب الطرق وهو ما اجتمع لدى الساعين وراء الأحاديث النبويّة والباحثين عن صحيحها وفاسدها من تراجم أفراد الرجال وأخبارهم كما ألمحنا إليه في كلامنا على «الفقهاء والمحدّثين». وقد قسموا أولئك الرواة الى فئات سمّوها «طبقات» كلّ طبقة تُعرف بالفنّ الذي يتعاطاهُ أصحابها كطبقات الفقهاء وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وطبقات الأطبّاء وهلّم جرًّا. ومن المؤرخين من ألّفوا في طبقةٍ دون غيرها لتوفر مادّة التراجم عند العرب.

ومن مصادر التاريخ العربيّ في صدر الإسلام ما احتاج الى جمعه العمّال من أخبار فتوح البلدان وتفاصيل وقائعها ليتهيّأ لهم تعديل الجزية والخراج[4] لكلّ بلد والمال المضروب على السكّان يختلف مقدارهُ باختلاف ظروف الفتح. فإنّ من البلاد ما فُتح عنوةً ومنها ما فُتح صلحاً وأماناً ونجم[5] عن ذلك عهودٌ متنوّعة البنود مختلفة الشروط. وكل ذلك بمكانٍ من الأهمية ولا بدّ من اعتباره والإحاطة به لإجراء العدل في توظيف[6] الضرائب على البلاد. فشرع القوم

---

(١) جمع مأتم وهو مجتمع قوم للمناحة.

(٢) ستار تغطي به المرأة وجهها. (٣) حوادث.

(٤) الجزية ما يؤخذ من اهل الذمة على انفسهم والخراج ما يؤخذ على الارض.

(٥) نتج. (٦) تعيين.

في جمع هذه الأخبار وتفصيلها وقد وضعوا عدّة تآليف في هذا الشأن وهم يسمّونها « مغازي ».

هذه مصادر التاريخ العربية ولما خالط العرب الأعاجم ووقفوا على كتبهم اقتبسوا منها شيئاً كثيراً في التاريخ العامّ وألّفوا فيه.

وليس لعرب مُضر آثار تاريخية ماديّة لمكانهم من البداوة والأميّة وهاتان الخلّتان منافيتان تمام المنافاة لما تقتضيه طبيعة العمران من القرار والتفرّغ لأنواع الصنائع والتعاون على إقامة المباني وتشييد المصانع[1] وما أشبه ذلك من المرافق[2] التى تستلزم اتخاذها حاجات المدنيّة المتعدّدة ويدعو إليها التبسّط في أطراف الحضارة. وقد علمت أن الكتابة لم تدخل عندهم إلّا في القرن الأول قبل الهجرة ولم تكن عامّة فيهم وقد اختصّت بها قريش لأنهم كانوا حضراً وأقرب الى أسباب المدنيّة من أخوانهم. ولم يزل العرب قبل الإسلام متقاطعين فيما بينهم متحيّزين[3] في قفارهم الشاسعة راغبين عن ملاذّ الدنيا في استقلالهم فلم تكن لهم جامعة تجمعهم في مملكة واحدة فيتحاكون بغيرهم من الأمم أصحاب الممالك الضخمة والحضارة الواسعة فيدعوهم ذلك الى المنافسة والمباهاة ويحبّب إليهم تخليد العرب مآثرهم وتدوينها على الحجر والآجر وغيرها. ولا شك أنّ كثرة المؤرخين في الدولة العباسية وما سواها من الدولة العربية تدلّ على إيعاز الخلفاء والملوك الى الكتبة بتدوين الحوادث التي تجري في أيّامهم رغبةً منهم بمجاراة الممالك الأجنبية واستنكافاً[4] من التقصير عن الدرجة العالية التي رقي الشعوب الذين بنى العرب مملكتهم على أنقاض[5] تمدّنهم كالفرس والروم والمصريين وغيرهم ولكلّ من هذه الأمم تاريخ مجيد شهير يتباهون بهِ ويعدّدون مفاخرهُ.

---

(١) القرى والمباني من القصور والحصون.
(٢) المنافع.
(٣) منفردين في مكان دون آخر.
(٤) انفاً
(٥) جمع نقض بالفتح وهو المنقوض من الأبنية.

وأمّا العرب الذين سكنوا البقاع الخصيبة الملائمة للعمران وسعة الحضارة وأنشأوا الممالك كملوك حِمْيَر باليمن فقد خلّفوا ولا شك شيئاً من مثل تلك الآثار وقد كشف عن بعضها الاّ أنّ صعوبة الوصول الى بلاد العرب تمنع مواصلة التنقيب عمّا هنالك من الدفائن وتحول دون رغبة المولَعين بالبحث عن آثار السلف والحفر عن مخلّفاتهم فى مظانّها وإذا ضلّت سبل المواصلة تتمهّد شيئاً فشيئاً فالأمل معقود أن تُسفر[1] الحفريّات عن آثار تدلّ على مكان أصحابها من المدنيّة وتعين العلماء على إنشاء تاريخهم كما فعلوا بتاريخ الفراعنة وملوك بابل وغيرهم من الملوك الأقدمين.

ومؤرّخو العرب حريصون على سرد أنساب من يذكرون تاريخهم وهي عادة ورثوها عن أسلافهم في زمن بدواتهم فإنهم كانوا أحفظ خلق الله لأنسابهم وأوسعهم معرفة بأسماء قبائلهم على كثرتها يحفظون كلّ الأنساب إذ لم يكن لهم في جاهليتهم عصبيّة تجمعهم وتحملهم على التعاضد في وجه عدوٍ مجتاحٍ[2] سوى عصبيّة النسب. وقد استحكمت فيهم هذه العادة حتى أن كتبتهم يذكرون الأنساب في المواضع التي لا حاجة فيها اليها ككتب الأدب والأمثال وغيرها كما ترى في أمثال العرب للضبّيّ مثلاً. فإنه لا يشرع في شرح أصل المثل حتى يسلسل لك قائليه الى أجيالٍ متعدّدة فيؤدّي بالمطالع الى السأم[3] ويُدخل عليه التشويش أحياناً.

وممّا ينبغي إعتباره في مؤرخي العرب إنهم اقتصروا كلّهم مع كثرتهم على إيراد الحوادث مجرّدة من كلّ نظرٍ لهم فيها عاريةٍ من كلّ رأيٍ في سوابقها وتوابعها وصرفوا عنايتهم الى تدوين الوقائع المادّية كالولادة والوفاة والولاية والعزل والفتح غير ملتفتين الى تاريخ الأدبيات وعدم اهتمامهم في النظر والقياس استدرجهم الى تصديق الخرافات والمستحيلات فأثبتوها في حملة

---

(١) تكشف.
(٢) التعاضد التعاون واجتاحهم العدوّ اهلكهم.
(٣) الضجر.

الحقائق التاريخيّة وإذا أبى عقل بعضهم قبول هذه الروايات المنكرة ضنّت[١] أقلامهم بإسقاطها فأدرجوها في كتبهم متبرّئين من عهدتها. ولم تخل كتب اللغة نفسها من مثل تلك الأوهام المضحكة. وكان جلّ ما يتوخّونه[٢] إسناد الواقعة الى راوٍ أو رواة غير مهتمين بالبحث عن صحة روايته ومكانه من الثقة. فجاءت مؤلّفاتهم في التاريخ سجلّات أخبار ينسقونها باعتبار الطبقات أو السنين أو الدول خاليةً من كلّ تمحيص[٣] وانتقاد وتعليل لا يحييها روح الفلسفة. وعليه فإذا اعتبرنا التاريخ علم تعليل الحوادث وردّ المسبّبات الى أسبابها بالقياس الصحيح وحمل المتشابهات بعضها على بعض والإستدلال بالقرائن على خفايا الأمور وغوامض الأسباب ممّا اشتهر به مؤرخو الزمان حتى أنّ بعضهم تنبّأ على الوقائع المستقبلة وكان كما قال ـ إذا اعتبرنا التاريخ هكذا فأحرِ[٤] بمؤرخي العرب أن يُسمّوا إخباريّين لا مؤرّخين[٥].

وأمّا الجغرافية فمن العلوم المستحدثة عند العرب وكان الأجدر أن تذكر من ألّفوا فيها باب العلوم الدخيلة لولا شدّة علاقتها بالتاريخ.

وكان العرب في جاهليتهم يهتدون الى الأماكن برقب النجوم وهو أمرٌ سهل لقوم استوطنوا بلاداً صافية السماء جافّة الهواء يقضي المرء فيها ليلة مستلقياً[٦] على ظهره يرعى النجوم ريثما يغمض النعاس أجفانه. وإذا ظعن في طلب النجعة[٧] لم يتيسّر لهُ الجولان الّا في الليل خوفاً من توقّد الهواجر[٨]

---

(١) بخلت

(٢) محص الذهب طهرهُ وصفّاهُ.

(٣) يتعمدونهُ

(٤) صيغة تعجب بمعنى ما احرى اي ما اجدر.

(٥) يستثنى من هذا الحكم المؤرّخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة ١٤٠٥ مسيحية.

(٦) ملقى.

(٧) ظعن رحل والنجعة اسم من الانتجاع وهو طلب الكلاء في مواضعه

(٨) جمع هاجرة وهي نصف النهار

نهاراً. غير أنّه كان فيهم ولا شك من يعرفون المسالك ببلاد العرب وما جاورها معرفة حسنة لتسيير القوافل على ما هو مشهور عنهم منذ أقدم أزمنة التاريخ فإنّ قريش مثلاً وهي من أقوى قبائل العرب وأعظمهم شأناً كانت لهم تجارة واسعة وخبرة بالسبل الموافقة للسيّارات[١] في ذهابها الى الأقطار المجاورة وإيابها. فكانت هذه المعلومات تُتناقل فيها بينهم غير مدوّنة في الصحف.

ولّما جاء الإسلام جُعل الحجّ الى البيت الحرام فرضاً على المسلمين فكان لا بدّ لقاصدي مكة من معرفة الطرق المنازل فأصبحت جزيرة العرب بعد مدّة معروفة المسالك والمواطن فتقاطر الحجاج الى مسجد الكعبة من الآفاق. وسهّل الإهتداء الى الأماكن رحلة الأدباء الى البادية وبحثهم عن المواضع التي ورد لها ذكر في شعر العرب كما قلنا آنفاً. فدوّنوا أسماء المحالّ وعينوا مواقعها وذلك من قبيل الجغرافية المحليّة.

ثم لما توالت فتوح العرب وأوغلوا في الممالك الأجنبية وأخضعوها لسلطانهم اجتمع لدي أمراء الجيوش وأصحاب الدولة معلومات جمّة عن أحوال البلدان التي دانت لحكمهم من مواقعها وأقاليمها ومستغلاتها[٢] وطبائعها وسكانها وتخومها. وكلّ هذه التفاصيل لم يكن لهم بدّ من الوقوف عليها بغاية الدقّة لضبط شؤون القوم وجباية[٣] الخراج،

ومن الذين أضطروا الى معرفة البلاد بنوع خاص أصحاب البريد[٤] فقد كان للخليفة صاحب بريد في كل من أعمال المملكة مصلحته الجهريّة ايصال

---

(١) القوافل.

(٢) الاقاليم جمع اقليم وهو قسم من الارض يختص باسم ويتميز به كمصر والشام واليمن ويطلق على حالة الهواء فيقال بلاد حارة الاقليم وباردتهُ والمستغلّات ما يحصل من ريع الارض واجرتها ونحو ذلك.

(٣) جمع.

(٤) البريد الرسول ثم اطلق على خدمة خاصة يتولى القائم بها حمل رسائل السلطان الى عمالهِ وبالعكس.

الأخبار والكتب الى كرسيّ الخلافة ونقل أوامر الخليفة الى العامل الذي في ناحيته ومصلحته السريّة مراقبة سيرة العامل وكيفية قيامه بأعباء وظيفته. ومن جملة واجبات أصحاب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطّاع. فدعتهم مهنتهم الى تدوين ما يعرفون عن البلاد التي تمر بها البُرُد. وربّما فعلوا ذلك بإيعاز من لدن الخلفاء وزادوا على تعريف المسالك والمواقف والمسافات فوائد أُخر تهمّ الخليفة الإحاطة بها ويؤثرون تلقيها من أصحاب البريد لسعة اطلاعهم ولأنهم موضع ثقته وعيونه في الجهات.

ومع توفر الموادّ وغزارتها لم يكن أحدٌ ليستلمها ويرتّبها ويبوّبها ولو فعل أصحاب العلم والدراية لبلغوا بها درجة حسنة وجعلوها علماً واسعاً خاصاً بهم يرجع فضل وضعه إليهم وما كانوا عيالاً[1] فيه على غيرهم. وما كادت تُعرّب كتب اليونان ومن جملتها كتب الجغرافية حتى أسرع العرب الى ما لديهم من المُعدّات وأجالوا فيها يد الترتيب والتأليف ووضعوا المصنّفات في هذا العلم من موجز ومبسوط حذوا فيها حذو بطليموس في مؤلّفه وأبقوا إسم كتابه على أصله اليوناني « جغرافية » كما فعلوا بكتابه في علم الهيئة « المجسطي » وسمّوا العلم الذي يبحث عن مسائله في ذلك الكتاب بإسم الكتاب نفسه ممّا لم يفعلوه بعلم الهيئة.

وتوسّع العرب في الفن كما في غيره من الفنون التي اقتبسوها عن اليونان وسائر الأمم الأجنبية. وعانوا الأسفار براً وبحراً واطّلعوا بأنفسهم على ما دوّنه بطليموس في كتابه فأوضحوا ما استبهم عليه وصحّحوا ما وهم به وزادوا في مؤلّفاتهم نتيجة مباحثهم مما فات المؤلّف اليوناني ذكره ـ وهذا شأنهم في كل العلوم الدخيلة.

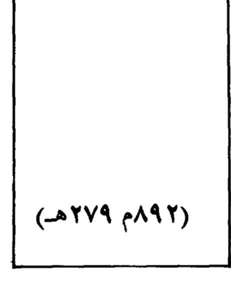
---

(١) اي مفتقرين الى غيرهم.

ومؤرّخو العرب وجغرافيوهم كثيرون جداً بحيث يضيق عن استيعابهم[1] نطاق هذا المختصر فسنقتصر على ذكر أشهرهم صيتاً عند العلماء والله وليّ التوفيق بمنّه وكرمِهِ.

---

(١) الاحاطة بهم.



البَلَاذُرِيّ

هو أبو الحسن أحمد بن يحي البغدادي المعروف بالبلاذري. كان من جلساء الخلفاء وألزمه المعتز إبنه عبد الله يُقرئه الأدب وحكى عن نفسه قال: كنت من جلساء المستعين وقد قصده الشعراء فقال: « ليس أقبل الاّ من الذي يقول مثل قول البحتريّ في المتوكّل ».

فلَو أن مشتاقاً تكلّف فوق ما في وسعهِ لسعى إليك المنبرُ

فرجعت الى داري وأتيتهُ وقلت « قد قلت فيك أحسن مما قال البحتريّ » فقال « هات » فأنشدتهُ:

فلو أنّ بُرد[1] المصطفى إذ لبستهُ يظنّ لظنّ البُرد إنك صاحبُهُ
وقال وقد أُعطيته ولبستهُ نعم هذهِ أعطافهُ ومناكبُهُ[2]

فأجازني بسبعة آلاف دينار وقال: « أدخّرها ولك عليّ الجراية والكفاية ما دمت حياً ».

وللبلاذريّ من التآليف « كتاب فتح الامصار » وهو كثير الفائدة ثقة مسند

---

(١) ثوب مخطط.

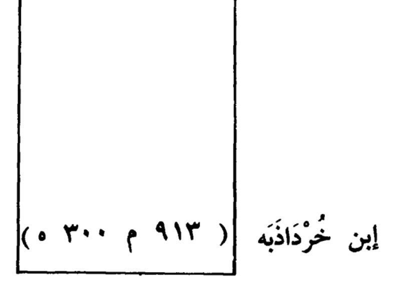
(٢) الاعطاف جمع عطف بالكسر وهو جانب الرجل من لدن راسه الى وركه وهما عطفان والمناكب جمع منكب بفتح فسكون فكسر وهو مجتمع راس الكتف بالعضد.

الروايات يرتاح اليه محبّو التدقيق. ولهُ أيضاً «أنساب الأشراف» وغير ذلك. ولُقّب أبو الحسن بالبلاذريّ لتناوله شيئاً كثيراً من البلاذر وهو ثمر يشبه الجوز مفرطح قليلاً يقولون أنّه يقوّي الذاكرة فأصابه من ذلك دَخَلٌ[١] في عقله ساقه الى المارستان وقضى نحبه ولم يُقبل[٢].

---

(١) فساد.

(٢) اي لم يرجع الى سابق عقلهِ.



إبن خُرْدَاذَبَه (٩١٣ م ٣٠٠ ه)

هو أبو القاسم عُبيد الله بن عبد الله. نشأ ببغداد وخالط أدباءها وكان على جانب عظيم من علوم عصرهِ ولهُ على ما قال المسعوديّ في مروج الذهب كتابٌ كبير في التاريخ من أجمع الكتب وأبرعها نظماً وأحواها لأخبار الأمم وملوكها. غير أنهُ لم يصل الى عهدنا من مؤلفات إبن خرداذبه سوى كتاب « المسالك والممالك » في الجغرافية دعتهُ الى وضعه المصلحة التي كان يتعاطاها إذ قلّد مصلحة البريد في العراق العجميّ. وقد ذكر فيه مسافات الطرق بغاية الضبط وعيّن مقادير الخراج على كل ناحية وكتابهُ هذا من المؤلفات المعوّل عليها في هذا الشأن.

الطَبَرِيّ (٩٢٣ م ٣١٠ ه)

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. وُلِدَ بآمل من أعمال طبرستان وطاف في عدّة بلاد واستوطن بغداد وبها وضع تآليفه. كان إماماً في فنون كثيرة منها الحديث والفقه والتاريخ وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ومصنّفاتهُ العديدة تدلّ على سعة معارفهِ وغزارة فضلِهِ. وانفرد في الفقه بمذهب خاصٍ ولم يقلّد أحداً من الأئمة الأربعة غير أنّه حبط[1] مسعاه ودرس اجتهاده واستهدف[2] لسهام الحنابلة وهم كثيرون في بغداد. ولهُ على مذهبه كتاب « تهذيب الآثار » ومن تآليفه الشهيرة كتاب « التفسير » قيل أنّه لمّا أراد وضعَهُ قال لأصحابه « أَتنشطون لتفسير القرآن » قالوا « كم يكون قدره » فقال: « ثلاثون ألف ورقة » فقالوا: « هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه » فاختصره في نحو ثلاثة ألف ورقة وفاق بحسن الإستنباط ودقّة التوجيه والترجيح جميع من تعاطوا فن التفسير قبلهُ.

لكن أشهر مصنّفات الطبريّ وأجلّها هو « تاريخ الأمم والملوك » يقع في إحد عشر مجلداً كبيراً جمع فيه ما وصلت إليه مباحثه من أخبار العالم من آدم الى سنة تسع وثلاثماية هجريّة ويقال أن هذا التاريخ على كبرهِ وسعة موادّه

(١) ذهب باطلاً.

(٢) جعل نفسهُ هدفاً وهو الغرض الذي يرمي.

هو مختصر مؤلّف آخر أحجم[1] تلامذته عن تدوينه واعترضوا عليه بنفس اعتراضهم على التفسير فقال « إنّا لله وإنّا إليهِ راجعون ماتت الهمم . . . » واضطرّ الى اختصاره في نحو ما اختصر التفسير. وهذا الكتاب من أوثق ما وضع في هذا الفن وقد التزم صاحبهُ فيه الإسناد المتسلسل كما في الحديث وهو آخر من فعل ذلك من مؤرخي العرب فجاء تاريخه حجّة في أخبار العرب يُرجع إليها ويُقطع بها عرق الشبه ومعدناً نفيساً لا ينفد معينه[2]. ويُروى أن الطبريّ كان من سعة العلم وغزارة المادّة وتدفّق العارضة بحيث كان يكتب أربعين ورقة كلّ يـومٍ على مدة أربعين سنة. . . .

---

(١) ضدّ اقدم .

(٢) المعين الماء الجاري على وجه الارض ونفد فرغ .

المَسْعُودِيّ (٩٥٤ م ٣٤٥ ه)

هو أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ نسبة الى عبد الله بن مسعود الصحابي. وُلِد ببغداد ونشأ بها ولمّا بلغ العشرين من عمرِهِ تاقت [١] نفسهُ الى الأسفار فأخذ يتقلّب في بلاد الله شرقاً وغرباً وعانى رحلة طويلة لا تقل أهميّة عن رِحَل مشاهير جوّابي [٢] الآفاق في عصرنا فطاف يجمع أخبار الأمم ويتعرف أحوالهم بلاد فارس والخزر والهند وثُبِّت وجزيرة سيلان ومنها أبحر الى جزيرة كمبالو وهي مدغسكر وقفل راجعاً الى بلاده عن طريق عُمان وقصد الأصقاع التي على شواطيء بحر قزبين وبلاد الروم وسوريّا وفلسطين ومصر والسودان وكان في آخر أمره يتنقّل بين مصر والشام وهو منقطع الى التأليف وتدوين ما رأى وسمع ويا ليته إكتفى بما رأى ولم يكتب الاّ عن معاينة وتثبت. وكان المسعوديّ حلو المحاضرة لطيف المعاشرة كثير النكات والنوادر حاوياً في صدره من الأخبار ما لا يوجد في الأسفار المدوّنة.

ولهُ تآليف جليلة أشهرها كتاب « مروج الذهب » أودعه لُمعاً من الأمم المعروفة لزمانه قديمها وحديثها وعدل في عرض كلامه عن دولة العرب الى

---

(١) مالت.

(٢) مبالغة من جاب البلاد اذا قطعها.

الوقائع المتنوّعة والغرائب المنشورة شأن المسامر[1] الفكه فمثّل أحوال المدنيّة الإسلاميّة ومعايش أهلها بنوعٍ واضح جليّ تلذّ المطالع الإحاطة بها وتنشط نفسهُ الى الإستزادة منها. وكانَ قد وضع سابقاً كتاباً كبيراً في ثلاثين مجلّداً سمّاه أخبار الزمان ثم اختصره وسمي المختصر « الكتاب الأوسط » ثم أراد إجمال ما بسطه واختصار ما وسطه فوضع « مروج الذهب » وهو الذي لم تصل اليه يد الضياع. ولهُ غير ما ذُكر من المؤلفات شيءٌ كثير في أغراض مختلفة وأكثر ذلك طوتهُ الأيّام وعفت[2] آثاره الاعوام.

(١) المحدّث ليلاً. (٢) محت.

أبو الفَرَجْ الأصْبَهانِيّ (٩٦٧ م ٣٥٦ ه)

هو أبو الفرج عليّ بن الحسين الأمويّ. وُلِدَ بأصبهان ونشأ ببغداد وكان من أعيان أُدبائها وأفراد مصنّفيها ولم يُر نظيرهُ في زمانه في حفظ الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث والسير والمغازي واللغة والنحو والخرافات مع إلمام بالطبّ والنجوم وغيرها ولهُ شعرٌ حسن يجمع إتقان العلماء وإغراب الظرفاء وكان فتّان المحادثة وآية في لطف المنادمة والمخادنة[1] لما وعى من الأدب النادر وحوى من آلة المنادمة كإتقان الغناء وعلم الجوارح والبيزرة[2] والبيطرة.

ولأبي الفرج تآليف غرّاء أسيرها ذكراً في الآفاق « كتاب الأغاني » في واحد وعشرين جزءاً وهو في عالم الأدب أشهر من نارٍ على علم. جمع فيه الأشعار التي تغنّى بها المغنّون وترجم قائلها وأورد الحوادث التي تشير اليها الوقائع التي تتصل بها قربت أو بعدت. وإذا اعتبرت أن الشعراء الذين تناول المغنّون بعض أبيات لهم ووقّعوها على آلاتهم هم ألوف مؤلفة من كلّ ملة ونحلة علمت المواد الفائقة العدّ المتنوّعة الأغراض التي وسعها هذا المؤلف النادر المثال فهو أشبه شيء بالبحر الزاخر مهما غاص الغائصون فيه يلتقطون الدرر

---

(١) المصادقة.

(٢) علم يبحث فيه عن احوال الجوارح من حيث حفظ صحتها وازالة مرضها ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد وضعفها.

العصماء فهيهات أن ينفد معينه وهو المستودع الوحيد لكثيرٍ من أخبار الجاهليّة والمئات الثلاث الأول للإسلام ولولاه لم نقف لها على أثر. ويُقال أنّ أبا الفرج جمعهُ في خمسين سنة وحمله الى سيف الدولة صاحب حلب فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وحسناً صنع فإنّ سيف الدولة لو كان أعلم وأبصر من أن يفوته عجز الإنسان عن مكافأة صاحب تصنيف كهذا ولو بذل لهُ من نفائس الأعلاق(١) أضعافاً مضاعفة.

وحُكى عن الصاحب بن عبّاد الأمير الكاتب الشهير انه كان يستصحب في أسفاره وتنقلاته حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها فلمّا وصل إليه كتاب الأغاني استغنى بهِ عنها جميعاً. ونما صيت أبي الفرج الى ملوك بني أُمية بالأندلس وهم أنسباؤُهُ فتقدموا إليه بتصنيف عدّة كتب برسمهم ففعل وسيّرها إليهم سراً وجاءه الأنعام خفيه. وتآليف أبي الفرج كثيرة. ولهُ شعرٌ حسن مرّ بك منه بيتان في هجاء السيرافي النحويّ ومن شعره قولُهُ في الوزير المهلبيّ وكان منقطعاً إليه ولهُ فيه مدائح.

ولمّا انتجعنا لائذين بظلّهِ ... أَعان وما عنى ومنّ وما مَنّا(٢)
وردنا عليه مُقترين فراشنا ... ورُدنا نداهُ مُجدبين فأخصبنا(٣)

---

(١) جمع علق بالكسر وهو الثمين من كل شيء.

(٢) انتجع الرجل طلب الكلأ في مواضعهِ ولاذ بظلهِ التجأ الى حمايتهِ وعنّى زيد عمراً ضيق عليه ومنّ الأولى بمعنى اعطى ومن الثانية بمعنى عدّد للمنعم عليه نعمهُ ومواهبهُ على سبيل التوبيخ.

(٣) المقتر المحتاج وراش الاميرفلاناً اولاهُ خيراً واعانهُ معاشه وردنا طلبنا ونداهُ كرمهُ

الإِصْطَخْرِيّ (القرن العاشر)

هو أبو إسحاق الاصطخري. وُلِد ونشأ بإصطخر وعُني بالأخبار عن البلاد وما يتعلّق بها وسوّل[1] لهُ ولوعهُ بالوقوف على أحوال البلدان معاناة الرَحَل ليرى عيناً ما سمعه عن أقطار الدنيا وعجائبها. فخرج من بلدهِ سنة ٩٥١ ميلاديّة وضرب في مناكب الأرض شرقاً وغرباً فطاف البلاد الإسلامية مبتدئاً من بلاد العرب الى الهند الى الأوقيانوس الأتلنتيكي فشاهد من بلاد الله شيئاً كثيراً ووصفها في مصنَّفاته على ما رآها وما لم يره عوّل في صفته على كتاب بطليموس أو رواية أهل البلاد فجاء ما كتبه في هذا الشأن جامعاً بين الفائدة واللذة إذ قد ذكر ما وصلت إليه معرفته من الكُور[2] والمدن والقرى وعيّن مواقعها والمسافات بينها وخصائص المواضع الممتازة بخاصّية تُذكر. واعتمد في التقسيم على الأقاليم السبعة آخذاً عن بطليموس في جغرافيته. والإصطخري مقدّم جغرافيي العرب وحذا حذوه كل من جاء بعده منهم مع أنه استفاد كثيراً مما كتبه جغرافيّ عربيّ يعرف بأبي زيد البلحي واسم كتابه « صور الأقاليم » ضمنه خرائط جغرافية متعدّدة.

وللإصطخري من التصانيف « كتاب الهواء » و « كتاب الأقاليم » و « كتاب المسالك والممالك » وهو أشهرها وأكثرها أهمية.

(١) زين له وسهل

(٢) جمع كورة وهي القسم من البلاد يجمع عدة مدن وقرى.

إبنُ حَوْقَل (٩٨١م ٣٨٠هـ)

هو أبو القاسم محمد بن حوقل الموصليّ، تعاطى التجارة ثم مالت نفسهُ الى السياحة فهبّ من بغداد يجوس أصقاع المملكة الاسلامية فطاف بلاد الجزيرة والعراق وفارس والشـام ومصر والمغرب والبربر والأندلس وأبحر الى صقلية. وله في وصف كلّ ما رأى كلام مطوّل في كتاب سمّاهُ « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » غير أنهُ لم يُعنَ بتّة في الضبط والتحقيق ولم يتحرّ الصحّة في تعيين العروض الجغرافية ومواقع المدن فهو مضعّف عند أرباب هذا الشأن غير ثقة وكتابُهُ كتاب فكاهة ولذّة لا كتاب علم وتدقيق وفائدة. وقد اقتبس شيئاً كثيراً عن أبن خرداذبه والأصطخري وزيّن كتابُهُ بالخرائط.

إبنُ النّديم (٣٨٦هـ ٩٩٦م)

هو أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب النديم المعروف بالورّاق البغدادي. لهُ كتاب شهير فريد في بابه يُعرف «بالفهرست» ويُسمّى أيضاً «فوز العلوم» وهو كما يدل عليه اسمه جدولٌ لكتب العلوم والفنون المعروفة لزمانه سواءٌ كانت عربية الوضع أو معربة عن تصانيف علماء اليونان والفرس والهند وغيرهم ممن اقتبس العرب عنهم العلوم وقد أضاف فوائد تاريخية جليلة ساقها في طريق قلمه موضوع كلامه. وكثير من المؤلفات التي ذكرها إبن النديم في فهرسته ضاعت ولا تعرف الا بأسمائها التي أثبتها المؤلف في كتابه هذا الذي يدلّ على رواج سوق العلوم عند العرب مع قرب عهد مملكتهم من النشوء إذ ما هي إلا ثلاث مئات أو أربع في عمر دولة بالنسبة الى عمر إنسان.

وهذه المؤلّفات الضائعة الشاهدة لأربابها بالاستبحار في المعارف والسبق في حلبة المدنيّة عنوان على همجيّة أولئك الأقوام الذين اكتسحوا بغداد أمّ المدائن وجعلوا من كتبها جسراً على دجلة مرّوا عليه مشاةً وركباناً وما زالت الحرب سجالاً[1] بين النور والظلمة في هذا الحياة الدنيا ولن تزال كذلك في العوالم

---

(١) الحرب السجال هي التي تكون تارة لك وتارة عليك.

المختلفة الى يوم استعلاء النور السرمديّ وظهوره على دياجير[1] كلّ شرّ.

وكم من مرّة رُزئت الآداب العربية بمثل رزيئة بغداد.

ومع شهرة الفهرست لا يعرف من أخبار مؤلفه الا أقل من القليل.

---

(1) جمع ديجور وهو الظلمة

البِيرونيّ (١٠٤٩م ٤٤٠هـ)

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني. وُلِد ببيرون من أعمال خوارزم وكلف من صباه بالعلوم فأكبّ على تحصيلها إكباب ذي العزيمة الثابتة فأتقنها على اختلاف أنواعها وتبحّر في الرياضيات حتى أصبح نسيج وحده في الاحاطة بها واستقراء دقائقها وتضلّع من الهيئة والطبّ والتاريخ والفلسفة وجرت بينهُ وبين الشيخ الرئيس مكاتبات ومناظرات ولم يكن لهُ نظير في علوم الأوائل. ولمّا كان واقفاً على دخائل اليونان رغب في الإستزادة من علوم الهند فقصد بلادهم وأقام فيها عدّة سنوات وأخذ عن حكمائها فنونهم وعلّمهم طرائق اليونانيين في فلسفتهم. وانقطع بعد عودته الى خدمة سلاطين غزنة ووضع بإيعاز منهم تآليف متعدّدة.

وله مصنّفات كثيرة متقنة محكمة غاية الاحكام وزعموا أن الكتب التي وضعها ينوء[1] بحملها بعير هذه ولا شك إشارة الى قوة عارضته وغزارة مادّته وتدفّق معين العلم على قلمه واستيعاب تصانيفه شوارد كل فنّ يؤلف فيه. فمن مؤلفاته «الآثار الباقية عن القرون الخالية» في النجوم والتواريخ و «تاريخ الهند» أحسن فيه الوصف واعتمد الأخبار الصحيحة و «القانون المسعوديّ» وهو مُطوّل في الهيئة ضمّنه فوائد جغرافية وتاريخية وألّفه برسم السلطان مسعود بن محمود بن سُبُكتكين الغزنويّ. وغير ذلك من المؤلّفات النفيسة

---

(١) ناء بالحمل به بجهد ومشقة.

المَقْدِسيّ

(١٠٥٦م ٤٤٨هـ)

هو أبو عبد الله محمّد بن أحمد المقدسي ويقال المُقدسيّ. وُلد ببيت المقدس وتخصص بالبحث عن أحوال البلدان فطاف أصقاع المملكة الإسلامية ونظر في طبائعها وخصائصها نظر الجغرافيّ المحقق الآخذ على نفسه عهدة الضبط والتدقيق في تقدير مساحة البلاد التي يذكرها وتخطيط مواقعها وكأنه ورث مزيّة التحقيق عن جدّه أبي بكر البنّاء الرياضي المهندس مبتني ميناء عكّا الحصين في زمانه على ما روى المقدسيّ نفسه في كتابه.

ولمّا فرغ من سياحته أخذ في وضع كتابه المترجم «بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ذكر فيه بعد ما جال ودخل الأقاليم وتفطّن مساحتها بالفراسخ[1] واستعان على ما لم يشاهده بالفحص عنه من الناس فما وقع عليه اتفاقهم أثبته وما إختلفوا فيه نبذه[2]. وليس في هذا القول مبالغة ولا دعوى شأن كثير من المؤرخين والجغرافيين سواه فانّ الزلات والمزاعم التي سبق إليها قلمُه لا تكاد تُذكر في جنب الحسنات والحقائق الراهنة التي عوّل عليها في مؤلّفه. ولم يتناول وصف الأندلس والهند وبعض الأطراف استنكافاً من الكلام

---

(١) جمع فرسخ وهو ثلاثة اميال عربية.

(٢) طرحهُ.

على السمع دون النظر واستعاض عن ذلك بوصف مشبع لبلاد الشام مسقط رأسه. ويا ليت الذين جاءوا بعده من متعاطي فنّه جروا على منهاجه وآثروا تدوين الحقائق على تزيين المهارق[1].

---

(١) جمع مهرق بضم فسكون ففتح وهو الصحيفة

الإِدْرِيسيّ (١١٨٠م ٥٧٥هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالشريف الأدريسي من الأدارسة العلويين ملوك المغرب الأقصى[١]. وُلد بسبتة ودخل الأندلس وهو حديث السنّ فتخرّج في قرطبة دار العلوم العربية في ذلك العهد وبرع في العلوم الرياضية والأدبيّة وأولع بمعرفة البلدان فأخذ في السياحة ليرى بنفسه ما سمع عن أقطار المعمور ويتحقّق صفتها شأن العالم المدقّق فجاب بلاد الروم واليونان ومصر ومراكش وفرنسا وبريطانيا. وترامى ذكره في الآفاق وعرف الناس فضله فدعاه روجار الثاني الى صقلية فلبّى طلبه وقدم إليه فقابله الملك بالاعزاز والايناس وتحفى به فطابت له الاقامة واقترح عليه روجار تدوين معارفه الجغرافيّة فأجابه الادريسي الى طلبه واصطنع كرة من فضة عليها أقاليم الأرض وبحورها على ما اتصلت إليه معرفة القوم يومئذ وشرح ما خطّطه على الكرة في كتاب سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو كتابٌ مستوعب لأطراف فنّ الجغرافية متقن التأليف على قدر ما يتسنّى لكتبة تلك العصور. وقد أضاف الى معلوماته الخاصّة ما دوّن جغرافيّو العرب أسلافُهُ في مصنّفاتهم.

---

(١) ملكوا من سنة ٧٨٥ ـ ٩١٩م

أُسَامَة (١١٨٩م ٥٨٤هـ)

هو أبو المظفّر أُسامة بن مرشد من بني منقذ الملقّب مؤيد الدّولة ومجد الدين . وُلد بقلعة شيزر على النهر العاصي من برّ الشام وكانت تلك القلعة تشتمل على كورة تملّكها بنو منقذ على يد جدّ أُسامة وتوارثها أعقابه مائة سنة ونيفاً[١] وكان أسامة من أفراد أمراء بني منقذ وأماثلهم معروفاً بالشجاعة والإقدام والفروسيّة والعلم والأدب وله تصانيف عديدة تشهد له بالفضل والتقدم فكان جامعاً بين الفخرين متناولاً كلا الطرفين السيف والقلم.

وجرت وحشةٌ بينه وبين عمّه عز الدين فاضطر الى مفارقة شيزر وأتى دمشق ونزل على شهاب الدين محمود مدّة ثم نبتْ به الدار كما تنبو بالكريم ودبّت عقارب السعاية اليه عند صاحب ضيافته فانتقل الى مصر وبقي بها مؤمراً مشاراً اليه بالتعظيم يقضي معظم أوقاته متصيداً متفرغاً للفروسية والأدب الى أيام الصالح بن رُزيك ففارق مصر وعاد الى دمشق وكان قد غمس يده في فتنة آلت الى قتل الخليفة الفاطميّ إسماعيل الظافر على ما يقولون وأقام بدمشق مدّة حجّ في اثنائها وخرج مع عسكر الأمير نور الدين بن عماد الدين الزنكي لمقاتلة الفرنج الصليبيّين أنصار المصريين يومئذ ثم رماه

---

(١) من سنة ١٠٨٢ ـ ١١٩٧م اذ هدمتها زلزلةٌ شديدة ومات كل من كان فيها من بني منقذ وغيرهم تحت الردم.

الزمان الى حصر كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين بدمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمـانين ولم يفارق دمشق الى وفاته ولأسامة من التآليف كتاب « الإعتبار » وهو سيرة نفسه دوّن فيها وقائع حياته وماجريّات أيّامه بعبارة جنديّ صريح المقال سديد الرأي لا يعرف للتكليف معنى يكتب ما تملي عليه فطرته الحرّة فكان أوّل من ترجم نفسه عند العرب. ولهُ « كتاب البديع » في علوم الشعر جمع فيه ما تفرّق في كتب العلماء في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه وزاد على ذلك ما وقف عليه هو نفسهُ. ولهُ شعر عذب اللفظ منسجم المعنى شديد الأسر ينظر الى شعر فارسين شهيرين قبله قالا الشعر عن وحي السليقة وهما عنترة العبسيّ وأبـو فراس الحمداني. فمن ذلك قولهُ جواباً عن أبيات بعث بها إليه أبوه:

ومـا أشكـو تلوُّن أهـل ودّي	ولو أَجْدت[1] شكيتهم شكـوتُ
مللتُ عتـابهـم ويئسـت منهـم	فما أرجـوهم فيـمن رجـوتُ
إذا أَدْمـت قـوارضهـم فـؤادي	كظَمتُ على أَذاهم وانْطويتُ[2]
ورحـتُ عليـهم طـلق المُحيّـا	كأني مـا سمعـت ولا رأيتُ
تجنّـوا لي ذنـوبـاً ما جَنَتهـا	يَـداي ولا أَمـرتُ ولا نهيتُ
ولا والله مـا أَضمـرتُ غـدراً	كـما قـد أَظهـروه ولا نـويتُ
ويـوم الحشـر مـوعـدنـا وتبـدو	صحيفـة ما جنـوه ومـا جنيت

ومن شعره قوله ملغزاً في ضرس قلعه:

وصـاحـبٍ لا أمـلُّ صحبتـهُ	يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا	لنـاظـري افتـرقنـا فـرقـة الأبـد

ومن قوله يصف ضعفه:

أعجب لضعف يدي عن حملها قلماً	من بعد حطم القنا في لبة الأسد[3]

---

(١) افادت
(٢) القوارض اللواذع وكظم على غيظه ردّهُ وصبر عليهِ.
(٣) اللبة اعلى الصدر.

يَاقوت (١٢٢٩م ٦٢٦هـ)

هو شهاب الدين أبو عبد الله الروميّ. وُلِدَ ببلاد الروم وأُسر وهو صغير على أثر غزاة المسلمين في بلده وابتاعه ببغداد رجلٌ حمويُّ الأصل يتعاطى التجارة فنُسب اليه وعُرف بياقوت الحمويّ. وجعله مولاهُ في الكتّاب لينتفع به في ضبط تجائره لأنه كان لا يحسن الخطّ ولا يعلم سوى التجارة فقرأ الصبي شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار في متاجره فكان يتردّد الى كيش وعُمان وتلك النواحي ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة[1] أوجبت عتقه فانفصل عنه واشتغل بالنسخ بالأجرة وأقبل على المطالعة اضطراراً بمهنته واختياراً لو لوعة بالعلم فحصّل فوائد كثيرة ومعارف واسعة كانت لهُ معدناً ثميناً لتأليف الكتب الشهيرة التي وضعها عند سنوح الفرصة ومسالمة الدهر.

ثم لوى[2] مولاه عليه بعد مدّة وأعطاه شيئاً وسفّره الى كيش فتاجر وعاد فإذا صاحبه قد مات فأعطى أولادهُ وزوجته ما أرضاهم به وبقيت بيده بقيّة جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته الكتب واتّفق أن وقع في حوزته بعض مؤلفات الخوارج فاشتبك في ذهنه من مذهبهم طرف قويّ فلمّا ورد دمشق قعد يوماً في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصّب للطالبيين وأدّى به الجدال الى ذكر عليّ بما لا يسوغ[3] فثار الناس عليه وكادوا يقتلونه

(١) جفاء ووحشة.
(٢) يجوز (٣) مال.

ففرّ منهزماً بعد ان بلغت القضية الى والي البلد فطلبه فلم يظفر به ووصل الى حلب خائفاً مترقّباً وخرج عنها الى الموصل ثم انتقل الى إربل وسلك منها الى خراسان وتحامى دخول بغداد لأن المناظر لهُ بدمشق كان بغدادياً فخشي أن ينقل قوله الى مواطنيه فيقتلوه فأقام بخراسان يتّجر ببلادها واستوطن مدينة مرو مدّة وخرج عنها الى نسا ومضى الى خوارزم وصادفه وهو فيها خروج التتر واكتساحهم تلك البلاد فغشيه[1] من الهول ما لا يوصف وانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه[2] وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما كان يكلّ عن شرحه إذا ذكره. ووصل الى الموصل وقد تقطعت به الأسباب وأعوزه دنيّ المآكل وخشنى الثياب فكتب الى إبن القفطيّ وزير صاحب حلب رسالة ضافية الأذيال مشبعة الفصول يصف فيها حاله ويذكر الواقعة التي جرت بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه. فدعاه إبن القفطيّ الى حلب وجبر ما تصدّع[3] من شأنه ومدّ لهُ يدَ المساعدة في الأمور الماديّة والأدبية فإطمأن باله وعاد فتفرّغ للعلم والتأليف الى وفاته.

ولهُ مؤلفات عديدة نفيسة تفصح كلّها عن رسوخ قدم وطول باع في أنواع العلوم ومن أشهرها وأعظمها « معجم البلدان » في الجغرافية وهو بحر زاخر أحاط بأسماء البلاد وما إليها من خصائص الجغرافية وذكر بعد كل مدينةٍ من ينسب إليها من العلماء وما قيل فيها من شعر أو ورد ذكرها فيه فجمع في كتابه بين الجغرافية والتاريخ والأدب ولهُ مختصر لهذا المطّول سمّاه « مراصد الاطّلاع » على أسماء الأمكنة والبقاع. ولهُ في الفنّ نفسه كتاب « المشترك

(١) حل به.

(٢) يوم الحشر يوم القيامة والرمس القبر.

(٣) تشقق.

وضعاً والمفترق صُقْعاً » وهو فرع خاصّ من الجغرافية يَبحث في الأماكن التي لها أسمٌ واحد مشترك فيما بينها مع تفرّقها في أنحاء المعمور كالرصافة مثلاً والرّمادة[1].

ولهُ في التاريخ « معجم الأدباء » و « أخبار الشعراء القدماء والمتأخرين » وكتاب « المبدأ والمآل » وكتاب « الدُّوَل » وغير ذلك. وياقوت هو خاتمة مشاهير جغرافِيِّي العرب.

---

(١) الرصافة علم لعدة مواضع منها رصافة ابي العباس بالانبار ورصافة البصرة ورصافة بغداد ورصافة الحجاز ورصافة الشام ورصافة قرطبة ورصافة الكوفة ورصافة نيسابور ورصافة واسط. والرمادة علم لعدة مواضع أيضاً منها بلدة بين برقة والاسكندرية وبلدة في منتصف الطريق بين البصرة ومكة ومنها قرية في نواحي نيسابور ومنها محلة كبيرة في ظاهر حلب ومنها قرية من قرى بلخ وغير ذلك.

إبن الأثير (١٢٣٣م ٦٣٠هـ)

هو عزّ الدين أبو الحسن عليّ بن محمد الشيباني المعروف بإبن الأثير الجَزري وهو أخو إبني الأثير المارّ ذكرهما. وُلِدَ بجزيرة أبن عُمر ونشأ بها ثم سار الى الموصل مع والده وأخويه وتخرّج على علمائها وقدم بغداد مراراً حاجاً ورسولاً من صاحب الموصل وسمع بها جهابذة العلوم الدينية والأدبية ورحل الى الشام والقدس وخالط من هنالك من الأفاضل ثم عاد الى الموصل ولزم بيته منقطعاً الى النظر في العلم والتصنيف. وكان بيته مجمع أهل الفضل ومحطّ رحال الواردين على الموصل من أرباب العرفان يُقرّون لهُ بالإمامة في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق بِهِ الوقوف على التواريخ المتقدمة والمتأخرة والخبرة بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ولهُ في هذه الفنون مصنّفات.

فمن أشهرها وأكبرها كتاب « أُسد الغابة » في معرفة الصحابة ذكر فيه سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة واستقصى أسماء الصحابة الذين دوّن تراجمهم من سبقه من المؤلفين واستدرك عليهم ومؤلفه هذا رأس الكتب التي وُضعت في هذا المعنى وأكثرها استيعاباً لأخبار أصحاب النبيّ ولهُ « كتاب الكامل » في التاريخ إبتدأ فيه من أوّل الزمان الى سنة ٦٢٨ هجرية ولهُ مختصر كتاب الأنساب للسمعاني إستدرك عليه فيه وزاد أشياء أهملها ونبّه على مواضع الغلط.

وذكر إبن خلكان إنه اجتمع به بحلب فوجده رجلاً مكمّلاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع وتردّد عليه كثيراً وهو يلقي منهُ المبالغة في الرعاية والإكرام والإيناس.

إبن أَبي أُصَيْبِعَة (١٢٦٩م ٦٦٨هـ)

هو موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي المعروف بإبن أبي أُصيبعة. وُلِدَ بدمشق وكان أبوه طبيباً كحّالاً في خدمة صاحب دمشق وعمّه رئيس المستشفى لأمراض العيون فتخرّج عليهما في الطبّ واقتبس الآداب والحكمة عن أفاضل الشام ثم قصد مصر للإستزادة من الطبّ فتعرّف هنالك بإبن البيطار النباتيّ الشهير وتمكنت بينهما الصداقة وكانا يخرجان معاً الى بادية الشام في طلب الأعشاب والنبات واتّصلت أُلفتهُ أيضاً بعبد اللطيف الطبيب البغدادي. وعيّنه صلاح الدين طبيباً للمستشفى الذي ابتناهُ بالقاهرة سنة ١٢٣٦ مسيحيّة وكان إذ ذاك قد رجع الى وطنه وقُلّد رئاسة الأطباء في المستشفى فلبىّ أمر السلطان صلاح الدين وقدم الى مصر غير أنه لم يلبث سوى سنة واحدة وقفل راجعاً الى الشام وانتقل الى صلخد على مقربة من دمشق وخدم الأمير عزّ الدين أيدمر وما زال يتردّد بين البلدتين الى وفاته.

ولإبن أبي أُصيبعة مؤلّف شهير سمّاه «عيون الأنباء» في طبقات الأطباء وهو كتابٌ مبسوط استقصى فيه تاريخ الطبّ والأطبّاء على اختلاف أجناسهم من هنود وفرس ويونان ورتّب تصنيفه هذا ترتيباً جغرافياً أي أنّه ذكر أصحاب التراجم بحسب الأقاليم التي وُلدوا فيها ومصنّفه هذا من أجلّ الكتب وأنفعها للوقوف على تاريخ الطبّ من إبتداء زمانه الى أيّام المؤلف.

إبن خَلِّكان (١٢٨٣م ٦٨١هـ)

هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم المعروف بابن خلّكان نسبة الى جدّ جدّه. وُلد بإربل وقرأ العلم على أبيه وسمع جماعة من أهل الفضل وأتقن الفقه وكان شافعي المذهب ثم دخل بلاد الشام فورد حلب وأقام فيها مدّة طويلة وانتقل الى دمشق ثم قصد مصر فدخل الإسكندرية وخرج منها الى القاهرة. وتقلّب إبن خلّكان في القضاء بين ولاية وعزل عدّة مرار. فأنيب في أول الأمر عن قاضي القضاة يوسف بن الحسن ودُعي الى دمشق فَوُلّي قضاء القضاة وظلّ إمام الفقهاء من المذاهب الأربعة خمس سنوات ولمّا استقلّ أصحاب كل مذهب بأنفسهم بأمر السلطان بيبرس لم يعد لإبن خلّكان سوى قضاء الشافعية ثم عزل بعد مدّة وابن الصائغ. ثم أعيد الى الحكم بعد سنين ثم أعيد إبن الصائغ. وولي التدريس في عدّة مدارس لم تجتمع لغيره ثم أخذ الدهر يسلبه شيئاً فشيئاً ما أناله دفعة واحدة حتى لم يبق معه في آخر وقته سوى المدرسة الأمينية وكان له إبن يدرّس بالمدرسة التجيبية فيتعاونان على الدهر بتحصيل الكفاف بعد ان كانت وظائف الوالد وحدهُ كافية لتبوّئه[1] مُبوّأ الرفعة في عصابة أصحاب الجاه والسعة والنعمة.

وكان إبن خلّكان من الأئمة الفضلاء والسادة العلماء والصدور الرؤساء

---

(١) بوأه الكوسيّ رفعه عليه.

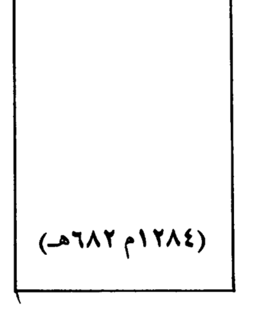
وله نظم حسن رائق ومحاضراته غاية في الافتتان والافتـان[1] ولهُ مؤلّف شهير في التراجم سّماه « وفيات الأعيان » وهو معجمٌ مطوّل ذكر فيه أخبار كثيرين من الملوك والعلماء والشعراء وكل من اشتهر بأمر من الرجال والنساء ممن ظهروا بعد المئة الأولى من الهجرة الى منتصف المئة السابعة منها وهو كتاب غزير المادّة تحرَّى[2] صاحبه فيه الضبط والتدقيق في الرواية وقيّد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفهُ[3] وهي طريقة جديرة بالثناء الوافر وحبّذا لو اقتدى به كتبة العربيّة على اختلاف أغراضهم فكفوا المطالع مؤونة البحث والتنقيب عن كيفيّة التلفظ بأكثر الأعلام التي لا يجمعها قياس ولا تنطوي تحت ضابط. وقد ذيّل كثيرون تاريخ إبن خلّكان وأشهرهم محمد بن شاكر الكتبيّ المتوفي سنة ٧٦٤ هجريّة وَسَمَ ذيله « بفوات الوفيات » غير أنّه ضاق ذرعاً عن مجاراة إبن خلّكان فقصّر في تراجمٍ كثيرة عن شأوِ سابقه ولم يُعنَ بالتحقيق والتدقيق فجاء كتابه أحط درجة وأقلّ فائدة.

---

(١) اي انه كان يفتن عقول سامعيه بفنون كلامه

(٢) تعمد الاحرى اي الاليق.

(٣) صحف الكلمة اخطأ قراءتها بتغيير حرف او حركة.



القَزْوينيّ

هو أبو يحي زكَريا بن محمّد القزويني ويتصل نسبه بمالك بن أنس. كان إماماً فاضلاً وفقيهاً عالماً أتقن فنون العربية وتبحّر في الآداب الدينيّة واستقضاه المستعصم آخر خلفاء بني العبّاس في العراق على واسط والحلّة. وتعّرف بدمشق بإبن العربيّ الصوفيّ الشهير وكانت بينهما صداقة أكيدة.

وللقزويني من المؤلّفات « عجائب المخلوقات » في وصف الكون جمع فيه الغثّ[١] والسمين من الآراء والأخبار ولهُ « آثار البلاد » في الجغرافية والتاريخ ويقال فيه ما قيل في سابقه.

---

(١) الضعيف

إبن العِبرِيّ (١٢٨٦م ٦٧٥هـ)

هو أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون المَلَطي. المعروف بإبن العبريّ. قيل أن أباه كان يهودياً وتنصر فلُقب ابنه بإبن العبري. وُلدَ بملطية ونشأ ذكيا حادّ الذهن نبيه الفؤاد ماضي الفكر فاهتم أبوه بتربيته وصرف عنايته الى تثقيفه فأقرأه هو نفسه الطبّ واستعان بمشاهير أطبّاء زمانه ومهّد لهُ سبل الإقتباس والتضلّع من سائر العلوم وفنون الآداب فأتقنها الفتى ورسخت قدمه فيها وتخصّص بعلوم الدين فبرع وبرّز وكان يحسن من اللغات السريانيّة والعربيّة واليونانيّة.

وتوالت الضربات والمخاوف على ملطية على أثر حروب طحنة دارت رحاها هنالك بين المسلمين والروم وما عتّم[١] المغول أن انقصوا بخيلهم ورجلهم[٢] على تلك البلاد المسكينة فقتلوا ونهبوا وسبوا ودمّروا[٣] الديار تدميراً. فلاذ أهرون الطبيب وابنهُ بالفرار ونجوا بأنفسهما الى إنطاكية. وكأن تلك الويلات الهائلة والوقائع التي تشيب لها الأطفال وقعت في قلب الشابّ الأديب موقع العبرة فاتخذها موعظة لنفسه فزهد في الدنيا وعافت[٤] نفسه

(١) ابطأ.
(٢) اندفعوا بفرسانهم ومشاتهم.
(٣) خربوا.
(٤) كرهت.

أباطيلها وآثر[1] حياة النسّاك وإنقطاعهم الى الحقّ سبحانه فنهج طريقتهم واعتزل في مغارة منفردة متجرداً للصلاة والصوم آخذاً نفسه باقتناء الفضائل والسعي وراء الخيرات السماوية الدائمة.

غير أنّهُ لمّا كان صاحب الفضل والكمال كبائع المسك ينمّ عليه ما عُني بتحصيله وكتمانه لم تخف مكانته على بطريرك ملّته فشمله بعنايته وشرّفه بإعزازِهِ ورقّاه وهو في العشرين من سنِهِ الى درجة الأسقفية بعدما أوعز عليه بالشخوص الى طرابلس ليتم قراءة البيان والطب. فعهد إليه أوّلاً رعاية أبرشية جوباس ثم نقله الى لاقبين. وتُوفي البطريرك فكان نصيب غريغوريوس من خلفه توليته أسقفية حلب جزاءً لهُ على نصرته إياه على مناظرة ثم أتمّ عليه نعمته فانتخبه مفرياناً[2] وفسح له مجالاً واسعاً لعمل الخير واستثمار كنوز غيرته وعلمه. وحظي عند هولاكو ملك المغول بفضله وكمال وحسن تدبيره فأجلهُ ورفع قدره وأطلق يده فاستعان بحريته وحظوته لفائدة رعاياه فقام بمهام رتبته خير قيام وخلّف من الأثار الجليلة ما ينطق بهمته ويخلّد لهُ الذكر الحميد أبد الدهر.

وكان أبو الفرج مع سعة علومه اللاهوتية واستنار بصيرته يعقوبيّ المذهب يقول في السيّد المسيح بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وهي بدعة[3] قديمة في الشرق استدرج اليها أوطيخا إذ هبّ يدحض بدعة نسطوريوس القائل بأقنومين في إبن الله المتأنس فتهوّر هو أيضاً في الضلال وسقط بسقوطه قومٌ

---

(١) فضل.

(٢) رئيس اساقفة

(٣) مقالة مستحدثة في الدين مخالفة للحقيقة.

كثيرون فكان مذهبه ومذهب خصمه على طرفي نقيض والحقّ المنير وسط بينهما
وهو بعيد عن الإفراط بُعدهُ عن التفريط[1]

ولإبن العبريّ مؤلفات كثيرة في السريانية تشهد لواضعها بانفساح الذرع وبعد الغور في الفنون التي انتدب نفسه للتأليف فيها. ولهُ في العربيّة كتاب « مختصر الدُّول » في التاريخ وضعه تلبية لمقترح أحد أفاضل العرب رغب إليه تعريب التاريخ الذي كان قد وضعه بالسريانية فلخّص منهُ هذا المختصر وأضاف إليه تفاصيل لم تكن في المطّول السرياني ولا سيّما فيما يتعلّق بدولتي المسلمين والمغول وفسح فيه جانباً حسناً لأخبار الأطبّاء والرياضيّين وكان تصنيفه لهذا الكتاب العربيّ قُبيل وفاتهِ.

---

(١) الافراط تجاوز الحد والتفريط والتقصير عنهُ.

العلماء

قضى العرب حِقبة[١] من الدهر طويلة في صدر دولتهم وهممهم منصرفةٌ الى توسيع نطاق ملكهم وتوطيد[٢] دعائمه وتدبير شؤون رعاياهم على تعدُّدها وتنوعها. فكان لهم من ذلك شغلٌ شاغل عن التفرغ للعلوم والصنائع ولم يكونوا ليلتفتوا الى علم سوى ما اعتادوه في جاهيلتهم من إتقان لغتهم والتوسّع في أدبيّاتها والولوع بنظم الأشعار إلقاء الخطب لِما أُوتوا من قوّة ملكة البيان وسرعة الخاطر وذرابة[٣] اللسان. وكانت لهم معرفةٌ بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وخبرةٌ بأنواء[٤] الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة استظهاراً على المعاش لا عن طريق تعلُّم الحقائق. وازداد بعد الإسلام حرصهم على إحكام لسانهم لما رأوا من مزيته في صيانة دينهم الذي جمع شتاتهم ونبّه أفكارهم وبعث هممهم الى افتتاح ممالك المعمور وبوّأهم بين شعوب ذلك الدهر مُبوّأ الرفعة والمجد والشرف ـ فانقضى عصر الخلفاء الراشدين ودالت دولة بني أُمية وليس عند العرب من العلوم سوى ما

---

(١) مدة. (٢) تمكين.

(٣) حدة.

(٤) جمع نوء بالفتح وهو طلوع نجم في المشرق وسقوط آخر بحياله في المغرب ثم اطلق على المطر الذي يحدث عند ذلك.

ذُكر مع بعض معلومات في الطبّ اكتسبوها من مخالطة الأعاجم ولا تتعدى المجريّات المعتادة.

وقد غلا القوم في بداءة أمرهم بالخروج من أنواع المعارف البشرية الى أحكام دينهم وما يتّصل بِه من العناية باللغة والتبحّر في فنونها فتوهّموا خطراً في كل علم أو فنٍ لا يرمي الى الغاية نفسها ولا علاقة لهُ بالدين أو ظنّوا أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يغنيهم حتى في أمور الدنيا عمّا سواه من كتب العلوم والصنائع ومن ثمّ نُسب الى عمر إحراق مكتبة الاسكندرية ومكتبة فارس بدعوى أنهُ « إن كانت تلك الكتب موافقة لما في كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وإن كانت مخالفة لهُ فلا حاجة لنا بها » - كأن ليس بين الموافقة والمخالفة حدٌّ أوسط بين طرفين نقيضين لا هو من هذا ولا هو من ذاك. إذ لا يُفهم كيف يوافق القرآن أو يخالفه مؤلف وُضع في الهندسة والحيل[1] أو في الحيوان والنبات. ومتى كان الغرض منه إرشاد الإنسان الى معرفة الرياضيّات أو كيفيّة مزاولة[2] الزراعة ومعالجة التربة بما يُعدّها لقبول البذر وإنمائه وتكثير غلته وما شاكل ذلك من مصالح هذه الحياة الدنيا؟

ومهما يكن من صحة هذه الرواية أو فسادها في مسألة غامضة اختلفت فيها آراء علماء التاريخ ورجال البحث فإنها ولا شك حكاية حال العرب والعلوم دهراً من الزمان ليس بقليل. فقد كانوا في الدولة الأموية مع ملابستهم أهل الحضارة وانتقالهم الى المدن الفيحاء يترفعون حتى عن الصنائع العقلية كالحساب مثلاً على شدة حاجتهم إليه في ضبط شؤون الدولة ويعتبرونه مهنةً تغضّ من رفيع مقامهم إن تعاطوها. ولذلك أُلجئوا أن يرتّبوا أهل الذمة في دواوينهم ويحكّموهم في أموالهم ويطيبوا خاطراً عن السيطرة[3] على أعمالهم فإن أولئك العمّال كانوا يضبطون سجّلات الدولة بالروميّة ولم تُنقل الدواوين

---

(١) علم الحيل فرع من الرياضيات يبحث فيه عن نواميس الحركة والموازنة وتطبيقها ويعرف ايضاً بعلم جرّ الاثقال وهو مايسميه الإفرنج ميكانيك.

(٢) زاول الصناعة تعاطاها   (٣) المراقبة.

الى العربيّة إلاّ في خلافة عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أُمية المتوفّى سنة٧٠٥ مسيحيّة.

وظل العرب زاهدين فيها سوى الإمارة الى أوائل دولة بني العبّاس إذ انقضى عصر الفتوحات الجليلة ومُزّقت أحزاب المطالبين بالخلافة كلّ ممزّق وسئمت النفوس الهرج والمرج[1] وجنحت طبعاً الى الهدوء والطمأنينة والتمتّع بما توفّر لديها من أسباب الرفاهية والسعة.

ولمّا كان لعمران الدول نواميس لا تُعدّى أضطُرّ العرب أن يعنوا لها أو يقولوا على دولتهم السلام. فتجرّدوا من بدواتهم العزيزة واقتفوا آثار من سلفهم من الأمم وأكبّوا على اقتباس ما فاتهم من العلوم ورُزقوا في ذلك حظّا وافراً إذ كانت الشعوب التي حلّوا في ظهرانيها ودانت لهم مستبحرة في العمران متقنة لأسباب الحضارة. فإنّ السريان مثلاً كانوا حينما دهمهم العرب في نهضة علميّة زاهرة مقبلين على نقل علوم اليونان الى لسانهم وتحفّظها والإستزادة منها. وكانت أديار رهبانهم حافلة بخزائن الكتب الثمينة المنقولة عن اليونانية الى السريانية وإليها اختلف النَقَلة حين هبّت في العرب ريح العلم وراجت سوق المعارف في دولتهم. ولم يكن الفتح ليصدّ[2] السوريّين زماناً طويلاً عن متابعة مباحثهم العلميّة فانهم ما زالوا من قدم الدهر مؤثرين للعلم بمعزلٍ عما سواه وإذا هم قضوا منه نهمتهم هان عليهم التعزّي حتى عن السلطة وتوابعها.

وأمّا الفرس فمعلومٌ ما كان لهم من ضخامة الملك واتّساع العمران وترقي المدنيّة وقس عليهم سائر الشعوب المتعدّدة التي تضطرب في تلك المملكة المترامية الأطراف وجميعهم يتمنّون التقرب من ملوكهم وأولياء أمرهم بما لديهم من المعارف المتنوّعة فما كاد الخلفاء يُبدون رغبة في العلوم حتى انثال عليهم أربابها من الآفاق وفي مقدمتهم السريان والفرس وجميعهم يحكمون ما عدا لغتهم

---

(١) الفتنة والقتال.

(٢) ليمنع.

الأصليّة العربية واليونانية أو غير ذلك. وأوّل من رغب في نقل العلوم الى العربيّة أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العبّاس. أمر بنقل شيءٍ من كتب الطبّ والهيئة والهندسة.

وكان الداعي الى اهتمام المنصور بالطبّ أنه أُصيب بضعف في معدته وسوء استمراء[1] عجز متطبّبوا العرب عن معالجته. فذكروا لهُ طبيباً سريانياً ماهراً يُعرف بجرجيس بن بختيشوع رئيس مارستان جنديسابور فتقدّم الى عامله هنالك بإحضاره وشكا لهُ مرضه فدبره أحسن تدبير وشفي على يدهُ فأُعجب به المنصور وخلع عليه وقربه وجعلهُ من أخصّائه. ولم يزل للأطبّاء عند الخلفاء شأن عظيم وحظوة وافرة لما يترتّب على حذاقتهم وأمانتهم من النفع الشخصيّ للخليفة تلافياً للعلّة أو دفعاً لها وحذراً من سمّ يدسّه الأعداء في طعامه أو شرابه وذلك سهلٌ على الطبيب. فكان الخلفاء ومن إليهم من الأمراء والسلاطين يجرون على أطبّائهم الأرزاق الواسعة ويملأون عيونهم وقلوبهم مالاً ويتحببّون إليهم بالمحاسنة والملاطفة لئلا يكون لهم غايةٌ في مجاراة من يقصدون بهم شراً. وسترى مُثُلاً لذلك فيما يأتي من التراجم إن شاء الله.

وكان المنصور مع براعته في الفقه كثير الولوع بعلم النجوم كلِفاً[2] بمعرفة حركات الكواكب والوقوف على نواميسها لا لمجرّد الإحاطة بحقائق علم الهيئة كما هو المقصود من ذلك في أيّامنا بل لتمكّن النجامة من قلبِه وشدّة اعتقاده بتأثير الحوادث الجوّية في شؤون الخلق وحظوظهم فما كان يقدم على عمل الا بعد استشارة المنجّمين. وهذا ضلالٌ لم يسلم منهُ كبير ولا صغير من الأقدمين مهما رُزق من رجاحة العقل وسعة العلم حتى لم تكن الغاية عندهم من تعلّم أحكام النجوم سوى الوقوف على هذه الخرافات المضحكة التي نزلت من قلوبهم منزلة الحقائق الراهنة.

---

(١) استمرأ الطعام وجدهُ مريئاً اي طيباً سائغاً

(٢) محباً.

وكذلك القول عن الكيمياء فان معالجتهم المادّة على طُرُق وكيفيات شتّى بالتحليل والتركيب والتكليس والتصعيد[١] والتخمير إنما كانت للوصول الى ما تمثّل في خيالهم من مركّب دعوه بالاكسير أو الحجر الفلسفي إذا أُلقي على المعادن أحالها ذهباً إبريزاً[٢] وناهيك بذلك الإكتشاف سعداً للكيماوي البخيت الذي أُتي حظ العثور عليه ولبني الإنسان من بعده إن هو شاء من فضله أن يُفضي إليهم بسرِهِ العجيب - بل مما يجدر ذكرُهُ في هذا المقام وفاءً لحق التاريخ هو أن خالد بن يزيد بن معاوية الأمويّ الملقّب « حكيم آل مروان » سبق أبا جعفر المنصور بنقل شيء من مؤلفات الأعاجم الى العربية فانه استقدم جماعةً من علماء الكيمياء تلقّى عنهم هذه الصناعة وأمر بتعريب كتبها وألّف هو نفسه فيها من جملة الكيماويّين الذين تخرّج عليهم راهب روميّ اسمُهُ مريانوس. فمن اهتمام حكيم بني مروان بهذه الصناعة وتلقّيه إياها عن راهب ترى ما أشدّ ما كان اعتقاد القوم بإمكان تحويل المعادن واستحكام هذه الخرافة من عقولهم.

غير أنّ تقليب الأقدمين للموادّ على كلّ وجهٍ ممكن كان أسّاساً للكيمياء الحديثة التي ملك بها القوم أزمة العناصر ووقفوا على مكنون سرّها حتى جاءُوا بالخوارق ممّا تحدّثنا عنهُ صحف الأخبار كلّ يوم بجديد. ومع ما شاع في تلك العصور من مزيّة الكيمياء في تحويل الفلزات[٣] فقد قام جماعة من الحكماء وأعلنوا على رؤوس الأشهاد بطلان هذه المزاعم وألفّوا الكتب في تزييف مقالات أصحابها لكن الأطماع أصمّت آذان القوم عن سماعهم فلم يكن لهم من مجيب. وما زال الجهل في كلّ زمان ظهيراً للمشعوذين[٤] على أصحابه.

وأمّا الهندسة فقد أمر المنصور بنقل بعض كتبها لما لها من العلاقة بالهيئة.

---

(١) صعّد الشراب عالجهُ بالنار حتى يحول عما هو عليه طعماً ولوناً

(٢) خالصاً. (٣) المعادن

(٤) شعوذ الوجل موّه على الناس واراهم اشياء على غير هيئاتها بخفة يده وخلابة حديثه

وحذا خلفاؤهُ من بعدهِ حذوهُ كل على قدر طاقته ومسالمة الأيّام لهُ وكانوا يوعزون الى أمراء جيوشهم أن يصرفوا مزيد العناية الى استبقاء الكتب التي تقع في أيديهم أو يعثرون عليها في مخابئها وصيانتها من أيدي الجهلة وإرسالها الى بغداد لتُنقل الى العربيّة فعرّب أرباب المعرفة ما وصلت إليه يدهم من كتب الطبّ وما إليه من الفنون كالصيدلة والكيمياء والنبات والحيوان وأتمّوا نقل كتب النجوم وما يتصل بها من العلوم الرياضية كالهندسة والحيل والجبر وقس سائر العلوم المعروفة لزمانهم. وللعرب في حِفْظ العلم فضلٌ أشهر من أن ينبّه إليه فإن كثيراً من كتب الهنود واليونان التي اشتغل فيها العرب ضاعت أصولها ولم تبق إلاّ ترجمتها العربيّة فضلاً عما استنبطوه من عند إنفسهم أو زادوا ورقّوه كعلم الجبر مثلاً فإنّ المحققين اليوم على انه يكاد يكون من موضوعاتهم لأن ما أخذوا منهُ عن اليونان ليس بشيء يذكرهم وهم الذين نشروا في العالم الأرقام الهنديّة وعنهم أخذها الافرنج وهم يسمّونها الأرقام العربيّة.

وما زالت شعلة العلم تمتّد في العرب حتى تربّع في دست الخلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العالم الفليسلوف ففاق من سبقه في الحرص على جمع الكتب ونقلها مهما كان موضوعها وراسل ملوك الروم في هذا الشأن وتقدم إليهم أن يصلوه بما لديهم من المؤلّفات النفيسة حتى كان يجعل إخراج هذه الكتب إلى العرب من شروط الصلح بعد الفتح. فلبّى الملوك طلبه مختارين أو مضطّرين وأوعز بنقلها ونشرها في رعاياه ورغّبهم في قراءتها وبذل للنقلة أضعاف ما يستحقّون وكلّما زادوه في النقل زادهم جزاءً وغمرهم بالصلات الوافرة فلم يبق ضرب من العلوم والصنائع والفنون الا نُقلت كتبهُ الى العربيّة وتعلّمها العرب ثم علّموها وأقبلوا على ترقيتها بالتبويب والترتيب والإستنباط على ما ناهزتهم مدة دولتهم على قصرها كما هو معلوم. ولم يفتهم من الفنون سوى الجراحة في الطبّ والنحاتة[1]

(١) صناعة نحت التماثيل.

والتصوير من الآداب الرفيعة. أمّا الجراحة فلمّا كانت متوقّفة على التشريح وهو محرم عندهم لم تكن لهم فيها يدٌ قوية ولا يذكر من أعمالها فيها إلّا القليل وكذلك القول عن النحاتة والتصوير فإنهما من الصنائع التي لا يجوز لمسلم تعاطيهما شرعاً غير انهم استعاضوا عنهما بالحفر وبلغوا من البراعة والدقة والأناقة فيه بحيث ضرب الافرنج المثل بالنقوش العربيّة في الجمال والغرابة وآثارهم التي أعجزت طوارىء الحدثان فظلّت قائمة الى يومنا هي أدلّة حيّة تنطق ببراعة مشيّديها في هندسة الأبنية وحسن ذوقهم في زخرفتها. وهكذا اجتمع عند العرب خلاصة علوم الأقدمين من يونانْ وسريان وفرس وهنود وكلدان وأنباط ومصريين وغيرهم ممن درج قبلهم وعنوا بها مدّة من الدهر وعنهم إقتبسها الافرنج حين تنبّهت فطنهم وثابت هممهم من سباتها فيما يسمّونه « عصر الإنبعاث »

وكان أسلاف المأمون على عرش الخلافة قد أحجموا[1] عن نقل كتب الفلسفة وإخراجها الى الناس فأقدم هو على هذا الأمر ولم يدع كتاباً في الحكمة معروفاً لزمانه إلّا أوعز بترجمته وبثّ نسخهُ في القوم. فعُربت على زمانه مؤلفات فلاسفة اليونان عن بكرة أبيها[2] وكان هو نفسهُ منطقياً بعيد النظر مولعاً بالفلسفة يعقد مجالس البحث والمناظرة وينشّط الجلساء للخوض في الجدليّات ويطلق لكلّ حرّيته في إبداء رأيه وتأييده بما يحضره من البراهين ولو خالف رأى الخليفة نفسه. فأقبل العرب على قراءة كتب الفلسفة وأتقنوا حفظها وألّفوا فيها التصانيف العديدة.

وتعاقبت على علوم الفلسفة أطوار شتى عند العرب فزهت وزهرت في عهد المأمون ومن على رأيه من الخلفاء كما مرّ ذكرهُ في الكلام على « الفقهاء والمحدّثين » ثم أفل نجمها عند ارتقاء المتوكّل الى سدّة الخلافة فناصب الفلاسفة العداء[3] وأحلّ بهم البلاء وتتبّع آثارهم في طول المملكة وعرضها

---

(١) اي جمعيها. (٢) ضدّ اقدموا.
(٣) اظهر لهم العداوة وقاومهم.

عازماً على قطع دابرهم[1] لو استطاع الى ذلك سبيلاً. وقد فاته أن الشعب كالطفل إذا نما وترعرع فعبثاً يحاول أولياء أمرهِ ردّه الى السرير وإدراجه في القُمُط ثانية. فان المأمون سرّح العقول ونزع عنها التمائم[2] وأطلق للأفكار عنانها وجعل لها الحبل على الغارب[3] فتعذّر على من جاء بعده ردّ الأمة على الأعقاب. ولمّا كان كل ممنوعٍ مرغوباً فيه زاد أشياع الفلسفة عدداً وعمدوا الى التستر ولم يكن هدوء جلبتهم[4] الّا ككمون النار في جوف الأرض وشرّ الداء ما كان خفيّا. فأنشأوا في المملكة جمعيات سريّة عقدوها بمعزل عن مواقف الرقباء كانوا يطلقون فيها لأفكارهم وأقوالهم الحريّة التامّة على إختلاف الأديان. والمذاهب فيتباحثون ويتفلسفون آمنين مطمئنين حيث لا عين ترى ولا إذن تسمع. واشتهر من تلك الجمعيّات جمعيّة «إخوان الصفاء».

ثم ما عتّم الخلفاء أن غلبوا على أمرهم بنبوغ الدولة البُويهية في ظهرانيهم واستئثار أربابها بالحل والربط دونهم متبرّعين عليهم بالسلطة الروحيّة لا غير. فأُعتقت العقول والألسنة من أسارها وعاد القوم الى الإشتغال بالفلسفة على رؤوس الملأ وقد زادهم رغبةً فيها وشغفاً بها ما حال سابقاً في وجوههم من الموانع القاهرة وما لقوا من الشدة والضغط والمحنة في سبيلها ـ وكلّ فعل يقابله ردّ من ضده مساوٍ لهُ في القوة.

ولإخوان الصفاء إحدى وخمسون رسالة مشهورة دوّنوا فيها خلاصة ما تداولوه من المباحث وهي زبدة الفلسفة العربيّة. ومن تصفّحها يقف القاريء على آراء سديدة تشهد لأصحابها بالحنكة وبُعد الغور في العقليّات ولا ينكرها

---

(1) آخر من بقي منهم.

(2) جمع تميمة وهي كل ما يعلق من خرزة ونحوها لدفع العين عن الولد.

(3) الغارب من البعير ما بين السنام والعنق والعبارة مثل يضرب لاطلاق الحرية.

(4) ضجتهم.

فلاسفة أيّامنا مع طول باعهم في النظريّات ودقة أفكارهم في الإستدلال والإستنباط.

وترى مما أسلفنا أنّا عنينا « بالعلماء » أصحاب العلوم الدخيلة على تعدّدها وهم عدد غفير من الأعلام الأماثل لا يتّسع لتعدادهم هذا المختصر فسنذكر أشهرهم إسماً وأوسعهم سُمعةً في عالم العلم والصناعة والله وليّ التوفيق بمنه وكرمه.

النَّقَلَة

حُنَيْنُ بْنُ إسْحاق (٨٧٤م ٢٦٠هـ)

هو أبو زيد حُنين بن إسحاق العباديّ الطبيب النصرانيّ الشهير. كان أبوه صيدلانياً بالحيرة ونشأ الولد محباً للعلم فقصد بغداد وحضر مجلس يوحنا إبن ماسويه وجعل يخدمه ويقرأ عليه وكان كثير السؤال فسأل أُستاذه يوماً مسألة مستفهم وكان يصعب على يوحنا استقصاء تلميذه وتواتر أسئلته فحرد وقال: « ما لأهل الحيرة والطبّ. عليك ببيع الفلوس[1] في الطريق » وأمر به فأُخرج من داره. فخرج حُنين باكياً وتوجّه الى بلاد الروم وأحكم هنالك اللغة اليونانية وحصّل من كتب الحكمة شيئاً كثيراً ثم عاد ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربيّ وانقلب راجعاً الى بغداد فظهر علمهُ وعظم أمره واشتهر بالإحاطة في علوم الفلسفة والطبّ وبدت لهُ عجائب في التأليف والتفسير والنقل وأجلّ أطبّاء بغداد مقامهُ حتى إبن ماسويه نفسهُ وكانوا جميعاً في حاجة إليه لتضلعه من اليونانية والعربية وصحّة نقولِهِ وقد عرّب من مؤلّفات اليونان ما لا محلّ لاستيفائه ههنا ولا يكاد يوجد كتابٌ منقولٌ في ذلك العهد إلاّ ولحُنين فيهِ يدٌ أمّا بالتصحيح أو التهذيب أو التفسير ـ وكان جرجيس بن بختيشوع يبجّله كثيراً وإذا خاطبهُ قال لهُ « ربن حُنين » أي يا معلمنا حنين. وناهيك بهذا اللقب من جرجيس شرفاً لحُنين ورفعةً وتنويهاً بعلمه وانفساح ذرعِهِ.

---

(١) اراد بيع الفلوس الاشتغال بالصيرفة.

ولمّا أراد المأمون نقل كتب الفلسفة حشد الى قصره جماعةً من مَهرة التراجمة ورأس عليهم حُنيناً لينظر فيما ينقلونه ويصلحهُ. وبذل له في مقابلة أتعابه الأموال الفاحشة حتى لقد كان يعطيه على ما يروون زنة ما ينقله هو ذهباً عيناً. ولا تسل عن اختيار حُنين لأغلظ الرقوق وتفريق أسطر الصفحات وتكبير حروف الكلمات طمعاً في توفير حجم الكتاب وجائزة نقله.

ولمّا رقي المتوكّل عرش الخلافة استخصّ حُنيناً لنفسه وغمره بالأعطية الجزيلة وأقطعه الأقطاعيات السنية وقرّبه وحادثه محادثة الخلّان وقال له في معرض الحديث « أُريد أن تصف لي دواءً يقتل عدواً لا يمكن إشهار أمره وإنّما يكون ذلك سراً » فقال حُنين: « ما تعلّمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها » فرغّبه الخليفة وتهدّده على غير جدوى[1] وحبسه في بعض القلاع سنة ثم أحضره وأمر بسيف ونطع[2] وأعاد عليه قوله فقال حنين: « قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية » فقال المتوكّل « فإنّني قاتلك » فقال: « لي ربّ يأخذ لي حقّي غداً في الموقف الأعظم » فتبّسم الخليفة وقال لهُ: « طب نفساً فانّا أردنا امتحانك والطمأنينة إليك » ثم سأله عن سبب امتناعه مع ما رأى من صدق الأمر وجدّ المقال فقال حُنين: «هما الدين والصناعة. أمّا الدين فإنّه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنّك بالأصدقاء. وأمّا الصناعة فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس وقد جُعل في رقاب الأطبّاء عهد مؤكد بأيمان[3] مغلّظة أن لا يعطوا دواءً قتّالاً لأحد» فقال الخليفة: « إنّهما لشرعان جليلان ».

وجرت مناظرة يوماً بين حُنين وكاتبٍ نصرانيّ يقال لهُ الطيفوريّ في شأن الصّور ادّعى فيها حنين انه لا ينبغي إكرام الصور المقدّسة أخذاً ببدعة شهيرة

---

(١) منفعة.

(٢) النطع بساط من جلد يجعل تحت المحكوم عليه بالقتل.

(٣) جمع يمين وهي الحلف.

نصرها ملوك القسطنطينية واضطهدوا فيها من لا يقولون بقولهم وقد وقف في وجوه أصحابها دفاعاً عن الحق وإزهاقاً[1] للباطل عدّة من جلّة العلماء اللاهوتيين أشهرهم القدّيس يوحنا الدمشقي وقصّته مع لاون الأيزوري معروفة عند الخاصّة والعامّة. وتهوّر حنين في جداله الى حدّ فاحش فرُفع أمرهُ الى المتوكل وسأله جماعةً أن يبيح[2] الحكم عليه لأرباب الديانة النصرانية فبعث الى الجاثيليق[3] والأساقفة من يسألهم في ذلك فأوجبوا حرم حُنين. فحُرم وقُطع زنّاره وانصرف الى داره وفي نفسه ما فيها ومات من ليلته فجأة وقيل أنه سقى نفسه سمّاً وهو غريب من رجلٍ آثر الموت قتلاً على الإشارة بدواء سامّ لعدوّ وإذا صحّ هذا الأمر فانه يكون أقبح ختام وأفضح عارٍ ركبه إنسانٌ قضى عمره بالرفعة والشرف والعزّ والجاه العريض. إذ لا ينتحر الاّ النذل الجبان ذو النفس الصغيرة.

---

(١) ابطالاً.

(٢) يسمح.

(٣) مقدّم الاساقفة.

إسحاق بنُ حُنين (٢٩٩هـ ٩١١م)

هو أبو يعقوب إسحاق بن حنين المارّ ذكرهُ. كان من مشاهير أطبّاء عصره ولحق بأبيه في النقل ومعرفة اللغات وفصاحته فيها. فخدم على الترجمة وتولّاها وأتقنها وكانت نفسه أَميل الى الفلسفة. ولذلك فأكثر ما نقل عن اليونانية كان في الحكمة من مقالات أرسطوطاليس وغيره وقلّت نقوله في الطبّ. وخدم إسحاق من الخلفاء والرؤساء من خدمهم أبوه ثم انقطع إلى الوزير القاسم بن عبيد الله واختصّ به حتى كان الوزير يطلعه على أسرارِه ويفضي إليه بما يكتمه عن غيره. ولهُ كما لأبيه خلا النقول مصنّفات في الطب. ولحقه الفالج في آخر عمره.

ثَابتُ بْنُ قُرّة (٢٨٨هـ ٩٠٢م)

هو أبو الحسن ثابت بن قرة الحرّانيّ. كان في مبدأ أمره صيرفياً بحرّان ثم انتقل الى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها وبرع في الرياضيّات خاصّة وله فيها وفي الهيئة استنباطات وآثار حسنة. وكان من المبرّزين في الفلسفة والطبّ وله ما عدا النقول تآليف كثيرة في فنون من العلم تشهد له ببعد الغور ورسوخ القدم.

وكان ثابت صابئي المذهب ولهُ في رسوم دينه وفروضه وسننه تصانيف بالسريانية وتفرّد في مذهب قومه بآراء أنكروها عليه ورافعوه الى زعيمهم فرذل مقالته ومنعه من دخول الهيكل فتاب ورجع عن ذلك ثم ما عتّم أن عاد الى اسبق قوله من المجمع وخرج من حرّان ونزل كفرتوثا ولقي هنالك محمد بن شاكر راجعاً من بلاد الروم فاتصل به وعاد معه الى بغداد وأنزله محمد داره وأجلّ قدره لما رأى من فضله وسعة معارفه ووصله بالخليفة المعتضد فأدخله في جملة المنجّمين ونال حظوة في عينيه وعظمت مكانته عنده بحيث كان يحادثه محادثة الخلان ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصّته.

قُسْطَا بْنُ لُوقَا (٩٢٣م ٣١١هـ)

هو قسطا بن لوقا البعلبكيّ الفيلسوف النصراني كان مولعاً بالفلسفة والطبّ ودخل بـلاد الروم وحصّل من تصانيفهم عدداً وافراً وعاد الى الشام وذاع صيته في الآفاق فاستدعاه المستعين بالله الى بغداد وولّاه ترجمة المؤلّفات اليونانية وكان بارعاً في اللغات اليونانية والسريانية والعربيّة فصيح العبارة في نقوله رشيق الإنشاء واضح المنهج ولهُ أيضاً تصانيف جليلة كثيرة في فنون متنوّعة. وقد قال إبن العبريّ في حقّه «لو قلت حقاً قلت أنه أفضل من صنّف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الإختصار للألفاظ وجمع المعاني».

ويُقال أنّه قصد أرمينية بدعوة أحد الأمراء وأقام بها الى أن مات هناك وبُني على قبره قُبَّة إكراماً لهُ كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرايع.

* * *

هؤلاء زعماء النَقَلة ويليهم جماعة من مَهرة التراجمة عرّبوا تآليف شتى عن لغات متعدّدة ولهم فضلٌ وافر وإن ونت خطواتهم عن اللحاق بمن ذكرنا. منهم حُبيش بن الأعسم وهو إبن أُخت إسحاق بن حنين وأحد خرّيجي حنين بن إسحاق وأعزّ تلاميذه إليه. وقيل أنهُ من جملة سعادة حُنين صحبة حُبيش لهُ فانّ أكثر ما نقلهُ حبيش نُسب الى حُنين. وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من

الكتب القديمة بنقل حبيش فيظنونه أنه حنين وقد صُحّف لتقارب الأسمين في الكتابة فيكشطه ويجعله حُنين ـ ومنهم الحجّاج بن مطر نقل كتاب المجسطي في الهيئة لبطليموس القلوذيّ ومقالات أقليدس في الهندسة ـ ومنهم عبد المسيح بن عبد الله الحمصيّ الناعميّ نقل بعض كتب أرسطو وكان حسن العبارة فيما يعرّب ـ ومنهم ـ سرجيس بن الياس الرأس عينيّ الفيلسوف نقل كتباً كثيرة الى السريانية وبعضاً الى العربية ولم يكن متضلعاً منها تضلّعه من السريانية ـ ومنهم أبو بشر مَتّى بن يونس زعيم المنطقيّين في عصره ومصره. كان مكثراً في شروح المنطق وطيء الكلام يتوخّى التعليم والتفهم ـ ومنهم أبو زكريّا يحي بن عديّ التكريتيّ المنطقيّ نزيل بغداد لهُ تصانيف وتفاسير ونقول عديدة وكان ملازماً للنسخ يكتب خطاً قاعداً بيّناً في اليوم والليلة مئة ورقة وأكثر ـ ومنهم عبد الله بن المقفع ناقل كتاب كليلة ودمنة ولهُ نقول أُخر وقد مرّ ذكره في باب « المنشئين » ـ ومنهم أبو بكر أحمد بن عليّ المعروف بإبن وحشيّة الكلدانيّ ترجم عن النبطيّة كتباً عديدة أشهرها كتاب الفلاحة النبطيّة وهو مؤلف ثمين في هذا المعنى ـ ومنهم منكه الهنديّ كان ينقل عن السنسكريتية. الى غير هؤلاء ممن يطول سرد أسمائهم على غير جدوى لما نحن فيه.

الأطِبَّاء

أقدم من ورد لهُ ذكر في التاريخ من أطبّاء العرب الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي رحل الى فارس وأخذ الطبّ عن أهل جُندَيْسابور وغيرها في الجاهلية وطبّب بأرض فارس وحصّل مالاً. ثم اشتاقت نفسهُ الى بلاده فرجع الى الطائف واشتهر وأدرك الإسلام وكان النبي يأمر من به علّة أن يأتيه ويستوصفه. ومن أقوال الحارث «من سرّه البقاء ولابقاء فليباكر الغذاء وليخفّف الرداء وليقمع الأهواء» ـ وتلاه أبنه النضر وهو إبن خالة النبي فقفا آثار أبيه ورحل الى فارس وغيرها في طلب الطبّ والحكمة واجتمع بالعلماء وعاشر الأحبار والرهبان ووعى عنهم علوم الأقدمين ورجع الى وطنه وشايع أعداء محمد وتناوله بمقالات الإزدراء والتحقير ومن كلامه في حقّه «محمد يأتيكم بأخبار عاد وثمود وأنا آتيكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة» وأسر في واقعة بدر وقيد الى النبيّ فأمر عليّ بن أبي طالب فضرب عنقه وذهب خبره. ورثته إبنته بشعرٍ رائق منه قولها المشهور تخاطب محمداً:

ما كان ضرّك لو مننتَ وربّما   منّ الفتى وهو المغيظ المُحنَقُ[1]

(١) تقول لو مننت على ابي بالعفو لم يجلب ذلك عليك ضرراً اد قد تقضي الحكمة على الانسان ان يعفو على الذي غاظهُ واحنقهُ.

وهذا البيت من أبيات قالوا أنها أكرم شعر موتورٍ[1] وأعفّهُ وأكفّه وأحلمه.

وذكر إبن العبريّ من أطبّاء الدولة الأموية ماسرجويه وتياذوق وثاودون طَبيبَي الحجاج بن يوسف الثقفي. قال: « أما تياذوق فله تلاميذ أجلاء تقدّموا بعده ومنهم من أدرك الدولة العباسية كفرات ابن شحناثا في زمان المنصور. وأما ثاودون فله كنّاش كبير عمله لابنه. وقيل انه دخل على الحجاج يوماً فقال له الحجاج « أيُّ شيءٍ دواء أكل الطين » فقال: « عزيمة مثلك أيُّها الأمير » فرمى الحجّاج بالطين ولم يعد الى أكله بعدها.

---

(١) من قتل لهُ حميم فهو يطلب ثارهُ

آلَ بَخْتيشوع

كان آل بختيشوع من النصارى النساطرة وأصلهم من جُندَيسابور وقد نبغ منهم في الطبّ عدة أفراد أماثل لم يشق لهم غباراً أمهر أطبّاء زمانهم وخدموا بني العبّاس نحو ثلاثة قرون كانوا فيها واسطة قلادة العلماء في الطبّ والفلسفة وعنوان الفضل الوافر ونالوا عند الخلفاء من الثقة والحظوة والكرامة والجاه ما لم ينلهُ غيرهم من أقطاب العلم وشيوخ العرفان. وسنذكر ههنا شيئاً من أخبار مشاهيرهم ونكتفي بذكر أسماء سائرهم خوفاً من التطويل.

جِرجِيسُ بْنُ بَخْتيشوع

(١٥٣هـ ٧٧٠م)

هو جِرجيس أو جيورجيس بن جبريل بن بختيشوع. كان من نُطُس أَطبّاء زمانه وظهرت له معالجات باهرة رفعت شأنه وأذاعت شهرته وأقيم رئيساً على مارستان جُنديسابور وتتلمذ لهُ قوم كثيرون. ومرض أبو جعفر المنصور فأمر بإحضاره فتمنّع في بداءة الأمر ثم أذعن وخرج الى بغداد ووصّى إبنه بختيشوع بالمارستان. ولما مثل بين يدي المنصور دعا له بالفارسيّة والعربيّة فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء فأجابه عنها بسكون فافتتن به واطمأنت إليه نفسه وشكا إليه علته فأحسن تدبيره ومعالجته حتى برىء على يده بإذن الله فغمرهُ الخليفة بالنعم وقرّبه واستخصّه بنفسه وأوعز بإكرامه كما يكرم أخصّ الأهل.

وبلغ من عناية المنصور بطبيبه أنه رأى تغيّراً في وجه جرجيس وآثار ضعف أنكرها فقال لحاجبه الربيع: «أرى هذا الرجل قد تغيّر وجهه. فلعلّك منعته ممّا يشربه على عادته» فقال الربيع: «لم نأذن له أن يدحل الى هذه الدار مشروباً» فغضب المنصور وقال له: «لا بدّ أن تمضي بنفسك وتحضر لهُ من المشروب كلّ ما يريده» فمضى الربيع الى قطربلّ وحمل منها إليه غاية ما أمكنه من الشراب الجيّد - وقال المنصور يوماً لجرجيس: «من يخدمك ههنا» فقال: «تلامذتي» فقال له: «سمعت أنه ليست لك أمرأة» فقال: «لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها» وانصرف بعد ذلك

من الحضرة وذهب الى البيعة. فأمر المنصور خادمه أن يحمل من الجواري الروميّات ثلاثاً الى دار جرجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ولما انصرف جرجيس الى منزله عرّفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بأمر الجواري فأنكر أمرهنّ وقال لهُ: « يا تلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء الى منزلي. إمضِ وردّهنّ على أصحابهنّ » فرُدَّت الجواري واتصل الخبر بالخليفة فأحضره وقال له: « لِمَ رددتَ الجواري » فقال: « لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوّج بأكثر من إمرأة واحدة وما دامت المرأة حيّة لا نأخذ غيرها » فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عندهُ وهذا ثمرة العفة.

ومرض جرجيس واشتدّ مرضه فخرج المنصور إليه ماشياً وتعرّف خبرهُ فقال لهُ جرجيس: « إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإنصراف الى بلدي لأنظر أهلي وولدي وأن متُّ قبرتُ مع آبائي » فقال لهُ: « يا حكيم إتّق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة » قال جرجيس: « قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار » فضحك المنصور ثم قال: « إنّي منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي كانت تعتادني » فقال جرجيس: « أنا أخلّف بين يدي أمير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر » فأمر لهُ الخليفة بعشرة آلاف دينار وأذن لهُ بالإنصراف وأنفذ معه خادماً وقال إن مات في الطريق فاحمله الى منزله ليُدفن هناك كما أحبّ » فوصل الى بلده حياً.

بَخْتيشوع بْنُ جرجِيس

(٧٩٨م ١٨٢هـ)

هو بختيشوع بن جرجيس السابق ذكره. تخرّج على أبيه وبلغ من البراعة بحيث استخلفه مكانه على مارستان جنديسابور حين فارق تلبية لأمر الخليفة كما مرّ بك آنفاً وكفى بذلك شهيداً على منزلته ومهارته في مهنته. ولم يزل قيّماً[1] على المارستان حتى جاءه أمر الخليفة الهادي بالشخوص إليه وكان قد أصابه مرضٌ حار فيه أطبّاء بغداد وعجزوا عن مداواته. غير أنه ما كاد يلقي بختيشوع عصا الترحال في مدينة السلام حتى قضى الهادي نحبه فانكفأ عائداً الى بلده وقد رأى من حسد الأطبّاء ما كشف له عن سوء نياتهم ومرض قلوبهم وكرّه اليه استيطان بغداد. وما مضت على عودته سنة حتى أنفذ الرشيد من يحمله إليه على إثر صداع[2] عراهُ ولمّا مثل بين يديه أسفر كلامه عن فصاحة خلّابة وحكمة نادرة فسرّ به الخليفة أيّما سرور وخلع عليه وأكرمه.

وأحبّ الرشيد أن يمتحنه ليطمئن قلبه إليه وجلاءً[3] لريب من علمه لقّنه إيّاه طبيبه الخاصّ أبو قريش الصيدلانيّ وكان رجلاً حسوداً ضعيف العقل ليس لهُ من صناعة الطبّ سوى المخرقة والتمويه والوقاحة. فقدموا لبختيشوع

---

(١) مدبراً.
(٢) وجع الرأس.
(٣) كشفا.

تفسرةً[1] في قارورة جعلوا فيها ماء دابّة فلمّا رآها قال: « يا أمير المؤمنين ليس هذا ماء إنسان » فكذّبه أبو قريش فقال له: « لك أقول أيّها الشيخ الكريم أنّ هذا ليس ماء إنسان وإن كان الأمر على ما قلت فلعلّه صار بهيمة » فتبسّم الرشيد وقال له: « ما ترى أن نُطعم صاحب هذا الماء قال « شعيراً جيداً » فضحك الخليفة وأمر لهُ بجائزة وولّاه رئاسة الأطبّاء وأمرهم بامتثال أوامره والوقوف عند نواهيه والعمل بإشارته. ومن ذلك الحين لم يزل واحدٌ من بني بختيشوع يخدم الخلفاء مختصاً بهم دون من سواه.

---

(١) ماء المريض يستدل به على علته.

جبريل بْنُ بَخْتيشوع

(٨٢٨م ٢١٣هـ)

هو جبريل بن بختيشوع المار ذكره أخذ الطبّ عن والده وكان قد وضع له كتاب التذكرة ومرض جعفر بن يحي فخدمه بختيشوع ولمّا تماثل قال لهُ: « أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً » فقال لهُ: « لست أعرف في هؤلاء الأطباء أحذق من ابني جبريل » فقال جعفر: « أحضرنيه » فلما أحضره شكا إليه داء كان يخفيه فدبّره في مدة ثلاثة أيّام وبرىء فأحبّه جعفر مثل نفسه وغمره بأنعامه. واتفق في بعض الأيّام أن تمطّت[1] جاريةٌ من جواري الرشيد ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردّها. وعالجها الأطبّاء بالتمريخ[2] والأدهان فلم ينجح شيء من ذلك. فذكر جعفر جبريل ومهارته فأمر الخليفة بإحضاره وشرح لهُ حال الصبيّة فقال: « أن لم يسخط أمير المؤمنين عليّ فلها عندي حيلة » قال الرشيد: وما هي قال: « تخرج الى ههنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريد وتتمهّل علي ولا تسخط عاجلاً » فأمر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والإنزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها الى أسفل وأمسكت ذيلها فقال جبريل: « لقد برئت يا أمير المؤمنين » فقال الرشيد للجارية: « أُبسطي يدك يمنة ويسيرة » ففعلت فعجب الرشيد وكلّ من حضر

(١) مددت يديها وجذبتهما اليها.

(٢) مرخ بدنهُ دهنهُ وفركهُ.

وأمر له في الوقت بخمس مئة ألف درهم وأحبّه حبّا لا مزيد عليه وحظي عنده حظوة عجيبة حتى كان يقول: «من كانت لهُ اليّ حاجة فليخاطب بها جبريل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه منى» وبلغ أعزازه لهُ أنه وهو في الموقف بمكّة دعا له كثيراً فأنكر عليه ذلك بنو هاشم وقالوا: «يا سيدنا ذمّيّ» فقال: «نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه وبقائه» فقالوا: «صدقت يا أمير المؤ منين».

وخدم جبريل الأمين والمأمون ونال من سخائهم الأموال الطائلة ونادمهما كانت منزلته عند المأمون مثل سابق منزلته عند الرشيد وأمر أصحاب الخطط من عمالٍ وقوّادٍ ووزراءٍ بإجلاله وإكرامه ولهُ مع الخلفاء نوادر كثيرة تدلّ على قرب مكانه منهم ورتع في النعمة والرخاء الى آخر أيّامه وخلّف من الأموال والعقارات شيئاً وافراً وإذا أحببت نموذجاً مما كان يصلهُ من الخليفة وحدهُ فحسبك أن تعتبر أنه كان يفصّد المأمون دفعتين في السنة يأخذ عن كلّ دفعة خمسين ألف درهم ويقدّر مجموع مرتّباته السنوية بنحو خمسة آلاف ألف درهم (٥،...،...) ما عدا ريع[1] ضياعه العديدة.

---

(١) غلة.

بَخْتِيشوع بْنُ جِبْريل

(٨٧٠م ٢٥٧هـ)

هو بختيشوع بن جبريل المذكور آنفاً. درس الطبّ وبرّز فيه على الاقران وتقيّل[١] أباه في البراعة والحكمة والمروءة ومكارم الأخلاق وخدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل ونال منهم الهبات الواسعة وجالسهم ونادمهم وكان أقرب الخاصّة إليهم. ولّما كانت المناصب العالية مطمح الأبصار والتزلّف الى الملوك والحظوة عندهم أمنية الأماني كثرت في جنات القصور السعايات والوشايات[٢] وانفسح المجال لفرسان الحسد والضغينة[٣] فدبّت عقاربهم الى بختيشوع وأوغروا عليه صدر الواثق فنفاه سنة ٨٤٤ مسيحية وظلّ مبعداً الى آخر خلافته حتى أصابه داء الإستسقاء فأمر بإحضار طبيبه غير أنه لفظ نفسه الأخير قبل وصوله فلم ينتفع منه.

ورقي المتوكّل عرش الخلافة فاستخص بختيشوع واتّخذه مسامراً ونديماً وكثيراً ما كان يؤنسه ويداعبه[٤] ويروى أنّه دخل يوماً على الخليفة وهو جالس على السدّة في وسط داره الخاصّة فجلس معه على عادته فوق السدّة وكان عليه درّاعة ديباج روميّ قد انشقّ ذيلها قليلاً. فجعل المتوكّل يحادث بختيشوع ويعبث[٥] بذلك الفتق حتى بلغ به الي حدّ النَيفَق[٦] ودار بينهما الكلام الى أن

(١) تشبه به.
(٢) النمائم والاكاذيب.
(٣) البغض.
(٤) يمازحهُ.
(٥) يلعب.
(٦) الموضع المتسع من الثوب.

سأل الخليفة الطبيب: «بماذا تعلمون أنّ الموسوس يحتاج الى الشدّ» فقال بختيشوع: «إذا بلغ الموسوس بفتق درّاعة طبيبه الى حد النيفق شددناه» فضحك المتوكّل حتى استلقى على ظهره وأمر لهُ بخلعة حسنة ومال جزيل. غير أن المتوكّل كان من غرابة الأطوار لا يتهيّأ لمؤرخ ضبط خلقه وتعريف هويّته. ويُحكى أنّه قال يوماً لبختيشوع: «أدعُني» فقال: «نعم وكرامة» فأضافه. وأظهر من الحفاوة والإحتفال والتجمّل والثروة النادرة ما أعجب المتوكل والحاضرين واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته فحقد عليه ونكبه وصادره مصادرة عظيمة . . . وأُقصي بختيشوع الى أن ملك المهتدي بالله فأذن له بالعودة الى وطنه وردّ عليه ما ابتزّه[١] المتوكل منه وأكرمه كثيراً.

واشتهر من آل بختيشوع خلا من ذكرنا عُبيد الله بن بختيشوع وخدم المقتدر - وجبريل بن عبيد الله وخدم عدة من ملوك بني بويه وأمراء دولتهم ولهُ مؤلّفات حسنة في الطبّ - وعُبيد الله بن جبريل وقد وضع كتباً عديدة في أغراض متنوّعة من الطبّ. وخلاصة القول أن بني بختيشوع كانوا بهجة زمانهم وقد أُتوا من شرف النفوس وعلّو الهمم وكرم الأخلاق ما خلّد لهم جميل الذكر ورفيع الفخر الى منتهى الدهر.

---

(١) سلبهُ.

سَهْلُ الكَوْسَجْ

هو أبو سهل بن سهل الأهوازيّ الملقّب بالكوسج[1] على سبيل التضاد لأنه كان ألحى. وهو من مشاهير أطبّاء زمانه وعلت منزلته في أيّام المأمون وكان إذا اجتمع مع أطبّاء وقته قصّر عنهم في العبارة ولم يقصّر في العلاج وكان كثير الهزل والدعابة مضحك الكلام يرتضخ لكنة خوزيّة ولهُ مع رصفائه حكايات ونوادر غريبة. فمن دعاباته أنه ناظر يوماً جرجيس بن بختيشوع في حمّى وأدّت الى ملاحاة[2] خرج فيها سهل عن حدود الأدب في حقّ مناظره شأن كبير ممّن لم يتقنوا آداب البحث والجدل وكان جرجيس كثير التلفت الى يمينه وشماله من الناس وأخرجته الحدة الى زمع[3] أصابه فصاح سهل: « صُري وَهَكّ المسيه أخرأوا في أُذنه آية خرسي » أراد بعجميته: « صُرع وحقّ المسيح اقرأوا في أذنه آية الكرسي[4] » ومن فنونه أنّه خرج في يوم الشعانين يريد دير الجاثيليق والمواضع التي يخرج إليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته فحسده وصار الى صاحب مصلحة الناحية فقال له: « إنّ ابني يعقّني[5] وإن

---

(١) الخفيف اللحية. (٢) مخاصمة (٣) رعدة.

(٤) هي الاية المئتان والخامسة وخمسون من سورة البقرة ورد فيها لفظ الكرسيّ بقوله «وسع كرسيهُ السموات والارض ولا يؤدّهُ حفظهما»

(٥) يترك مساعدتي والاحسان الي.

أنت ضربته عشرين دِرّة[1] موجعة أعطيك عشرين ديناراً » ثم أخرج الدنانير ودفعها الى من وثق به صاحب المصلحة. ثم اعتزل ناحيةً الى أن بلغ يوحنّا الموضع الذي هو فيه فقدّمه الى صاحب المسلحة وقال: « هذا ابني يعقّني ويستخفّ بي » فجحد يوحنا أن يكون ابنه وقال: « يهذي هذا » فقال سهل: « أنظر يا سيدي » فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا عن دابته وضربه عشرين مقرعة ضرباً مبرحاً[2]...

ومما يذكر بالأسف أن هؤلاء الأطبّاء مع وفرة علمهم وفضلهم كانوا يتضاغنون[3] ويتحاسدون الى حدّ إلحاق الأذى وإيقاع هائل الشرور بعضهم ببعض متذرّعين بكلّ وسيلة مهما كانت دنيئة رذيلة. ويا ليتهم صرفوا شيئاً من اجتهادهم في تركيب الترياقات[4] الى العناية بأمر دينهم وتدبّر أوامره وزواجره واتخذوا من خلاصتها ترياقاً لقلوبهم من حزازات الحسد فانه هو السمّ الناقع الذي يؤدي بكل نفس دبّت فيها آفته.

ومن مصنّفات سهل الكوسج كتاب في الأقراباذين.

---

(١) سوطاً
(٢) شديداً
(٣) يتباغضون.
(٤) الترياق دواءٌ مضادّ السم.

يُوحَنّا بْنُ مَاسَوَيْهِ

(٨٥٧م ٢٤٣هـ)

هو أبو زكريّا يوحنّا بن ماسويه الطبيب النصرانيّ الشهير. كان عظيم القدر جليل الشأن مبجلاً حظياً عند الخلفاء بذكائه وفضله وخبرته بصناعة الطبّ وتقدّم في أيّام الرشيد وقلّده ترجمة الكتب القديمة ممّا وُجد بأنقرة وعموريّة وسائر بلاد الروم التي سباها المسلمون وخدم من بعده الأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل وعلت منزلته عندهم جميعاً وأصاب من جراياتهم وإقطاعاتهم[1] وصلاتهم أموالاً زائدة ونعمةً جليلة وكان ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلّا بحضرته وكان يقف على رؤوسهم ومعه البرانيّ بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوّية للحرارة الغريزية في الشتاء وبالجوارشنات والأشربة الباردة في الصيف.

وكان يوحنا يعقد مجلساً لإقراء الطبّ والنظر في سائر العلوم القديمة فيجتمع فيه خلقٌ كثير من الخاصّة والعامّة على اختلاف المذاهب والأديان ولم يُرَ بمدينة السلام مجلس لمتطبّب أو متكلم أو متفلسف أعمر من مجلسه. واشتهر يوحنا فضلاً عن علمه وأدبه بالنَزَق[2] وضيق الصدر وكثرة الدعابة[3] وكانت الحدّة تخرج منه ألفاظاً مضحكة ونكاتاً غريبة يقصد الكثيرون حلقتهُ

---

(١) الجراية ما يجرى من الاعطية والاقطاع أرض يهب الامير غلتها.

(٢) الخفة واحدة. (٣) المزاح.

ويظهرون لهُ لسماعها منهُ والتلهّي بها. فمن نوادره أنّ رجلاً شكا إليه علّة كان قد شفاه منها الفصد فأشار عليه به فقال الرجل: «لم أعتد الفصد» فقال لهُ يوحنّا: «ولا أحسبك اعتدت العلّة من بطن أمّك» وصار إليه يوماً قسّيس الكنيسة التي يتعبّد فيها وقال له: «قد فسدت عليّ معدتي» فقال لهُ: «إستعمل جوارشن الخوزيّ» فقال: «قد فعلت» فقال لهُ يوحنّا: «فاستعمل الكموني» فقال: «قد استعملت منه أرطالاً» فأمره باستعمال المقداذيقون فقال: «قد شربت منه جرّة» فقال له: «فاستعمل المروسيا» فقال: «قد فعلت وأكثرت» فغضب يوحنّا وقال لهُ: «إن أردت أن تبرأ فأسلم فإنّ الإسلام يصلح المعدة».

وممّا يدلّ على دالّة[1] يوحنّا عند الخلفاء وقربه من قلوبهم أنّه كان مع الواثق فوق دكان على دجلة وبيد الواثق قصبة فيها شصّ[2] يصيد بها السمك فحُرم يومئذ الصيد ولم يظفر بشيء فالتفت الى يوحنّا وقال: «قم يا مشؤوم عن يميني» فقال لهُ يوحنّا: «يا أمير المؤمنين لا تتكلّم بمحال. يوحنا بن ماسويه الخوزي وأمّه رسالة الصقلبيّة المبتاعة بثماني مئة درهم أقبلت به السعادة الى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم وغمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله فمن أعظم محال أن يكون هذا مشؤوماً. ولكن إن أحبّ أمير المؤمنين أن أخبره من هو أخبرته» فقال الواثق: «ومن هو» فقال يوحنّا: «من وَلَده أربعة خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكّان مقدارُهُ عشرون ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فتغرقه ثم تشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرّهم وهم صيّادو السمك» فنجع كلامهُ في الخليفة ولم يتغير لهُ قطّ ـ غير أن يوحنّا كان كثيراً ما يخرق حرمة الأدب بدعاباته ويتعدّى طوره بتقصده الدين وأربابه بالإزراء

---

(١) الدالة بمعني الدلال وهو جراة يستبيحها انسان بسبب منزلته

(٢) حديدة عقفاء يصاد بها السمك.

والإستخفاف الى حدّ الإثم الفظيع مّما يدلّ على سوء الخُلق وضعف العقيدة ولا يُغتفر في أرباب العلم والفضل والوجاهة.

وترجم يوحنّا شيئاً كثيراً من الكتب القديمة ولهُ تآليف عديدة في الطبّ منها كتابٌ في الجذام[1] لم يسبقه أحدٌ الى مثله وكتابٌ في الماليخوليا[2] وأسبابها وعلاجها وغير ذلك.

---

(١) داء كالبرص ينتشر في البدن وينتهي الى تاكل الاعضاء وسقوطها.

(٢) السويداء وهي مرض يفسد معهُ عقل الانسان فتستولي عليه الوساوس والاحزان ولا يرى دنياهُ الا سوداء متعبة.

الرَّازِيّ (٩٢٣ م ٣١١ هـ)

هو أبو بكر محمّد بن زكريّا الرازيّ الملقّب بجالينوس العرب ويسمّيه الأفرنج « رازس » وُلِدَ ونشأ بالريّ وأولع في شبيبته بالموسيقى فكان يضرب العود ويغني فلمّا التحى وجهه قال: « كل غَنّاءٍ يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف » فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطبّ والفلسفة واشتغل أيضاً بعلوم الأدب وقال الشعر وأصبح في الطّب إمام وقته المشار إليه في ذلك العصر. وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها عارفاً بأوضاعها وقوانينها تُشد إليه الرحال لأخذها عنه. واشتهر ببعد نظره وثاقب فكره مذ شرع في اقتباس العلوم فقرأ كتبها قراءة رجل متدبّر لأغراضها متعقّب على مؤلّفيها فسبر[١] غورها واعتقد الصحيح منها وعللّ السقيم وبلغ من معرفة دقائقها الغاية القصوى وصنّف فيها الكتب النافعة ولم يفارق قط المدارج[٢] والنسخ وما كان يُرى الاّ في شغلٍ شاغلٍ من التسويد والتبييض مع ما عُهد إليه من تدبير المارستانات في الريّ أوّلاً ثم في بغداد. ومن ظريف ما يُروى عنهُ أن عضد الدولة استشاره في الموضع الذي يجب أن يُبنى فيه المارستان. فأمر الرازيّ بعض الغلمان أن يعلّق في كل ناحية من جانبي بغداد شقّة لحم ثم اعتبر

---

(١) سبر الجرح قاس غورهُ ليعرف مقدارهُ

(٢) جمع مدرج بفتح الميم والراء وهو ما لفّ بعضهُ على بعض من نسيج اوراق او غير ذلك.

الناحية التي لم يتغيّر فيها اللحم ولم يسهك[1] بسرعة وأشار على الملك أن يأمر بالبناء فيها ففعل.

وكان الرازيّ مع واسع علمه ورسوخ قدمه في علوم عصره كثير المطالعة والشغل قليل الدعوى لا يبرح في جلّ أوقاته دائباً في الإجتهاد والإطّلاع على ما دونه العلماء الأفاضل في مؤلّفاتهم يصرف في الإستزادة من الوقوف على مقالاتهم ما رُزق من الذكاء والفطنة. واشتهر بالعطف على المرضى والرأفة بهم والإجتهاد في علاجهم والإحتيال لبرئهم بكلّ وجهٍ يقدر عليه وكان لذلك مواظباً على النظر في غوامض صناعة الطبّ والكشف عن حقائقها وأسرارها. ولهُ أخبارٌ كثيرة وفوائد متفرّقة فيما حصل لهُ من التمهّر في الصناعة وما تفرّد به مداواة المرضى والإستدلال على أحوالهم من تقدمه المعرفة وفيما خبرهُ من الصفات والأدوية التي لم يصل الى علمها كثير من الأطبّاء. ومن كلامه: « إذا كان الطبيب حاذقاً والعليل موافقاً والصيدلانيّ صادقاً فما أقلّ لبث العلّة » ومنه « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجّيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابعٌ لأخلاق النفس » ومنه « إذا عدل العالم الى اللذّات الدنيويّة فاتّهمه في علمه ولا سيّما في صناعة الطبّ » ـ وقد قيل: « كان الطبّ معدوماً فأوجده بقراط وميتاً فأحياه جالينوس ومتفرقاً فجمعه الرازيّ وناقصاً فكمّله إبن سيناء »

وكان الرازيّ إذا جلس للإقراء أحاط به التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون فيجيء الرجل ويلقي ما يريد لأول من يلقي فإنّ كان عندهم علم وإلاّ تعدّاهم الى غيرهم فإنّ أصابوا وإلاّ تكلّم الرازيّ في ذلك وشخّص العلّة ووصف الدواء وإن كان المريض فقيراً عاجزاً عن تحصيل العلاج تصدّق عليه من ماله وأجرى عليه الجرايات حتى يمنّ الله عليه بالشفاء

---

(١) سهك اللحم فسد وتغيرت رائحتهُ.

وهذه النهاية في الرفق بذوي العاهات والفاقة[1] من بني الإنسان وأنموذج لأطبّاء هذا الزمان.

غير أنّ الرازيّ على وفور عقله وحصافة رأيه لم يكن لينجو من ضلال زمانه في مزاولة الكيمياء واعتقاد صحّتها. وقد وضع في إثبات هذه الصناعة الكاذبة كتاباً ألّفهُ برسم الأمير أبي صالح منصور بن نوح من ملوك السامانيّة وقصده به من بغداد فأعجب به الأمير وشكره عليهِ وحباهُ بألف دينار وتقدم إليه بإخراج ما في الكتاب الى الفعل فقال الرازيّ: «إنّ ذلك ممّا تُتموّن لهُ المُؤن ويحتاج الى آلات وعقاقير حقّق ذلك كاع[2] الرازيّ عن مباشرة الأمر وعجز عما تقاضاه الأمير فأمر أن يضرب بالكتاب على رأسِهِ حتى يتقطّع. فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيه ولم يسمح بقدحهما[3] وقال: «قد رأيت الدنيا حتى مللتها[4]».

وللرازي مؤلّفات عديدة جداً منها: «كتاب الأقطاب» في ثلاثين مجلداً وكتاب «الحاوي» في خمسة عشر مجلداً وهو أوّل من ألّف في الجدريّ والحصبة.

---

(١) العاهة آفة تلحق الرجل فتعطل احد اعضائه والفاقة الفقر

(٢) جبن.

(٣) قدح الطبيب العين اخرج منها الماء المنصب اليها من داخل.

(٤) ضجرت منها.

سِنانُ بْنُ ثابت

(٩٤٣م ٣٣١هـ)

هو أبو سعيد سنان بن ثابت قرّة الحرّاني. وأبوه ثابت هو الطبيب الحكيم الرياضي المترجم الذي مرّ ذكرهُ بين « النقلة ». تخرّج سنان على أبيه ولحق به في الحذق والتمهّر[١] وخدم المقتدر والقاهر والراضي ولكثرة اغتباط[٢] القاهر به أراده على الإسلام فامتنع امتناعاً شديداً كثيراً فتهدّدهُ القاهر وكان فظّا عنيفاً شديد السطوة فخافه سنان وأسلم. ثم رأى منه بعد مدّة وجيزةٍ تغيّراً فانهزم الى خراسان. غير أنهُ ما عتّم أن قُهر القاهر فخُلع لسنةٍ وبضعة أشهر من خلافته وسُملت عيناه فجعل يستعطي في شوارع بغداد. فعاد سنان الى مدينة السلام آمنا وظلّ فيها الى وفاته.

وكان سنان يشارف بأمر المقتدر مارستانات بغداد وينفذ الى الحبوس من يتعهّد شؤون المعتقلين[٣] فيها فيطوفون على المرضى يعالجونهم ويزيحون عللهم[٤] من الأدوية والأشربة والأطعمة ويرسل الى السواد[٥] أطبّاء من بغداد

(١) تخرج تعلم وتدرب وتمهر بمعنى مهر اي حذق.

(٢) فرح.

(٣) المحبوسين.

(٤) اي يزيلون كل ما لعلهُ يكون علة لشكاة المسجونين.

(٥) السواد من البلدة ما حولها من القرى.

لخلوّه من المتطببين مع انتشار الأوبئة[1] في أهله لما هم فيه من الحاجة والضيق والمسكنة فيقيمون في كلّ صقع مدة يعالجون المرضى ثم ينتقلون الى غيره وكان شديد العناية بتوفير أسباب الراحة للمرضى ساهراً على مصلحة المارستانات التي عهدت إليه مراقبتها لا يألوا في تشديد النكير على كلّ مقصّر من المتولّين بعض الشؤون العائدة الى رفاهية المرضى ويتقاضى قيّم الوقف تعجيل ما أرصد[2] للمارستان من النفقة وصرفها في وجوهها الشرعيّة. واتفق أنّه جرى غلط على رجل من العامّة من بعض المتطبّبين فمات الرجل فأمر المقتدر أن يُمنع كل رجال الصناعة من التصرّف إلاّ من امتحنه سنان وكتب لهُ رقعة بخطّه بما يُطلق لهُ أن يتعاطى منها. فبلغ عدد الأطبّاء الذين امتحنهم سنان في جانبي بغداد ثماني مئة رجل ونيفاً وستين رجلاً سوى من استغنى عن محنته باشتهاره وسوى من كان في خدمة السلطان.

ومن لطيف ما جرى لسنان في امتحان الأطبّاء أنّه أُحضر إليه رجل مليح البشرة والهيئة ذو هيبة ووقار فأكرمه سنان على موجب منظره ورفعته ثم التفت إليه وقال: « قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنهُ وأن يذكر شيخه في الصناعة » فأخرج الشيخ من كمّه قرطاساً فيه دنانير صالحة ووضعها بين يدي سنان وقال: « والله ما أُحسن أن أكتب ولا أقرأ شيئاً جملة ولي عيال ومعاشي دار دائرهُ وأسألك أن لا تقطعه عني » فضحك سنان وقال: « على شريطة انك لا تهجم على مريض بما لا تعلم ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل الا فيما قرب من الأمراض » فقال الشيخ: « هذا مذهبي مذ كنت وما تعدّيت السَكَنْجَبين[3] والجُلاّب[4] » وانصرف. ولما كان الغد حضر إليه غلامٌ شابٌ

---

(١) جمع وباء وهو المرض المنتشر في القوم يجتاح كثيراً منهم.

(٢) اعد وعتين.

(٣) السكنجبين ضرب من الاشربة حلو حامض.

(٤) الجلاب عسل او سكر معقود بماء الورد.

حسن البزّة[1] مليح الوجه ذكي. فقال لهُ سنان: «على من قرأت» قال: «على أبي» قال: «ومن يكون أبوك» قال: «الشيخ الذي كان عندك أمس» قال: «نِعم الشيخ. وأنت مذهبه؟» قال: «نعم» قال: «لا تتجاوزه. وانصرف مصاحباً».

ولسنان بن ثابت رسائل ومصنّفات عديدة منها ما هوَ في الطبّ ومنها ما هو في الهندسة والهئية وسائر العلوم الرياضيّة ولهُ في التاريخ «كتاب السيرة» ويُعرف بالتاجيّ نسبة الى تاج الله وهو لقب آخر لعضد الدولة بن بويه يشتمل على مفاخرة الديلم وأنسابهم وذكر أصولهم وأسلافهم. ولهُ رسالة في تاريخ الملوك السريانيين وغير ذلك ممّا يطول عدّهُ.

---

(١) اللبسة.

إبنُ الطَّيّب

(١٠٤٣م ٤٣٥هـ)

هو أبو الفرج عبد الله بن الطيِّب. كان طبيباً شهيراً عظيم الشأن جليل المقدار واسع العلم كثير التصنيف وفيلسوفاً فاضلاً خبيراً مطّلعاً على كتب الأوائل وأقاويلهم كثير الإشتغال في أنواع العلوم المتداولة في عصره مواظباً على معالجة المرضى في المارستان العضدّي وإقراء الطبّ فيه حسن التعليم والتفهيم. وقد عُني بشروح الكتب القديمة في المنطق وضروب الحكمة من تآليف أرسطوطاليس وفي صناعة الطبّ من مؤلفات جالينوس وبسط القول في ذلك بسطاً شافياً وافياً.

وكان إبن الطيّب قسيساً كاتباً للجاثيليق متميّزاً في نصارى بغداد بفضلِهِ وتشبّثِهِ بأهداب[1] الدين وحرصِهِ على إقامة شعائره بإخبات[2] وورع وخشوع. ومن مستملح ما يُروى عنهُ أنّ رجلين من بلاد العجم قصداه للتخرّج عليه ولّما وصلا بغداد كان أبو الفرج في الكنيسة فدخلاها ودُلاّ عليهِ فأخذ منهما التعجّب والإستغراب كلّ مأخذ إذ رأيا ذلك الشيخ الجليل مع شهرته ورفعته في الناس لابساً ثوب صوفٍ وهو مكشوف الرأس وبيده مبخرة بسلاسل يدور بها في نواحي الكنيسة ويبخر. ولمحهما أبو الفرج وفهم عنهما ما هما فيه ولّما دخلا في جملة المشتغلين عليه جعل يماطلهما بالقراءة الى أوان

(١) جمع هدب بالضم وهو طرف الثوب.

(٢) بثقة واطمئنان.

الحجّ فقال لهما حينئذٍ « هل حججتما قط » قالا: « لا » فقال أن كنتما تريدان أن تقرأا عليّ وأن أكون شيخكما فحجّا وإذا جئتما مع السلامة إن شاء الله يكون كلّ ما تشتهيان منّي » فلما عادا من الحجّ إذا هما أقرعان وقد غلب عليهما الشحوب[1]. فسألهما عن مناسك[2] الحجّ وما فعلا فيها فذكرا صورة الحال فقال لهما « لمّا رأيتما الجمار[3] بقيتما عريانين موشحين وبأيديكما الحجارة وأنتما تهرولان وترميان بها؟ » قالا: « نعم » فقال: « هكذا الواجب. إنّ الأمور الشرعيّة تؤخذ نقلاً لا عقلاً » فأدركا السرّ من أمرهِ إياهما بالحجّ واتّعظا.

ولأبي الفرج بن الطيّب عدا شروحه الطبيّة والفلسفية مقالةٌ مختصرة في المحبّة وشرح الإنجيل.

---

(١) تغير الجسم من هزال او سفر.

(٢) عبادات.

(٣) جمع جمرة بالفتح وهي الحصاة.

إبن التِّلْمِيذ (١١٦٥م ٥٦١هـ)

هو أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن إبراهيم بن التلميذ الطبيب النصرانيّ الشهير. كان نسيج وحده وفريد زمانه في صناعة الطبّ ومباشرة أعمالها ذكي الخاطر مصيب الفكر صادق النظر خبيراً بأنواع الأمراض ماهراً في تدبيرها. وكان ساعور[1] المارستان العضديّ ببغداد الى وفاته ومفوّضاً من لدن الخليفة رئاسة أطبّاء بغداد ينظر في أمورهم ويرى ما عند كلٍّ منهم من الصناعة وجميعهم يقرّون لهُ بالفضل والتقدم ويشهدون لهُ بالأُستاذية. وكما تفرّد بالطبّ تميّز أيضاً بسعة علمه وتنوُّع معارفه فكان خبيراً باللغتين السريانية والفارسية متبحراً في العربية متضلّعاً في فنون الأدب مستعذب النظم وإن أقلّ مستظرف النثر كثير الترسل مؤنق الإنشاء بصيراً بمذاهب الكلام عارفاً بأسراره ومواقعه.

وبلغ أمين الدولة من علو الهمة وكمال المروءة شأواً بعيداً وتروى عنهُ أخبارٌ ونوادر تشف[2] عن نفسٍ شريفة ورحابة صدر عجيبة وتواضع متناه. فمن ذلك أن أبا البركات الطبيب اليهودي الآتي ذكره كان من رصفائه[3] في خدمة الخليفة على حظوته ورفعة مكانه ونبله وجلال قدره وسوّلت لهُ نفسهُ

---

(١) مقدم الاطباء.

(٢) شفّ النسيج دق حتى بان ما وراءة.

(٣) نظرائه في الصناعة.

الخسيسة أن يوقع به شراً فكتب في رقعة من التّهم الفظيعة كل ما نفث في قلبه إبليس من الحسد ودسّها في محلٍ بحيث يراها الخليفة ولّما وقف على مضمونها صعب عليه جداً وهمّ بالفتك بأمين الدولة ثم رجع الى رأيه واستقص في البحث فانكشفت لهُ الحقيقة فحنق على أبي البركات حنقاً زائداً ووهب دمه وجميع مالهُ وكتبهُ لأمين الدولة بن التلميذ فأبت نفسه الكبيرة أن يتعرّض لهُ بسوء. وللبديع الأصطرلابي في إبن التلميذ وأبي البركات:

أبــو الحسن الـطبيب ومقتفيــهِ أبو البركـات في طرفَي نقيضِ
فهــذا بـالتــواضـع في الثـريّـا وهــذا بـالتكبّــر في الحضيضِ

ومن مروءة إبن التلميذ أنّهُ كان زاهداً في الأجرة لا قيمة للمال عندهُ حتى كان يبذل عن يد سخية للمعوزين من المرضى الذين يستوصفونه وكانت داره ببغداد مظاهرة للمدرسة النظامية فإذا مرض فقيه نقلهُ إليه وقام بعلاجه وخدمتِهِ وإذا أَبَلّ[1] وهب لهُ دينارين وصرفهُ وهكذا عمّ خيرهُ الملي والذميّ فاضحى أنموذج التساهل الحميد لكلّ ذي مقام ورفعة. ومن شعر إبن التلميذ:

العلم لـلرجــل اللبيب زيــادةٌ ونقيـصــةٌ لــلأحمق الـطيّـاشِ
مثل النهار يزيد أبصـار الورى نوراً ويغشى أعين الخفّـاشِ[2]

ومنه قوله وهو مذهبهُ في معاملة الناس:

إذا كنت محموداً فإنّـك مُرْمـدٌ عيون الورى فاكحلهُمُ بالتواضعِ

ولإبن التلميذ عدة مؤلّفات في الطبّ ومراسلات.

---

(١) برىء.

(٢) الوطواط.

أبو البركات (؟ - ١٣٢٤)

هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن عليّ البلديّ. وُلِدَ ببلد وانتقل الى بغداد وأُولع بتحصيل الطبّ فقصد أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين أحد المشايخ المتميزين في الصناعة وكان لهُ عدة تلاميذ يتناوبونه في كلّ يومٍ للقراءة عليه واشتهى أن يتعلم منهُ فرفض أبو الحسن ملتمسهُ لأنهُ لم يكن يقريء يهودياً أصلاً فلمّا أعيت أبا البركات الحيلةُ تخادم للبوّاب وجلس في دهليز الشيخ بحيث يسمع جميع ما يُقرأ عليه وما يجرى في حلقته من البحث وهو كلّما سمع شيئاً تفهّمها وعلّقه عندهُ وظلّ على تلك الحال سنة أو نحوها حتى جرت مسألة عند الشيخ وبحث تلامذته فيها فلم يتّجه لهم عنها جواب ولبثوا متطلّعين الى حلّها فدخل عليهم أبو البركات واستأذن الشيخ في الكلام وشرح المسألة من جميع وجوهها وذكر الشهر واليوم اللذين سمع فيهما أبا الحسن يفاوض تلامذته في هذا الموضوع فتعجّب الشيخ من ذكائه وحرصه وقال: « ومن يكن بهذه المثابة لا نستحلّ أن نمنعه من العلم » وقرّبه من ذلك الوقت وصار من أجلّ تلاميذه.

ومن غريب ما اتفق لأوحد الزمان في العلاج أن مريضاً عرضت لهُ علّة المالنخوليا فكان يعتقد أن على رأسه دنّا لا يفارقه فإذا مشى تحايد المواضع التي سقوفها وطيئة ويمشي برفقٍ ولا يترك أحداً يدنو منهُ حتى لا يميل الدنّ أو يقع على رأسه. وكثيراً ما عالجهُ الأطبّاء فلم ينجع لهم به دواءٌ

وأُنهي أمرهُ أخيراً الى أوحد الزمان. ففكّر بثاقب بصيرته أن يعالج ذلك الداء الوهميّ بعلاج من جنسهِ. فدبّر الحيلة وأوعز بإجرائها الى اثنين من غلمانه. فلمّا جاء بالمريض أهلهُ وشرع يقصّ عليه أمرهُ وجاراه أبو البركات على هواه وتظاهر بتصديقه أن على رأسه دنّا وأنكر عليه حملهُ أبداً وأشار من طرفٍ خفيٍ الى أحد الغلامين فأقبل الى المريض وقال لهُ: «والله لا بدّ أن أكسر هذا الدنّ وأُريحك منهُ» ثم أدار فوق رأسه بنحو ذراع خشبةً كانت بيده وفي الوقت عينه رمي الغلام الآخر من محلٍ عالٍ على مقربة من الموسوس دنّا اعدّه لهذه الغاية فكانت لهُ وجبة[1] عظيمة وتكسّر قطعاً كثيرة. فلما رأى المريض ما فُعل به وعاين الدنّ المنكسر تأوه لهُ ولم يشكّ انهُ هو الذي على رأسه بزعمِهِ وأثّر به الوهم أثراً بريء بِهِ من علّته...

وقد مرّ بك في ترجمة إبن التلميذ شيء من أخبار أوحد الزمان وأطواره. وأسلم في آخر عمره وحاز نعمة جليلة بحسن تدبيره وتوفيق علاجه ووصله أحد السلاطين السلجوقية على أثر مداواة بريء بها على يده بالعطايا الوافرة والتحف النادرة وحملهُ على المراكب الفخيمة بالملابس الثمينة ولم يزل سعيداً الى أن قلب لهُ الدهر ظهر المجنّ ووضع من شأنه بعد أن أسنّ فأدركته أعلالٌ قصّر عن معاناتها طَبّه واستولت عليه آلآم لم يُطق حملها جسمه ولا قلبه وذلك أنه عمي وطرش وبرص وجُذم. ولمّا أحسّ بالموت أوصى من يتولّاه أن يكتب على قبره ما مثاله «هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب المعتبر».

والمعتبر المشار إليه مؤلف لهُ وهو أَجلّ كتبه وأشهرها في الحكمة أتى فيه بالمنطق والطبيعيّ والالهيّ فجاءت عبارته فصيحة ومقاصده صحيحة.

ونقف عند هذا الحد من تراجم الأطبّاء وإن كان ثمّ جمهورٌ غفيرٌ من العلماء الأماثل نالوا بالحذق والمهارة والفضل شهرة واسعة. فإنّ ذكرهم واحداً

---

(١) صوت الحائط ونحوهِ إذا سقط.

واحداً ممّا تضيق عنهُ المجلّدات الضخمة فضلاً عن مثل هذا المختصر - وسترى فيما يلي عدّة من مشاهير الفلاسفة والفلكيّين تعاطوا الطبّ وبرعوا فيه. ومن الأقوال المتداولة عندهم أن الإنسان لا يكون طبيباً حتى يكون منجّماً ولا يكون منجّماً حتى يكون فيلسوفاً.

الفلاسفة

الكِنْدِيّ

(٨٦٠م ٢٤٦هـ)

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي النصراني الملقّب بفيلسوف العرب ولم يكن في العرب من اشتهر عند الناس بمعاناة علم الفلسفة حتى سمّوه فيلسوفاً غير يعقوب هذا ولهُ القدم الفارعة[١] في الطبّ والفلسفة الباطنيّة والمنطق والموسيقى والهندسة وتبلغ تآليفه في هذه العلوم وما إليه نحو مئتي كتاب أو رسالة وهو مقدار فاحش يدلّ مادّة ذلك الرجل ورسوخ قدمِهِ في معارف عصرِهِ. وخدم الكنديّ الملوك بعلمهِ وعلت مكانته عند المأمون والمعتصم وابنه أحمد وباشر لهم ما عدا تآليفه ترجمة شيءٍ كثير من كتب الحكمة وأوضح منها المشكل ولخّص المستصعب وبسط العويص.

ولما ولي المتوكّل الخلافة وكان من رأيه في الفلسفة وأصحابها ما علمت وشى بالكنديّ بعض الحسّاد ونعوا عليه[٢] مذهبهُ واختلقوا عليه الأباطيل فلقوا من الخليفة أذناً مصغية فنكبه وأمر بضبط كتبه بأسرها وسلّمها لأبني شاكر محمد وأحمد وكانا في طليعة شرذمة[٣] الوشاة فأفرداها في خزانة خاصّة سُميت بالكنديّة. ولم تزل في قبضتهما الى أن أحبط سعيهما في حفر ترعةٍ[٤] أمر

(١) العالية الفائقة.
(٢) عابوه. (٣) جماعة.
(٤) موضع يحفر ويوصل به بين بحرين أو نهرين.

بها المتوكّل فاشترط عليهما المهندس الذي عُهد إليه امتحان عملهما وتفحّص شؤونه أن يردّا على الكنديّ ما سلباه من الكتب ويأخذا خطّة باستيفائها جميعاً إن أرادا أن يستر ِغلطهما ففعلا. وهذا المهندس من جملة الذين أُقصوا عن بغداد بسعايات ابني شاكر وكان من خصوم الكنديّ ومناوئيه لاجتماعهما على صناعة واحدة. غير أنه كان نبيل النفس عالي الهمّة مترفعاً عن منازلة قرنهِ بغير شريف السلاح وفي ملأ من الناس لا في ظلمات الزوايا ومغاور اللصوص.

ومن كلام الكنديّ: « العاقل يظنّ أن فوق علمه علماً فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة والجاهل يظنّ أنّه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك

الفَارَابيّ (٣٣٩هـ ٩٥١م)

هو أبو نصر محمّد بن طرخان بن أَوذَلَغ الفارابي التركي. وُلِدَ بفاراب ونشأ بها ثم خرج منها وانتقلت به الاسفار الى أن وصل الى بغداد وهو يعرف اللسان التركيّ وعدّة لغات غير العربيّ فانكبّ على تعلّمه وأتقنه غاية الإتقان ثم أقبل على الإشتغال بعلوم الحكمة. وكان ببغداد حينئذ شيخٌ كبيرٌ نصرانيّ النحلة مشهور الاسم يعرف بأبي بشر متى بن يونس من أهل دير قنّى يقرىء الناس فنّ المنطق فيجتمعون في حلقته كلّ يومٍ مئات يشتغلون فيملي لهم شرحاً مبسوطاً وافياً حسن العبارة لطيف الإشارة فتتلمذ لهُ الفارابي وتلقّن عنه علمه وأُسلوبه حتى قال بعض علماء هذا الفن « ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة الا من أبي بشر » ثم ارتحل الى حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني فأخذ عنهُ طرفاً من المنطق أيضاً وقفل راجعاً الى بغداد وشرع يقرأ بها علوم الفلسفة ويتَبَحّر فيها فتناول جميع كتب ارسطوطاليس يطالعها ويتدبر أغراضها ويتمهّر في استخراج معانيها ويتبطن مكنوناتها[1] وأسرارها ويعيد تلاوتها كرّات عديدة حتى يقف على دقائقها وإشاراتها ويزول من قلبه كلّ شدّة وإشكال فيما يقرأ. ويقال إنّهُ وُجد كتاب النفس لأرسطوطاليس وعليه بخط الفارابيّ « أنّي قرأت هذا الكتاب مئة

---

(١) يكشف مستوراتها.

مرّة» ونُقل عنهُ أنّهُ كان يقول: «قرأت السماع الطبيعي لأرسطوطاليس الحكيم أربعين مرّة. وأرى أني محتاج الى معاودة قراءته» فهذا لعمر الحقّ أنموذج الكمال في مضاء العزيمة وقوّة الصريمة[1] وهكذا فليكن النشاط لتحصيل العلم والثبات في تذليل صعابه وإلاّ فلالا.

وبلغ الفارابي من الفلسفة شأواً ونت دونه خطوات أرباب العلم وأبطال التحصيل فهو فيلسوف المسلمين غير معارض وقد بذّ[2] جميع أهل الإسلام وأرب[3] عليهم في تحقيق صناعة المنطق فشرح غامضها وكشف سرّها وقرب متناولها في كتب صحيحة العبارة محكمة البيان ونبّه على ما أغفله الكنديّ وغيرهُ من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الوافية. ولهُ الفضل الواسع في تعميم علوم الفلسفة ونشر كتب أفلاطون وأرسطو في بني زمانه وتقريبها الى عقولهم بالشروح والتعاليق الواضحة السهلة المأخذ. ولم يفته شيءٌ قط من علوم عصره فقد كان متضلّعاً في الرياضيّات والطبّ والموسيقى والآداب حتى في الكيمياء . . . وقد ألّف في أمكان وجودها وردّ على مبطليها. فسبحان من استأثر بالعصمة والكمال وتعالى علواً عظيماً عن كدورات البشر وما يشوب علمهم القاصر من النقص والضلال.

ويعزى الى أبي نصر الفارابيّ اختراع الآلة الموسيقيّة المعروفة بالقانون ويُروى أنهُ اصطنع آلة غريبة[4] يُسمع منها ألحاناً بديعة يحرّك بها الإنفعالات

---

(١) العزيمة.
(٢) فاق.
(٣) زاد.
(٤) يقال أن هذه الآلة هي القانون نفسهُ.

وحضر يوماً مجلس سماع بدمشق عند ملكها سيف الدولة بن حمدان وكانت حضرته محطّ رحال العلماء وقبلة الجهابذة من أرباب كل فنّ وصناعة وضمّت حلقة الغناء كلّ ماهر حاذق يضرب المعازف[1] فما حرّك أحدٌ منهم آلته الاّ عابهُ أبو نصر فقال لهُ سيف الدولة: « وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً » فقال: « نعم » وأخرج من خريطة لهُ عيداناً وركّبها ثم لعب بها فضحك كلّ من في المجلس ثم فكها وركّبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كلّ من في المجلس وغيّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البوّاب فتركهم نياماً وخرج . . . ولا ندري أهذه الحكاية أغرب أم الآلة أغرب أم الآلة لها مثل هذا التأثير على نفوس الناس.

وأجرى سيف الدولة على الفارابي رزقاً واسعاً الا أنه كان لزهده وقناعته يكتفي بأربعة دراهم ينفقها في حاجته ولا يحفل بعد الحصول على الكفاف بأمر مكسب ولا مسكن. وكان يؤثر العزلة عن الناس والإنفراد للمطالعة فلا يُرى إلاّ بعيداً عن ضوضاء[2] المدينة جالساً عند مجتمع مياه أو مشتبك رياض يؤلّف هناك كتبه ويتناوبه[3] المشتغلون عنه ولم تزل هذه حاله الى وفاته وللفارابي مصنّفات عديدة في العلوم التي أتقنها ولا سيّما الفلسفة فإنه كان كثير التأليف فيها ولهُ تعاليق وشروحات وتلخيصات كثيرة على كتب الأقدمين وقد جمع من بين التراجم العديدة التي كثرت في زمانه ترجمة ملخّصة محرّرة مهذّبة مطابقة للأمهات من تصانيف الحكمة وسمّى كتابه بالتعليم الثاني فلذلك لُقّب هو « بالمعلم الثاني » وكان معجباً بأرسطو ومن قوله: « لو أدركته لكنت أكبر تلامذته » ومن تآليفه كتاب مطوّل في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يُسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه وكأنه دائرة معارف عصره. وله مؤلف في « السياسة المدنية » وهو أجلّ كتبه سمّاه « كتاب المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدلة والمدينة الضالّة » حذا فيه حذو

---

(١) جمع معزف بالكسر وهو آلة الطرب.

(٢) ضجة. (٣) يأخذونه كلّ في نوبته.

أفلاطون في « كتاب السياسة » ثم عاد ووضع كتاباً برأسه بسط فيه القول على القسم الأوّل من هذا المؤلف أو المدينة الأولى سمّاه « كتاب مبادىء آراء المدينة الفاضلة» وهو المشهور من كتبه دوّن فيه ما تمثّل لهُ من الآراء الغريبة في سياسة مدينة إذا استكملت فيها الهيئة الإجتماعية الصفات والشروط التي عدّدها وحدّدها كانت آية الفضل ومثال الكمال. وقد حشر باني هذه المدينة في مدينته قوماً ليسوا من جبلة بني آدم الضعفاء بل من سلالة تنزّهت عن شوائب النقصان وكدورات الأهواء. فكأنّ الرجل رمق البشر من ذروة الفيلسوف المولع بالنظريّات ولم ينزل الى موقف الحاكم الذي تساوره[1] حقائق الأمور البشرية من كلّ جانب فلا همّ له بغير العمليّات.

وقد عالج الفارابي الشعر كما عالجه أكثر فلاسفة المسلمين وحكمائهم وهو شعر نجد فيه ثقل الفلسفة ومصطلحاتها كعلة الأشياء والطبيعة والعناصر والخير والحقائق والمركز والجوهر(*). وهو يعبر عن فلسفته في الحياة بقوله:

أخي خل حيز ذي باطل وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار خلود لنا ولا المرء في الأرض بالمعجزِ
وهل نحن إلّا خطوط وقعن على كرة وقع مستوفزِ
يا نفس هذا لهذا عليّ أقلّ من الكلم الموجزِ
محيط السماوات أولى بنا فكم ذا التزاحم في المراكزِ(**)

وقال في السخط على الناس وإيثار الوحدة:

لما رأيت الزمان نكسا وليس في الصحبة انتفاعُ
كل رئيس به ملال وكل رأس بِهِ صداعُ

(١) تواثبهُ وتزحمهُ.

(*) مجلة الهلال والفلاسفة المسلمون والشعر لمحمد عبد الغني من ص ٣٢.
(**) الوافي بالوفيات ج١ ص١١٣ وعيون الأنباء ص٦٠٧ ـ ٦٠٨ إبن أبي أصيبعة لصلاح الدين الصفدي.

لـزمت بيتي وصنتُ عـرضـاً   بـه مـن الـعـزة اقـتـنـاعُ
أشـرب مما أقـنـيـت راحـاً   لهـا عـلى راحـتي شـعـاعُ
لي من قـواريـرهـا نـدامى   ومـن قـراقـيـرهـا سـمـاعُ
وأجـتني مـن حـديـث قـوم   قـد أخضـرت منهم البقـاعُ(*)

(*) عيون الأنباء ص٦٠٧ لإبن أبي أصيبعة تحقيق نزار رضا بيروت ١٩٦٠ والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي بعناية هلموت ريترط، سنة ١٩٦١ ج١.

إبنُ سَيناء

(١٠٣٧م ٤٢٩هـ)

هو الشيخ الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سيناء أستاذ حكماء عصره وإمام أطبّاء دهره ويسمّيه الأفرنج « أفيسِنّ ». كان أبوه عاملاً لنوح بن منصور السامانيّ بقرية من ضياع بخارى يقال لها خَرَمَيْثَن وهي من أمّهات القرى وبها ولد الشيخ الرئيس ثم انتقل الى بخارى ومنها خرج يطوف البلاد وينشد العلم ويتفقّده في مظّانه. ولمّا بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن القرآن والآداب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة. وورد بخارى إذ ذاك رجلٌ يدّعي الفلسفة يُعرف بأبي عبد الله الناتليّ فقرأ عليه إبن سيناء كتاب الأيساغوجي وأحكم على يده المنطق وأقليدس والمجسطي وفاقه أضعافاً كثيرة حتى أوضح لهُ منها رموزاً وفهّمه إشكالات لم يكن الناتلي يدريها. وفارقه الناتلي فتولّى قراءة ما بقي من العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية وحلّها بنفسه وغاص على أسرارها حتى وقف على حقائقها ودقائقها إذ لم يكن قرأ على أستاذه إلاّ ظواهرها. وكان مع إكبابه على التحصيل توفّر مادّة الإشتغال عليهِ يختلف[١] الى فقيه يعرف بإسماعيل الزاهد يدرس عليه ويبحث ويناظر الى أن بلغ من العلم موضعاً جليلاً.

ثم رغب في علم الطبّ فتلقى أصوله عن أبي سهل المسيحيّ وأقبل على التعمق فيه بنفسه فتأمّل الكتب المصنّفة فيه وأحاط بأطرافه وعالج تأدباً لا

---

(١) يتردد.

تكسباً ففاق الأوائل والأواخر بأقّل مدة وأصبح في هذه الصناعة عديم القرين فقيد المثل فانتهت إليه الرئاسة في هذا الفنّ يختلف إليه فضلاء الأطبّاء وكبراؤهم ويرحلون إليه من أطراف البلدان يعرضون عليه مشكلاتهم ويقتبسون عنه أنواع المعالجات التي اهتدى إليها بحذقهِ وتجربته فكان عليهم أميراً غير مدافع وإماماً غير منازع كلامه فصل الخطاب ورأيه منهاج الصواب. كلّ ذلك وسنّه حينئذٍ فيما يقال نحو ستّ عشرة سنة وهو ما لا يكاد يُصدّق لولا إجماع الرواة على القول به.

غير أنّه مع ما أُوتي من المدارك المعجزة والعلوم الواسعة لم يكن ليجنح[1] الى الراحة والوناء[2] ويكتفي بما نال من المعارف النادرة على حداثة سنّه بل أحبّ بعد تسنّم[3] ذروة العلم أن يحتاط لنفسه من النسيان آفة العلم وداء المتعلّمين الأغرار فتفرّغ سنة ونصفاً للتوفّر على القراءة والمراجعة فأعاد المنطق وجميع أجزاء الفلسفة وأحيا[4] الليالي في الإشتغال حتى لم ينم في تلك المدة ليلة بطولها وكان كلّما أشكلت عليه مسألة وعجز عن الظفر بالحدّ الأوسط في قياس فزع الى الإبتهال الى الله عزّ وجلّ مصدر الأنوار وأكثر من الدعاء فينفتح لهُ المنغلق ويتيسّر المتعسّر وما زال كذلك حتى استحكمت معهُ جميع العلوم ووقف عليها بحسب الإمكان الإنساني.

وحكى إبن سيناء عن نفسه قال: «لمّا عدلت الى العلم الالهي قرأت كتاب ما بعد الطبيعة» لأرسطو فلم أفهم ما فيه والتبس عليّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرّة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به وأيست من نفسي وقلت: هذا كتابٌ لا سبيل الى فهم. وإذا أنا يوماً حضرت وقت العصر في الورّاقين وبيد دلّال مجلّد ينادي عليه فعرضه على فرددته ردّ متبرّم[5] معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: أشتر مني هذا

---

(١) يميل.
(٢) ضعف.
(٣) رقيّ.
(٤) سهر.
(٥) متضجر.

فأنه رخيص أبيعكهُ بثلاثة دراهم وصاحبه محتاجٌ الى ثمنه. فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت الى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقراء شكراً لله تعالى ».

وعانى الشيخ الرئيس أسفاراً متعدّدة فتقلّب في مناكب الأرض ولقيّ من الامراء والرؤساء إعزازاً وحفاوة وعالج الأمين نوح بن نصر السامانيّ من مرضٍ صعب على يده فقرّبه وأذن لهُ بالدخول الى دار كتبه فلقى ثمّ من المؤلّفات الثمينة ما لا يوجد لهُ نظير ولا سمع باسمه أحدُ فأقبل على مطالعتها وتحصيل نخب فوائدها واتفق بعد ذلك ان احترقت تلك الخزانة فتفرّد إبن سيناء بما وعى في صدره من علومها. وتقلّد الوزارة بهمذان لشمس الدولة البويهي لكنّ الجند ثاروا عليه ونهبوا داره وأوثقوه وسألوا شمس الدولة قتلهُ فامتنع ونفاه طلباً لمرضاتهم. وتعاقبت عليه الحوادث بين عسر ويسر الى أن أعتُقل بقلعة بردجان على أثر وشاية بعض الأعداء فبقى فيها أربعة أشهر ثم أخرج وحُمل الى همذان ففرّ منها متنكّراً بزيّ الصوفية وقصد علاء الدولة بأصفهان فصادف في مجلسه الإكرام الذي يستحقه مثلهُ. وصنّف هناك كتباً كثيرة.

بيد أنّ ذلك الرجل الذي منّ عليه الخالق الجوّاد بنهاية المدارك الإنسانية وبلّغه من فضله غاية الغايات من العلوم البشرية بحيث كان معجزة الأيام الباهرة وآية بين الأنام من آيات الله النادرة كفر نعمة ربّه ولم يربأ بنفسه عن مقارفة الدنايا[١] المخزية والتمرّغ بالفواحش المندية[٢] فتهافت[٣] على الملاذّ

(١) قارف الذنب ارتكبه.
(٢) التي يندى لها الجبين ويستحى منها.
(٣) هجم وتساقط.

الحيوانية واستعبد لأمياله البهيمية وقد جرّ عليه ارتطامه بحمأة[1] الرذائل داءً عياءً حبط[2] دوب معالجته تدبيره وطبّه ولقي منهُ مضض الآلام وغصص المنون وكان فيه عطبه فهلك موصوماً[3] بصمة العار والاستهتار موسوماً[4] بسمة[5] شنعاء على ممرّ الأدهار.

ولإبن سيناء نحو مئة تصنيف أشهرها « كتاب القانون » في الطب يقع في أربعة عشر مجلداً و « كتاب الشفا » في ثمانية عشر مجلّداً جمع فيه العلوم الفلسفية واختصره « بكتاب النجاة » وهو ثلاثة مجلّدات وغير ذلك ممّا لا يسعنا تعدادهُ. ولهُ أيضاً نثر رائق ونظمٌ حسن.

---

(١) الحمأة الطين الأسود المنتن وارتطم بالحمأة تمرغ بها.

(٢) بطل.

(٣) هلاكهُ. (٤) ملطخاً.

(٥) وسمهُ جعل لهُ سمة أي علامة.

السُّهْرَوَرْدِيّ

(١١٩١م ٥٨٧هـ)

هو أبو الفتوح يحي بن حبش المعروف بشهاب الدين السُّهروردي. كان متضلّعاً من العلوم الحكمية جامعاً للفنون الفلسفية بارعاً في الأصول الفقهيّة مفرط الذكاء جيّد الفطرة فصيح العبارة لم يناظر أحداً إلّا بزّهُ[١] ولم يباحث محصّلاً إلّا أربى عليه. إلّا أنّه كان كثير التطّرف والتهوّر قليل التحفّظ في الجدال ولذلك قيل أن علمه أكثر من عقله فأدّى به الى التلاف.

وقدم شهاب الدين الشام وتوجّه الى حلب وناظر الفقهاء بحضرة الملك الظاهر إبن السلطان صلاح الدين الأيوبيّ فبان لهُ فضلٌ عظيم وعلمٌ باهر مكيناً عندهُ مختصاً به. فأكبر حساده الأمر وأكثروا من التشنيع عليه وعملوا محاضر[٢] بكفره وأفتوا بإباحة قتله ذاكرين انحلال عقيدته وما عُزي إليه من التعطيل[٣] واعتقاد مذهب الحكماء المتقدّمين وسيّروا كتاباتهم الى صلاح الدين بدمشق فورد جوابه الى الملك الظاهر بأمره بقتله فامتثل الأمر ووجّه الى شهاب الدين من حنقه ثم أُخرج وصُلب أيّاماً وكان لهُ من العمر نحو ستّ وثلاثين سنة فقُصف غصن شبابه الغضّ في إبّان إزهاره وطُرح في خلوات البلى وقد آذنت سنّه بإيناع أثماره.

---

(١) غلبهُ.

(٢) جمع محضر وهو شهادة خطية بواقع.

(٣) إنكار الخالق والقول بأزلية العالم.

ولشهاب الدين نظمٌ رقيق رائق منسجم نحا فيه منحى الصوفية في أشعارهم فإنهم يدّعون تورية ما يخالج صدورهم من لواعج الحبّ الالهي والتشوّق الى الإمتلاء من الحكمة تحت عبارات التدلّه[1] بالحبّ الجسدي والإستهتار[2] في وصف الخمرة وعجيب مفاعيلها في مدمنيها . . . ومن ذلك قوله من قصيدة:

أبداً تحنّ إليكم الأرواح ووصالكم رَيحانُها والراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم والى لذيذ لقائكم ترتاحُ

وهي طويلة منها:

عودوا بنور الوصل من غسق الجفا فالهجر ليلٌ والوصالُ صباحُ[3]
وتمتّعوا فالوقت طاب لقربكم راق الشرابُ ورقّت الأقداحُ

ومنها البيت المشهور:

وتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاحُ

وممّا يُنسب إليه وهو يجود بنفسه لمّا قُتل:

قل لأصحاب رأوني ميّتاً فبكوني إذ رأوني حزَنا
لا تظنّوني بأنّي ميّتٌ ليس ذا الميتُ والله أنَا
أنا عصفورٌ وهذا قفصي طرت منهُ فتخلّى رهَنا
وأنا اليوم أُناجي ملأً وأرى الله عياناً بهنا
لا ترعُكم سكرة الموت فما هي إلّا نقلةٌ من ههنا
عنصر الأرواح فينا واحدٌ وكذا الأجسام جسمٌ عمّنا
فارحموني ترحموا أنفسكم إعلموا أنّكم في أثرنا
وعليكم من كلامي جملة فسلام الله مدحٌ وثنا

---

(1) ذهاب العقل من الحبّ.
(2) إتباع الهوى دون مبالاة بقول الناس.
(3) الغسق ظلمة أول الليل.

الطُّوسِيّ

(١٢٧٤م ٦٧٢هـ)

هو أبو جعفر محمّد بن الحسن الملقّب بنصير الدين الطوسي الفيلسوف الرياضي الشهير. كان سمحاً كريماً حسن العشرة غزير الفضل ذا بسطةٍ في علوم الأوائل ولا سيّما في الأرصاد ونال عند هولاكو خان التتار حرمةً وافرة ومنزلة عالية بحيث احتوى على عقله حتى لم يكن يركب ويسافر الّا في وقت يأمرهُ بِهِ وولّاهُ جميع الأوقاف في البلاد التي تحت حكم المغول فرتّب في كلّ بلد نائباً يستغلّ الأوقاف ويأخذ عشرها ويحمله إليه ليصرفُهُ في أرزاق المقيمين بالرصد وما يُحتاج إليه من الأعمال في ذلك.

وابتنى الطوسيّ بمراغة بأمر هولاكو قبّةً ورصداً عظيماً أنفق في عمارته ما لا يحصيه إلّا الله وهو غير داخل فيما قرّرهُ من الرواتب للمنجّمين والحكماء والقَوَمة الذين استقدمهم من بلاد مختلفة. واتخذ في الرصد خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة على أثر الفتح المغوليّ حتى تجمّع فيها زيادة على أربع مئة ألف مجلّد انتزعتها حكمة نصير الدين من أيدي الجهل والهمجية فنجّاها من الإحراق والإتلاف.

ويُحكى أنّهُ لما أراد الطوسيّ أن يشرع في عمل الرصد ورأى هولاكو ما يعزم عليهُ قال لهُ: «هذا العلم المتعلّق بالنجوم ما فائدته أيَدْفَع ما قُدّر أن يكون» فقال: «أنا أضرب لك مثلاً. يأمر الخان من يطبع الى هذا المكان ويرمي من اعلاه طشت نحاس كبير من غير أن يعلم بِهِ أحد» ففعل فلمّا وقع

كانت لهُ وقعة عظيمة هائلة روعَت كلّ من هناك ما عدا هولاكو والطوسّي فقال لهُ: « هذه فائدة هذا العلم. يعلم المطّلع عليهِ ما يحدث فلا يحصل لهُ من الروعة ما يحصل للذاهل الغافلُ عنهُ » فقنع هولاكو وأمرهُ بالشروع بالعمل.

ولنصير الدين الطوسيّ تصانيف كثيرة في المنطق والطبيعيّات والالهيات والهندسة والهيئة منها: « التجريد » في الهندسة و « الإشراف » في التصوّف و « تجريد العقائد » في الكلام رتّبه على ستة مقاصد الأول في الأمور العامّة الثاني في الجواهر والأعراض الثالث في إثبات الصانع وصفاته الرابع في النبوة الخامس في الإمامة السادس في المعاد وهو أشهر مؤلّفاته وقد اعتنى به عدّة من فحول العلماء فعلّقوا عليهِ شروحاً وافية الحواشي ضافية. ولهُ كتب المتوسطات بين الهندسة والهيئة. ولهُ زيجٌ مشهور وضعهُ بالفارسيّة يُعرف « بالزيج الإيلخاني » نسبة الى هولاكو « إيلخان » المغول دوّن فيه نتائج مباحثه في الرصد الذي ابتناه بمراغة وقد نقله الى العربية عليّ بن محمّد الجرجاني وله مؤلّفات غير ما ذكر لا يسعنا عدّها.

هؤلاء مشاهير الفلاسفة في الدولة العباسيّة وقد مرّ بك جمهور غفير من الفقهاء والنقلة والاطبّاء كانوا جهابذة عصرهم في العلوم الفلسفية وأساتذة دهرهم في الفنون الحكميّة سواء كان في النظر أو في العمل. وسترى أن من نذكرُ من « الفلكيّين والرياضيّين » لم يقصّروا قط في هذه الحلبة الشريفة. وقد نال عدّةٌ منهم قصب السبق في السعي وراء الحكمة ضالّة أصحاب العقول الثاقبة من كلّ وملّة فضلاً عن تبريز كل منهم في فنّه.

الفَلَكِيّون والرِيَاضِيّون

مضت على بني الإنسان عصورٌ متطاولة وعلم الهيئة والنجامة عندهم شيئان متلازمان بل شيءٌ واحد وما كان الغرض من التبحّر في حركات الكواكب وتعيين مواقعها واستطلاع أحكامها سوى التمهّر في الوقوف على أحوال العالم السفليّ وإماطة اللثام[1] عن مخبّآت الغيب ومقدّرات المستقبل من مراقبة تلك الآثار العلوية. وقد رأيت أنّ أبا جعفر المنصور لم يكن يُقدم على أمر ذي بال إلّا بعد استنطاق النجوم وهو في ذلك تابعٌ لآثار من سبقه من الملوك كما أنّ من جاء بعده تُبع آثاره وأمّا العامة فهم أبداً على دين ملوكهم. وممّا يقضي بالعجب العجاب هو أنّ الأطبّاء أنفسهم كانوا يراعون أحوال النجوم في تدبير مرضاهم ومعالجتهم. قال إبن أبي أُصيبعة: « أنّ بختيشوع بن جبريل كان يأمر بالحقن والقمر متصل بالذنب[2] فيحلّ القولنج من ساعته ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة[3] الزهرة فيصلح العليل من يومه . . . » فانظر بعيشك أيّ علاقةٍ بين وجع البطن والقمر وكيف تؤثر مناظرة كوكبين في دواء يشربه عليل.

---

(١) اللثام ما على الفم من النقاب وأماط اللثام نحاهُ.

(٢) نقطة الذنب أبعد نقطة من فلك الى الشمس.

(٣) مقابلة.

غير أن كثيرين من عقلاء القوم ولا سيّما الأفاضل من رجال الدين كانوا يقولون ببطلان النجامة ويشدّد النكير على معتقديها وما كان نصيبهم من إذعان الناس إلّا نصيب القائلين بامتناع صناعة الكيمياء مع ما كان يجرى تحت حسهم من الحوادث التي كذّبت مزاعم المنجّمين تكذيباً فاضحاً وقد مرّ بك شيءٌ من ذلك في ترجمة أبي تمام. وروى أبو الفرج بن العبري أنه: «لمّا اشتد مرض الواثق أحضر المنجمين ومنهم الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا في مولده فقدروا أنه يعيش خمسين سنة مستأنفة[1] من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم إلّا عشرة أيّام . . . » ولكنّها الأهواء تعمي وتصمّ.

لكنما يجدر بنا أن نعتبر في هذا المحلّ أن نهوض جلّة من علماء العرب ينكرون النجامة والكيمياء كان فاتحة الطور الجديد الذي دخل فيه هذان العلمان. فهم الذين وضعوا فأس التحقيق في أساس تلك الخرافات التي كدستها العصور منذ عهد الكلدانيّين الى أيّامهم فزعزعوها ومحّصوا في بوتقة الإختبار الآراء الفائلة فجرّدوا كلا العلمين من الأكاذيب والأوهام الى أن وصلا شيئاً فشيئاً الى هذه الدرجة السامية التي نراهما فيها اليوم. فكان من النجامة علم الفلك ومن الكيمياء الوهميّة القديمة الكيمياء الحقيقيّة الحديثة.

ولا حاجة الى التنبيه فيما نظنّ أن فلكيّي العرب كانوا على مذهب بطليموس كما أنّ أطبّاءهم كانوا على مذهب جالينوس وكلا المذهبين مهجورٌ في أيّامنا ـ وأمّا الرياضيّات ففيما قلنا في مستهلّ[2] هذا الباب كفايةٌ لمعرفة ما للعرب من الفضل على العالم المتمدّن بالإحتفاظ بهذه العلوم وترتيبها واستنباط كثير من فروعها وترقيتها.

---

(١) مجددة. (٢) مفتتح.

أبناء شَاكِر

٢٦٠ هـ

هم محمّد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر. كان أبوهم موسى في غَلواء شبابه وشِرّته[١] لِصّا جريئاً مشيّع القلب يقطع الطريق على المارّة ليلاً ويسرع فيصلّي الصبح مع الجماعة في المسجد ليوهم الناس ويخفي حقيقة أمره ولا يزال سحابة نهاره في المدينة الى العشاء فيصلّي العتمة مع جيرانه ويخرج متنكراً ويعود الى سابق تلصّصه ثم ارعوى عن غوايته[٢] وحسنت توبته ولحق بالمأمون وكان بصحبته الى أن مات وخلّف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغاراً فعطف عليهم المأمون ووصّى بهم إسحاق بن إبراهيم المصعبيّ وأثبتهم مع يحي بن أبي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة وأرزاقهم قليلة كسائر أصحاب المأمون.

ونبغ بنو موسى بن شاكر في فنون عصرهم وكانوا نهاية في العلم والفضل وذوي همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل وأتعبوا أنفسهم ورحلوا في تطلّبها وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها لهم وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة بالبذل السنيّ فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحِيَل والنجوم وبرّز كلّ منهم بفنّ مع مشاركته في سائر الفنون فأبو جعفر محمّد وهو أكبرهم وأجلّهم كان وافر الحظ من الهندسة

---

(١) نشاطِهِ. (٢) ضلالِهِ.

والنجوم وأخوه أحمد برع في صناعة الحِيل وفُتح لهُ فيها ما لم يفتح مثله لأحد وانفرد الحسن وهو ثالثهم بالهندسة ورُزق فيها طبعاً عجيباً لا يدانيه أحد وكلّ ما حصّل منها وقف عليه بطبعه ولم يقرأ في الهندسة إلّا ستّ مقالات من كتاب إقليدس في الأصول فقط وهي أقلّ من نصف الكتاب ولكنّ ذكره كان عجيباً وتخيّله قويّاً. ويحكى أنّ حبشاً الحاسب المَرْوزيّ صاحب الزيج الممتحن عرّض أمام المأمون باجتزاء[1] الحسن عن كتب الهندسة بقراءة ست مقالات من إقليدس وأراد بذلك الغضّ من شأنه فقال الحسن: «يا أمير المؤمنين لم تسألني عن شكل من أشكال المقالات التي لم أقرأها إلّا استخرجته بفكري وأتيته بهِ. فما ضرّني ترك قراءتها وما نفعته قراءته لكلها إذ هو عاجزٌ عن استخراج أصغر مسألة في الهندسة» فقال المأمون: «ما أدفع قولك ولكني لست أعذرك ومحلُّك من الهندسة محلُّك أن يبلغ بك الكسل أن لا تقرأ الكتاب كلّه وهو الهندسة كحروف أ ب ت ث للكلام والكتابة».

ومن مآثر بني شاكر التي خلّدت لهم الذكر الطيّب في أندية العلماء قياسهم بإيعاز المأمون للدرجة من خطّ نصف النهار. وذلك أن المأمون إطّلع في كتب الأقدمين أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل[2] كلّ ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ. فسأل بني شاكر عن رأيهم في ذلك فقالوا لهُ: «نعم هذا قطعي» فقال: «أُريد منكم أن تباشروا اختبار ذلك بأنفسكم حتى نبصر هل يتحرّر ذلك أم لا» فسألوا عن الأراضي المتساوية في أيّ البلاد هي فقيل لهم: «صحراء سنجار في غاية الإستواء وكذلك وطآت[3] الكوفة».

(١) إكتفاء.
(٢) الميل ألف باع والباع أربعة أذرع.
(٣) الأراضي المنخفضة المطمئنة.

فأخذوا معهم جماعة ممّن يثق المأمون إليهم وجاءوا صحراء سنجار وأخذوا ارتفاع القطب الشماليّ وضربوا في ذلك الموضع وتداً ربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف الى اليمين واليسار على حسب الإمكان وما زالوا ينصبون الأوتاد ويربطون الحبال حتى انتهوا الى موضعٍ أخذوا فيه ارتفاع القطب فوجدوه قد زاد على الإرتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر من الحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل. ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدّوا فيه حبلاً وتوجّهوا الى جهة الجنوب وعملوا كما عملوا في جهة الشمال وقاسوا الدرجة هناك فاتّفق القياسان وصحّ حسابهم.

وعادوا الى المأمون وأخبروه بما صنعوا فطلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيّرهم الى أرض الكوفة وفعلوا هنالك كفعلهم في سنجار فتوافق الحسابان وعلم المأمون صحّة ما حرّره القدماء في كتبهم من مقدار دور كرة الأرض.

وكان لأبناء شاكر مرصدٌ على جسر بغداد أكثروا فيه من الرصود والتحقيقات. ولهم في العلوم التي كانوا يتعاطونها استنباطاتٌ ومؤلّفاتٌ تشهد لهم بانفساح الذرع وقوّة المدارك في العلميّات والعمليات.

وتُوفي أبو جعفر محمّد كبير أبناء موسى بن شاكر سنة ٨٧٣ مسيحيّة ٢٦٠ هجرية.

أَبو معشر البلْخِيّ

(٨٨٦م ٢٧٢هـ)

هو أبو معشر جعفر بن محمد البلخي المنجم. كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد يناوىء[1] أرباب العلوم ويضاغن[2] أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكنديّ ويغري به العامّة وشنّع عليه بعلوم الفلاسفة. فدسّ عليه الكنديّ من حسّن له النظر في الحساب والهندسة في ذلك ولم يكمل لهُ فعدل الى علم أحكام النجوم وانقطع شرّه عن الكنديّ بتعاطيه هذا الفنّ لانه من جنس علوم الكنديّ وهذه حيلة ظريفة للتملّص من أذى عدوّ دون الإلتجاء الى التدابير الخفيّة والدسائس الدنيّة التي طالما فزع منها أصحاب الغايات حتى أولئك الذين اشتهروا بالفضل والمعرفة وكانوا مظنّة الترفّع من وساوس الحسد ودنايا الوشايات.

ويُقال أن أبا معشر تعلّم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره وبرع فيها وصنف عدة كتب نشرت صيته في الآفاق واتصل ذكرهُ الى البلاد الإفرنج وهم يسمّونه « ألبومازر » ويعدّونه من مشاهير فلكي زمانه. ومن تآليفه « المدخل » في النجوم وكتاب « الألوف » وهو أشبه شيء بتاريخ علميّ صناعيّ ذكر فيه الهياكل والأبنية العظيمة التي يحدث بناؤها في العالم في كلّ ألف عام ولهُ زيج على مذهب الفرس في رصودهم. وتُروى عنهُ حكاياتٌ

---

(١) يقاوم.   (٢) يعادي ويبغض.

غريبة في كشف المخبآت والإطلاع على المغيّبات مهّدت لهُ سبل التزلّف الى ملوك زمانه ـ وأحلته عندهم محلّ الرفعة والتجلّة للإتفاع بنبوءاته . . . ويقال أنه أخبر المستعين بشيء قبل حدوثه وأصاب فيه فضربه أسواطاً ولذلك كان يقول « أُصبت فعوقبت » ويحكى أنه كان مدمناً لشرب الخمرة مشتهراً بمعاقرتها ويعتريه صرعٌ[1] عند الإمتلاءات القمريّة . . . ولعلّ الأقرب الى الصدق إن كان يتخبّطه الصرع حقيقةً أن يكون ذلك عند الإمتلاءات الخمرية إذ لا ندري ما العلاقة بين الصرع وامتلاء القمر. وعلى كلّ حال فإن صرعه لم يقصّر من أيّامه وقد مات وعمرهُ يجاوز المئة.

---

(١) داءٌ يفقد المصاب به شعوره وينطرح على الأرض مزبداً متشنج العضل.

البَتانيّ (٩٢٩م ٣١٧هـ)

وهو أبو عبد الله محمد بن جابر البتّاني ويسمّيه الأفرنج « الباتنيوس »».
أصلهُ من بَتّان وهي ناحية من أعمال حرّان وكان نسيج وحده وعلامة عصره في علم الهيئة ولا يُعلم أحدٌ من علماء الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها ولهُ من الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ما يدلّ على غزارة فضله وسعة علمِهِ. وباشر الرصد في الرّقةّ على الفرات مدة ثماني عشرة سنة وقيّد خلاصة اختباراته في زيجٍ يُعرف بالزيج الصابي لأنه نفسه كان صابئياً ككثير من أهل حرّان إلاّ أن اسمه يشير أنه أسلم ما لم يكن اتّخذه مجاراة لمن حوله من المسلمين كما كان يفعل عدة من علماء ملّته في ذلك العهد. والزيج الصابي نسختان أولى وثانية والثانية أجود من هذا الزيج إتخذ أبو القاسم مسلمة بن أحمد المرحيطي كتابهُ « إختصار تعديل الكواكب ».

وللبتاني في مؤلّفاته تصحيحات واستنباطات تشهد لهُ بالتبحّر في الهيئة والتضلّع من الرياضيّات وهو أوّل من استبدل أوتار القسّي بالجيوب في قياس المثلّثات والزوايا ولهُ غير ذلك مما لا نتعرّض لذكره لئلا نُدخل في هذا المختصر مصطلحات العلوم الخاصّة .

وتُوفي البتّاني عند رجوعه من بغداد الى الرقّة بموضع يقال لهُ قصر الحَضْر.

إبن الهيثم (١٠٣٨م ٤٢٩هـ)

هو أبو عليّ محمد بن الحسن بن الهيثم البصريّ المهندس. كان فاضل النفس مولعاً بالحكمة والنظر فيها قويّ الذكاء متفنناً في علوم عصره واسع التبحّر في الرياضيّات لا يبلغ شأوهُ أحدٌ من بني زمانه ولم يزل قط منقطعاً الى الإشتغال والتصنيف زاهداً في حطام الدنيا ومناصبها محباً للخير ونفع بني جنسه. ووزر مدة لأمير بلدته إلاّ أنّ هذه الخطّة لم تكن لتلائم أخلاقه فاعتزل الخدمة حباً بالنظر في العلم وقيل أنّه تحامق وأظهر خيالاً[1] في عقله ليُصرف ويُعفى من تعاطي مهامّ الوزارة ويُترك وشأنه يجالس كتبه ويناجي الحكماء الأقدمين.

وترامى صيت إبن الهيثم في الأنحاء وتُحدّث بفضله في أندية العلم ولهجت الألسنة بتفرّده في الهندسة والهيئة فرغب خليفة مصر الحاكم بأمر الله في رؤيته ولا سيّما بعد ما نُقل لهُ عنهُ أنّهُ قال: «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كلّ حالة من حالاته من زيادة ونقصان» فسيّر إليه الحاكم سراً جملةً من المال ورغّبهُ في الحضور. فرضيّ إبن الهيثم بالقدوم عليه وشخص الى مصر ولما وصلها خرج الحاكم بنفسه للقائه وأمر بإنزاله وإكرامه وأقام مدةً ريثما استراح ثم طالبه بما وعد به من أمر النيل فصدع إبن

(١) فساداً.

الهيثم بالأمر واتّخذ الأهبة للقيام بأعباء المهمة التي ألقاها على عاتقه فحشد جماعة من حذّاق الصنّاع ليستعين بهم على هندسة خطرت لهُ.

ولّما سار في الأقليم بطوله ورأى آثار الأمم الخالية من سكّانه على غاية من إتقّان الصنعة وإحكام الهندسة وإعجاز التصوير تحقّق أن ما يقصده غير ممكن وأنه لم يعزب[1] عن القدماء علم يعلمهُ هو ولو أمكن إجراء ما عنّ[2] لهُ لفعلوا ذلك قبلهُ. وتجسم لهُ خطأهُ وبطلان دعواه عند وصوله الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة أسوان وهو موضعٌ مرتفع ينحدر منه الماء بقوة هائلة. فعاين الشلاّل وباشره واختبره من جانبيه وأيقن أن العمل الذي حدّثته به نفسه ضرب من المحال لا يستقيم بوجه من الوجوه فأُسقط في يده وانكسرت همته وجمدت قريحته وعاد الى القاهرة خَجلاً مخذولاً واعتذر الى الحاكم عن تسرّعه في الوعد وعجزه عن إخراج فكره من النظر الى العمل. فقبل الخليفة معاذيره ووافقه على كلامه ولم يتناوله من الشدة لا بالقول ولا بالفعل وهو أمر عجيب لا يكاد يُصدّق عن رجل غريب الأطوار متقلّب الأخلاق سريع الغضب والبطش كالحاكم بأمر الله.

ثم تقدّم إليه الحاكم بولاية بعض الدواوين فتولّاها رهبة لا رغبة ورأى من بدوات[3] الخليفة وإراقته للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب يرد على مخيّلته الخبلاء ما تحقق معه غلطة في الولاية وأجال فكرته في أمر التملّص من هذه الضيقة ففتق لهُ تدبّرهُ العَود الى سابق حيلته بالبصرة فأظهر الجنون والإختلاط وشاع ذلك عنه فأُحيط على موجوده وجُعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه. ولم يزل على ذلك الى وفاة الحاكم فأظهر على أثرها العقل وعاد الى ما كان عليه فرُفع عنهُ الحجْر[4] واستوطن قبّة على باب الجامع الأزهر وانقطع

---

(١) يبعد. (٢) عرض.
(٣) الآراء والأهواء المختلفة.
(٤) حجر القاضي القاصر في ماله منعه من التصرف فيه.

الى العبادة والإشتغال بالعلم والتصنيف والإفادة.

وكان إبن الهيثم يكتب خطاً قاعداً في غاية الصحّة وينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن أشغاله وهي أقليدس والمتوسطات والمجسطي ويشكلها. وإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مئة وخمسين ديناراً مصرياً وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج الى مواكسة[1] ولا معاودة قول فيجعلها مؤونة لسنته. ولهُ تصانيف كثيرة مشهورة في فنون متنوّعة لا محلّ لاستيفائها ههنا منها كتاب في المساحة وكتاب في الشفق والفجر وكتاب في المناظر أي البصريّات ذكر فيه كثيراً من أحكام الإنكسار وفي هذا الكتاب حلّ المسألة المشهورة بمسألة الخازن والخازن لقب لإبنِ الهيثم ونصّ هذه المسألة هو « في أيّ نقطةٍ من المرآة المقعَرة ينبغي أن يقع الشعاع الآتي من جهة مفروضة حتى ينعكس الى نقطة مفروضة » وجاء في كشف الظنون من كلام عمر الخيّام عن هذه المسألة « أن أرشميدس لم يتفق لهُ حلّها بعد أن فكر فيها ملياً فجزم بأنه ممتنع حتى تبعهُ أبو جعفر الخازن وحلّها بالقطوع المخروطية ... »

---

(١) مناقصة.

عُمَر الخَيّام

(١١٢١م ٥١٥هـ)

وهو أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيّام الشاعر الفارسيّ المشهور بمربّعاته على مذهب الصوفية كان من أئمة عصره في الفلسفة والهيئة والرياضيّات وتلقّى العلوم في مدرسة نيسابور وهناك عرف طالبين أُعتد[١] لهما ذكر طبّق الخافقين[٢] وكتبت لهما شهرة ملأت الأسماع وتحدّثت بها الركبان وإن اختلفت وجهتها في كل منهما. أحدهما نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي وقد مرّ بك شيءٌ عن فضله وحسن سياسته والآخر هو اللص حسن بن صبّاح زعيم الفرقة الإسماعيلية الباطنية الملاحدة الحشّاشين أصحاب قلعة الموت ولهم في التاريخ ذكرٌ مشؤوم بما اجترحوا من المنكرات والفظائع . . . فآخى عمر الخيام هذين الشّابين وتوثّقت بينهم عرى الولاء واحتاطوا لأنفسهم من المستقبل فتعاهدوا أن من خدمهُ الدهر منهم وأقبلت عليه الدنيا يذكر رفيقيه القديمين ويمدّ لهما يد المساعدة. وإفترقوا على هذه المواعيد.

ودار الزمان دورانه وعانى الثلاثة غيره وحدثانه فرفعت أيدي الأقدار نظام الملك على مناكب السعد وبوأته مُبوّأ العزة والمجد فقصده عمر وتقاضاه الوعد فاحتفى به الوزير وعرض عليه رتبة في الدولة فأبى إلّا التفرّغ للعلم فأزاح لهُ صديقهُ علّتهُ[٣] وأجرى عليهِ رزقاً واسعاً كفاهُ مؤونة السعي وتجرّد للإشتغال

---

(١) هيّء. (٢) المشرق والمغرب.

(٣) أي أنه كان يمدّه ويزيل كل ما لعلهُ يمنعه عن التفرغ لمهمته.

والتبحّر في الفلسفة والرياضيات والنجوم حتى أصبح فيها قريع وحده وسمّاه إبن القفطيّ في تاريخه «إمام خراسان وعلّامة الزمان».

ألا أنّ عمر الخيّام كان واهي العقيدة دهرّي [1] المذهب مرمياً بالالحاد والتعطيل يستر زندقته تحت براقع التمويه من القول بتطهير الحركات البدنيّة لتنزيه النفس الإنسانية. فراجت أشعاره عند الصوفيّة أيّما رواج لما عُلم من تهافت هؤلاء القوم على كل ما يحرّر النفس من الشرائع ويرقّيها في غريب زعمهم الى عالم الروحانية حيث تسقط عنها المحظورات فلا إثم يأتون من المنكرات. وتحدث بكفر الرجل بين الناس وفساد آرائه وكادت تتهتّك أستار دهائه ورثائة فخشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه وحجّ تضليلاً للمقول وتبديداً لما تجمّع فوق رأسه من غيوم الأحقاد ملؤها الزوابع والصواعق ولما عاد من حجّة أظهر التديّن ولزم جانب الحذر واليقظة.

وكان عمر الخيّام شاعراً فصحياً وأكثر شعره في الفارسية وكان يؤثر النظم مربّعات مربّعات يودعها آراءه في الفلسفة والمذاهب. وهي عند الفرس بمنزلة أبي العلاء المعريّ عند العرب فإنّ فيها صدى التهكّم والهزء بالدين الذي إمتازت به اللزوميّات المعرّية. ولهُ في العربي شعر قليل منه:

إذا رضيت نفسي بميسور بُلغةٍ[2] يحصلها بالكدّ كفيّ وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلّها فكن يا زماني مُوعدي ومواعدي[3]
أليس قضا الأفلاك في دورها بأن تعيد الى نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً في مقيلك إنّما تخرّ ذراهُ بانقضاض القواعدِ[4]

---

(١) الدهري من ينكر الخالق ويقول بقدم العالم.
(٢) ما يتبلغ به من العيش أي يكتفي.
(٣) أوعدهُ بالشر هددهُ به وواعد الرجل صاحبهُ وعد كلّ منهما الآخر.
(٤) المقيل موضع القيلولة أراد به الجسم موضع إقامة النفس في هذه الحياة والذرى جمع ذروة وهي أعلى الشيء والإنقضاض السقوط.

وكان عمر الخيّام بارعاً في النجوم وله في هذا المعنى زيجٌ قيّد فيهِ فذلكة[1] أرصادهِ وسمّاه « الزيج الملكشاهي » نسبة الى مخدوم صديقهِ ولهُ في الرياضيّات مصنّف في الجبر لهُ شأن عند أرباب هذا العلم وقد نقلهُ الافرنج الى لغاتهم كما أنهم نقلوا أيضاً أكثر مربّعاته.

هؤلاء مقدّموا علماء الهيئة والرياضيّات في الدولة العباسيّة. وقد ذكرنا في الأبواب السابقة أفراداً أفاضل توسّعوا في هذه الفنون وأتقنوها وألّفوا فيها كالبيروني والقزوينيّ وثابت بن قرّة وغيرهم. وتعاطى الرياضيّات جمّ غفير من علماء العرب نبغوا في تلك الأعصر وكانت لهم فيها اليد الطولى وإن لم يدركوا الغاية التي سبق إليها هؤلاء الأعلام الأماثل.

ولم نتصدّ لذكر من اشتهروا بفنون ليست من غرضنا في هذا الكتاب كالبيزرة[2] والبيطرة والجواهر وغيرها والمشتهرون فيها على كلّ حالٍ آحادٌ قليلون. وهناك أشياء أُخر كانوا يتناقلونها ويسمّونها علوماً منها ما لا يخرج عن حدّ الجزئيات فلا يصحّ أن يطلق عليه أسم علم كعلم قلع الآثار مثلاً وعلم قوس قُزح ومنها ما بُني على الأوهام كعلم تفسير الأحلام والسيمياء والرمل والجفر والفِلَقْطيرات والزايرجة[3] الى ما هنالك من الخرافات والأضاليل.

---

(١) خلاصة وهي مأخوذة من قول الحاسب إذا فرغ من حسابه: فذلك كذا وكذا.

(٢) راجع تحديد البيزرة في ترجمة أبي الفرج الأصفهاني.

(٣) السيمياء غير الحقيقي من السحر يراد به إظهار خيالات لا وجود لها حقيقة الى غير ذلك من الأوهام. وعلم الرمل يبحث فيه عن الحوادث المجهولة بمد خطوط في الرمل على هيئات خاصة. وعلم الجفر يبحث فيه عن الحروف من حيث هي دلائل على مستقبل الحوادث الى انقراض العالم. والزايرجة شبكة مربعة تشتمل على مئة بيت يرسم في كل واحد منها حرف مفرد ويستدل بها على الغيب. والفلقطيرات يبحث فيها عن إحداث تأثيرات خاصة بخطوط طويلة تعقد عليها حروف وأشكال مختلفة . . . (عن كشف الظنون بتصرف) ـ وأعلم أن الفلقطيرات (بكسر ففتح فسكون) هي في الأصل قدد من الرق كان اليهود يكتبون فيها آيات التوراة ويعتصبون بها أو يعقدونها على شمائلهم عملاً بحرفية ما جاء في ناموس موسى (تثنية ٦:٨) =

ونوصد ههنا باب الكلام على « اللغة في الدولة العباسيّة » راجين أن يكون فيما ذكرناه كفاية للوقوف على منزلة القوم من الآداب والعلوم ومكانهم من الأمم الراقية التي أتقنت الفنون والصنائع ووسّعت نطاق العلوم وفسحت لأرباب البحث والإجتهاد في ميدان العمران فجالوا جولات الفرسان المقاديم وخطوا خطوات الشجعان اللهاميم[1] فخدموا المدنيّة خدماً جليلة وحُمدت مساعيهم وغاياتهم النبيلة. ولا يخفى أن العرب كانوا في الأجيال المتوسّطة ولا سيّما في المدة العباسيّة الزاهرة الأمة القويّة الوحيدة التي أحلّت العلم من نفسها محلّ الإجلال والإعزاز وحرصت على إقتنائه والإزدياد منه فأوضحت معالمه وآثاره ورفعت بين الشعوب مناره على حين كانت أكثر الأمم منجحرة[2] في مغاور الجهالة لا همّ لها بغير ما قرب من حاجيّات المعاش.

وخلاصة القول أن العلم كان رائد العرب وحليفهم أينما بدت جنودهم وخفقت بنودهم وقد سجّل لهم التاريخ من آيات الهمّة القعساء[3] ما يستنطق الألسنة بطيّب الثناء على تراخي الأحقاب[4] وخلّدوا لأنفسهم من المآثر الغراء ما تتعطّر بذكره الأفواه على توالي الأعقاب.

= وآل بهم الأمر الى اعتبارها أحرازاً واتخاذها تمائم ... وكان الفرّيسيون يبالغون في إتقان هذه القدد ويكبرون حجمها على ما هو معروف من أطوارهم وولوعهم بالمباهاة في حفظ الشريعة ووقوفهم عند ظواهرها ومن ثم استهدفوا لتقريع السيد لهُ المجد وتوبيخه إياهم بتعريض فلقطيراتهم (متى ٣٢:٥).

(١) جمع لهميم بالكسر وهو الجواد من الناس والخيل.

(٢) إنجحر الضب في جحرهِ أي مأواهُ.

(٣) الثابتة العظيمة.

(٤) جمع حقب بالضم وهو المدة من الدهر.



اللغة في الأندلس

دخل العرب الأندلس وأمراؤها في شقاق ونزاعٍ وعداء وإندفقت عصاباتهم في أرجائها اندفاق السيل الجارف إنقضّ من قممِ الجبال الى عرض الصحراء وأبدوا في مواقف القتال من الصبر والإستهانـة بالموت ما فشلت دونه الجحافل الدهماء[1] وأُتوا نصراً مبيناً وفتحاً جليلاً على أثر معارك خاضوا غمراتها خوض الأبطال الأشداء وخرجوا من معامعها خروج الأسود خُضبت لبداتها[2] بالدماء فازدادت هيبةً وجلالاً وألقت الذعر في قلوب الأعداء وكأن ما وقع في أيديهم من نفائس الأعلاق[3] شحذ فيهم نهمة الفتح وشهوة الإستيلاء فسوّلت لهم نفوسهم التوسّع في بلادٍ خلعت عليها الطبيعة زخرفها فكانت آية البداعة والبهاء بما خصّها الخالق عزّ وجلّ من طيب التربة ورقّة الهواء وصفاء الماء. وذكّرتهم مدنها المنبسطة في تلك الرياض الأريضة[4] بدمشق وغوطتها[5] الغنّاء ومثّلت لهم غياضها النضرة مروج الشام وربوعها الفيحاء. فجعلوا يتوغّلون في تلك الآفاق وأينما حلّوا فالفتح أليفهم وكيفما

---

(١) السوداء الكثيرة العدد.
(٢) الشعر المتلبد بين أكتافها.
(٣) جمع علق وهو النفيس من كل شيء.
(٤) الكثير العشب الحسنة في العين.
(٥) الغوطة ما يُحيط بدمشق من الرياض والبساتين.

انقلبوا فالنصر حليفهم حتى وطئت أقدامهم ما وراء الجبال البيرينيّه وهدّدوا القارة[1] الأوروبيّة جمعاء فمادت[2] لوقع حوافر خيلهم عروش من هنالك من الملوك والأمراء وأيقنوا بدنّو الأجل وحلول القضاء.

واستطار الرعب في بلاد الأفرنج من جرأة أولئك الفاتحين وإقدامهم وخاف زعماء القوم إن هم تخاذلوا وتواكلوا[3] أن يحلّ بأوطانهم ما حلّ بممالك الشرق من الإنحلال والإضمحلال فألّبوا[4] جموعهم ولمّوا أطرافهم تحت قيادة بطل شهير منهم يُعرف بشرل مرتل وكان أمير العرب يومئذٍ عبد الرحمن الغافقي والتقى الجيشان في سهول بواتياي وقد سمّاها العرب بلاطة الشهداء. ودارت بين القومين رحى حرب طاحنةٍ رخصت فيها أرواح الأبطال وشابت من أهوالها رؤوس الأطفال واستقتل كلا الخصمين في ساحة الوغى وأبدوا من آيات البأس والجلادة ما يعجز عن وصفه أفصح لسان وخلّدوا جميعاً لأنفسهم من معجزات الشجاعة ما سُجل بمداد الفخر في جبين الدهر الى منتهى الأزمان. كتب الله النصر لجيوش شرل وما النصر إلاّ من عند الله فانكفأ العرب ناكصين على مطامعهم وحسبهم ما دخل في حوزتهم من البلاد الواسعة يصونونها من هجمات الأعداء ويرتعون في جنباتها الفسيحة دهراً طويلاً في الرخاء والهناء الى أن يحلّ في مملكتهم هذه الإنحطاط والتضعضع فتعود الى أصحابها الأولين كأن لم تغن بلأمس. وأنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وهو خير الوارثين.

وتعاقب الولاة على الأندلس من لدن خلفاء دمشق حتى اضطرب حبل الدولة الأموية وأدال الله للهاشميّة[5] فبذل أبو العباس السفّاح السيف في بني

---

(١) أحد أقسام الأرض الخمسة.

(٢) إهتزّت.

(٣) اتكل بعضهم على بعض.

(٤) جمعوا.

(٥) جعل لهم الدولة والهاشمية هم بنو العباس ولد هاشم أبي عبد المطّلب جد محمد نبي المسلمين.

أمية تخلصاً من أحزابهم ودهائهم ونجا من المذبحة واحدٌ منهم أسمه عبد الرحمن وهو إبن معاوية بن هاشم بن عبد الملك بن مروان وأتى بلاد المغرب ومنها أبحر الى الأندلس ونودي به خليفة في حديث طويل لا محلّ لاستيفائه ههنا ولُقّب بالداخل. ورسخت قدم الأمويين هنالك وأنشأوا مملكة مستقلّة بذلوا في ترقيتها وإعلاء شأنها ما شاء دهاؤهم وسخاؤهم وغيرتهم على تحدي[1] العباسيين ومباهاتهم في ضخامة الملك واتّساع العمران.

وكان للآداب من تلك المباراة أوفى حظٍ وأوفر عائدة[2] فإنّ خلفاء الأندلس ورثوا عن أجدادهم الدمشقيّين أخلاقهم ومناقبهم وضروب سياستهم من الإستظهار بأرباب العلم لتوطيد أركان سيادتهم ولم يألوا جهداً في تنشيط العلماء وإجلال مقامهم حرصاً على ما يلحق الملك من الأبهة والمجد من استبحار المعارف والفنون حول العرش وخشيةً من أن يفوتهم شيءٌ من الفخر الباذخ الذي ضرب سرادقه[3] على الخلافة العباسيّة إبّان زهوها وازدهار العلوم فيها. وقد قام منهم من جارى مشاهير خلفاء بغداد في الإستكثار من أسباب المدنيّة والتبسّط في أطراف الحضارة من الماديّات والأدبيات كالناصر وإبنه الحكم ويشبهونهما بالرشيد والمأمون. وصرف بنو أميّة ما أوحت لهم أريحيّتهم وكبرياؤهم وأثرتهم[4] في تزيين قرطبة مقرّ الخلافة المروانيّة وقد أنفقوا في ذلك من الأموال الطائلة ما لا يكاد يصدّق لولا بدائع الآثار القائمة الى أيّامنا الناطقة بما كان لرافعيها من إنفساح الذرع في إتّقان كماليّات العمران وتوسيع نطاق الصنائع. وقد شفعوا[5] تأنّقهم في المباني بالإحتفال للآداب ورفع منارها.

---

(١) مباراة. (٢) منفعة.
(٣) السرادق ما يدار حول الخيمة من شقق بلا شقف.
(٤) الأثرة إختصاص المرء بنفسه بأحسن الشيء دون غيره.
(٥) شفع الشيء زاد عليه مثله.

وكان البادىء بنشر ألوية العلم والداعي إليه الخليفة الناصر. وخلَفَهُ إبنه الحَكَم فأتمّ ما شرع فيه والده وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جمّاعاً للكتب على اختلاف أنواعها بما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبلهُ.. وبلغ من حرصه على حشد الكتب أنه بعث في شرائها الى الأقطار الشاسعة رجالاً من التجار يزيح علتهم[1] ويحمّلهم الأموال الوافرة فيجوسون[2] أنحاء أفريقيا ومصر وفارس وسائر البلاد العربيّة يطلبون المؤلّفات النفيسة في مظانّها ويحتالون في ابتياع ما يظفرون به مهما كان فاحش الثمن ويبذلون فيه عن يد حتى جمعت الخزائن الملوكية بقرطبة أربع مئة ألف مجلّد وقيل ستّ مئة ألف رُتّبت على حسب الأغراض والمواضيع وبلغت فهارس الدواوين وحدها أربعة وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة - وكان الحَكَم من الغيرة على مطاولة بني العبّاس بحيث أوفد الى أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير وهو أمويّ النسب من يسأله نسخه من كتابه قبل أن يظهره في العراق ويخرجه الى ملوك الشرق ونضحه في ذلك بألف دينار من الذهب العين. وجمع بداره الحذّاق في النسخ والمهرة في الضبط والمجيدين في صناعة التجليد وجعل عليهم قيّماً يشارف أعمالهم ويتقاضاهم الأحكام والتأنّق فيما عُهد إليهم ويوزّع عليهم الأرزاق.

ولمّا كان الناس على دين ملوكهم ولا سيّما في تلك العصور دبّ في الرعية حبّ العلم وأخذوا هم أيضاً ينافسون في اتخاذ خزائن الكتب وتحصيل المصنّفات النفيسة والمباهاة بها وإن لم يكونوا من حملة العلم. وصار اقتناء المكاتب من أسباب التجمّل والإفتخار وآلات التعيّن والرئاسة حتى كان الرئيس منهم الذي لا معرفة عندهُ يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب منتخبة ليقول الناس « إنّ عند فلان خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند أحدٍ غيره والكتاب الذي هو بخطّ فلان قد حصّلهُ وظفر بهِ » - وقامت بقرطبة سوق رائجة للورّاقين والكتبيّين يقصدها أصحاب هذا الشأن ويتنافسون في شراء

---

(١) يمدهم بما يزيل كل علة تمنعهم من القيام بمهمتهم.
(٢) يطوفون.

الكتب ويتغالون بأثمانها الى حدّ غريب. واشتهر أهل قرطبة بالحرص على جمع الكتب كما اشتهر أهل إشبيلية بالإقبال على الغناء وإتقان آلاته فكان إذا مات عالم بإشبيلية وأُريد بيع كتبه حُملت الى قرطبة وإذا مات مطرب بقرطبة وأُريد بيع تركته حُملت الى إشبيلية . . .

ولا حاجة بعد ما ذكر من استحكام الحضارة واستبحار العمران في الدولة الأندلسية أن نفيض في إطراء الشعراء وأناقتهم في وصف ما يقع تحت أبصارهم في معجزات الصناعة وتغنيهم في الكلام على ضروب شتّى فإن ما قلنا عن شعراء الدولة العباسية يصدق عليهم تمام الصدق وما التاريخ إلاّ دولاب يدور ويعيد نفسه. لكنها يجدر بنا أن نعتبر في شعراء الأندلس بلوغهم أعلى درجات الرقّة والظرف وهم الذين تلاعبوا بأوزان الشعر واخترعوا هذه الموشّحات المطربة والأزجال البهجة فجاءت أعذب من الماء الزلال على كبد الظمآن وأفتن من السحر الحلال لقلب الولهان[1]. وقد قاطعوا[2] فيها أوزان القصائد العربيّة البدويّة وخرجوا عن الدائرة التي حصر فيها شعراء الشرق أنفسهم فكان خروجهم عن تلك الطريقة المطروقة دخولاً في سبيل الترقّي والكمال وبدعة تشهد للصادعين بها بالفضل الجسيم على مرور الأجيال على حين لا يكون نصيب أصحاب البدع سوى الخذلان والإبتذال[3].

بيد أنّ الاندلسيّين الذين حرّروا أنفسهم من ربقة[4] التقليد والمحاكاة في الشعر كانوا أبعد الناس عن الأخذ بالبدع فيما يتعلق بالدين فليس ثمّة من شأن يُذكر لتلك النحل العديدة التي انتعشت[5] بها المملكة الإسلامية بالشرق ولم يكن سوى مذهب السنة مذهباً للجميع. وأمّا الذين أخذوا ببعض

---

(١) وَلَهَ حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله.
(٢) تركوا أو هجروا. (٣) الإمتهان.
(٤) عروة في الحبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها.
(٥) تحركت وماجت.

المذاهب الشاذّة كالإعتزال والظاهريّة فهم بعض رجال أحبّوا الأغراب والتفرد عن سائر القوم فجاهروا بما يخالف المعتقد العام طلباً لالتفات الجمهور وإثارة لأحاديث الناس وجاء في المثل « خالف تُعرف » ولم يكن نصيب هؤلاء الأفراد المتحيزين[1] بهذه المذاهب من قبل العامّة سوى الإنكار والإستهجان والنقمة وتلقّي كتبهم بالترك والإزدراء. وما زال الفقهاء هنالك أصحاب الكلمة العالية ومحتكري السيطرة على الآراء والأقوال. ولا ندري لو عاش المعرّي في الأندلس هل كان يقوم جمهورٌ غفيرٌ من الشعراء وفيهم الفقهاء فيرثونه بالقصائد الطنّانة ويبكون لفقد أمرىءٍ لم يترك عقيدة حتى من عقائد الإسلام إلّا رماها بسهام الهزء ونبال الطعن.

وأمّا الفلسفة فتاريخها في الأندلس هو نفس تاريخها في الشرق. غير أنّه كان الفقهاء هنالك أشدّ سطوة وأقوى نفوذاً لم يجسر الخلفاء على التظاهر بها وكثيراً ما أوهموا العامّة أنهم مبغضون للفلسفة ناقمون على أهلها وهم يتعاطونها سراً ويحرصون على كتبها الى حدّ الكلف. وكان إذا أحبَّ ملك أن يتقرّب الى الشعب ويزيل شبهة علقت بقلوبهم عليهِ تقدّم الى فقيه بتفحص خزانة وإحراق ما لعلّه يكون فيها من مؤلّفات الحكمة. ولا حاجة الى القول أنّه احتاط قبلاً ورفع شيئاً كثيراً منها وجعلهُ حيث لا تقع عليه عين ولا تصل اليه يد. ولم يقم في الأندلس من تجرّأ جراءة المأمون وتطرف تطرّفه في مسألة خلق القرآن لكنهُ قام من قفا آثار المتوكّل في تعقّب الفلاسفة والإيقاع بهم والتضييق على الآخرين بأقوالهم ولم يكن ذلك ليقطع دابرهم بل كان من الإضطهاد بالأندلس ما كان فيه بالشرق فزاد القوم رغبة في قراءة الفلسفة وولوعاً بتعاطيها ـ وكلّ ممنوع مرغوبٌ فيه.

ولقي علماء الهيئة ما لقي الفلاسفة من إرهاق[2] العامّة وتحاملهم عليهم وتقصّدهم أيّاهم بالأذى حتى أُلجئوا الى التستر اتّقاء شر الغوغاء وكلّما قيل:

---

(١) المنحصرين والمنفردين في مكان بمعزلٍ عمن سواهم.

(٢) ظلم.

« فلان يقرأ الفلسفة ويشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة إسم الزنديق وقيّدوا أنفاسه فإذا زلّ في شبهةٍ رجموه بالحجارة وأحرقوه قبل أن يصل أمره الى السلطان. وكأنّ عامّة الأندلس تفرّدوا بعصبيّتهم للدين حتى أخذوا على أنفسهم السهر في إقامة حدوده وتقويم أَوَد[1] المنحرف عن الصراط المستقيم ولو كان السلطان نفسه بحيث لو ولج[2] في شيء منكر دخلوا عليه قصرهُ المشيد لا يعبأُون بخيله ورجله وأخرجوه من بلدهم صاغراً ذليلاً. وأمّا القضاة والولاة المتهاونون على رأيهم فأقل ما يلحقهم الرجم. ولا ريب أنّ ما يروى عنهم من هذا المعنى كان في طور هرم الدولة وتضعضع أركانها إذ عمّت الشطارة[3] واستفحلت اللصوصية وسوّلت للرعاع نفوسهم مباشرة السيطرة على سراة[4] القوم وأفاضلهم. وإذا سادت الغوغاء فعلى الدولة والآداب السلام.

وأخذت الخلافة المروانية بعد وفاة الحكم بن الناصر تنحطّ شيئاً فشيئاً وقلّت عصبية العرب لها لأسباب ليست من شأننا فتقلّص ظلّها[5] وتجاذب أطراف المملكة جماعة من الأمراء فتقطّعت أوصالها واقتسموها فيما بينهم فأضحت إمارات صغيرة مستقلةً عرف أصحابها بملوك الطوائف ـ وطمع هؤلاء الملوك بتقيّل[6] الخلفاء الذين رفعوا منار المعارف وأحاطت بهم هالة[7] من العلماء الأماثل برزوا من مركزها بمجالي[8] الأبهة والجلال فاحتفل كلّ منهم

---

(1) إعوجاج.
(2) دخل.
(3) إشراف.
(4) الدهاء والخباثة.
(5) زال عزّها.
(6) تقيّل فلاناً فلاناً تشبه به.
(7) الهالة دارة القمر.
(8) مظاهر.

بالعلم وأجلّ أربابهُ فكان للآداب العربيّة من هذا التنافس سهمٌ رابح لولا أنّ انقسام المملكة أدّى الى خرابها. فتوالت هجمات الافرنج على تلك الامارات وجعلوا يتناوشونها[1] الواحدة بعد الأخرى حتى سقطت في أيديهم جميعاً. وآخر مدينة ضيّقوا عليها الخناق ودخلت في حوزتهم هي غرناطة أخذوها من يد أبي عبد الله محمد بن عليّ وكان ذلك آخر عهد العرب في الجزيرة.

وقد نبغ بالأندلس علماء أفاضل تبسّطوا في كلّ علم وفنّ فكان منهم الفلاسفة والأطبّاء والفلكيّون والمؤرّخون فضلاً عن علماء الدين والأدب من حافظين وفقهاء ولغويّين وشعراء. وسنذكر ههنا أفراداً من أرباب كلّ فنّ على قدر ما يتّسع لذلك هذا المختصر وبالله التوفيق.

---

(١) يتناولوها.

الأدباء

إبن عَبْدِ رَبِّهِ (٩٣٩م ٣٢٨هـ)

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأموي بالولاء. ولد بقرطبة وأقبل على الأدب فأتقن أداته وتضلّع من فنونه ووعى في صدره من أخبار العرب وأشعارهم ولغاتهم ما تفرّد به بين علماء عصرِهِ ورفع شأنهُ عند أدباء مصرهِ. ولهُ في الأدب مؤلّف نفيس شهير سمّاه « العقد الفريد » تأنّق في تأليفه وضمّنه كنوز علمِهِ وروايته فجاءَ خلاصة الفنون الأدبية ولباب البلاغة العربيّة. وقد رتّبه على خمسة وعشرين باباً وسم كل بابٍ بجوهرة من جواهر العقد ـ اللؤلؤ والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة والزمرّدة والدرّة واليتيمة والعسجدة والمجنّبة والواسطة ثم المجنّبة الثانية فالعسجدة الثانية الى اللؤلؤة الثانية وهو كتابٌ مشبع الفصول حاوٍ من الأغراض المتشعبة والمواضيع المتنوّعة كلّ ما يتوق الى معرفته أريب ويتشوف[1] الى الإطّلاع عليه أديب وقد طابق الإسم مسمّاه وصدق مؤلفه فيما أدعاهُ فهو في الحقيقة عقدٌ أستخرج دررهُ اليتيمة من بحر علمه الزاخر ونظم فرائده الكريمة في سلك مقاله الفاخر وقلّده جيد اللغة العربيّة فراع حسنها الباهر وتألق بلآلئه العصماء[2] نحرها الزاهر.

---

(١) يتطلّع إليه.

(٢) العزيزة الوجود.

ولإبن عبد ربّه نظم كثير البهجة رقيق الحواشي عذب اللفظ نبيه المعنى فمن ذلك قولهُ:

ألا إنّما الدنيا نضارة أيكة[1]	إذا أخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ
هي الدار ما الآمال إلّا فجائع	عليها ولا اللذات إلّا مصائبُ
فكم سخّنت بالأمس عيناً قريرة	وقرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ[2]
فلا تكتحل عيناك فيها بعَبرة[3]	على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

ومن شعره قولهُ وقد أشرف على الموت:

كِلاني لما بي عاذليّ كفاني	طويت زماني برهةً وطواني
بليت وأبليت الليالي مكرهاً	وصَرفان للأيام معتوراني[4]
ومالِيَ لا أبلى لسبعين حجةً	وعشرٍ أتت من بعدها سنتانِ
وإنّي بعيون الله راجٍ لفضلهِ	ولي من ضمان الله خير ضمانِ
ولستُ أُبالي من تباريح[5] علّتي	إذا كان عقلي باقياً ولساني

ويُروى أن الخطيب أبا الوليد بن عيال الأندلسي حجّ وعرّج في منصرفه على مصر ورأى فيها أبا الطيّب المتنبيّ ففاوضه قليلاً ثم قال لهُ المتنبي: «أنشدني لمليح الأندلس» يعني إبن عبد ربّه فأنشده أبو الوليد شيئاً من شعره فاهتزّ لهُ المتنبي واستعاده وقال: «يا إبن عبد ربه لقد أتيتك العراق حبواً[6]» وكفى بشهادة أبي الطيّب دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه في علوم الأدب.

---

(١) الأيك الشجر الكثير الملتف والواحدة أيكة.
(٢) عين قريرة أي مسرورة وسخن عينهُ أحزنهُ.
(٣) العبرة الدمعة واكتحلت العين بها ذرفتها.
(٤) بُلِيَ مُنِيَ ومكرهاً مغصوباً والصرفان الليل والنهار واعتوره تداوله وتعاطاه.
(٥) جمع تبريح وهو السدة.
(٦) حبا الولد زحف على يديه وبطنِهِ.

إبنُ هَانِء

(٩٧٢م ٣٦٢هـ)

هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي. ولد بأشبيلية وبها نشأ وتأدّب وقال الشعر فبرّز فيه وفاق وترامى صيته في الآفاق واتصل بصاحب أشبيلية فحظي عندهُ ونال رفدهُ وبسم لهُ الدهر فانقاد إليهِ وانهمك في الملاذّ وأخذ بمذهب الفلاسفة وشاع ذلك عنهُ فنقم عليهِ أهل أشبيلية وساءت مقالاتهم في حقّ الملك بسببه واتهموه بإتّباع مذهب. فأشار عليه الأمير بالتغيّب مدةً ريثما يسكن ثائر القوم وتكف الألسنة عن اللوم. فخرج ابن هانىء الى عدو[١] المغرب فلقي القائد جوهراً فاتح مصر الشهير فمدحهُ بقصائد طنّانة ثم تقلّبت بِهِ الأحوال وخدمته الدنيا ونما خبره الى المعزّ لدين الله العبيديّ فطلبه ولّما انتهى إليه غمرهُ بالإنعام ولإبن هانىء فيه مدائح غرّاء قدح فيها زناد الفكر ونصّلها فرائد ونظمها قلائد زان بها جيد الشعر.

ثم توجّه المعز الى الديار المصريّة على أثر فتح جوهر لها فشيّعه إبن هانىء وافترقا على أن يلتقيا بمصر وعاد لأخذ عياله والإلتحاق به فتجهّز وتبعه. ولّما وصل الى برقة أضافهُ شخصٌ من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس الأنس يقصف[٢] ويلهو غير دارٍ أن الموت بالمرصاد يتربّص ولا يسهو. وأختلف في ميتته فقيل أن أهل ضيافته عربدوا[٣] عليه وقتلوه وقيل خرج من الدار وهو

(١) شاطىء.

(٢) يأكل ويشرب. (٣) ساءوا خُلقاً.

سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً وقيل أنهُ وجد في سانية[1] من سواني برقة مخنوقاً بتكّة سراويله.

ولإبن هانىء درجة عالية في الشعر وهو زعيم شعراء المغرب غير منازع وهو عند المغاربة كالمتنبيء عند المشارقة ولذلك كثيراً ما يُسمّى « متنبىء الغرب » ووجوه الشبه بين الرجلين كثيرة فكلا الرجلين ترقى من دركات العامّة الى درجات الخاصّة ببراعته في الشعر وعلوّ كعبه في المدح وإفراطه فيه مراراً الى حدّ الخروج عن الصدد القويم والأخذ بالأغراق والغلوّ الذميم وكلاهما جالس الأمراء ونادم الملوك وأحسن وصف ما يسمع ويرى وكانا متعاصرين وأُتيح لكل منهما أن يلقى منيّته اغتيالاً[2] بيد عدو نذل دنيء وهو في كمال العمر وتناهي القوى والمدارك فإنّ المتنبي قُتل وهو في الخمسين من عمرِهِ وقُتل إبن هانىء وعمرهُ ستٌّ وثلاثون وقيل إثنتان وأربعون سنة ولعلّ في تفاوت الأيّام سرّ تقصير المتنبىء الغرب عن متنبىء الشرق وأن كان ثمة فروق أُخر ينفرد بها أبو الطيب عن مواقف الأشبه ويتسنّم من الفضل ذروة لا يعلو إليها سواه ـ ويقال أنّه لمّا بلغت المعزّ بمصر وفاة شاعره تأسّف عليهِ كثيراً وقال: « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدّر لنا ذلك » ومن شعر إبن هانىء قولهُ وقد وجّه المعزّ قائدهُ جعفر لفتح مصر:

رأبت بعيني فوق ما كنت أسمع	وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ[3]
غداةً كأنّ الأفق سُدّ بمثلِهِ	فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ
فلم أدرِ إذ سلّمت كيف أَشيّعُ	ولم أدرِ إذ شيّعتُ كيف أُودِّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجّةٌ	وإني بمن قاد الجيوش لمولعُ
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوهرٍ	تخبّ المطايا فيه عشراً وتُوضعُ[4]

---

(١) ساقية أو ناعورة. (٢) على غفلة. غدراً.

(٣) الحشر يوم البعث وأروع مخيف.

(٤) تخبّ تسير الخبب وهو أن يقوم الفرس مرة على إحدى رجليهِ أو يديه ومرة على الأخرى والمطايا الدوّاب التي تُركب وتوضع تسرع في سيرها.

ومنها يذكر المعزّ:

لقد جلّ من يقتاد ذا الخلق كلّهُ ... وكلٌّ لهُ من قائم[1] السيف أطوعُ
تحفّ بهِ القوّاد والأمر أمرهُ ... ويقدمهُ رأي الخلافة أجمعُ
ويسحب أذيال الخلافة رادعاً ... بهِ المسك من نشر الهدى يتضوّعُ
لَهُ حلل[2] الإكرام خصّ بفضلها ... نسائج بالتبر المشهَّرِ تلمعُ
برود أمير المؤمنين برودهُ ... كساهُ الرضى منهنّ ما ليس يُخلعُ
وبين يديه خيله بسروجهِ ... يقاد عليهنّ النضار[3] المرصَّعُ
وأعلامهُ منشورةٌ وقبابهُ ... وحجابهُ تدعى لأمرٍ فتسرعُ
مليكٌ ترى الأفلاك دون بساطهِ ... وأعناقهم ميلٌ[4] الى الأرض خُضَّعُ
قياماً على أقدامها قد تنكّبت ... صوارمها كلُّ يطيع ويخضعُ[5]
تحلّ بيوت المال حيث محلُّهُ ... وجمّ العطايا والرواق المرفّعُ
إذا ماج أطناب السرادق بالضحى ... وقامت حواليهِ القنا تتزعزعُ[6]
وسلّ سيوف الهند حول سريرهِ ... ثلاثون ألفاً دارعٌ ومقنّعُ
رأيتَ من الدنيا إليهِ منوطةً ... فيمضي بما شاء القضاءُ ويصدعُ[7]
وتصحبه دار المقامة حيثما ... أناخ وشمل المسلمين المجمّعُ[8]
وتعنوا له السادات من كل معشر ... ولا سيّد منهُ أعزّ وأمنعُ

ولهُ على هذا الطراز البديع شيءٌ كثير.

---

(١) مقبض.
(٢) حلل جمع حلة وهي الثوب الجديد ونسائج جمع نسيجة وهي الأثواب المحوكة والتبر الذهب.
(٣) الذهب.
(٤) جمع أميل بمعنى مائل.
(٥) تنكب السيف جعله على منكبه والصوارم السيوف.
(٦) أطناب جمع طنب وهو حبل يُشد به السرادق أي الخيمة والقنا الرماح.
(٧) منوطة معلقة ويمضي ينفذ ويصدع يكفّ ويصرف.
(٨) أناخ أقام والشمل ما اجتمع من الأمر أو ما تفرق منهُ.

إبنُ زَيْدون (١٠٧٠م ٤٦٣هـ)

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي. وُلِدَ بقرطبة وكان أبوه من وجوه فقهائها وأعيان أُدبائها وتخرّج في فنون الأدب وتضلع من علوم اللغة وتبحّر في اخبار العرب وأشعارهم ونوادرهم وأساليبهم في مخاطباتهم ورُزق في النظم والنثر قريحة عجيبة وملكة مستحكمة فإذا نظم جاء بالشعر الغريب الرائع وإذا نثر راع القلوب بالآيات اللوامع فكان قريع وحده في العلوم العربيّة وزعيم أدباء عصرهِ في ضروب البيان وغزارة المادّة وذلاقة اللسان وروي عنهُ أنّهُ أُصيب في بعض حرمه فقام على جنازتها وأقبل الناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب بهِ غيره لسعة ميدانه وحضور جنانهِ.

إنقطع إبن زيدون الى أبي الحزم بن جَهْور أحد الطوائف بالأندلس وعلت مكانته عندهُ واشتهر ذكرهُ وقدرهُ وألقى إليه مقاليد[١] الأمور فتصرّف بها كيف شاء ودبّر المملكة بما أُوتي من الحذق والحزم والذكاء وكثيراً ما توسّط بين مولاهُ وسائر ملوك الأندلس فحسنت سفارتهُ[٢] وأعجبت القوم براعتهُ وإدارتهُ. ثم إنقلب دولاب السياسة فنقم عليهِ إبن جَهْوَر وحبسهُ ولم يشفع به سابق حرمة

---

(١) مفاتيح.

(٢) سَفَرَ بين القوم سعى في الصلح بينهم.

وسالف خدمة. وعبثاً استعطفه الوزير المسكين المنكوب برسائل أفرغها في قالب الفصاحة الباهرة وقصائد خلع عليها زخارف بلاغته النادرة. ولمّا أعيته الحيلة في استرضائهِ فرّ ناجياً بنفسهِ وقصد حضرة المعتضد عبّاد بن محمّد صاحب أشبيلية فتلقّاه بغاية الإحتفاء والإكرام وفوّض إليه أمر مملكته وجعلهُ من خواصّه يجالسه في خلواته ويركن الى اشاراته وكان عندهُ في صورة وزير حسن التدبير تامّ الفضل متحبباً الى الناس بلين جانبهِ وعذب كلامهِ محموداً بين العامّة بحسن المنظر والمخبر.

واشتهر في زمان إبن زيدون من أدبيات الأندلس ولّادة بنت المستكفي الخليفة الأمويّ وكانت، أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر مؤنسة المحاضرة مشكورة المذاكرة تناضل[1] الشعراء وتساجل الأدباء. فأُعجب إبن زيدون بأدبها وبراعتها وتواترت بينهما الرسائل والقصائد يتباريان بها في حلبة الفضل والحذق ويتجاريان لإحراز خصل السبق. وقد جرت لهما وقائع عديدة وحاول الحسّاد إفساد ذات بينهما واشتهر منهم أبو عامر بن عبدوس فإنّه أفرغ كنانة[2] حيله في استمالة ولّادة إليه. فشق الأمر على إبن زيدون وكتب إليه رسالة بديعة مطنبة الفصول ضافية الذيول أشبعه فيها هزءاً وتهكُّما وبعث بها إليه عن لسان ولّادة. وهي رسالة مشهورة عند الأدباء أطلق فيها الكاتب العنان لقريحته وجعلها ديوان أدب وتاريخ وقد عُني بشرحها غير واحدٍ من الأدباء كإبن نباتة وغيرهِ.

ولإبن زيدون شعر كثير كلّهُ غرر وبدائع نقتصر منهُ على الأبيات التالية من قصيدة طنّانة أرسلها الى ولّادة وهو مقصى عنها.

---

(١) تجادل.

(٢) جعبة.

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا[1]
مَن مبلغ المُلبسينا بانتزاحهمَ حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أنّ الزمان الذي ما زال يضحكنا أُنساً بقربهمِ قد عاد يُبكينا
بالأمس كنّا وما يُخشى تفرّقنا واليوم نحن وما يرجى تلاقينا
بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا[2]
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا[3]
حالت لفقدكم أيّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا[4]
ليَسق عهدَكم عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلّا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا وطالما غيّر النأيَ المحبّينا[5]

وهي طويلةٌ جداً كلّها من هذا الوشي الأنيق والنسج الدقيق.

---

(١) التنائي الإبتعاد والتداني القرب والتجافي التنحي.

(٢) بنتم بعدتم والجوانح الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر وكنى بابتلالها عن الفرح وجفّت نشفت والمآقي جمع مؤق وهو مجرى الدمع من العين أي طرفها الذي يلي الأنف.

(٣) نتاجي تُسارُ ويقضي عليه يقتله والأسى الحزن والتأسي التصبر والتعزّي.

(٤) حالت تغيرت وكني بالأيام السود عن الحزن والليالي البيض عن الفرح ورغد العيش.

(٥) النأي البعد.

إبنُ عَمّار

(١٠٨٤م ٤٧٧)

هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمّار المهديّ. كان من بيت خامل وأصل وضيع وورد مدينة شِلب وهو صغير فتأدّب فيها ثم قصد قرطبة دار العلوم العربيّة فداخل أُدباءها واقتبس من أنوارهم ونبغ في الشعر فاشتهر أمرهُ واتّصل ذكرهُ بالمعتضد فاستقدمهُ إليه ورأى منه ذكاءً وافراً وأدباً رائعاً فأنعم عليه وألزمهُ إبنهُ المعتمد يلقّنهُ الأدب والشعر. ولّما توفيّ المعتضد وخلفهُ إبنهُ المعتمد إستخصّ ابن عمّار لنفسه يسامرهُ وينادمهُ وعهد إليه الوزارة وفوّض إليه شؤون المملكة فعلا في الناس قدرهُ وعظم بين الخاصّة أمره. وكان إبن عمّار يجاري في فنون الأدب إبن زيدون القُرطبيّ المارّ ذكرهُ فهما فرسا رهان ورضيعا لبان ألقى عليهما الشعر عنانهُ ووقف على أقلامهما قيدهُ وليانهُ. ولإبن عمّار في المعتضد وإبنه المعتمد القصائد المشهورة والبدائع المأثورة. فمن ذلك قولهُ:

أَدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى[١]

والصبح قد أهدى لنا كافورهُ ... لّما استردّ الليلُ منهُ العنبرا

والروض كالحسنا كساهُ زهرهُ ... وشْياً وقلّدهُ نداهُ جوهرا[٢]

---

(١) إنبرى إعترض وصرف العنان ردّه.

(٢) الوشي تحسين الثوب ونقشه وقلّده ألبسه القلادة.

روضٌ كأنّ النهر فيهِ معصمٌ صاف أطلّ على رداءٍ أخضرا[1]
وتهزّه ريح الصبا فتخالهُ سيف ابن عبّاد يبدّد عسكرا
ملك إذا ازدحم الملوك بموردٍ ونحاهُ لا يردون حتى يصدرا[2]
أندي على الأكباد من قطر الندى وألذّ للاجفان من سنة الكرى[3]
قدّاح زند المجد لا ينفك من نار الوغى إلاّ الى نار القرى[4]
ماضٍ وصدر الرمح يكهم والظبى تنبو وأيدي الخيل تعثر بالثرى[5]
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم من لامهم مثل السحاب كنهورا[6]
من كل أبيض قد تقلّد أبيضاً عضباً وأسمرَ قد تقلّد أسمرا[7]
يا أيّها الملك الذي حاز العلا وحباهُ منهُ بمثل حمدي أنورا
السيف أفصح من زيادٍ خطبةً في الحرب إن كانت يمينك منبرا [8]
شقيت بسيفك أمّةٌ لم تعتقد إلاّ اليهود وإن تسمّت بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يُعشق مثمرا
وصبغتَ درعكَ من دماءِ كماتهم لمّا علمت الحسن يلبس أحمرا

إلاّ أنّ ابن عمّار كان يستر تحت برود الرفعة والرئاسة نفساً دنيئة وطبيعة رديئة ولم تكن الرفعة التي نالها بعد الخمول لتستأصل اللؤم من عروقهِ وتحول دون

---

(١) المعصم موضع السوار من الساعد وأطل أشرف.
(٢) نحاهُ قصده ويصدر يرجع عنه.
(٣) أندى أجود والكرى النوم.
(٤) الوغى الحرب والقرى الضيافة.
(٥) يكهم يكل والظبى جمع ظبة وهي حد السيف وتنبو تكل وتعثر تزل وتكبو.
(٦) الكتائب الجيوش واللام جمع للأمة وهي الدرع والكنهور السحاب المتراكم.
(٧) الأبيض الأول الرجل والثاني السيف والأسمر الأول الرجل والثاني الرمح.
(٨) زياد هو إبن أبيه الذي ألحقه معاوية بنسبه وقد تقدمت ترجمته في تراجم خطباء الدولة الأموية والمنبر محل مرتفع يرتقيه الخطيب أو الواعظ.

كفرانه بمنن ولي نعمته وعقوقه[1] ولمّا كان المعتمد مستنيماً إليهِ سيّرهُ الى تُدمير نائباً عنهُ فحدّثته نفسه بالإستقلال وزيّنت لهُ غمط[2] النعمة بخوادع الآمال فأعار أُذناً واعية لوساوس الخنّاس وانقاد الى طباعه اللئيمة والعرق دسّاس[3] فرفع علم العصيان على سيّده ومالك رقّهِ وجاهر بخلع سلطانه وجحد حقّه. فأعمل المعتمد الحيل عليهِ وسدّد سهام المكايد إليه وما زال بهِ حتى أنشبهُ[4] في حباله وأبتاعه من مالك رقبته ابتياع المرء للسلعة بمالهِ. ولمّا حصل في قبضته اعتقلهُ بحبسهِ فانجلت عن المسكين غياهب[5] الغرور وعاد الى نفسه فأخذ يسرّ الى مولاهُ القصائد والرسائل يظهر التوبة ويتأسّف على الحوبة[6] ويستمدّ ضارعاً مستخذياً[7] صفحاً وغفراناً فلم يلق الحلم من قلب إبنْ عبّاد مكاناً بل نزل إليه ليلةً في سجنهِ وقتلهُ بيده وأمر بدفنه.

---

(١) عقّ الولد والده عصاه وترك الشفقة عليه واستخفّ بِهِ.

(٢) جحد.

(٣) مثل معناه كلّ يميل الى أصلهِ.

(٤) أوقعهُ.

(٥) جمع غيهب وهو الظلمة.

(٦) الإثم.

(٧) إستخذى له إتضع وانقاد.

الحُصريّ

(١٠٩٥م ٤٨٨هـ)

هو أبو الحسن عليّ بن عبد الغنيّ الحصريّ. وُلِدَ بالقيروان من أرض أفريقية وأتقن الأدب والشعر وقراءة القرآن ولهُ في هذا المعنى الأخير قصيدة نظمها في قراءات نافع عدد أبياتها مئتان وتسعة. وأخنى الدهر على وطنه وأناخ على أهله ببوائقه ومحنه فهاجر الى طنجة واستوطنها مدة ولمّا كان مقيماً بها أرسل غلامهُ الى المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية وهم يسمّونها حمص تشبيهاً بحمص الشام فأبطأ عنهُ الغلام وبلغهُ أنّ المعتمد لم يحتفل بِهِ فقال:

نَبِّهَ الركبَ الهَجوعا ولُمِ الدهر الفَجوعا
حمصُ الجنّة قالت لغلامي لا رجوعا
رحم الله غلامي مات في الجنّة جوعا

وبعث إليهِ المعتمد وهو بالقيروان خمس مئة دينار وأمرهُ أنّ يتجهّز بها ويتوجّه إليه فكتب إليهِ الحصريّ:

أمرتني بركوب البحر أقطعه غيري لك الخير فأخصُصْهُ بذا الداءِ
ما أنت نوحٌ فتنجيني سفينتهُ ولا المسيح أنا أمشي على الماءِ

ثم دخل بعد ذلك الأندلس وامتدح المعتمد وغيرهُ من ملوك الطوائف ولم يزل يتنقّل في بلادهم وينعم بأردافهم[1] الى أن أفلت بدورهم وخلت

(١) جمع رفد وهو العطاء والمعونة.

ساحاتهم وقصورهم فعاد الى طنجة وسكنها الى وفاته.

ولإبي الحسن هذا إبن خالة يُعرف أيضاً بالحصري وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ القيرواني كان شاعراً فصيحاً ولهُ تآليف حسان أشهرها « زهر الآداب وثمر الألباب » وهو من الكتب الممتّعة جمع فيه كل غريبة ـ وكانت وفاتُهُ سنة ١٠٦١ م ٤٥٣ هـ.

إبنُ حَمْدِيس (٥٢٨هـ ١١٣٢م)

هو أبو محمد عبد الجبّار بن محمد بن حمديس الصِقليّ. كان شاعراً ماهراً رائق الديباجة نبيه المعاني كثير التفنّن والاغراب وقد أبدع غاية الإبداع في الأوصاف الطبيعيّة ولهُ القصائد الغرّاء في تعدد محاسن القصور الشامخة والبرك العجيبة والجنان الغنّاء وما حوت من البدائع الرائعة التي تتمثّل عياناً لقارىء منظوماته الفريدة. وكان إبن حمديس قد ورد الأندلس واتّصل بأُمرائها ومدحهم ونال جوائزهم وعاش في ظلّهم الوارف[1] دهراً طويلاً وهنالك رأى ما رأى من عجائب المباني واستنبط من غرائب المعاني. ومن شعرهِ قولهُ يصف بركة في قصر إبتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية عليها أشجارٌ من ذهب وفضّة ترمي فروعها المياه وعلى حافاتها أسودٌ تقذف المياه من أفواهها:

وضراغمٍ سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيهِ زائيرا[2]
فكأنّما غشّى النُّضارُ جسومَهَا وأذاب في أفواهها البلُّورا[3]
أُسْدٌ كأنّ سكونَهَا متحرِّكٌ في النفس لو وجدت هناك مُثيرا
وتذكرتْ فتكاتها فكأنّما أقْعَتْ على أدبارِها لِتثورا[4]
وتَخَالها والشمس تجلوا لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا

---

(١) الممتد الواسع.
(٢) الضراغم الأسود والعرين مأوى الأسد والزئير صوته.
(٣) غشي غطّى والنضار الذهب والبلور جوهر أبيض شفاف.
(٤) أقعى الكلب جلس على مؤخرهِ وتثور تَثب.

فكـأنّمـا سلّت سيـوف جـداولٍ ذابت بـلا نارٍ فَعُـدْن غـديـرا
وكـأنّمـا نســج النسيمُ لمـائـه درعـاً فقدّر سَرْدهـا تقـديـرا[1]
وبـديعة الثمـرات تعبر نحـوهـا عيناي بحر عجائب مسجورا[2]
شجـريّـةٌ ذهبيّـةٌ نـزعت الى سَحْـرٍ يؤثّر في النُّهى[3] تـأثيرا
قـد صوحبت أغصـانها فكـأنّمـا قبضت بهنّ من القضاء طيورا
وكـأنّمـا تـأبى لـوُقّـع طيرهـا أن تستقـلّ بنهْضهـا وتـطيـرا
من كـلّ واقعة تـرى منقارهـا مـاءً كسلسـال اللُجيْن نميـرا[4]
خُرْسٌ تُعدّ من الفصاح فإن شَدَتْ جعلت تُغـرّد بـالميـاه صفيـرا
وكـأنّمـا في كـلّ غصن فضّـة لانت فـأرسـل خيـطهـا مجـرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فـوق الـزبـرجـد لؤلؤاً منثـورا
ضَحِكَت محـاسنُـهُ إليـك كـأنّمـا جعلت لها زُهْر النجـوم ثُغورا

الى آخر ما هنالك من الأوصاف التي أطلق فيها العنان لتفنّنه فجارى بها الموصوفات إبداعاً وأبدى فيها سِحْر بيانه الفتّان أشكالاً وأنواعاً.

---

(١) سرد الدرع نسجها.
(٢) سجر السيل النهر ملأه أي أنّ البحر زاخر عباب.
(٣) العقل.
(٤) واقعة صفة للطيور المحذوفة والسلسال الماء العذب واللجين الفضة والنمير الماء الزاكي.

إبنُ خفَاجَة

(١١٣٨م ٥٣٢هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خفاجة، وُلِدَ بجزيرة شَقْر، وَرُزِقَ حضاً وافراً من الشعر، فبرّز فيه، وأَوْفى[١] على جهابذة النظم، ورُوّاض قوافيه، ولهُ في الوصف كلّ معنى شريف، واستنباط ظريف. لم يبتذل[٢] شعره بتملّق ملوك زمانِهِ، مع تهافتهم[٣] على أهل الأدب استئثاراً[٤] لأنفسهم بمزيد العلم، وسلطانه. غير أنّ له في المدح قصائد حسانا، تدلّ على جودة قريحته في هذا الباب، لو أراد أن يلجهُ[٥]، ويتخذ المديح غرض شعره، ومنهجه. فمن شعره قولهُ يصف روضة، وله في هذا المعنى اليد الطولى، وكثيراً ما نظم في الأنهار، والأزهار:

وإراكةٍ ضربت سماءً فوقنا ... تندي أصيلاً، والكؤوس تُدارُ
حفّت بِدَوْحتها مجرَّة جدولٍ، ... نثرت عليهِ نجومَها الأزهارُ[٦]
فكأنّها، وكأنّ جدولَ مائها ... حسناء شُدّ بخصرها زنّارُ
زفّ الزجاج بها عروس مدامةٍ ... تجلى، ونُوّار الغصون نِثارُ[٧]

---

(١) زاد. (٢) يمتهن. (٣) إزدحم.
(٤) خصّ به نفسه. (٥) يدخله.
(٦) الدوحة: الشجرة العظيمة، والمجرّة منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر، أراد بها ماء الجدول، لما يعلوه من الزبد.
(٧) النِثار: ما ينثر على الحاضرين في العرس من كعك وغيره.

في روضة جِنْح الدُّجى ظلّ لها ... وتجسّمت نَوْراً بها الأنوارُ[1]
غنّاء ينشر وشيه البزّاز لي ... فيه، ويفتق مسكه العطّارُ[2]
قام الغناء بها، وقد نضح الندى ... وجهَ الثرى واستيقظ النُّوّارُ
والماء في حَلي الحياء مقلّد ... زرّت عليه جيوبها الأشجار[3]

وقال:

وَمَجَرٍّ ذيلِ عمامة لبست بهِ ... وشيَ الحَبَاب معاطفُ الأنهارِ[4]
خفّقت ظلال الايك فيه ذوائباً، ... وارتجّ ردفاً مائل التّيّارِ[5]
ولوى القضيبُ هناك جيداً أتلعاً، ... قد قبّلته مباسم النُّوارِ[6]
باكرتُهُ، والغيمُ قطعة عنبرٍ ... مشبوبة[7]، والبرق لفحة نارِ
والريح تطلع فيه أرداف الربى ... لعباً، وتلثم أوجه الأزهارِ
ومنابر الأشجار قد قامت بها ... خطباء مفصحةً من الأطيارِ

وله في وصف الرياض، والغياض، والبساتين، والرياحين شعر كثير.

---

(١) النّور، والنّوار: الزهر.
(٢) البزّاز: بائع البزّ ثياب القطن والكتان، وفتق المسك: خلطة لاخراج رائحته.
(٣) الحياء: ممدود الحيا وهو المطر اوالخصب والنبات، شبه العشب حول الماء بقلادة والأشجار بثوب.
(٤) الحَباب: الفقاقيع التي تعلو الماء، والمعاطف: جمع معطف وهو الرداء.
(٥) الأيك: الشجر الكثير الملتفّ. وخفق: حزب واضطرب. والذوائب: جمع ذؤابة وهي الناحية أو أعلى الشيء.
(٦) الجيد: العنق. وأتلع: طويل.
(٧) مُوقد وجميل.

إبنُ سعيد (١٢٧٤م ٦٧٣هـ)

هو نور الدين أبو الحسن عليّ بن موسى المعروف بإبن سعيد نسبةً الى أبي جدهِ. كان أديباً فاضلاً عارفاً بأخبار العرب وأقوالها وأشعارها وأمثالها ولغاتها. وقد قضى دهراً من عمرهِ في التجوّل في البلاد ومداخلة الأعيان وتفقّد خزائن الكتب يقيّد الفوائد ويضبط الأوابد والشوارد[١] ودخل مصر فأحسن شعراؤها وفادته وصاحب منهم كثيرين يناشدهم ويساجلهم بشعر أرقّ من الماء الزلال وأفتن من السحر الحلال. وكان قويّ العارضة ذَلِق اللسان حاضر الجواب سريع الإجازة[٢]. وفارق مصر الى حلب ومدح الملك الناصر وخالط من هنالك من الأدباء ثم قصد دمشق وتقرّب من السلطان المعظّم وحضر مجلس خلوتِهِ وحظيَ عندهُ وتوجّه الى الموصل وبغداد والبصرة ثم دخل أرّجان وحجّ وعاد الى المغرب فاستوطن أفريقية الى أن تُوُفيَ بتونس وهو في خدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر عظيم الحرمة عالي المنزلة نافذ الكلمة.

ولإبن سعيد شعرٌ كثير كلّهُ حسنات ولطائف وبراعات وطرائف. فمن شعره قولهُ يصف نهراً والنسيم يردّدهُ والغصون تميل عليه وهو إذ ذاك في مقتبل العمر:

---

(١) نوادر اللغة وغرائبها.

(٢) الإجازة عند البيانيين أن يأتي الشاعر بشطر بيت تام فينظم شاعر آخر في وزنه ومعناه ما يكون به تمامه.

كـأنّمـا النهـر صفحـةٌ كُتبت أسـطرهـا والـنسيم ينشئهـا
لّمـا أبانت عن حسن منظرهـا مـالت عليها الغصـون تقـرأهـا

وقال بمصر يذكر الأندلس ويتشوّق الى مربع صباه ومرتع مُناه:

هـذه مـصـرٌ فـأين المغـربُ مـذ نـأى عني فعيني تسكب
فـارقتـهُ النفس جهـلاً إنّمـا يُعرف الشيءُ إذا مـا يـذهب
أيـن حمصُ أين أيّـامي بهـا بعـدها لم ألقَ شيئاً يُعجبُ[1]
كم بعيش لي بهـا من لـذّة حيث للنهـر خـريـرٌ مـطربُ
وحَمـام الأيـك تَشْدو حَـوْلَنـا والمثـاني في ذُراهـا تصخبُ[2]
ولكم بـالمـرج لي من لـذّة بعدها ما العيش عندي يعذُبُ
والنـواعـير الـتي تـذكـارهـا بـالنّوى عن مهجتي لا يُسلبُ
وَلَكم في شَنْتَبُـوسٍ من مُـنَى قد قضيناهـا ولا من يعتبُ[3]
أين حسن النيـل من نهرٍ بها كـلّ نغْمـاتٍ لـديـهِ تُـطْربُ
كم بِـهِ من زورقٍ قـد حلّهُ قـمـرٌ سـاقٍ وعـودٌ يضـربُ
والى الحـوز حـنـيـني أبـداً وعـلى شنّيـل دمعي صيّبُ[4]
حيث سلّ النهر عضباً وانثنت فـوقُهُ القُضبُ وغنّى الـربربُ[5]
مـلعبٌ لـلّهِو مـذ فـارقتـهُ مـا ثنـاني نحـو لهـوٍ ملعبُ
والى مـالـقـةٍ يهـفـو هـوى قلب صبٍّ بالنوى لا يُقلبُ[6]
أين أبـراجٌ بهـا قـد طـالمـا جثّ كـأسي في ذراها كـوكبُ

---

(١) حمص هي إشبيلية مدينة بالأندلس نزلها قوم من حمص والشام فسموها بإسم مدينتهم.
(٢) المثاني جمع مثنى وهو ما بعد الأول من أوتار العود وتصخب تصوت وتضج.
(٣) شنتبوس سواد إشبيلية وفيه منتزهات عديدة.
(٤) الحوز موضع فيه مسنّيات وأشجار أراد به حوزاً بعينهِ وشنّيل نهر يشق غرناطة ويصب في الوادي الكبير.
(٥) العضب السيف والقضب جمع قضيب استعارة للنساء الحسان القامة والربرب القطيع من بقر الوحش أستعير للنساء الحسان العيون.
(٦) مالقة من مدن الأندلس على ساحل البحر كثيرة الفواكه.

حفّت الأشجار طوقاً حولنا تارة تنأى وطوراً تقربُ
جاءت الريح بها ثم أنثنت أُتراها حذِرت من يرقبُ
وعلى مُرسيةٍ أبكي دماً منزلٍ فيه نعيمٌ معشبٌ[1]
هذه حالي وأمّا حالتي في ذرى مصرٍ ففكرٌ متعبُ
سمعت أُذني محالاً ليتها لم تصدّق ويحها من يكذبُ
وكذا الشيءُ إذا غاب انتهوا فيه وصفاً كي يميل الغيّبُ
ها أنا فيها فريد مهملٌ وكلامي ولساني معربُ
وأُنادي مغربياً ليتني لم أكن للغرب يوماً أُنسبُ
نَسَبٌ يشرك فيهِ خاملٌ ونبيهٌ أين منهُ المهربُ
أَتُراني ليس لي جدٌّ لهُ شهرة أو ليس يدري لي أبُ
سوف أثني راجعاً لا غرّني بعد ما جرّبت برقٌ خُلَّبٌ[2]

ولإبن سعيد شعرٌ كثير يسيل كلّهُ رقّة وظرفاً يضيق المقام عن الزيادة منه. وكانت ولادة إبن سعيد في غرناطة وإنّما لُقّب بالمغربيّ عند المشارقة لمجيئه من بلاد المغرب وهي تشمل غربيّ أفريقية والأندلس أيضاً.

---

(١) مرسية من مدن الأندلس إختطها العرب ومعشب مخصب.

(٢) البرق الخلب الذي يكون في سحابٍ لا مطر فيه.

إبنُ الخَطيب (١٣٧٤م ٧٧٩هـ)

هو ذو الوزارتين لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بإبن الخطيب. وينتمي الى سلمان وهو حيّ من عرب اليمن القحطانيين. وُلِدَ بلُوشة على مقربة من غرناطة وقرأ العلوم والآداب على مشاهير شيوخ عصرِهِ وبرع في كلّ فنّ تلقّاه وما بلغ أشُدّهُ وانجلت عنهُ غرّة الشباب حتى أصبح قريع وحدهُ في العربيّة والنحو والقرآن والفقه والكلام والتاريخ والرواية والطبّ وسائر علوم زمانِهِ ونظم الشعر فأجاد وأبدع وجاء بالغرائب المعجزة وكان من علماء القريض رائق الأسلوب سَلِس الكلام شريف المعنى كثير النكات قويّ العارضة سهل القافية لم يطرق باباً إلاّ انفتح لهُ مجالٌ واسعٌ لا يخرج منهُ إلاّ مجليّاً سابقاً ولا يطمع طامعٌ أن يكون لهُ مجارياً لاحقاً وشفع علمُهُ بالشعر بتضلّعٍ نادرٍ من فنون الخطابة واطّلاع عجيب على أسرارها وطرائقها ورموزها وحقائقها. فكان إذا تكلّم في ملاءٍ أو خطب في سفارة قُلّدها انقادت لعذوبة مقاله وليانه الأهواء الشاردة وتحمّست لقوة برهانِهِ وسحر بيانه القلوب الباردة فينقلب من حلبة السباق خير منقلب وفي يده خصل التفوّق والغلَب وعلى جبينهِ سمة أمرىء حُوّلٍ قُلّب[1].

وإبن الخطيب سليل بيت عريقٍ بالنبل والفضل والعلم وقد تولّى كثيرون

---

(١) أي محتل بصير بتقليب الأمور.

من أجداده الخطط العالية والمناصب السامية عند أمراء زمانهم وعُرفوا جميعاً بالوجاهة والنباهة وكرم الأخلاق وطيب الأعراق. وكان أبوه وزيراً لبني الأحمر ملوك غرناطة ولهُ في خدمتهم الأعمال النبيلة والمآثر الجليلة وقُتل في الدفاع عن حوزته في واقعة طريفٍ العظمى التي دارت فيها الدوائر على العرب وفاز الافرنج فوزاً مبيناً سنة ١٣٤٠ مسيحية.

وخلف لسان الدين أباهُ في الوزارة فدبّر شؤون المملكة أحسن تدبير وأظهر من البراعة في قضاء مهّام رتبته ما أنطق الألسنة بالثناء عليه في كل نادٍ ورفع عند وليّ نعمته فغمرهُ بإحسانه وأطلق يدهُ في سياسة البلاد ولم يزل يهصر[١] أفانين العزّ والهناء ويتقلّب في جنان المجد والسناء ويرقى تَلَعات[٢] الفخر والعلاء ينقض ويبرم[٣] وتجري الأمور كما شاء حتى قلب لهُ الدهر بغتةً ظهر المجن وصَلاهُ[٤] نيران النكبات والمحن ونشبت فيه أظفار الأحساد والأحن[٥]. فخُلع مولاهُ واعتُقل هو وظلّ في القيد زماناً طويلاً ثم تواترت الحوادث وأدّت الى عَود سيّده فعاد إبن الخطيب الى دست الوزارة من بعدِهِ وتاب إليه الدهر الخؤون مدة وخدمهُ بأقباله وسعدهِ. غير أنّ الحظّ المتقلّب إرتدّ الى خِيمِهِ[٦] السابق وعاد فرمى لسان الدين من حالق[٧] ففرّ من وجه الوشاة الى أفريقية وتوالت عليه وقائع وخطوب يطول شرحها كانت نهايتها أنه أُسلم الى أيدي الأعداء فاعتقلوه وجرّعوه كؤوس الشدائد والبلاء وأغْروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحادهِ وزندقتِهِ لتعاطيهِ الفلسفة وأباحوا دمهُ فبادرت شرذمةٌ من الأدنياء إليه في السجن فخنقوه ورموا بجثمانه فأخذ ودُفن ثم عادوا فأخرجوه من لحده وأحرقوه.

---

(١) يعطف ويكسر.
(٢) جمع تلعة وهي ما علا من الأرض.
(٣) أبرم الأمر أحكمه.
(٤) أدخله فيها.
(٥) جمع أحنة وهي الحقد.
(٦) الخيم الطبيعة والسجيّة.
(٧) الجبل المنيف المرتفع.

وقد أسلفنا أن لسان الدين بن الخطيب كان شاعراً مفلقاً وخطيباً مصقعاً وأديباً متفنناً وكاتباً نحريراً وفيلسوفاً بصيراً وسياسياً محنّكاً فضلاً عن مشاركته في الطبّ والعلوم الدينية والتاريخية على اختلاف أنواعها وتلّون فنونها. ولهُ في كلّ هذه الأغراض مؤلّفات ناطقة ببُعد غورِهِ وانفساح ذرعِهِ. منها «الإحاطة» في تاريخ غرناطة «والإشارة» الى آداب الوزارة و «بستان الدول» وهو أغربها جعله عشر شجرات بشعبٍ وأصول وجراثيم وعَمَد وقشر ولحاء وغصون وأوراق وزهرات مثمرة وغير مثمرة... وقد أبلغ صاحب «نفح الطيب» مؤلّفات إبن الخطيب نحو الستين مؤلّفاً. ولهُ شعرٌ كثير هو النهاية في الرقة والمتانة والإبتكار وحسن التصرّف في المعاني والتلاعب بها وسنقتصر على نبذَةٍ من موشّحاته المؤنقة تكون أنموذجاً لهذا الفنّ اللطيف الذي استنبطهُ الأندلسيّون على ما مرّت الإشارة إليه في صدر هذا الباب قال:

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هُمى[1] يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حُلُماً في الكَرَى أو خلسةَ المختلسِ[2]
إذ يقودُ الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما ترسمُ[3]
زُمَراً بين فُرادى وثُنا مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ[4]
والحيا قد جلّل الروض سنا فثغور الزهر منهُ تبسمُ[5]
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالكٌ عن أنَسِ[6]

---

(١) جرى بكثرة.
(٢) الكرى النوم واختلس سلب بمخاتلة وعاجلاً والأسم منه خُلسة.
(٣) أشتات جمع شتّ وهو التفرق والمُنى جمع منية وهي البغية وترسم تأمر أي ما تأمر به المنى يعمل به الدهر.
(٤) الزمر جمع زمرة وهي الجماعة وفرادى واحداً واحداً وثنا أثنين أثنين والموسم المجتمع.
(٥) الحيا المطر وجلّل غطّى وثغور جمع ثغر وهو الفم.
(٦) النعمان أحد ملوك الحيرة أراد به هنا شقائق النعمان وماء السما المطر ومالك أمام المدينة إبن أنس أحد الأئمة الأربعة.

فكسـاه الحسن ثـوبـاً مُعلَما يـزدهي منهُ بـأبهى ملبس[١]

أيُّ شيءٍ لأمرىءٍ قد خلصا فيكـون الروض قـد مكّن فيه

تنهب الأزهـار منهُ الفُـرصـا أمِنت من مكـرهِ مـا تتّقيـه

فـإذا المـاءُ تنـاجى والحـصى وخـلا كـلّ خليـلٍ بـأخيـه[٢]

تُبصـر الـورد غيوراً بَرِمـا[٣] يكتسي من غيـظهِ مـا يكتسي

وتـرى الآسَ لبيـبـاً فـهِـما يسرق السمع بأُذني فـرسِ[٤]

يا أُهيل الحيِّ من وادي الغضا وبقلبي سـكنٌ أنـتـم بِـهِ[٥]

ضاق عن وجدي بكم رحبُ الفضا لا أُبالي شرقـهُ من غـربِهِ[٦]

فأعيدوا عهـد أُنسٍ قد مضى تُعتِقـوا عـانيَكم من كَـربـهِ[٧]

واتّقـوا الله وأحيـوا مُغـرمـاً يتـلاشى نفَسـاً في نَـفَسِ

حَبَسَ القـلبَ عليكم كـرمـا أفتـرضـون عفـاء الحبسِ[٨]

ولهُ موشّحات عديدة كلّها آية في العذوبة والظروف وشعرٌ كثير شديد الأسر متين العبارة واضح المنهج مطبوع اللهجة.

---

(١) الثوب المعلم المنقوش والموشّى ويزدهي يتكبر ويتيه.

(٢) تناجي تسارّ والخليل الصديق المصافي.

(٣) البرم الضجر الضيّق النفس.

(٤) الآس شجر عطر الرائحة أوراقه متقابلة دائماً الخضرة واللبيب العاقل.

(٥) الغضا شجر عظيم من الأثل وخشبه صلب جيّد للوقود.

الوجد الحب والفضا مخفف الفضاء وهو المكان الواسع.

(٧) أعتق المولى عبده حرّرهُ وأخرجه من الرق والعاني الأسير والكرب الحزن والغم.

(٨) حبس القلب وقفه على حبكم والعفاء الدروس والهلاك.

إبن قُزْمَان (؟- ١١٦٠م)

هو أبو بكر محمد بن قُزْمان القرطبيّ. كان شاعراً زجّالاً رقيق النظم غزير المادّة في فنّه مطبوع القول نبيه النادرة. قال إبن خلدون: ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامِهِ وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منوالِهِ ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحَضَريّة من غير أن يلتزموا فيه إعراباً واستحدثوا فناً سمّوه بالزَجَل والتزموا النظم فيه على مناحيهم فجاءوا بالغرائب. وأوّل من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قُزمان وإن كانت قيلت قبلهُ لكنّها لم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها إلاّ في زمانه وهو إمام الزجّالين على الإطلاق.

وكان إبن قُزمان كثيراً ما يتردّد الي أشبيلية وينتاب الجنان المحدقة بنهرها. ويحكى أنه خرج يوماً الى متنزّه في جماعة من أصحابه فجلسوا تحت عريشٍ وأمامهم أسد من رخام يصبّ الماء على صفائح من الحجر فقال:

وعريش قد قامَ على دكّانْ بحال رواقْ
وأسد قد ابتلع ثعبانْ من غلظ ساقْ
وفتح فمو بحال إنسانْ بِهِ الفواقْ
وإنطلق من ثَمّ على الصِفاحْ وألقى الصياحْ

وتفنّن إبن قُزْمان في زَجليّاتِهِ حتى مدح بها الأمراء. وجاء بعدهُ جماعةٌمن

الزجّالين كان سابق حلبتهم أبو عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس وقد وقعت لهُ العجائب في هذه الطريقة. ومن أزجاله قولهُ:

ورذاذٍ دقّ ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضّض وترى الآخر يذهّب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجي إلينا ثمّ تستحي وترجع

وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية مدينة المطربين ومحط رحالهم عصابةٌ من الزجّالين كان شيخها إبن جحدر ولهُ زجلٌ شهير في فتح ميورقة. وخلفهُ تلميذهُ البعبع ولهُ زجلٌ مشهور أوّلهُ:

يا ليتني أن ريت حبيبي أقبّل أذنو بالرُسلا
لش أخذ عنق الغزيّل وسرق فم الحُجيلا

وهناك فئةٌ من الأدباء عطرّت أقوالهم الأرجاء لا يسعنا ذكرهم ولعلّ فيمن ذكرنا كفاية لمعرفة عرب الأندلس من فنون لغتهم وآدابهم.

المُؤرِّخون

إبن خاقان (١١٤٠م ٥٣٥هـ)

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الأشبيلي. كان آية من آيات البلاغة لا يُشق لهُ غبار وفارساً من فرسان الأدب لا يُجارى في مضمار وهو كاتب بارع عذب الألفاظ ناصعها أصيل المعاني وثيقها لَعوباً بأطراف الكلام ولهُ شعرٌ جيّد عذب رقيق غير أنّهُ لم يشتهر بالنظم اشتهارهُ بالنثر الأنيق والترسّل الرشيق. وكتاباته كلهّا شهادة ناطقة بغزارة مادّة نادرة وقريحة فيّاضة حاضرة وقد دبّج[1] تآليفه بنثر آنق من النور[2] في الأكمام ورصّعها بأسجاع أطرب من سجع الحمام. منها « قلائد العقيان » جمع فيها محاسن أعيان الأندلس وترجم من أمراء ووزراء وقضاة وأُدباء. ومنها « مطمح الأنفس ومسرح التأنس » في مُلَح أهل الأندلس من علماء وفقهاء وأُدباء لم يذكرهم في « القلائد » وكلا الكتابين معدن درر تزري بالدراريّ الزاهرة[3] وكنز فرائد وفوائد ترخص لديها الجواهر اليتيمة النادرة لكنّهما بكتب الأدب أجدر منهما بكتب التاريخ لأن مؤلّفهما تحرّى صقل العبارة ورصف الكلام دون ضبط الوقائع التاريخية واستيفاء تراجم الأعلام.

وكان إبن خاقان مدمناً للخمرة لا يملّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدرهُ وابتذلت نفسهُ وساءَ في الناس ذكرهُ. ولمّا كانت الخمر أمّ الرذائل انغمس

(١) نقش وزين.

(٢) زهر الشجر.

(٣) الكواكب اللامعة.

إبن خاقان في الموبقات[1] والمآثم وتهافت على الخلاعة وأبرز صفحته[2] للمخازي والمحارم. وقد لقي هلاكه بما اتّسم به من الإشتهار عنه فإنه وُجد قتيلاً ببيت في فندق من فنادق مُراكش وقد ذُبح ذبحاً وعُبث بِهِ عبثاً وتُرك عبرة لمن اعتبر وآية رهيبة لغضب الله عزّ وجلّ على كلّ خالع جسور من بني البشر.

---

(١) المهلكات.

(٢) صفحته وجهه أي أنه كان يرتكب المخازي جهاراً دون استحياء.

إبنُ جُبيْر (١٢١٧م ٦١٤هـ)

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانيّ الرحّالة الشهير. وُلد ببلنسية ثم انتقل الى شاطبة وأخذ العلم عن أبيه وعن جماعة من شيوخ عصره فأتقن القرآن والفقه والحديث وعُني بالأدب فبلغ فيه الغاية وبرع في صناعة القريض والكتابة ونال بعلمِهِ أموالاً ودنيا عريضة فرفضها وزهد فيها. وكان عالي الهمّة كثير المروءَة سريعاً الى قضاء الحوائج والسعي في حقوق الأخوان والمبادرة لأيناس الغرباء وفي ذلك يقول:

يحسب النـاسُ بـأني متعَبٌ   في الشفاعات وتكليف الورى
والـذي يُتعبهم من ذاك لي   راحـةٌ في غيرهـا لن أفكرا
وبودّي لو أقضي العمرَ في   خدمة الطلّاب حتى في الكرى

وهذه الأبيات مرآة تتجلّى فيها أريحيته العربيّة وأخلاقه الزكيّة. وعانى ابن جبير الرحلة الى المشرق مرّتين فكان انفصاله للرحلة الأولى من غرناطة وأقام على متن البحر من الأندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوماً وشخص الى الحجاز فحجّ ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها. وداخل كثيرين من علماء دمشق خاصّة وجرت بينه وبينهم مراسلات من شعر ونثر كلّها رقّة وعذوبة وظرف وتسابقوا جميعاً في حلبة الفصاحة فلم يكن ثمّ الا مجلّ سابق ومُبرّز فائق. ثم قفل الرحّالة راجعاً الى المغرب فركب من عكّا مع الأفرنج وعرّج القوم على

صقلية فعطب[1] مركبهم في خليجها الضيّق وقاسوا الشدائد في ذلك ووصل ابن جبير الى الأندلس سنة ٥٨١ هجرية وكان انفصاله عنها سنة ٥٧٨ في اليوم الثامن من شوّال.

وما لبث بالأندلس مدة حتى ملّ الاقامة وهاجت في نفسه عوامل الشوق الى ركوب البحار ومعاناة الأسفار فقبض عصا الترحال وأعاد المسير الى المشرق ولم يُقيض[2] لهُ هذه المرة الرجوع الى وطنه فتوفي في الاسكندرية. وكان هذا الرحّالة الشهير مع ولوعه بالتغرّب كثير الحنين الى بلاده. لا يزال يلهج بذكرها كلّما نزح عنها شأن السواد الأعظم من جوّابي الآفاق الذين لا يقرّ لهم قرار في أوطانهم حتى إذا فارقوها طفقوا يتلهّفون ويتشوّقون إليها كأنّما أُكرهوا الى النزوح عنها إكراهاً وهو من أغرب ما رُكز في طباع هؤلاء المعذّبين بداء الحركة الدائمة والقلقلة في مناكب الأرض طولاً وعرضاً... ويُحكى أن ابن جبير لمّا دخل بغداد اقتطع غصناً نضيراً من بساتينها فذوى[3] في يده فأنشد:

لا تـغـتـرب عـن وطـنٍ ... وأذكـر تـصـاريـف الـنـوى
أمـا تـرى الـغـصـن إذا ... مـا فـارق الأصـل ذوى

وأين فعلهُ من قوله ـ وعاد ابن جبير من المشرق دامي القلب مقرّح الأحشاء ممّا عاين وسمع من الفرق المتعددة المتلوّنة التي كثر لغطها[4] وتفاقم هرجها ومرجها في الإسلام وكم صوّب سهام هجائه الى مريدي الفلسفة أتباع الفارابيّ وإبن سيناء الشهيرين. فمن ذلك قولهُ:

قـد ظهرت في عصرنا فـرقـةٌ ... ظهـورهـا شؤمٌ عـلى العصـر
لا تقتدي في الـدين إلّا بمـا ... سنّ ابن سينـا وأبـو نصـرِ[5]

(1) إنكسر.
(2) يهيّأ ويسبّب.
(3) ذبل ونشف ماؤه.
(4) اللغط الجلبة.
(5) هو أبو نصر الفارابي.

وهو القائل:

يـا وحشة الإسـلام من فـرقـةٍ   شـاغـلةٍ أنفسـهـا بـالـسَّـفَـهِ
قـد نبذت دين الهـدي خلفها   وادّعـت الحكـمـة والـفـلسـفـةِ

وقد دوّن إبن جبير أخبار رحلته في كتاب ضمّنه تفاصيل الحوادث التي جرت من لدن انفصاله عن غرناطة. ولهُ فيه الأوصاف الأنيقة البديعة للبلاد والآثار التي شاهدها ممّا يروق الأديب الإطّلاع عليه ويلذّ لهُ التفكّه بِهِ.

الفقهاء

إبنُ حَزْم (٤٥٦هـ ١٠٦٣م)

هو أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبيّ. كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر حسن التدبير عالي المنزلة واسع الجاه والثروة ونهج لإبنه سبيله فخلفه في الوزارة مدّة وحظي عند مخدومهِ وعُرف عند الناس بعلّو الهمّة ومضاءِ العزيمة. ولم تستهوه الدنيا مع إقبالها عليهِ بل كان زاهداً في الغنى غير مكترث[1] بالإزدياد من حطام الدهرر وقد خرج من أصناف الملذّات والمسرّات الى التبحّر في العلوم والتأليف فيها على اختلاف أنواعها. وإعانة على نيل أمنيته ما رُزق من دقّة الفكر والذكاء النادر وسرعة الحفظ وحضور الخاطر وقوّة العارضة. ولم يمرّ عليه ردح من الزمن حتى أصبح فريد عصرهِ في الحديث والفقه واستنباط الأحكام فبذّ[2] أهل الأندلس قاطبة في العلوم الدينية والعقليّة مع توسّع في فنون الآداب والعربية والشعر وضروب البلاغة وإحاطة تامّة بالسير والأخبار.

وكان إبن حزم في بداءة أمره شافعيّ المذهب شديد الذبّ[3] والمناضلة فيه على حين كان معظم أهل الأندلس والمغرب على مذهب مالك. وكأنّما لم يكفه هذا التفرّد فانتقل الى مذهب الظاهر وشمّر عن ساعد الجدّ في بثهِ والنضح[4] عنه ووضع فيه المؤلّفات العديدة المسهبة. وبلغ فيهِ الإغراق والغلو

---

(١) مبال. (٢) غلب.
(٣) الدفاع. (٤) بمعنى الدفاع.

في هذا المذهب الغريب الى حدّ الهوس فأكثر من الوقوع في العلماء المتقدّمين وأئمة المذاهب ولم يسلم أحد من بوادر لسانِهِ الخبيث ولواذعِهِ القارصة حتى قيل: «كان لسان إبن حزم وسيف الحجّاج شقيقين».

ويقال أنّهُ اجتمع من تآليف إبن حزم نحو أربع مئة مجلّد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهو مقدارٌ لا يكاد يصدّق. لكن الأسف كلّ الأسف هو أن تلك القوّة الفائقة طور المعتاد صُرفت في تأييد مذهب فاحش التطرّف والغلّو فكان كلّما زاد صياحه ودعاؤه الى مذهب ووضع التأليف إثر التأليف في إثباته والتنويه بِهِ زاد الناس نفوراً منهُ وحنقاً عليهِ فاستهدف لفقهاء وقته فتمالأوا على بغضه وردّ كيدهِ في نحرهِ[1] فكالوا له الصاع صاعين وأجمعوا على تضليله والتشنيع عليه فحذّرا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوّامهم من الدنّو إليه والأخذ عنهُ فأقصته الملوك وشرّدته[2] عن بلادها فخرج هائماً على وجهِهِ وانزوى في بادية ليلة يسنّ سهام الوقيعة لمن لم يرضوا بمذهبه الى أن مات ناقماً منقوماً عليه فكان علمه الواسع وبالاً عليه وشؤماً.

وكان ذلك الرجل الذي أتقن الفلسفة وكملت لهُ آلات البحث والنظر إذا دخل ميدان الجدال مع خصمه شطّ عن جادّة[3] الصواب وأغشى على بصرهِ شيطان التعصب فيتهافت من فورهِ على ساقط المقال وبذيء الكلام ويسقي مناظرهُ الدُرديّ من أوّل دنّهِ[4] نابذاً وراء ظهرهُ ودُبُر أُذنهِ قوانين المناظرة وآداب البحث. وإن أحببت الوقوف على نموذج من أُسلوبه في المباحثة فعليك بكتابه «الفِصل في المِلل والأهواء والنِحَل» وهو أشهر مؤلّفاته وأخطرها فترى ثَمّ من ألفاظ السباب والشتائم القبيحة التي ينفح بها خصومه عن يدٍ فيّاضة

---

(١) الكيد المكر بالآخرين.

(٢) أبعدته.

(٣) معظم الطريق ووسطه.

(٤) الدرديّ ما يرسب في أسفل كل مائع كالأشربة والدنّ وعاء الخمر وغيرها وهو الراقود أي أنه يبادئه بالشرّ من أوّل الأمر.

وقلم سيّال ما لو جُمع على حدةٍ لأربي على ربع الكتاب وهو يقع في خمسة أجزاء ضخمة. وقد آثر بحملاتِهِ المنكرة وفرطاته السمجة أبا الحسن الأشعري بمعزلٍ عن سائر أئمة الإسلام ولذلك قال تاج الدين السبكيّ: « وكتابهُ هذا من شرّ الكتب وما برح المحقّقون ينهون عن النظر فيه لما به من الإزدراء للسنّة وأهلها »

وآية الآيات في الغرابة هي أنّ هذا الجدليّ المحنّك لم يكفه تحامله على المذاهب الإسلامية وعرضها على مقياسه بل استفزّته الجرأة والوقاحة أن ينقل مذهبه الظاهريّ الى النصرانية.. فحكم فيها تبعاً لمبادئه القويمة وطريقته الفريدة . . . ولمّا كان الفم ينطق من فضلة القلب أطلق الرجل لسفاهته العنان وطرّز ما يدعوه ردوداً ملزمة وأدلّة مفحمة بعبارات الطعن والتنديد وأقوال المهاترة والمقاذعة[1] الى آخر ما هنالك من الكلام الهُراء[2] الذي وُسمت بهِ كتاباته وحلّ فيها محلّ البراهين الساطعة والحجج القاطعة.

ومن تآليف إبن حزم خلا ما ذكر كتاب « أبطال القياس والرأي وكتاب « أخلاق النفس » وكتاب « مراتب العلوم » وكيفيّة طلبها وتعلّق بعضها ببعض وكتاب « التقريب » بحدّ المنطق والمدخل إليه وكتاب « طوق الحمامة » في الأدب وغير ذلك ممّا لا يسع المقام تعدادهُ.

---

(١) السباب والشتم الفاحش.

(٢) الكثير وقيل الفاسد من حيث قواعد المنطق.

إبنُ عَبْدِ البرّ

(١٠٧١م ٤٦٤هـ)

هو أبو عمر يوسف بن عبد البر إمام عصره في الحديث والفقه. وُلد بقرطبة وسمع الحديث عن مشاهير زمانه وكاتب فيه أئمة المشرق حتى أصبح رأساً في هذا العلم تشدّ إليه الرحال وتستصبح بنبراس علمه الواسع أعلام الرجال ولُقّب بحافظ المغرب تنويهاً بسعة محفوظه وضبط روايتِهِ. وتنقّل إبن عبد البرّ في الأندلس مدّة ففارق قرطبة وجال في غرب الجزيرة ثم تحوّل الى شرقها وسكن عدّة مدن في أوقات مختلفة كدانية وبَلَنْسِيه وشاطبة وتولّى قضاء لشبونة وشنترين في أيّام ملكها المظفّر بن الأفطس.

وكان إبن عبد البرّ فضلاً عن براعته في الفقه وسداد رأيه في القضاء والإفتاء راسخ القدم في علوم الأدب وضروب البلاغة. ولهُ مؤلّفات عديدة ناطقة بفضلِهِ وانفساح ذرعِهِ فيما تعاطى من الفنون منها كتاب « التمهيد » لما في الموطإ من المعاني والأسانيد وهو كتابٌ مطوّل يقع في سبعين جزءاً وكتاب « الإستعياب » في أسماء الصحابة وأخبارهم وكتاب « بهجة المجالس وأُنس الجالس » في الأدب جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة وغير ذلك ممّا يطول عدّهُ.

إبنُ أبي رَنْدَقَة

(١١٢٦م ٥٢٠هـ)

هو أبو بكر محمد بن الوليد الطُرطوشي المعروف بإبن أبي رَندقة. وُلد بطُرطوشة وصحب أبا الوليد الباجيّ بسر قُسطة فأخذ عنهُ الفقه والحديث وتخرّج في مسائل الخلاف وقرأ عليه بوطنِهِ الفرائض والحساب وتلقّى الأدب عن أبن حزم الظاهرّي بأشبيلية. ورحل الى المشرق فحجّ ودخل بغداد والبصرة والشام وتفقه على من لقي من العلماء. وكان إماماً عالماً زاهداً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير. ومن قوله: «إذا عرض لك أمران أمر دنيا وأمر أُخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى» وكان كثيراً ما ينشد:

إنّ لله عـبـاداً فُـطـنَـا طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكّـروا فيهـا فلمّا علـمـوا أنّها ليست لحيّ وطـنـا
جـعـلوهـا لجّـة وأتخـذوا صالح الأعمال فيها سُفُنا

ومن شعرِهِ قولهُ:

أُقَلّبُ طـرفي في السماء تـردّدا لعليّ أرى النجم الذي أنت تنتظرُ
وأستعرض الركبان من كلّ وُجهةٍ لعلّي بمن قد شمّ عَرفك[1] أَظفرُ
وأستقبل الأرواح[2] عند هبوبها لعـلّ نسيم الريـح عنك يخبّـرُ

(١) الرائحة الطيبة. (٢) جمع ريح.

وأمشي ومالي في الطريق مآربٌ عسى نغمةٌ باسم الحبيبِ تذكَّرُ
وألمح من ألقاه من غير حاجةٍ عسى لمحةٌ من نور وجهك تُسفرُ[1]

ولإبن أبي رندقة تآليف حسنة أشهرها « سراج الملوك » وهو حسن الترتيب كثير الفائدة جمعهُ من سير الأنبياء وآثار الأولياء وحكمة الحكماء وآداب العلماء ونوادر الخلفاء وقد قيل إنّهُ ما سمع بِهِ ملكٌ إلاّ استكتبهُ ولا وزير إلاّ استصحبهُ يستغني الحكيم بمدارسته عن مباحثة الحكماء والملك عن مشاورة الوزراء.

---

(١) ألمح أبصر بنظر خفيف وتُسفر تُضيء وتشرق.

إبنُ العَرَبيّ

(١١٤٨م ٥٤٣هـ)

هو محي الدين أبو بكر محمد بن عليّ المعروف بإبن العربيّ الحاتمي الطائيّ شيخ مشايخ الصوفيّة وإمام أئمة الطرائق الإسلامية في عصرهِ. وُلِدَ بمُرْسِيه وانتقل الى أشبيلية في الثامنة من عمرِهِ وقرأ بها العلوم الدينية على مشاهير علماء زمانه ومال الى االآداب فبلغ فيها شأواً بعيداً وكتب لبعض الولاة مدّة ثم حدّثته نفسهُ بالإنقطاع عن الدنيا فارتحل الى المشرق حاجاً وعرّج في طريقه على برّ العدوة ودخل بجاية ورأى ثَمّ رؤيا في آية الآيات في الغرابة فتأوّلوها[1] لهُ أو تأوّلها لنفسهِ أنّهُ سيكون بحر علم زاخر لا قرار لهُ ولا ساحل . . . وكان شديد الإعتقاد بالرؤى ولهُ فيها مؤلّفات بسط فيها كيفية العمل للحصول عليها والتذرّع[2] بها للإرتقاء الى ما فوق الأطوار البشريّة . . . وقد نزلت أضاليل زمانه في قلبه منزلة الحقائق الراهنة غير أنهُ كان يستمدها على ما يزعم من عالم الأرواح لا بالحيلة والمزاولة كسائر القائلين بهــا مــن بني دهرهِ وكثيراً ما كان يقول: « إنّي أحفظ الاسم الأعظم وأعرف الكيمياء بطريق التنزّل لا بطريق التكسّب » وقس على ذلك الجفر وعلم الحروف وما الى ذلك من الخزعبلات المضحكة. وكانت لهُ في الطبّ طريقة علاجيّة خاصةً. ودونك نصّ دواء شافٍ للقولنج يُنسب إليهِ:

(١) فسروها. (٢) توسل.

قلبي قُطبي وقالبي أجفاني سرّي خضري وعينه عرفاني
روحي هارون وكليمي موسى نفسي فرعون والهوى هاماني

قالوا: «وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يُكتبان لمن بِهِ القولنج في كفِّهِ ويلحسهما فأنّه يبرأ بإذن الله تعالى. قال: وهو من المجرّبات».

ومن غرائب إبن العربي جمعهُ بين مذهبين ضدّين فإنّه كان ظاهريا في العبادات وباطنياً في الإعتقادات على مذهب الصوفيّة وقد توغّل في الطريقة توغّلاً لم يقدم عليه أحد من قبله بحيث أصبح الانموذج الذي تمثلت فيه أخلاق الصوفيين وآدابهم في الأقوال والأفعال. وكل تآليفه على كثرتها وتنوعها ـ وهي تُعدّ بالمئات ـ موضوعة في هذا المذهب من إدّعاء التجرد عن الطبيعة البشريّة والتنزه عن الأهواء الى حدّ سقوط الشرائع عن أصحابه بارتقائهم الى ما فوق الطور المعتاد الذي يقف عنده سائر بني الإنسان الضعفاء وحلول الالهية فيهم عند تسنّمهم ذروة الكمالات الصوفية. ولهم في ذلك طرق وأساليب ومصطلحات خاصة بهم تفوق مدارك من سواهم فيما يقولون.

وقد ألمحنا الى هذا المذهب في ترجمتيَّ إبن الفارض والشهاب السُهرورديّ القتيل بحلب وأشرنا الى ما للصوفية من القصائد الضافية الأذيال المحشوة بعبارات التدلّه فضلاً عن أوصافهم للخمرة ومفاعيلها العجيبة. غير أن إبن الفارض والسُهروردي ومن على شاكلتهم لا يُعدّون نقطة في بحر إبن العربي زعيم أصحاب الطرائق وإمامهم.

والناس في إبن العربي كما في غيره من منتحلي التصوف حزبان نقيضان فمنهم من يبرزه ويزكّيه ويحمل كلامه على محامل حسنة ويتأوّله ومنهم من يكفّرهُ ويؤثّمهُ ويرميه بالإلحاد والزندقة ويحملون كلامهُ على ظاهره ويأبون أن يفهموا من قوله مثلاً «قد حلّ مني اللاهوت في الناسوت» سوى مؤدّي ألفاظه وعبارته. وأمّا مزكّوه فيقولون «ما ينسب الى المشايخ له محامل الأول أنه لم تصح نسبته إليهم. الثاني بعد الصحة يُلتمس لهُ تأويل موافق فإنّ لم يوجد له تأويل في الظاهر فلهُ صدر منهم في حال السكر والغيبة والسكران سكراً

مباحاً غير مؤاخذ ولا مكلّف ».

ومن تآليف إبن العربي العديدة « الفتوحات المكية » في التصوف وهو أشهرها زعم فيه أن الحق سبحانه يملي لهُ على لسان ملاك الإلهام جمع ما يسطّرهُ وهذه دعواهُ في كلّ كتبه. ومنها « فصوص[1] الحِكَم » رتّبهُ على سبعة وعشرين فصّا في سبعة وعشرين نبياً لكل نبيٍ فصٌ من آدم الى محمد. وقد قال فيه :« إني رأيت رسول الله في مبشرة أُريتها بدمشق وبيده كتاب فقال لي » « هذا كتاب فصوص خذه وأخرج به الى الناس وينتفعون بِهِ » وقد مرّ بك حرصهُ على المنامات وشدّة اعتقاده لهـا وإن لم تكن سوى أضغاث أحلام ولهُ « مشاهد الأسرار القدسية » وغير ذلك ممّا يطول تعدادهُ ولا يكاد يقع تحت حصر ويدلّ على مادّة غزيرة وقريحة متدفقّة.

(١) جمع فَصّ وهو ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة.

الأطبّاء والفلاسِفة

أبو القاسم الزَّهراوِيّ (١١٠٧م ٥٠٠هـ)

هو أبو القاسم بن عبّاس الزهراوي نسبة الى الزهراء وهي مدينة صغيرة على نحو سبعة أميال من قرطبة. والإفرنج يسمّونه « ألْبوكَازِيس ». كان من مشاهير أطبّاء زمانه حاذقاً في تشخيص الأمراض موّفقاً في علاجها وتميز على معاصريه من أرباب الصناعة بتعاطي الجراحة وإتقان أعمالها على قدر ما مكّنته من ذلك الأحوال فإنّ الجراحة كانت في غاية القصور والإهمال لتوقّفها على التشريح وهو محرّم في الدين الإسلامي. فكان أطبّاء العرب لا يعرفون صفات الأعضاء التشريحية إلاّ بالوصف الذي يطالعونه في كتب اليونان ومن ثم لم تكن لهم يدٌ في الجراحة وقد تراجعت هذه الصناعة الجليلة في أيّامهم واقتصرت على غير المهمّ من الأعمال. غير أن أطبّاء الأندلس لم يكونوا ليتركوها بتاتاً فكان أبو القاسم بارعاً في بتر الأعضاء واستخراج ما يعترض في الحلق من الأجسام المبتلعة واستعمال الكيّ بالحديد ولهُ في الجراحة مؤلّف سيأتي الكلام عليه قريباً.

واقتدى بأبي القاسم فئةٌ من الأطبّاء الأفاضل لم يأنفوا كمن سواهم من الإهتمام بالجراحة ولم يترفّعوا عن تولّي أعمالها. فكان مروان بن عبد الملك إبن زُهر الآتي ذكرهُ مشهوراً بمعالجة الكسر والخلع وفتح القصبة وغير ذلك من أوليّات الأعمال الجراحيّة. ومن كلام الطبيب الفيلسوف إبن رُشد القرطبيّ قولهُ ؛ « من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله ».

ولأبي القاسم مصنَّف شهير سمّاه « التصريف لمن عجز عن التأليف » جعلهُ على قسمين الطبّ النظري والطبّ العمليّ وهو الجراحة قسّم كلّاً منهما على خمسة عشر فصلاً. وقد نقل تأليفه هذا الى العربيّة واللاتينيّة وكان للقسم العمليّ أو الجراحيّ منهُ شأن كبير عند أطبّاء الافرنج.

إبن باجَة (١١٣٨م ٥٣٣هـ)

هو أبو بكر محمد بن باجَة التُجَيبي السَرَقُسْطيّ المعروف بإبن الصائغ ويسميّه الافرنج « إفَنْبَاس ». كان عالماً فاضلاً متميّزاً في العربية والأدب عالي الهمّة مولَعاً بالبحث والتنقيب والنظر وأفرغ ذرعهُ للعلوم الفلسفية فخرج فيها على ثقابة ذهنه ومضاء عزيمته علّامة عصرِهِ ونادرة زمانه. وهو أوّل من علّق الشروحات الضافية على كتب الحكمة التي استُجلبت من المشرق في خلافة الحَكَم بن الناصر الأموي ونفع أهل الأندلس بها غير ملتفتٍ الى سخط العامّة نقمتهم على المولعين بالفلسفة وإيذائهم للمتظاهرين بها فكان لهُ من ذلك عناءٌ شديد ومحنة دائمة وكثيراً ما حاولوا إهلاكه ولم ينجُ إلّا بالجهد الجاهد ورموهُ بالكفر والإلحاد والزندقة إغراءً للملوك بإهدار دمِهِ[١].

وكان لإبن باجَة باعٌ طويلٌ في الهيئة والرياضيّات والطبّ والموسيقى ولهُ في هذه العلوم مصنّفات حسنة أشهرها « رسالة الوداع » تشتمل على مباحث في القوة المحرّكة في الإنسان العاقل وخلود النفس ولهُ أيضاً رسائل أُخر في الفلسفة وبقيّة الفنون التي أتقنها ما عدا الشروح التي وضعها على طائفة من كتب أرسطو ـ ووزر إبن باجة للأمير أبي بكر بن إبراهيم الصحراويّ صاحب سرقسطة من قِبل ملوك المرابطين وكانت لهُ حُظوة كبيرة فنادمه وأفضى إليه

(١) أهدر دَمَهُ أباح قتله.

بسرِّهِ إلّا أنّ الإشاعات التي كان أعداء الوزير الفيلسوف يبثونها في صدور الغوغاء اتّصلت بالجند فحرّكت كامن[1] أهوائهم وهاجت أحقادهم فاعتزل إبن باجة الخدمة وأقام بِبَلَنْسِيه ثم ورد إشبيلية فغرناطة ورحل من ثمّ الى المغرب فنزل بفاس ووزر ليحي بن يوسف بن تاشفين دهراً طويلاً فصلحت بِهِ الأحوال ونجحت على يديه الآمال فحسده الأطبّاء والكتّاب ومن إليهم من هوّام البشريّة الذين تنتغش[2] بهم قصور الملوك ولا همّ لهم سوى مصّ الدماء وتمزيق الأعراض الشريفة المترفعة بنبلها عن مخازيهم ودناياهم فتمالأوا عليهِ وكادوه وقتلوه مسموماً بباذنجانة.

---

(١) خفيّ مستتر.

(٢) تتحرك وتموج يقال انتغشت الدار بالأولاد إذا كثروا فيها وماجوا وكذلك انتغشت القرية بالنمل وما أشبه ذلك.

بَنُو زُهْر

إشتهر بنو زهر في الأندلس بالطبّ والفلسفة اشتهار بني بختيشوع في العراق فكانوا كلّهم أعياناً علماء ورؤساء حكماء وأطبّاء أجلّاء ووزراء فضلاء وقد نالوا المراتب العالية وتقدّموا عند الملوك ونفذت أوامرهم وكثرت في الناس مآثرهم ولهجت الألسن بأريحيتهم وكرم أخلاقهم وعموم مؤاساتهم[1].

وأوّل من اشتهر من هذا البيت الكريم ـ أبو بكر محمد بن مروان بن زُهر الأياديّ ـ كان عالماً حافظاً للأدب فقيهاً حاذقاً بالفتوى متقدماً فيها متقناً للعلوم فاضلاً جامعاً للدراية والرواية وحدّث عنهُ جماعة من علماء الأندلس وتُوفي بطلبيرة سنة ١٠٣٠ مسيحية. وعُرف بعده أبنهُ ـ أبو مروان عبد الملك بن محمد ـ كان فاضلاً في صناعة الطبّ خبيراً بأعمالها رحل الى المشرق فتطبّب[2] هنالك زماناً وتولّى رئاسة الطبّ ببغداد ثم بمصر والقيروان.. ورجع الى الأندلس وقصد مدينة دانية ولقي من ملكها إكراماً كثيراً وطار ذكرُهُ في أقطار الأندلس واشتهر بالتقدم في الصناعة والحذق بمزاولتها. وانتقل الى أشبيلية ولم يزل بها الى أن وافته منيتُهُ.

وجاءَ بعده إبنهُ ـ أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك ـ من مشاهير أطبّاء زمانه وأفاضل علمائهِ وأماثل أُدبائِهِ. وقد رُزق في الطبّ براعة وبصيرة تدلّان على

---

(١) آسى فلان قريبه جعله أسوة لنفسه في ماله وعزّاه في مصيبته.

(٢) تعاطى الطّبّ.

قوة استنباطه وسعة اطّلاعه على دقائق الصناعة ولهُ نوادر في مداواته للمرضى ومعرفته لما يجدون من الآلام بمجرد تفرّسهِ فيهم أو جسّ نبضهم. ونال في دولة الملثّمين -وهم المعروفون أيضاً بالمرابطين منزلة رفيعة وذكراً جميلاً. وفي أيّامِهِ وصل كتاب القانون لإبن سيناء الى الأندلس فلم يعجبه فطرحه وجعل يقطّع من طررِهِ ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى، ولأبي العلاء مصنّفات في الطبّ منها كتاب « الأدوية المفردة » وكتاب « النكت الطبيّة » ألّفها لأبنه أبي مروان وجُمعت لهُ نسخٌ ومجرّباتٌ بعد وفاته أمر بجمعها عليّ بن يوسف بن تاشفين بمرّاكش وبسائر بلاد العدوة والأندلس ممّا يدلّ على مكان الرجل من قلوب معاصريه ووفرة ثقتهم بعلمه ودرايته حتى أنزلوا أقواله منزلة وصيّة ثمينة عملوا بها بعد وفاته. وكان ذلك سنة ١١٣٠ مسيحية ٥٢٥ هجرية.

وخلفهُ في الصناعة إبنهُ - أبو مروان عبد الملك بن زُهر - ولحق بأبيه في حسن المعالجة واستقصاء الأدوية المفردة والمركّبة وشاع ذكرهُ في الأندلس واشتغل الأطبّاء بمصنّفاته ولم يكن من يماثله في زمانه بمزاولة أعمال الصناعة. وخدم الملثمين ونال من جهتهم نعماً وأموالاً كثيرة ولمّا انتزع عبد المؤمن المدّعي نسباً في بيت العلويّين بلاد المغرب والأندلس من أيدي المرابطين واستقلّ بالمملكة قرّب أهل العلم وأكرمهم ووالى إحسانه إليهم واختصّ لنفسه أبا مروان وجعل اعتماده عليه في الطبّ وأنالهُ من الأعطية فوق أمنيته وكان مكيناً عنده عالي القدر متميزاً على كثير من أبناء زمانه ولهُ في علاجه وتدبير صحته وتحيّلهُ في مداواته نوادر كثيرة وهي وإن فاقت طور التصديق تدلّ على دقة نظره ولطف أسلوبه في معالجة الاعلاء والإستيلاء على خواطرهم فتنجع فيهم الأدوية بأكثر سهولة. ولأبي مروان تآليف منها مقالة في علل الكلى ورسالة في علتيّ البرص والبهق وكتاب « التذكرة » وكتاب « الزينة » ألّفها لإبنه عند شروعه في التطبّب وهو صغير السنّ.

وقام بعده ابنهُ - أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن زُهر - وهو عين ذلك

البيت الشهير ومصباحهم المنير وإذا قيل « إبن زهر » بالإطلاق فإنّما يراد به أبو بكر دون سواه لسموّ مقامه وتفرّده عن مواقف الأشباه. وُلد بأشبيلية ونشأ بها وتميّز في العلوم وأخذ الطبّ عن أبيه وباشر أعمال الصناعة تحت رعايته ولم يزل يزداد علماً وخبرة ودُرْبة ودراية حتى أحصى دقائقها واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها وأصبح العلم الذي يشار إليه بالبنان ومنقطع القرين بين أطبّاء ذلك الزمان. ولم تقتصر همّتهُ الشمّاء على التبريز في الطبّ بل كان من حفّاظ القرآن ورواة الحديث واشتغل بالأدب والعربيّة وتبحّر في أسرار اللغة فصار من شيوخ علمائها وأفاضل أئمتها ونظم الشعر فأجاد فيهِ ولهُ موشّحات مشهورة تناقلتها الألسن وتغنّى بها الحُداة.

وشارك أبو بكر أباهُ في خدمة دولة الملثّمين ودولة الموحّدين من بعدهم وأظهر من حسن المعالجة وثاقبة الرأي ما أعجب عبد المؤمن وأعلى منزلته عندهُ ولم يزل في خدمة خلفائه مكرّماً مهيباً كثير الحظوة الى أيامه. ولهُ في الناس مآثر ومحامد تشهد لهُ بطيب العنصر والأريحية التامّة لكن مناقبه ومكارمه لم تكن لتقيه مكايد الحسّاد الأدنياء وكثيراً ما وشوا به وإتهموه عند الخليفة بقراءة كتب الفلسفة وضعف العقيدة فطاشت سهام مكرهم وردّ كيدهم في نحرهم. ولمّا أعيتهم الحيلة عمدوا الى سمّ دسّوه في بيض وقدّموه لهُ فأكل منه هو وابنة أُخت لهُ فماتا كلاهما ولم ينفع فيهما علاج. وكانت أخته وابنتها المذكورة عالمتين بالطبّ ولهما خبرة جيّدة بما يتعلّق بمداواة النساء وكانت تدخلان الى نساء المنصور ثالث الموحّدين وتعالجهن.

ومن شعر أبي بكر بن زُهر قولهُ يتشوّق الى ولدهِ:

ولي واحدٌ مثل فرخ القطا صغير تخلّف قلبي لَدَيهْ
نأت عنه داري فيا وحشتي لذاك الشُخيص وذاك الوُجَيْهْ
تشوّقني وتشوّقتهُ فيبكي عليّ وأبكي عَلَيْهْ
وقد تعب الشوق ما بيننا فمنهُ اليّ ومني إلَيْهْ

ونظر يوماً الى المرآة وهو في آخر عمرهِ فأنشد:

إنّي نظرت الى المرآة إذ جُليت — فأنكرت مقلتاي كلّ ما رأتا
رأيت فيها شُييخاً لستُ أعرفهُ — وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا — متى ترحّل عن هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت — قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هوّن عليك فهذا لا بقاء لـهُ — أما ترى العُشب يَفْنى بعد ما ما نبتا
كانت سُليمى تنادي يا أُخيّ وقد — صارت سُليمى تنادي اليوم يا أبتا

وكان مقتل إبن زهر سنة ١١٩٩ م ٥٩٦ هـ.

وخلفهُ إبنهُ ـ أبو محمد عبد الله بن محمد ـ وقرأ على والده ووقف على كثير من أسرار الصناعة وأعمالها وعُني بالنظر فيها والتحقيق لمعانيها بحيث صار رأساً في علم الطبّ وكان جيدّ الفطرة حسن الرأي مفرط الذكاء وحظي عند الخليفة الناصر رابع الخلفاء الموحّدين ولقي عندهُ من الإكرام والإنعام ما يفوق الوصف. وتُوفيَ مسموماً كأبيه سنة ١١٢٥ مسيحية وهو في الخامسة والعشرين من عمره وخلّف ولدين عُرفا بالفضل والكرامة أحدهما يُسمّى أبا مروان عبد الملك والآخر وهو الأصغر يسمّى أبا العلاء محمداً وكان معتنياً بصناعة الطبّ ولهُ نظرٌ جيّد فيها.

إبن الطُّفيل (١١٨٥ م ٥٨١هـ)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل القيسيّ الطبيب الفيلسوف الشهير. وُلد بوادي آش وتتلمذ لإبن باجة فتلقّى عليهِ العلوم ونبغ في الطبّ والفلسفة وطار صيته في أنحاء الأندلس وكتب لأمير غرناطة فحسنت لديهِ آثاره ثم اتصل بخدمة الموحّدين وحظي عندهم ووزر لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان نديمه ونجيّه وموضع سرّه وثقته. وحبّب إليهِ قراءة كتب الحكمة ومهّد لأصحابها سبيل التقرّب منهُ وكان من جملة من سعى في تقريبهم إبن رشد الشهير زعيم فلاسفة الأندلس. وكان الخليفة يعقد مجالس المناظرة للفلاسفة في قصرهِ ويخوض معهم في جميع المباحث ويظهر من الحنكة في الجدل وبعد الغور في استنباط الأدلّة وسعة الإطّلاع على مقالات الحكماء ما يدهش لهُ السامعون ويُعجب بِهِ جهابذة العلم أنفسهم.

وإبن الطفيل على مذهب أرسطوطاليس كسائر فلاسفة العرب ولهُ عدّة مؤلّفات في الفنون التي تعاطاها أشهرها الرسالة الذائعة الشهرة في أسرار الحكمة المشرقيّة التي سمّاها « حيّ بن يقظان » أودعها ما تمثّل لخاطرهِ من الآراء الفلسفيّة وأبرز مذهبه بصورة رواية يدور فيها الكلام على غلام ساقته التقادير الى جزيرة خالية خاوية لا مرشد لهُ فيها ولا مؤدب. فمثّل المؤلّف كيف يكون تنبّه قوى الفتى وإستيقاظ مداركه وترقّي نفسهِ شيئاً فشيئاً الى ذورة الكمالات الإنسانية بمجرّد أعمال عقلِهِ وتبصُّرهِ في أحوال الطبيعة ومظاهرها العجيبة.

إبنُ رُشْد (١١٩٨م ٥٩٥هـ)

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رُشد المالكي القرطبيّ زعيم فلاسفة الأندلس وأستاذ حكماء زمانه وخاتمة علماء العرب المشهورين في الجزيرة ويسمّيه الافرنج « أَفُرِوس » ولهُ عندهم شهرة واسعة ومكانة عالية وقد نقلوا الى لغاتهم طائفة من مؤلّفاته. وُلد بقرطبة من بيت عُرف بالوجاهة والنبل والفضل وكان أبوه فقيهاً عالماً متولّياً للفتوى كثير الخير حميد المآثر وتخرّج إبنه على أشهر علماء عصرهِ فأتقن الفقه والكلام والطبّ ثم وقف وقتهُ على تحصيل الفلسفة وانقطع لمطالعة كتب الحكمة وداخل الفيلسوفين الشهيرين إبن زُهر وإبن الطُّفيل وأخذ عنهما ولم يزل يتبحّر في هذا الفن ويستغرق في مباحثه وينقّب عن مسائله حتى خرج فيهِ نسيج وحده تشدّ إليه الرحال من أقاصي البلدان وتتحدّث بِعلمهِ وفضلهِ أَنْدية الأُدباء وجماعات الركبان.

واتّصل إبن رشد بالخليفة أبي يعقوب يوسف على يد إبن الطفيل ولقي منهُ إعزازاً ورعاية وكانت لهُ عندهُ حرمةٌ وموضع جليل ولّاه قضاء أشبيلية ثم قضى في قرطبة ومنها شخّص الى مرّاكش بأمر الخليفة ثم انقلب راجعاً الى الأندلس. ولمّا مات يوسف خلفهُ المنصور وأقرّ إبن رشد في مقامِهِ مدّة وأنالهُ من الحظوة والكرامة ما كان يلقى عند الخليفة السالف. إلّا انّه ما عتّم أن قلب لهُ ظهر المجنّ ونقم عليه ونفاهُ الى اليسانة وهي بلدة على مقربة من قرطبة وكان السرّ في هذا الإنقلاب أنّ جماعة من الأعداء الحسدة وشوا به عند

الخليفة وشنّعوا عليه بقراءة الفلسفة وفساد العقيدة وجحد القرآن وشملوا بسعايتهم هذه قوماً من أفاضل العلماء جمعتهم فيه الظروف. فنُكبوا جميعاً وفُرّقوا في أطراف البلاد. ثم عاد المنصور الى نفسهِ ورضي عن الجماعة واستدعي إبن رشد الى مراكش وغمرهُ بالنعم والكرامات وردّ لهُ سابق مقامه وحظوتهُ. ويُروى أنّ سبب رضاهُ عن الفيلسوف هو أنهُ رغب هو نفسهُ في الاشغال بالحكمة والوقوف على مقالات الفلاسفة والتخرّج في طريقتهم. وهذه بدوات وغرائب عوّدنا التاريخ استماعها عن أولئك الملوك المستبدّين الذين لا رادع لهم سوى أهوائهم وأمانيّهم.

وكان إبن رشد شديد الإعجاب بأرسطو الى حدّ الغلوّ حتى ارتأى أنهُ أنهى العلم الى أبعد غاياته بحيث لا يُستطاع لمن بعده أن يزيدوا عليهِ. وفي هذه الدعوى ما فيها . . . وقد قصر نفسهُ على خدمة مؤلّفات المعلّم الأول فوضع لها شروحاً ومختصرات تقرّب منالها لطلّاب الحكمة. ولهُ تصانيف عديدة في الفلسفة والطبّ ضاع بعضها تماماً وفُقد الأصل العربي للبعض الآخر فلا تُعرف الاّ بترجمات لاتينيّة أو عبرانيّة. وأمّا ما بقي منها على أصلهِ فهو قليلٌ جداً أشهرها « تهافت التهافت » وهو ردّ على « تهافت الفلاسفة » للغزاليّ وقال في آخرهِ « لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ولولا ضرورة طلب الحقّ مع أهلهِ ما تكلّمت في ذلك » ومنها « فصل المقال » فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال وهي رسالة مفيدة حاول فيها أن يقنع قوماً من غلاة السنَة أنهُ لا تناقض بين العقل والدين ـ ولإبن رشد من المؤلّفات أيضاً كتاب « الكلّيات » في الطبّ وهو مصنّف جليلٌ طُبع مراراً باللاتينيّة ولهُ تلخيصاتٌ لكثير من كتب جالينوس في الإسطقسات[1] والأمزجة والعلل والأعراض والحميّات وغيرها.

أمّا مذهب إبن رشد ـ إن صحّ أن لهُ مذهباً خاصاً بهِ ـ فخلاصته أن مادّة العالم أزليّة وما الخلق عندهُ سوى حركة اضطراريّة في تلك المادّة تنشأ عنها

---

(١) العناصر.

الكائنات وتتولّد بعضها من بعض. والخالق في مذهبه هو تلك الحركة أو المحرّك. ولمّا كانت المادّة أزليّة وجميع الموجودات ناجمة عنها كانت المخلوقات مشاركة لها في الأزليّة أو الالهيّة تبعاً لاتقائها في العلم. بحيث أن الإنسان العاقل إذا تجرّد لتحصيل العلم توصّل شيئاً فشيئاً الى الإستغراق في الله وهذا ما يُسمّى بمذهب « النشوء » وهو قريبٌ جداً من « الحلول[1] ». وممّا يجدر ذكرهُ أنّ إبن رشد والمتصوّفة متفقون على إمكان تألّه الإنسان ولا يختلفون إلاّ في الطريقة. فإبن رشد يقول هي العلم والمتصوّفة يقولون هي الصلاة.

ويترتب على هذا المبدأ أن النفوس تموت مع أجسادها وترجع الى مادّتها الأصلية فلا خلود إلاّ لتلك المادّة وبالتالي فلا ثواب ولا عقاب بعد هذه الحياة. وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها الى العقل الأول الذي يسمّيه « العقل الفاعل » الأزليّ في مقابلة « العقل المنفعل » الحادث. وهذا *العقل الفاعل العامّ هو وحدهُ متّصلٌ بالله دون العقول الفرديّة ومن ثم فليس* للخالق معرفةٌ إلاّ بكليّات الحوادث التي تجري في العالم ولا علم لهُ بجزئيّاتها. الى غير ذلك من الأقوال التي لا محلّ لها هنا.

وقد تصدّى[2] علماء كثيرون للردّ على هذه الفلسفة الأرسطوطاليّة الرشديّة أشهرهم القدّيس توما الأكوينيّ علاّمة الكنيسة الكاثوليكية فانهُ نقض بناء هذا المذهب ولم يترك منهُ حجراً على حجر.

---

(١) مذهب القائلين أن الله حالّ في كل شيء.

(٢) تعرض.

إبنُ مَيْمُون (١٢٠٨م ٦٠٥هـ)

هو أبو عمران موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي الشهير ويسمّيه الافرنج « ميمونيد » وُلد بقُرطُبة وتفقّه في العلوم الدينية على مذهب أهل مِلّته وبرع في سنن اليهود وكان يُعدّ من فضلاء أحبارهم وأكابر علمائهم وكانت لهُ في بني جنسه مكانة خطيرة وكلمة نافذة ـ وصرف إبن ميمون عنايته الى تحصيل الآداب العربيّة والفلسفة والطبّ فنال منها حظّاً وافراً وأصبح ممن يرمي بالأبصار وبلغ موضعاً جليلاً في عصابة ذوي الأقدار والأخطار وتوثّقت عرى الأخاء بينه وبين فلاسفة عصرِه كإبن الطُفيل وإبن رشد وغيرهما.

ولمّا ملك الموحّدون بلاد الأندلس ورسخت قدمهم فيها لحق أهل الذمّة منهم شرّ وضيق وبلاء شديد فاضطرّوا جميعاً من يهود ونصارى الى مهاجرة أوطانهم أو جحد إيمانهم فآثر النصارى الجلاء وقصدوا طُليطلة عاصمة قشتالة فألقوا فيها عصا الترحال وأمّا اليهود فأسلموا أو تظاهروا بالإسلام في العلانية يقيمون سراً شعائر دينهم في الخلوات. وجاراهم إبن ميمون على هذه الخطّة فأظهر الإسلام وحفظ القرآن وتعاطى الفقه حتى إذا دبّر شؤونهُ وباع عقاراته[1] واستصفى أثمانها هاجر الى مصر وعاد الى سابق دينه ورأس بني ملّتهِ وأنشأ بالفسطاط مِدْراساً[2] تُتلقّى فيه العلوم على مذهب اليهود.

---

(١) جمع عقار بالفتح وهو ما لا ينتقل من المال كالدار والبستان.

(٢) مدرسة تدرس فيها العلوم على مذهب اليهود.

ونما صيته الى السلطان صلاح الدين الأيّوبي فقربهُ إليه واتّخذهُ طبيباً وخدم إبنه الملك الأفضل من بعده ووضع له مؤلّفاً في السموم والتحرّز من الأدوية القتالة وهي الهُولة[1] الفظيعة التي ما برح ملوك ذلك الزمان تستطار أفئدتهم لها ويصافون ويتملّقون من أجلها الأطبّاء مهما كان مذهبهم ولو أضطُروا الى تناسي العرش معهم وترك كبرهم واستبدادهم.

ولإبن ميمون تصانيف عديدة باللغة العبرانيّة في أغراض دينيّة وفلسفيّة لها عند اليهود قيمة جليلة وخطورة كبيـرة ويعدّون صاحبها إمام فلاسفتهم وأفلاطون نحلتهم ولهُ أيضاً تآليف عربيّة منها «دلالة الحائرين» في الفلسفة والدين.

---

(١) كل ما هالك والهولة ما يفزع بِهِ الولد.

إبن البَيْطَار

(١٢٤٨م ٦٤٦هـ)

هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار النباتيّ الشهير. وُلد بمالَقة وأُولع منذ صباه بعلم النبات فتخلّى لطلبِهِ واستنزف[1] أيّامهُ في معاناته حتى أصبح علّامة وقتِهِ وقريع وحدهِ في معرفة النبات وتحقيقه واختبارِهِ ونعت أسمائِهِ على اختلافها وتنوّعها وتعيين منابتهِ. ورحل لإتقان الفنّ والبلوغ منهُ أبعد الغايات الى بلاد الأغارقة ودرس اللغة اليونانيّة فحذقها واطّلع على ما فيها من كتب النبات للأقدمين كدِيُسقوريدس العين زَربيّ وجالينوس وأدّى بهِ الترحال الى أقصى بلاد الروم ولقي جماعة يعانون هذا الفنّ وأخذ عنهم معرفة نباتات كثيرة وعاين مواضعها وتحقّق ماهيّتها وهكذا كان دأبه في سائر الأقاليم التي جابها كالمغرب ومصر والشام.

ولّما قدم إبن البيطار الى دمشق إجتمع بالطبيب المؤرّخ إبن أبي أُصيبعة ورسخت بينهما قواعد المودّة ومما جاء في « طبقات الأطبّاء » عن إبن البيطار « ورأيت من حسن عشرتِهِ وكمال مروءَتِهِ وطيب أعراقِهِ وجودة أخلاقِهِ وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجّب منهُ . . . » وخدم بدمشق الملك الكامل وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش وتوجّه بعد وفاة مخدومِهِ الى القاهرة فخدم الملك الصالح وكان حظيّاً عنده وجعلهُ رئيساً على العشابين وأصحاب

---

(١) إستفرغ.

البسطات[١] في الديار المصريّة. ثم عاد الى دمشق وسكنها الى وفاته.

ولإبن البيطار تآليف في الفنّ الذي انصرف إليه وبذّ[٢] فيهِ أهل عصرهِ قاطبةً منها كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » وهو المعروف بمفردات إبن البيطار حشر فيه ما قدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقيّ وكتاب الزهراويّ وكتاب الشريف الأدريسيّ الصِقِليّ وغيرها وضبطها على حروف المعجم واستقصى ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبيّن الصحيح منها وما وقع الإشتباه فيه بحيث كان هذا المؤلّف النفيس من أجلّ وأجود ماصُنّف في هذا الشأن. ولهُ أيضاً في المعنى نفسهِ كتاب « المُغني » وهو مرتّب بحسب مداواة الأعضاء الألِمة.

وهناك عصابة جليلة من أرباب الإجتهاد وأصحاب النظر يطول استقراؤها عانوا كلّ نوع من العلوم والفنون والصنائع واستقصوا البحث عمّا يعرض للعاقل المتبصّر في هذا الكون العجيب وحاولوا الكشف عن مخبآت الطبيعة واستشفاف[٣] أسرارها من وراء السجف[٤] التي ضربتها دون عامّة البشر وطمعوا في الإستيلاء على قواها لمنفعة بني الإنسان ممّا كان ولو على غاية البعد مقدمة لهذه النتائج التي نعانيها اليوم مبهوتين ولا يكاد المرءُ يصدّق فيها حسّ نفسهِ. ونذكر ههنا على سبيل المثال والفكاهة شيئاً ممّا جاء في نفح الطيب في غرض الكلام عن مزايا أهل الأندلس قال: « ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أنّ أبا القاسم عبّاس بن فرناس حكيم الأندلس أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل من فكّ بها كتاب العروض للخليل وأوّل من فكّ الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير رسمٍ ومثال. واحتال في تطير جثمانه وكسا

---

(١) البسطة لوح يبسط عليه البقال بضاعته. (٢) غلب.
(٣) إستشفّ الشيء تبيّنه واستقصاهُ.
(٤) جمع سجاف بالكسر وهو الستر.

نفسهُ الريس ومدّ لهُ جناحين وطار في الجوّ مسافة بعيدة ولكنهُ لم يحسن الإحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخّره ولم يدرّ أنّ الطائر إنما يقع على زِمِكّهِ[١] وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات:

يطمّ على العنقاء في طَيَرانها إذا ما كسا جثمانهُ ريشَ قَشعمِ[٢]

وصنع في بيتهِ هيئة السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود . . . » ويلي هذا الكلام تعدادُ أفرادٍ أماثل نبغوا في العلوم على تنوّعها بحيث لم يكن قطّ علمٌ أو فنّ في المشرق إلّا تناولهُ أهل المغرب واشتغلوا بهِ فألّفوا فيهِ وبرّزوا.

ونحبس عند هذا الحدّ عنان القلم في الكلام على زعماء الفضل وأرباب العرفان بالأندلس ولو أردنا أن نفيض في ذكر الأعلام والأفاضل الذين رفعوا هنالك منار الآداب والعلوم فأوضحوا معالمها الدارسة[٣] وبدّدوا ظلمات الجهل الدامسة لا نفسح أمامنا مجالٌ واسع الأطراف لا تقع العين منهُ على نهاية واقتضى ذلك مجلّداً مشبع الفصول ليس من غرضنا وضعهُ وفيما أوردنا في هذا المختصر كفاية. والأقرب الى ظنّنا أن المطالع اللبيب وقف من هذه اللمعة على منزلة أولئك القوم الذين جعلوا بلادهم كعبة العلوم والفنون فأشرقت منها بدورهم الساطعة وضُربت إليهم أكباد الأبل[٤] من الأقاليم الشاسعة وامتدّت أنوارهم الزاهرة من ثَمّ الى سائر القارّة[٥] الأوروبيّة فأقبل أهلها يستصبحون بنبراس[٦] المعارف عند ثقات علماء العرب وإثباتهم حتى اكتحلت أبصارهم بضياء العلم واستيقظوا من عميق سباتهم[٧].

---

(١) زمك الطائر وزمكاه بكسرتين فشدة منبت ذنبه.

(٢) يطم يعلو والعنقاء وعنقاء مغرب طائر وهْمي عظيم الجسم طويل العنق يبعد في طيرانه والجثمان الجسم والقشعم النسر المسنّ.

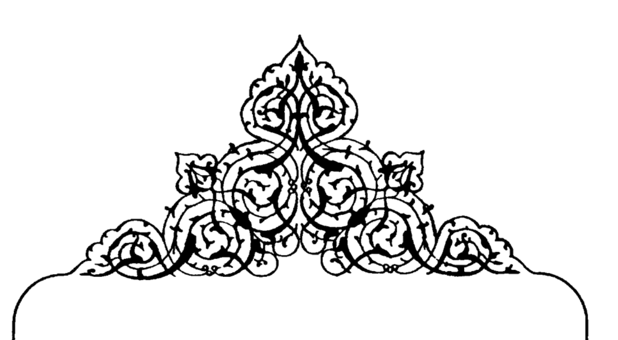
(٣) المعالم جمع معلم بفتح الأول والثالث وهو ما نستدل به على الطريق من أثر ونحوه والدراسة الفانية الممحوة.

(٤) كناية عن قصد الناس لهم.

(٥) أحد أقسام الأرض الخمسة.

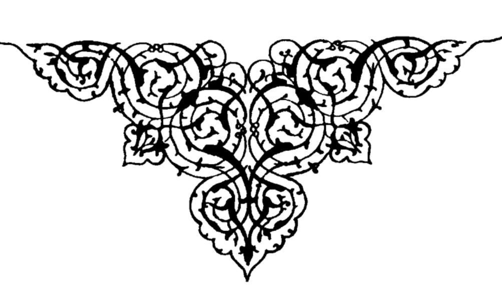
(٦) مصباح.

(٧) نومهم.



اللغة

في طور الانحطاط



سقطت بغداد أُمُّ المدائن العربيّة ودُمِّرتْ [١] تدميراً وثُلّ [٢] عرش الخلافة العباسية وسيق الخليفة للذبح مقهوراً أسيراً ودُكّت [٣] أركان القصور الشامخات فتقوّضت [٤] على أصحابها وكانت لهم صُوًى [٥] وقبوراً ومدّت أيدي الهمجيّة الى صروح [٦] العلم مشاعل الجهل فغدت هباءً منثوراً وطُرحت نفائس المصنّفات في دجلة فكانت للرجّالة والفرسان معابر وجسوراً وأقوت [٧] مغاني العلم وانتثر عقد العلماء فصارت قاعاً صفصفاً وصاروا قوماً بوراً [٨] وقامت نوادب الآداب فوق تلك الطلول تنادي ويلاً وثبوراً [٩] وتبكي على سقوط أُمّة العزّ والعلم سقطةً لا لعا [١٠] لها أجيالاً ودهوراً.

---

(١) خربت. (٢) هدم.

(٣) دك الحائط هدمه حتى سواه بالأرض.

(٤) تهدمت.

(٥) جمع صورة وهي ما يركم فوق القبر من الحجارة.

(٦) جمع صرح أي قصر.

(٧) أقوى أقفر والمغاني جمع مغنى بالفتح وهو المنزل.

(٨) القاع الصفصف المستوي وقوم بور هالكون.

(٩) هلاكاً.

(١٠) كلمة تقال للساقط دعاءً لهُ بالإنتعاش.

سقطت بغداد فوهت دعائم العرفان وتداعت[1] صروح الآداب وانقضّت شُهُب العلوم من أفلاكها فخيّم الظلام شيئاً فشيئاً على الآفاق العربيّة ودبّت عوامل الهرم في اللغة ودخلت في طور الإنحطاط ولم يغنِ في تلافي أمرها قيام عصابةٍ من جلّة العلماء رفعوا فوق الرؤوس منارها وردّدوا فيما بينهم شعارها[2] فإن هم إلّا آحادٌ تقسّمتهم الأعصر فلم يسعهم إنعاش اللغة من عثرتها[3] المائلة وما كان ظهورهم في سماء البلاد العربيّة إلّا برقاً تألّق[4] مدّة فسرى الأقوام في نورهم برهة ثم ما عتّموا أن لحقوا بالأولّين وعاد أبناء جلدتهم يتسكّعون[5] في دياجير ليلٍ ألْيَل.

نعم قضى الأمر وانقضى عصر الوضع والإستنباط والتعريب والتأليف وتلاهُ دهرٌ ونت فيه الهمم وتخاذلت[6] العزائم واقتصر الناطقون بالضاد[7] على الجمع والتلخيص والتعليق على بقيّة الذخائر النفيسة التي لم يعبث بها الدهر ووقفوا من كلّ ذلك عند الحدّ الذي بلغهُ أجدادهم وقد فات ذرعَهم أن يتمّوا الشوط[8] النشيط الذي شرع فيه سلفاؤهم وخطوا فيه خطوات فسيحة كبت دونها جياد من سواهم من أمم ذلك الزمان. ومع ذلك فإنّ ما اتّصل إلينا من أعمال هؤلاء المتأخّرين يشهد لهم بالثبات ومضاء الصريمة[9] ومغالبة الأيّام لو كانت الأيّام تُغالب. وقد أعذروا[10] وأيم الحقّ فيما أتوه مع خيانة الدهر وانحلال الأزر.

---

(١) وهي ضعف وتداعي البناء همّ بالسقوط.
(٢) نداء خاص يتعارف به القوم في الحرب.
(٣) سقطتها. (٤) لمع.
(٥) يسيرون على غير هدى.
(٦) تخاذل القوم تركوا نصرة بعضهم بعضاً.
(٧) هم العرب لأن حرف الضاد لا يوجد إلّا في لغتهم.
(٨) شوط الفرس الطلق من جريهِ.
(٩) العزيمة. (١٠) أتوا بما يعذرون عليه.

أمّا الشعر فقد انحطّ شأنهُ وهبط الى دركة الإبتذال وعري من كلّ تفنّن ورونق وطلاوة ولم يكن من ديدن[1] الناظمين سوى التقليد الأعمى فأخذوا أنفسهم بتحدّي[2] أمرىء القيس وجرير والمتنبّي وأمثالهم وشتّان ما بين شؤون الفريقين في الأخلاق والأغراض والمادّيات والمعنويّات. فضربوا في عرض الصحراء والتقوا بالأحبة على العقيق وزاروا الحيّ خلسةً وبكو الطلول وتشبّبوا بلابسات الخلاخيل وظعنت قلوبهم من الأظعان الى آخر ما هنالك من المعاني التي آخذنا على شعراء الدولتين[3] أنفسهم الإستمرار عليها. وهم عند إنشادهم لتلك القصائد جاثمون في عُقر[4] متقلّبون على فُرُش الراحة والخمول. وإذا تحمّسوا واعتقلوا الرماح وتقلّدوا السيوف فمن وراء جدرانٍ موثقة وأبوابٍ موصدة[5] خوفاً من طارقٍ مفاجىء. فجاء شعرهم خدعة صيدلاني أشفت[6] تجارته على البوار فكتب على قواريره ما ليس فيها . . . وإذا عمد الباحث الى استكشاف أخلاقهم واستطلاع طلع أحوالهم من خلال كلامهم خانهُ نظرهُ وعاد بخفيّ حُنينٍ وقد أحبطت فلسفته في قومٍ ألِفوا التنكّر والتلبّس فليس الى الوقوف على كُنْه أمورهم من سبيل.

وأمّا اللغة فمع تقلّص[7] ظلّها وزُهد القوم فيها لم تعد من أفرادٍ أفاضل تبحّروا فيها وملكوا أزمتها فضبطوا شواردها وجمعوا شتاتها في مؤلّفات ضافية الأذيال مشبعة الفصول مستوعبة لأوابد[8] الكلم وفرائد[9] الفوائد. ولا يخفى

---

(١) عادة وشأن. (٢) مباراة ومسابقة.
(٣) الأموية والعباسية.
(٤) جثم بالمكان لصق به وعقر الدار أحسن موضع منها.
(٥) موثقة ممكنة موصدة مقفلة. (٦) أشرفت.
(٧) إنسحاب. (٨) شوارد.
(٩) جمع فريدة وهي الدرة الكبيرة في العقد أستعيرت للفائد البليغة.

على من لهُ إلمامٌ بالآداب العربيّة أنّ أوسع كتب اللغة وأسيرها ذكراً وأكثرها تداولاً عند الأدباء إنّما وُضعت في ذلك العهد كلسان العرب لإبن منظور والقاموس المحيط للفيروزابادي وكفى بهذين المصنّفين فخراً لزمنٍ أناخ الدهر فيه على العرب بكلكلِهِ وألقى جرانَهُ[1].

وللتاريخ أيضاً من تلك المدّة ذكر حسن. ولعلّ انقضاء دولة القوم وسكون جعجعتهم[2] وإخلادهم الى السكينة على أثر أُفول نجعهم وإخناء[3] الدهر عليهم ممّا يدعو الى الإعتبار والنظر في الأسباب والمسبّبات نظراً صافياً مجرّداً من كدورة الأهواء والأغراض والعصبيّات. فيتسنّى للمرء أن يسير في طيّات القرون الغابرة على هُدي وبصيرة وهو تامّ العدّة متقن الأداة لأحكام هذا الفنّ. فلا بدع ان نبغ في ذلك العهد إبن خلدون الحضرميّ فيلسوف مؤرّخي العرب.

بيد أنه مهما كان من هؤلاء الأفراد الأماثل وبُعد غَوْرهم فيما تعاطوه من فروع الآداب لم يكونوا ليستوقفوا تهافت اللغة ويقوها من الضياع والإضمحلال الذي دبت آفاته في جسمها بسقوط الدولة العربيّة وقيام الممالك الأعجميّة على أنقاضها[4] ـ وهل إقبال علماء فضلاء في زماننا على درس اللغات الدائرة[5] كالأشوريّة والفينيقيّة والهيروغليفيّة وإتقان بعضهم إياها الى حدّ التأليف فيها يعيد الى تلك اللغات سالف مجدهنّ وغابر[6] رونقهنّ. هيهات أن يكون ذلك فإنّ هذه الألسنة مهما بلغت من الرقيّ

---

(١) الكلكل من البعير صدرهُ والجران مقدم عنق البعير وأناخ بفلان البلاء حلّ عليهِ والعبارتان كناية عن إتيان الدهر وحلولِهِ بمصائبه.

(٢) ضجتهم. (٣) اتيان.

(٤) جمع نقض فتحتين وهو ما نقض أي ضرب من الأبنية.

(٥) الهالكة. (٦) سابق.

والكمال دُفنت الى الأبد مع الأقوام الذين تكلّموا بها وقد أصبحت نظيرهم أثراً بعد عين لا يُلتفت إليها إلاّ على سبيل العبرة والبحث والفكاهة.

هذا شأن لغات الأرض جميعاً ولم يشذّ عن هذا الناموس القاضي بموت اللغة مع أهلها إلاّ اللغة العربيّة وحدها. فقد دالت دولة العرب منذ أعصار متقادمة وعبث الدهر بهذه الأمة فأكل على ظهرها وشرب ولم تزل لغتهم حيّة تهزأ بصروف الأيّام وتجدّد صباءها من أعمار نعاتها الأغرار[1]. وقد كثر ما أنذر المنذرون وتنبّأ المتنبئون منذ مائة عام مضت أنّ عمر اللغة العربية أمسى أيّاماً معدودات وما هو إلاّ صباح يومٍ ومساؤه فيُقضى الأمر وتكبو بها الجدود العواثر[2] فتُلحد في بطون الدفاتر وتلحق بأخواتها الدواثر وتعود نسياً منسياً. وبينا هم يُعدّون لها المراثي ويسجّلون في كتبهم وفاتها إذ نفضت عنها غبار المشيب وبدّلت الأكفان بُبردٍ قشيب ماست[3] به أعطافها زهواً وخُيَلاء[4] ولسان حالها ينشد قول نبيّ الشعراء.

كم قد قُتلت وكم قد متُّ عندكمُ
ثم انتفضت فزال القبر والكَفَنُ

وسترى مصداق ذلك في الفصل الآتي إن شاء الله. وها نحن نشرع في ذكر مشاهير تلك المدّة المديدة مجتزئين من تراجمهم على ما تقتضيه الحال.

---

(١) النعاة جمع ناعٍ وهو المخبر بموت أحد الناس والأغرار جمع غر بالكسر وهو الجاهل.
(٢) السواقط.
(٣) القشيب الجديد وماست تمايلت وتبخّرت.
(٤) إعجاباً وكبراً.

إبن زَيْلاَق

(١٢٦٢م ٦٦١هـ)

هو يوسف إبن زَيلاق الموصليّ. كان شاعراً فصيحاً حافل القريحة رقيق النظم مولعاً بوصف الرياض ومجالس الأنس تبارى عذوبة ألفاظه وسلاسة معانيه مناغاة الأطيار فوق أغصان الأشجار في الحدائق والمتنزّهات التي قصر عليها معظم أوصافه. فمن ذلك قولهُ موشّحاً.

يا نديميّ بالرُضاب قفا فهي لي مذهبُ[١]
وأديراها خمرة قَرْقَفا لونها مُذهبُ[٢]
حُجبت بالبهاء والحُسنِ عن عيون البشرْ
وَبَدَتْ في الخفاءِ كالوَهَمِ تُجتنى بالفكرِ
لا تخالف يا مُنيتي أمري وأرعني بالرحيقْ[٣]
ما ترى صحبتي من السكر ليسَ منهم مُفيقْ
نحن قومٌ من شيعة الخمرِ ونُحبُّ العتيق
قد نفضنا بهِ عنا الحزنِ بسماعِ الوتر
وحمانا من واصبِ[٤] الهمّ وعدُك المنتظَرْ
حُثَّ شمسَ الكؤوس يا بدرُ فالنُدامى نجومْ

(١) الرضاب العسل استعارة للخمرة
(٢) القرقف أسم الخمرة ومذهب مطلي بالذهب.
(٣) الرحيق أطيب الخمر. (٤) متعب.

وآسقنيها كأنّها تبرُ من دِنان الرومْ
ضحكت في ثغورها الزُهرُ الغيومْ [1]
وتغَنّت بأطيب اللحن صادحات [2] الشجر
ناطقات بألسنٍ عُجم طابَ شربُ السَحَرْ....

ومن شعرِهِ قولهُ:

قم لا عدمتُك فالرياح تغربلُ والرعدُ يطحن والغمائم تنخلُ
والمسكُ قد عجن الثرى بسحيقهِ والعودُ يُحرق والحميّا تُشعلُ [3]
والدنُّ تنّورٌ توقّد جمره ال صهباء باطنه وفار المنزلُ [4]
واللون تبرٌ والحقيقة جوهرٌ والريح مِسك والمذاقة فوفَلُ [5]
والبردُ قد ولّى فمالك راقداً متدثراً يا أيّها المزَمّلُ [6]
أو ما ترى فصل الربيع وحسنُهُ والروض يضحك والحيا [7] يتهلّلُ
والغيم كالكافور ينثر لؤلؤا والجوّ مسكٌ والغدير مصندلُ [8]
أبدت بدائع زهرها لك جنّةٌ قد زُخرفت فنعيمها متعجّلُ

---

(١) الزهر جمع أزهر وهو الأبيض المشوب بحمرة .أراد بها الفقاقيع التي تعلو الخمر إذا مزجت وبكاء الغيوم الماء.
(٢) صدح الطائر غرّد.
(٣) السحيق المسحوق والعود نوع من الخشب يتبخّر به والحميا سورة الخمر أراد بها الخمرة نفسها.
(٤) الصهباء الخمرة لصهبة لونها وهي مبتدأ وباطنه خبرهُ وفار المسك إنتشرت رائحته أسند الى المنزل مجازاً.
(٥) التبر الذهب والفوفل ضرب من النخل الهندي له ثمر في كبائس (أقناء) كهيئة البلح ويعرف طلعة بحوز الفوفل.
(٦) تدثر بالدثار إشتمل به والدثار ما يتغطى به النائم وتزمل وأزمل بثوبه إلتف به وفي البيت إقتباس ظاهر.
(٧) المطر.
(٨) مطيب بعطر الصندل وهو شجر هندي طيب الرائحة يشبه الجوز.

نسجت يد الإبداع وشيَ رقومها · فلأجل ذاك النسج عيني تغزلُ[1]
فمصفَّر ومبيَّض ومطوَّس · ومريَّش ومرقَّش ومكلَّلُ[2]
ومُدَبَّجٌ ومكتَّبٌ ومذهَّبٌ · ومفضَّضٌ باللازَوَرْد مكحَّلُ[3]
جلَّ المكوِّن أعيناً ما زانها · كحلٌ ومبدع صبغةٍ لا تنصلُ[4]
فإذا اجتليتَ فكلُّ شبرٍ نزهةٌ · وإذا ظمئت فكلُّ باعٍ منهلُ[5]
وهزارها شحرورها وَرَشانُها · سُمّانها دُرّاجُها والبلبلُ[6]
هذا يحادث ذا بأحسن منطقٍ · وإذا شدا[7] الثاني أعاد الأوّل
ويضمّ مأتمها الفواخت سحرةً · فكأنّهنّ مفجعات ثُكّلٍ[8]
وعلى الغدير شباك تبرٍ حاكها · شمس الضحى وسنا دروعٍ تُصقلُ[9]

وكلّ ما يؤثر لهُ من هذا الطراز الأنيق. إلاّ أنّ إقبالهُ على الخمرة حطّ من مزيّة شعرهِ فتخطّى في غزلِهِ حدود الأدب.

---

(١) الوشي النقش وتغزل من غزل الرجل بفلانة إذا حادثها وفي البيت إيهام مراعاة النظير بين نسج وغزل.
(٢) المطوس المزين والمرقش المزخرف.
(٣) المدبج المنقش والمكتب المخطط اللازورد معدن شفاف أزرق.
(٤) لا يحول لونها.
(٥) إجتليت نظرت والمنهل موضع الشرب على الطريق.
(٦) الهزار والشحرور والبلبل طيور حسنة الصوت والورشان والسمان والدراج طيور طيبة اللحم.
(٧) تغنى.
(٨) الفواخت جمع فاختة وهي الحمامة المطوقة ومفجعات موجعات بفقد عزيز وثكل جمع ثاكل وهي الفاقدة ولدها.
(٩) صقل الدرع جلاها.

وكان إبن زيلاق يرشف كؤوس الرغد وأكواب الصهباء [١] ويهصر أغصان الهناء في متنزّهات الحدباء [٢] وإذا بجيوش المغول دهمت المدينة وبذلت في أهلها السيف فقُتل الشاعر فيمن قُتل.

---

(١) يرشف يشرب والأكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة لهُ والصهباء الخمرة.
(٢) يهصر يكسر والحدباء لقب الموصل.

إبنُ الثُّردة (١٣٤٩م ٧٥٠هـ)

هو عليّ بن إبراهيم المعروف بإبن الثردة. نشأ وتفقّه ببغداد وكان واعظاً وقدم دمشق مرّات ووعظ بها بالجامع الأمويّ ثم غلبت عليه السوداء فأضرّت به وتغيرّت حالُهُ وخولط في عقلِهِ. وكان يدّعي أنّ لهُ ببغداد خزانة كتب تحوي نحو ألفي مجلّد وأن جماعة من التجار الذين قدموا دمشق إغتصبوها وباعوها. وإذا شفق عليهِ أحدُ ودفع إليه شيئاً مس الدراهم أو غيرها لا يقبل منهُ ويقول: « من أنت. أظنّ أن عندك شيئاً من كتبي فأنت تبرطلني على ذلك ».

وكان يتخذ كارة[1] يحملها تحت إبطه لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً أينما ذهب وكلّما وجد خيطاً أو حبلاً شدّها بِهِ فلا تزال في نمّو وازدياد وهو حاملها وكان يقول: « لو دُفع لي مُلك مصر فيها ما بعتها. ولو خُيِّرت بين دخول الجنة بلا كارتي أو دخول النار وكارتي معي لاخترت دخول النار على دخول الجنة » ولّما مات فُتحت تلك الكارة الثمينة فما وُجد فيها سوى جزئين بخطّهِ وكراريس وعظيّات وشعر تغزّل . . . وكان ينظم الشعر الجيّد مع سوء حالِهِ واستحكام خباله. ولهُ قصائد وموشّحات وموالِيا فمن موشحاته قوله:

يا أيّها النائم كم هذا الرقادْ   إنـــتـبـــه كـــم نـــومْ
إنتبه من ذا الكرى يا ذا الجمادْ   تـــلـتـــحـــق بـــالـــقـــومْ

---

(١) صرة ثياب.

وتــأهّب لغــد يــوم المعــادْ ... يــا لــهُ مــن يــومْ

وافعل الخير لتحظى بالنجاحْ ... لا تــكــن كـــســلان

واجتهد فالمجتهدْ يلقى الفلاحْ ... ويــرى الإحـــســانْ

قد تقضي العمر دع لهو الصبا ... أيّهــا الــغــافــلْ

لا تكن ممّن الى الجهل صبا ... تَــعِسَ الجــاهــلْ

كلٌّ شيءٍ تهب الدنيا هبا[1] ... لــيسَ بــالــطائــلْ

كم حريصٍ خلّف الدنيا وراحْ ... لابس الأكــفــانْ

وأخــو الفقرَ تُــوُفّيَ فــاســتـراحْ ... قــلبُــهُ الــتــعــبــانْ

---

(١) مقصور هباء وهو الغبار.

صفيّ الدِّين الحِلِّيّ (١٣٤٩م ٧٥٠هـ)

هو صفيّ الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا الحِلّي. وُلد ونشأ بالحِلّة أيّام كان العراق معترك جيوش جرّارة تضيق بها السهول وتميد لها الجبال ومشتبك وقائع هائلة تُراع منها الأبطال وتشيب رؤوس الأطفال فاستفحل الشرّ وعظم الشقاء وفُقد الأمن وعمّ البلاء. فهجر الشاعر مسقط رأسه وأمّ[1] ملوك آل أُرتق الأكراد أصحاب ماردين بالجزيرة فحط في فنائهم رحاله وعلّق بهم آمالهُ فأحسنوا وفادته وأجزلوا صلتَهُ وأمّنوهُ من المخاوف والعدوان وصانوا وجههُ عن بني الزمان فرتع في بحبوحة عيش هنيّ تصافحه السعود وتخدمهُ الأمانيّ ووقف على مدائح أرباب نعمته شعرهُ وبراعتهُ واستحثّ قريحته الفيّاضة في تعداد مآثرهم وإذاعة مكارمهم ولهُ فيهم القصائد الطنّانة المعروفة « بالأُرتقيّات » هي عيون فرائده وأواسط قلائدهُ. منها في مدح السلطان نجم الدين أبي الفتح تسعٌ وعشرون قصيدة كلّ منها تسعةٌ وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يُبدأ بِهِ البيت ويُختم بِهِ من الهمزة الى الياء ووسم هذا المجموع « بدُرر النحور في مدائح الملك المنصور » وهاك أنموذجاً منها من القصيدة الميميّة:

مغانم صفو العيش أسنى المغانم هي الظلّ إلّا أنهُ غير دائمِ

---

(١) قصد.

ملكت زمام العيش فيها وطالما رُفعت بها لولا وقوع الجوازمِ[١]
مكثت بها دهراً وعيني قريرةٌ بها ورواق العزّ عالي الدعائمِ[٢]
مواضي سرور لا انتفاع يذكرها إذا لم أُعدها بارتكاب العظائمِ

ثم يتخلّص في كلّ منها الى مدح الملك على قدر ما تسعه الدائرة التي حصر فيها نفسه. وكان صفيّ الدين شديد الولوع بالصناعة اللفظيّة الى حدّ الاغراب وهو منهاج أعوج استَدرجَ إليه جمهورٌ غفيرٌ من نظامي الشعر فصرفوا عنايتهم الى تنميق الألفاظ وتزويقها واستكرهوا قرائحهم في السعي وراء الجناسات وتطبيقها وتنسيقها ووهت قواهم دون الإحاطة بكلّيات المعنى والإستنباط فتشاغلوا بالجزئيّات يتأنّقون بها دون علاقة ولا ارتباط فأصبح الشعر صورة جامدة لا يجري فيها ماء الحياة الى أن أمسى شيئاً ما لهُ من أسى لا يُعرف وجههُ من قفاه.

وورد صفيّ الدين مصر ومثُلَ في حضرة الملك الناصر فمدحهُ ونال منهُ الهبات الجسيمة ثم عاد الى ماردين وحنّت نفسهُ الى العراق فانتقل الى بغداد وهناك وافتهُ المنيّة.

ومن شعرهِ قولهُ يحرّض الملك الصالح على الإحتراز من المغول ومنافرتهم عند إقبالهم:

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ولا ينال العلى من قدّم الحذرا[٣]
ومن أراد العلى عَفْواً بلا تعبٍ قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا[٤]
لا بدّ للشهد من نحلٍ يمنّعهُ لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا

---

(١) أراد بوقوع الجوازم إنقلاب العيش من السرور الى الحزن كما تقلب لم معنى المضارع الى الماضي.
(٢) الرواق شبه خيمة تشرع في مقدم البيت.
(٣) يمتطي يركب وأراد بالحذر الفزع.
(٤) عفواً بلا كلفة وقضى مات والوطر الحاجة.

من فاته العزّ بالأقلام أدركهُ بالبيض يقدح من أطرافِها الشررا[1]
لا يُحسنُ الحلمُ إلاّ في موطنِهِ ولا يليق الوفا إلاّ لمن شكرا[2]
ولا يُنال العلى إلاّ فتى شَرفت خلالُهُ فأطاع الدهرُ ما أمرا[3]
كالصالح الملك المرهوب سطوتُهُ فلو توعّد قلبَ الدهر لانفطرا[4]
يكاد يقرأُ من عنوان همتِهِ ما في صحائف ظهر الغيب قد سُطرا[5]
كالبحر والدهر في يَوميّ ندى وردى والليث والغيث في يوميّ وغى وقِرى[6]
ما جاد للناس إلاّ قبلما سألوا ولا عفا قطّ إلاّ بعد ما قدرا
إذا غدا الغصن غضاً من منابتِهِ من شاء فليجن من أفنانِهِ الثمرا
من آل أُرتُقٍ المشهور ذكرهُم إذ كان كالمسك إن أخفيْتَهُ ظهرا
الحاملين من الخطّيّ أطولهُ والناقلين من الأسياف ما قصرا[7]
لم يرحلوا عن حمى أرضٍ إذا نزلوا إلاّ وأبقوا بها من جودهم أثرا
تبقى صنائعهم في الأرض بعدهُم والغيث إن سار أبقى بعدهُ الزهرا
يا أيّها الملك الباني لدولتِهِ ذكراً طوى ذكر أهل الأرض وانتشرا
كانت عداك لها دستٌ فقد صدعت حصاة جِدّك ذاك الدست فانكسرا[8]
فاوقع إذا غدروا سوط العذاب بهم يظلّ يخشاك صرف الدهر إن غدرا

---

(١) البيض السيوف. (٢) الحلم الصفح عند المقدرة.
(٣) خلالُهُ خصالهُ مفردها خلة بالفتح. (٤) إنشقّ.
(٥) أي إذا همّ بأمر آتاه الله توفيقاً بحيث أصبح عزمهُ على الشيء دليلاً على قضاء الله بِهِ.
(٦) الندى الكرم والردى الهلاك والوغى القتال والقرى الضيافة وفي كلا الشطرين طيّ ونشر.
(٧) الخطي الرمح. وصف الرمح بالطول والسيف بالقصر إشارة الى استكمال آلات الحرب.
(٨) الدست الغلبة في لعبة الشطرنج أراد به مطلق الغلبة وأراد بالحصاة معنييها القريب وهو واحدة الحصى والبعيد وهو العقل والرأي وحسن التدبير والجدّ بالكسر الإجتهاد والإحتياط وصدعهُ كسرهُ يقول كانت الغلبة لعداك على خصومهم فلما دميتهم بحسن تدبيرك وكمال رأيك انقلبت غلبتهم إنكساراً.

وأرعب قلوب العدى تنصر بخذلهم[1] أنّ النبي بفضل الرعبِ قد نُصرا
ولا تكدّر بهم نفساً مطهّرةً فالبحر من يومِهِ لا يعرف الكدرا
ظنّوا تأنّيكَ عن عجزٍ وما علموا أنّ التأنّي فيهم يعقب الظفرا[2]
أحسنتم فبغوا جهلاً وما اعترفوا لكم ومن كفر النعمى فقد كفرا[3]

ومن شعر صفي الدين الحليّ في الإنتصار والإفتخار قوله:

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي العُرْبَ والأتراكَ ما فعلتْ في أرضِ قبرِ عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما دقّت عزائمنا عما نرومُ ولا خابتْ مساعينا
إذا ادّعوا جاءت الدنيا مصدقةً وإن دعوا قالت الأيّام آمينا
إن الزرازير لما قام قائمها توهمت أنّها صارتْ شواهينا
وللدماء على أثوابنا عَلَقٌ[4] بنشره عن عبير المسك يغنينا
فيا لها دعوة في الأرض سائرة قد أصبحت في فم الأيّام تلقينا
إنّا لقوم أبتْ أخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيضٌ صنائعنا سود وقائعنا خضرٌ مرابعنا حمرٌ مواضينا

هذه القصيدة في الفخر تصور الإباء العربي أجمل تصوير وتتصف بفخامة الأسلوب وقوة أسر الكلام، وهي تذكرنا بقصائد الفخر أيّام ازدهار الشعر في القرنين الثاني والثالث، بل لعلها تنظر الى الشعر القديم والى مفاخر العرب يوم كانوا ينظمون القصائد الرنانة يعددون فيها بأس قبيلتهم وشجاعة قومهم، لهذا نالت هذه القصيدة شهرة لأنها قيلت في عصر أخذت تخبو فيه

---

(١) بفشلهم.
(٢) التأني الترفق وأعقب التأني الظفر سببه فكان الظفر عاقبته.
(٣) بغى مال عن الحق وكفر النعمى لم يشكر عليها صاحبها والنعمى بمعنى النعمة وكفر الثانية بمعنى لم يؤمن يقول قابلوا نعمك بالنكران ومن كفر المعروف كمن كفر بالدين فهو مستوجب القتل.
(٤) العلق: الدم والنشر: الرائحة.

جذوة الأصالة العربيّة وأخذ الشعر ينحدر شيئاً فشيئاً نحو الضعف.

ومن هذه الأبيات ترى ديباجة شعر صفيّ الدين ولا شكّ أنّه كان نابغة شعراء عصرِهِ قويّ العارضة جزل العبارة رشيق النظم فتّان التفنّن وقد أجاد في القصائد المطّولة والمقطعات والموشحات والأزجال ولهُ في كل نوع بدائع مأثورة زانها بالألفاظ المصقولة والمعاني المعسولة ووشاها بالإستعارات الشريفة والكنايات اللطيفة والنكات الظريفة فجاءت أشهى من الماء الزلال وأحلى من السحر الحلال لا يؤخذ على صاحبها سوى تعمّد الصنعة كما مرّت الإشارة الى ذلك آنفاً ولعل صفيّ الدين أشعر الشعراء العرب في طور الإنحطاط ولهُ بديعيّة سيأتي ذكرها.

إبنُ نُباتَةَ الفَارِقِيّ (١٣٦٧م ٧٦٨هـ)

هو جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد الفارقيّ. وُلِدَ بميافارقين ونشأ وتخرّج بمصر ونبغ في الشعر ولهُ القصائد البديعة الجامعة بين الرقة والجزالة وديوانه كلهُ قلائد كريمة وفرائد يتيمة تشهد بما كان لهُ من الشهرة العالية والمكانة السامية عند أرباب العلم وزعماء الأدب. وتنقّل في عدة مدن بمصر والشام وورد على الملك المؤيد صاحب حماة فلقي منهُ إكراماً زائداً واحتفاءً جميلاً أنطقهُ بالمدائح الغرّاء دوّن فيها شكرانه ونوّه بذكر من أسبغ عليهِ إحسانهُ[1] وتعرف هذه القصائد « بالمدائح المؤيديّة ».

وتقدم إليه السلطان حسن أن يفد عليه الى مصر ويتولّى كتابة سرّهِ فلبّى إبن نباتة مقترحَهُ وغادر[2] حماة ودخل القاهرة وما كادت تمضي عليه في الخدمة سنة واحدة حتى عاجلت المنون مخدومهُ وظلّ الكاتب يعاني ضيق العيش ونكد الحياة من تأخر الجراية[3] التي رُتّبت لهُ وانقطاعها عنهُ في بعض الأحيان بتاتاً فكانت لهُ تلك الشدّة غصّة لا تساغ[4] عكّرت صفاء عمرهِ وزادت شيخوخته مضضاً وكُربة[5] وساقته مرغوماً مغموماً الى المارستان حيث قضى نحبه.

(١) أتمه. (٢) ترك.
(٣) ما يجري من الرزق على الرجل.
(٤) أساغ غصتهُ أزال ضيقتهُ وفرج عنهُ.
(٥) ألماً وحرقة.

ولإبن نباتة شعرٌ نبيه المعاني بديع التفنّن تطرّد فيه مياه الرقة والأناقة. ومن لطيف تلاعبه بالنظم قصيدة بعث بها الى صلاح الدين الصفديّ وكان قد أرسل إليه قصيدة يعاتبه بها وجعل أبياتها شطراً منهُ وشطراً من معلّقة أمرىء القيس فطبع إبن نباتة على غراره وقال مجيباً لهُ:

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً ... أفاطمَ مهلاً بعد هذا التدلُّلِ [١]
بروحي ألفاظُ تعرّض عتبها ... تعرُّض أثناء الوشاح المفصّلِ [٢]
فأحيين وداً كان كالرسم عافياً ... بسِقط اللوى بين الدخول فحَوْمَلِ [٣]
تعفّى رياح العذرِ منك رقومهُ ... لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْألِ [٤]
نعم قُوّضت منك المودّة وانقضت ... فيا عجباً من رَحْلِها المتحمّلِ [٥]
أمولاي لا تسلك من الظلم والجفا ... بنا بطن خبتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ [٦]
ولا تنس مِنّي صحبةً تصدعُ الدجى ... بصبحٍ وما الأصباح منها بأمثلِ [٧]
فكم خدمةٍ عجّلتها ومحبّةٍ ... تمتّعت من لهوٍ بها غير معجلِ
وكم أسطرٍ مني ومنك كأنّها ... عذارى دوارٍ في مُلاءٍ مذيَّلِ [٨]
وكم ناصحٍ كذّبت دعواهُ إذ غدت ... عليّ وآلت حِلفةً لا تُحلَّلِ [٩]

---

(١) فطمت ولائي قطعت أسباب مودتي وقولهُ أفاطم لا يجوز فيهِ سوى الضم لأن المخاطب مذكر وأما في معلقة أمرىء القيس فيجوز الفتح على لغة من ينتظر في الترخيم والضم على لغة من لا ينتظر لأن المخاطب مؤنث أي فاطمة.

(٢) أثناء الثوب طياته والوشاح شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشدهُ المرأة بين عاتقها وكشحيها والعقد المفصل ما خولفت ألوان خرزاتِهِ.

(٣) عافياً ممحواً والسقط منقطع الرمل واللوى الرمل الملتوي والدخول وحومل موضعان.

(٤) تعفي تمحو ونسجت الريح الربع تعاورته ريحان طولاً وعرضاً.

(٥) قوضت هدمت والرحل ما يستصحبه المسافر من الأثاث.

(٦) الخبت ما اطمأن من الأرض والقفاف جمع قف بالضم وهو حجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة والعقنقل الوادي المتسع وهو بيان لخبت.

(٧) صدع كسر وأمثل أوقف.

(٨) دوار صنم كان العرب يدورون حولهُ الملاء جمع ملاءة أي ملحفة ومذيل طويل الذيل.

(٩) آلى حلف ويحتمل أن يكون هنا آل بمعنى رجع أي صارت دعواه حلفة محرمة.

الى أن تبدّى عذره متمطّياً وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ [1]
وضنّ بأسطار كأنّ يراعها أساريع ظُبي أو مساويك إسحلِ [2]
ويقرع سمعي من معاريض لفظهِ مَداكَ عروس أو صلاية حنظلِ [3]
وعُدنا لودٍّ يملأُ القلب عَودُهُ بشحمٍ كهُدّابِ الدِمَقْسِ المفتّلِ [4]
أعدتَ صلاح الدين عهد مودّةٍ بكلِّ مغار الفتل شُدّت بيذبلِ [5]

وسترد قصيدة صلاح الدين الصفدي فيما يلي. ولهُ ما عدا ديوانهُ « سَجْعُ المطوّق » جمع فيهِ عدّة تراجم من رجال عصرهِ للملك المؤيّد صاحب حماة ولهِ « سَرْح العيون » في شرح رسالة إبن زيدون.

---

(١) تمطى تمدد أردف أتبع وإعجاز جمع عجز بفتح فضم وهو المؤخر وناء مقلوب نأى بعد والكلكل الصدر.

(٢) ضنّ بخل والأساريع دود أبيض الأبدان أحمر الرؤوس تشبه به الأصابع وظبي علم موضع بعينهِ والمساويك جمع مسواك وهو عود تنظف به الأسنان والأسحل ضرب من الشجر.

(٣) المعاريض جمع معراض وهو من الكلام فحواه ومؤداهُ والمداك حجر يسحق عليه الطيب والصلابة حجر يسحق به الطيب وغيره والحنظل نبات لهُ ثمر شديد المرارة.

(٤) الهداب من الثوب خيوط تبقى في أطرافه والدمقس الحرير الأبيض.

(٥) مغار الفتل محكمه ويذبل علم جبل في بلاد نجد.

عَائِشَةُ البَاعُونِيّة (١٥١٦م ٩٢٢هـ)

هي أمّ عبد الوهاب عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونيّ الدمشقيّ. كانت شاعرة فصيحة مطبوعة المقال وقد إشتهرت ببديعيّة أنيقة رشيقة طائرة الذكر عند زعماء الأدب تدلّ على قوّة عارضة ناظمتها وعلّو طبقتها في الشعر وحسن تصرّفها وتفننها في أشكال البديع ووسمت منظومتها « بالفتح المبين في مدح الأمين[١] » وعلّقت عليها شرحاً لطيفاً حسناً. قالت:

في حسن مطلع أقمارٍ بذي سلم ... أصبحت في زمرة العشّاق كالعلمِ[٢]

أقولُ والدمعُ جارٍ جارحُ مُقلِيَ ... والجارُ جارٍ بعذلٍ فيهِ متّهم[٣]

يا للهوى في الهوى روحُ سمحت بها ... ولم أجدْ رَوْحَ بشرى منهم بهمِ[٤]

وفي بكائي لحالٍ حالَ من عدمٍ ... لَفَقْتُ صبراً فلم يُجدي لمنع دمي[٥]

---

(١) لقب محمد.

(٢) ذو سلم موضع بالحجاز يكثر فيه شجر السلم والعلم الجبل.

(٣) المقل جمع مقلة وهي العين وفي الصدر جناس مذيل بين جار وجارح وفي العجز جناس تام بين الجار وجار.

(٤) الروح بالفتح الرائحة وفي البيت جناس محرف بين روح بالضم وروح بالفتح.

(٥) حال انقلب وتحول ولفق الحديث زخرفة وفي البيت جناس ملفق بين من عدم ومنع دمي.

يا سعدُ أن أبصرت عيناك كاظمةً وجبتَ سلعاً فسل عن أهلها القُدمِ[1]
فثَمّ أقمارُ تِمٍّ طالعين على طُوَيلعٍ حيّهم وأنزل بحيّهمِ[2]

وهي طويلة ذات مئة وثلاثين بيتاً منسّقة الألفاظ مرصّفة المعاني وسُمت[3] بطابع الرقة والإنسجام ولعائشة شعرٌ جيّد غير بديعيتها.

ولّما كان الشيء بالشيء يُذكر أحببنا أن نورد في هذا المقام نبذة في تاريخ علم البديع ونذكر أشهر البديعيات المتداولة عند أرباب هذا الفنّ ولو أدّى الأمر الى بعض الإستطراد[4].

قد علمتَ ممّا سلف أنّ واضع علم البديع هو عبد الله بن المعتزّ العبّاسيّ فإنّه جمع منهُ سبعة عشر نوعاً. وعاصرهِ قُدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفيّ سنة ٩٢٢ مسيحية فجمع عشرين نوعاً توارد[5] معهُ على سبعة منها فتكامل لهما ثلاثون نوعاً وسمّى كتابهُ « نقد الشعر في البديع ». ثم جمع أبو هلال حسن بن عبد الله العسكري المتوفيّ سنة ١٠٠٤ سبعة وثلاثين نوعاً في « كتاب الصناعتين » وجمع أبو عليّ الحسن بن رشيق القيرواني مثلها في كتابهِ « العمدة » في صناعة الشعر. وبلغ بها أحمد بن يوسف التيفاشيّ من أهل القرن الثالث عشر للميلاد السبعين نوعاً. وتصدّى لها ركن الدين أبو محمد عبد العظيم بن أبي الأصبع العدوانيّ المتوفيّ سنة ١٢٥٦ فأوصلها الى التسعين

---

(١) كاظمة أسم مدينة نبي المسلمين وجاب المكان يجوبه قطعه وسلع علم مكان بأرض الحجاز وفي البيت جناس مركب الفروق بين سلعاً وسل عن.

(٢) ثم بالفتح هنالك وتم بالتثليث التمام وطويلع تصغير طالع وهو الفجر الكاذب وفي البيت جناس مصحف بين ثم وتم وجناس مطلق بين طابعين وطويلع وجناس مركب مقرون بين حيهم وبحيهم.

(٣) منسقة منظمة ومرصفة محكمة الربط ووسمهُ جعل لهُ سمة أي علامة والطابع ما يطبع به.

(٤) الإنتقال من موضوع الى آخر برابطة.

(٥) إتفق.

وأضاف اليها من مستخرجاته ثلاثين سُلّم لهُ منها بعشرين وسمّى كتابهُ « تحرير التحبير » في البديع تحرى فيهِ التدقيق وصحة النقد.

وأمّا أوّل من نظم قصيدة سرد فيها أشكال البديع وسُميت من ثم « بديعية » فهو الشاعر الشهير صفيّ الدين الحليّ ومطلع بديعيتهِ:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلمِ وأقر السلام على عُربٍ بذي سَلَمِ

جمع فيها مئة وأربعين نوعاً وجعل كلّ بيتٍ منها مثالاً شاهداً لذلك النوع وذكر إسم النوع البديعيّ الى جانب البيت وسمّى منظومته « الكافية البديعيّة » ولهُ عليها شرحٌ لطيف. وتلاه عزّ الدين الموصلّي المتوفيّ في حدود سنة ١٣٩٧ ومطلع بديعيته:

براعةٌ تستهلُّ الدمعَ في العلمِ عبارة عن نداء المفرد العلمِ[1]

والتزم تسمية النوع في نفس البيت كما ترى للنوع المعروف « ببراعة الإستهلال ». وعقبهُ تقي الدين أبو بكر عليّ بن حجّة الحمويّ المتوفيّ سنة ١٤٣٣ ومطلع بديعيته:

لي في ابتدا مدحكم يا عُربَ ذي سَلَمَ براعةٌ تستهلّ الدمع في العلمِ

والتزم فيها تسمية النوع وعلّق عليها شرحاً مطوّلاً مفيداً أصبحت بِهِ بديعيته سفراً جليلاً سمّاهُ « كتاب الأدب » ويُعرف أيضاً « بتقديم أبي بكر » وهو مجموع أدبٍ نفيس بما حوى من الأمثلة المحكمة المقتبسة من أشعار المتقدمين والمتأخرين. وَقَفَّتهُ عائشة الباعونية المارّ ذكرها آنفاً ولم تلتزم تسمية النوع. وتلاها عبد الغني النابلسيّ المتوفيّ سنة ١٧٣٠ ونظم بديعيتين لم يلتزم في أولاهما تسمية النوع والتزمها في الثانية.

ومطلع الأولى:

---

(١) تستهلّ الدمع تجعلهُ يهلّ أي ينسكب وكنى بالمفرد العلم عن النبي.

يا منزل الركب بين البانِ فالعلَمِ   من سفحِ كاظمةٍ حُيِّيتَ بالدِّيمِ[1]

ومطلع الثانية:

يا حسن مطلع من أهوى بذي سَلَمِ   براعة الشوق في استهلالها ألمي

وسمّى منظومته «نسمات الأسحار» وعلّق عليها شرحاً مسهباً سمّاهُ «نفحات الأزهار» وتعمّد فيه تخطئة إبن حجة وحمل عليه حملاتٍ شديدة.

وتبعهُ الخوري نيقولاس الصائغ. الآتي ذكرهُ ومطلع بديعيته:

بديعُ حُسْنِ امتداحي رُسْلَ ربِّهم   براعةٌ في افتتاحي حمْدَ بِرِّهِم

والتزم فيها تسمية النوع. وجاء بعده الخوري أرسانيوس الفاخوري الآتي ذكره ومَطلع بديعيته[2]:

براعةُ المدحِ في نجمٍ ضياهُ سَمِيَ   تهدي بمطلعها مَنْ عن سناهُ عَمِيَ

والتزم فيها تسمية النوع. وكلّ هذه البديعيّات من البسيط وعلى قافية الميم كما ترى. وأمّا مواضيعها فالإسلامية منها في مدح محمد والصحابة والبديعيتان النصرانيتان في مدح السيد المسيح والرسل الأطهار.

---

(١) أراد بالركب ركب الحجاز والبان والعلم موضعان بالحجاز وسفح الجبل أسفلهُ والديم جمع ديمة وهي مطر يدوم في سكون.

(٢) ولهُ أيضاً بديعيتان أخريان سيأتي الكلام عليهما في ترجمتهِ.

الشّبراوي

(١٦٥٢م ١٠٦٣هـ)

هو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد الشبراويّ. وُلِدَ بالقاهرة بمحلّة يُقال لها شبرا وكان غاية في الفهم والذكاء وأخذ العوم عن مشاهير عصرهِ فبرع في قليل من الزمان وتقدّم على الأقران وما زال يترقّى في الأحوال والأطوار حتى صار إمام وقتِهِ وعلاّمة ملّتهِ يُرجع الى رأيهِ في المعضلات[١] ويُهتدى بمقاله في المشكلات. وتولّى مشيخة الجامع الأزهر فنقل الفتوى من المذهب المالكي الى المذهب الشافعي ولهُ عند الفقهاء وعلماء الأزهر المكانة العالية والقيمة الغالية وحصل له من رئاسته جاه عريض وحرمة وافرة وخلّف عقارات[٢] وأموالاً طائلة. وحسنت آثارهُ في مهمته الرفيعة فكان طلبة العلم في مكان من الأدب والإحترام وصار لأهل العلم في مدتِهِ مهابة عظيمة ورفعة مقام.

وللشبراويّ من المؤلّفات «عنوان البيان وبستان الأذهان» ضمنهُ الحكم السديدة الرائعة والنصائح المفيدة الناصعة[٣] ودبّجهُ بمنتخبات المنثور والمنظوم.

ولهُ شعر كثير الطلاوة نبيه المعاني عليهِ مسحة من العذوبة والرقة

(١) المسائل المشكلة المستغلقة.
(٢) جمع عقار كل ملك ثابت لهُ أصل كالدار والنخيل.
(٣) البينة الظاهرة.

والإنسجام ومن شعرهِ قولهُ:

الصمتُ زينٌ والسكوت سلامةٌ فإذا نطقتَ فلا تكن مكثارا
ما إن ندمتُ على سكوتي مرّةً ولقد ندمت على الكلام مِرارا

وقال في شرف العلم:

العلم أنفس ذُخرٍ أنت ذاخرهُ من يدرس العلم لم تدرس[1] مفاخرهُ
أقبِل على العلم واستقبل مقاصدهُ فأوّل العلم إقبال وآخرهُ

(١) لم تُمْحَ.

ابنُ مَعْتُوق (١٠٨٧هـ ١٦٧٧م)

هو شهاب الدين أبو معتوق محمد بن معتوق الموسوي. كان شاعراً حافل القريحة رقيق النظم منسجم الكلامِ طويل الباع في المدح وأكثر شعرهِ منهُ لا يكاد يتعدّاه الى عرض آخر. واتّصل بالسيّد عليّ خان بن السيّد خلف الموسويّ فحظي عندهُ ونال منهُ نعمة وافرة فانقطع الى مدحِهِ ولهُ فيهِ وفي بعض أعضاء عترته[1] قصائد في نظمها زناد الفكرة فأورت[2] ناراً أو نوراً وجعل لها ذكر مواليه غرضاً رفيعاً وعلماً مشهوراً. وجمع إبنهُ بعد وفاته شِتات أشعارِهِ ومتفرّق آثارهِ.

ومن شعرهِ قولهُ يمدح السيّد عليّاً ويهنئهُ بعيد الفطر:

يا ساكني الجرعاءِ لا أقوى الغضا منكم ولا فقدت مهاكم توضحُ[3]

---

(١) عشيرته.

(٢) أورى الزند أخرج نارهُ.

(٣) الجرعاء الرملة الطيبة لا وعوثة فيها وأقوى المكان خلا من السكان والغضاء شجر من الأثل صلب الخشب وجمرهُ يبقى زماناً طويلاً وأراد به هنا موضع نبتهِ والمهى بقر الوحش استعارها للنساء الحسان وهي مفعول به لفقدت وتوضح علم موضع ـ وأعلم أن الجرعاء والغضا وتوضح أعلام أمكنة كثيرة الورود في شعر الأقدمين فجاراهم الشاعر بذكرها ولم يقصد بها مواضع بعينها.

رفقاً بمنتزح إليكم روحهُ تغدو بها ريح الصبا وتروّحُ[1]
خلّفتم الوجد المبرّح بعدكم عندي فروحي عندكم لا تبرحُ[2]
أشكو الزمان الى بنيهِ وإنّما فسد الزمان وليس فيهم مصلحُ
ساءت خلائقهم وساء فلا أرى شيئاً بهِ إلاّ عليّاً يمدحُ
الماجد العذب الذي في نفسهِ وبمالِهِ يشري الثناءَ ويسمحُ
حرٌّ يريك البشر منهُ لدى الندى شيماً كأزهار الرياض تَفَتّحُ
قرنٌ إذا أجرى جداول قُضبِهِ أذكت على الهامات ناراً تلفحُ[3]
تهوي الجبال الراسيات وحلمُهُ في الصدر لا يهوى ولا يتزحزحُ[4]
لا مبدياً جزعاً لأعظم فائتٍ منهُ ولا بحصول ذلك يفرحُ[5]

وقصائدهُ طويلة النفس وكلّها على وتيرة[6] واحدة لا يتحوّل عنها فيستهلّها بالغزل المسهب ثم يتخلّص الى تعداد مناقب ممدوحِهِ ومفاخرِهِ من أنساب ذكية عليّة وأحساب سريّة عَلَويّة[7]. ولهُ ما عدا المدائح أربعُ مراثٍ إحداهما في الحسين بن عليّ بن أبي طالب وبعض مقطعات ومواليات وخمس نُبذٍ لطيفة تُعرف بالبنود وهو أشعر منهُ في شعرِهِ. فممّا رثى بِهِ الحسين قولهُ:

هلّ المحرّم فاستهلّ مكبّرا وأنثر بِهِ دُرَرِ الدموعِ على الثرى[8]
قُتل الحُسين فيا لها من نكبةٍ أضحى لها الإسلام منهدم الذُرى[9]

---

(1) المنتزح المبتعد وتغدو تذهب في الغداء وتروح تذهب مساء.
(2) الوجد الحزن والمبرح الشديد الوطأة.
(3) القرن السيد والقضب السيوف القاطعة وأذكت أضرمت والهامات الرؤوس.
(4) الراسيات الثابتات وهوى سقط.
(5) المبدي المظهر والجزع ذهاب الصبر.
(6) طريقة.
(7) سرية شريفة وعلوية نسبة الى علي بن أبي طالب.
هل الشهر ظهر هلالهُ والمحرم أول شهر السنة الهجرية وفي العاشر منهُ قتل الحسين
(8) واستهلّ رفع صوته وكبر قال الله أكبر.
(9) جمع ذروة وهي أعلى الشيء.

حـزني عليـهِ دائمٌ لا ينقضي وتـصبّـري مـنّي عـليّ تعـذّرا
وارحمتـاهُ لصـارخـات حـولـهُ تبكي لهُ ولوجههـا لم تسترا[1]
ملقى على وجه الـتراب تظنّـهُ داود في المحراب حين تسوّرا[2]
لهفي على الهاوي الصريع كأنّهُ قمرٌ هوى من أوجِهِ فتكوّرا[3]
لهفي على تلك البنان تقطعت لو أنّها اتّصلت لكانت أبحـرا
لحق الغبـار جبينـهُ ولـطالمـا في شـأوه لحق الكـرام وغبّـرا
فكـأنّمـا أثـر الـدمـاءِ بوجهِـهِ شفقٌ على وجهِ الصباح قد انبرى

ومن بندهِ الأوّل يصف الآيات السماويّة:

أيّها الراقد في الظلمة نبّه طرْفَ الفكرة من رقدة الغفلة وانظر أثر القدرة وأجلُ غَلَسَ[4] الحَيرة في فجر سني الخبرة وأرنُ[5] الى الفلك الأطلس[6] والعرش وما فيه من النقش وهذا الأفق الأدكن[7] في ذا الصنع المتقن والسبع السماوات ففي ذلك آيات هدى تكشف عن صحة إثبات آلِهِ كشفت قدرتُهُ عن غرر الصبح وأرخت طُرر[8] النُجح على نحر ضياه فغدا يعسل من مبسمهِ الأشنب[9] في مضمضتي نور سناه لعس الغيهب[10] واستبدلت الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب واعتاضت من مفرقها الحالك بالأشيب . . .

(١) قوله لم تسترا أصلهُ لم تسترن قلبت نون التوكيد الخفيفة ألفاً على حد قول المتنبي: بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا.
(٢) المحراب مقام الإمام من المسجد وتسوّر الحائط صعد عليه وفي البيت إشارة الى ما جرى لداود مع ملاكين ظهرا لهُ على ما يرويه القرآن .
(٣) هوى سقط والأوج العلو وتكور سقط.
(٤) ظلمة آخر الليل.
(٥) أنظر.
(٦) أغبر الى سواد.
(٧) المائل الى السواد.
(٨) جمع طرة وهي طرف الشيء وجانبهُ.
(٩) أبيض الأسنان حسنها.
(١٠) اللعس سواد في الشفتين مستحسن والغيهب الظلمة.

جرْمانوس فَرْحَات (١٧٣٢م ١١٤٥هـ)

هو جبريل بن فرحات مطر الحلبيّ المارونيّ. وُلِد بالشهباء ونشأ ذكياً متلهّب الفؤاد حادّ المدارك وصرف أبواهُ الصالحان جلّ العناية في تهذيبه وتثقيفه فأرضعاهُ لبان التقى والعلم والأدب من طفوليّته وما كاد يذرّ[1] شارق بلوغِهِ حتى حصّل مبادىء اللغتين العربيّة والسريانيّة وتاقت نفسهُ الى التوسع في فنونها والتضلّع من آدابها. فلزم عالماً شهيراً من أئمة حلب المسلمين يُعرف بالشيخ سليمان النحويّ فقرأ عليهِ العربيّة وأتقنها في مدة وجيزة. ثم أخلى ذرعهُ للإشتغال بالعلوم البيانيّة والوقوف على أشعار العرب وأخبارهم وآثارهم فأحاط بذلك كلِّهِ وكان يرويهِ عن ظهر الغيب كأنما يتلو في صحيفة مسطورة. وأحكم السريانيّة كما أحكم العربيّة وأكبّ على درس الطليانيّة فبلغ منها مبلغاً بعيداً وعرّب عنها الكتب الممتعة الجمّة ثم سدّد مرهف[2] ذهنِهِ الى العلوم العالية فمضى فيها مضاءً وتبحّر في المنطق والخطابة والفلسفة واللاهوت والتاريخ المدنيّ والكنسيّ على حين لم يزل في مقتبل العمر وريعان الشباب ريّان الفتوة غضّ الأهاب[3]. وما برح مدى العمر منكباً على التحصيل والمطالعة كلّما ازداد في العلم بسطة إزداد رغبةً ونهمةً بحيث أصبح نابغة

---

(١) ظهر.

(٢) مرقق الحدّ.

(٣) الجلد أي حديث السنّ.

عصرِهِ وإمام مصرِهِ وحجة دهرِهِ يحطّ طلّاب العلم والحكمة رحّالهم في فنائهِ ويستصبحُ جهابذة[1] النظر بباهر ضيائهِ ويصدر[2] ذوو الخبرة والبصيرة عن ثواقب آرائِهِ.

ولم يكن حرصُهُ على كسب الفضائل المسيحيّة والتحلّي بالكمالات الروحيّة بأقّل من إهتمامهُ باقتباس العلوم والآداب البشرية. ومع ما أوتي من المواهب السامية والخلال الحميدة والمزايا الشائقة مما جعلهُ منقطع القرين وآية من آيات الخالق الفائقة لم يمنّ قط ولا بالتفاتة الى أباطيل الدنيا وبهرجتها[3] وعافت[4] نفسهُ الطاهرة زخرفها وبهجتها فأعرض عنها إعراض المزدري المستخفّ بها المتعلّي عن خوض لجّتها. وما ناهز الثالثة والعشرين من عمرِهِ حتى غادر مسقط رأسهِ في عصابة من الشبان الأتقياء جمعهُ وأيّاهم صافي الوداد وحبّ الإنقطاع الى خدمة ربّ العباد وأتوا جميعاً جبل لبنان الشهير بأديارهِ ومناسكهِ ومثلوا بين يدي البطريرك العلامة إسطفان الدويهيّ الذائع الشهرة فنالوا منهُ البركة وعرضوا لهُ ما عقدوا عليهِ النيّة الصالحة فرحّب غبطتهُ بهم وأذن لهم استحداث رهبانيّة وبذل لهم عن نفس سخيّة الأمداد الروحيّة والماديّة ومهد لهم سبل النجاح وبلوغ الأمنية.

وما مضت على جبريل سنتان من انتظامه بسلك الرهبانيّة حتى رُقّي الى مقام القسيسيّة ورُئس على إخوانهِ مع تمنّعه الشديد من تبوّؤ[5] المناصب الرفيعة وتهالكه على تخيّر الخطط الوضيعة والإختفاء في زوايا النسيان وإقامة سدّ مانع بينه وبين مفاخر هذا الزمان. واضطرّته مهامّ الرهبانيّة الى معاناة الأسفار الشاسعة فقصد رومية العظمى وتبرّك بزيارة قبريّ الرسولين بطرس

---

(١) جمع جهبذ وهو الناقد العارف بتمييز الرديء من الجيد.
(٢) يرجع وينصرف.
(٣) زينة. (٤) كرهت.
(٥) تبوّأ المكان نزله وحل فيه أو رقي.

وبولس ونال من لدن الحبر الأعظم انعطافاً وإعزازاً وإكراماً نادراً وبعد ما دبّر شؤون رسالته بصفة رئيس تاقت نفس العالم الى تفقدّ آثار العرب الكرام بجزيرة الأندلس فشخص الى هنالك وعاين من المباني الشاهقة والمصانع البديعة ما زاده إعجاباً بهمّة رافعي عمادها وموثّقي أوتادها ثم قفل راجعاً الى لبنان وقاسى في طريقه أهوالاً ومحناً فادحة[١].

وفي سنة ١٧٢٥ رُفع على كرسيّ الأسقفيّة وسيم مطراناً على حلب وسميّ جرمانوس وهو الأسم الذي اشتهر بِهِ في الناس فقام بأعباء منصبِهِ أحسن قيام ومثّل في سيرتِهِ الشخصيّة والرعائيّة فضائل الرسل العظام فهدى رعيته في مهيع الخلاص القويم وشمل الكبير والصغير بعنايته الأبويّة وفضلِهِ العميم وبينا هو يدأب[٢] في حرث كرم الربّ واصلاً آناء الليل بأطراف النهار يسقيه بعرق جبينه ويجني منهُ شهيّ الأثمار إذ وافاهُ داعي ربِّهِ فبرح دار البلاء والفناء ومضى مستقبلاً وجه البقاء ونالت مبرّاتهُ في جنان الخلد خير مكافأة وأوفى جزاء فغاض من بعدِهِ بحر العلم الزاخر وفاضت سيول الدمع من المحاجر[٣] وذوت[٤] رياض الشعر وصوّحت حدائق النثر البواسم وكسدت سوق الأدب وقد كانت بِهِ مواسم وانقلبت أندية العلماء بفقدِهِ مآتم وراحت نوادب الفضل ترثي ربّ المحامد والمكارم.

وكان السيّد جرمانوس فرحات حبراً جليلاً وقوراً غيوراً وخطيباً مصقعاً منطقياً بليغاً ومؤلّفاً واسع المعرفة منفسح الذرع كثير المحفوظ صادق الرواية سديد المنهج حسن البيان بصيراً بطرق الإستدلال والإستنباط. ولهُ في العلوم اللسانية والدينيّة نحو الأربعين مصنّفاً بين بسيط ووسيط ووجيز وإذا أُضيف إليها معرباته ومختصراته ومصحّحاته أربت على المئة مجلّدٍ وهو مقدارٌ يستغرق

---

(١) عظيمة. (٢) يجدّ.

(٣) جمع محجر وهو من العين ما دار بها وبدا.

(٤) ذبلت ويبست.

السنين الطوال وتني دونهُ همم الأبطال وهيهات أن يفي بِهِ عقلٌ فيّاض وقف أيّامهُ جمعاء على التأليف في الغدوّ والآصال فكيف بمن تجاذبته تدبير رهبانيّة وسياسة رعيّة وتقاذفتهُ شاسعات الأسفار طوراً في مناكب الأرض وتارة على متون البحار. فلا مراء أن صاحب هذه الأعمال الخطيرة إنّما هو معجزة الزمان وآية من آيات العليّ الرحمان. ولهُ ديوان حافل بالقلائد الكريمة والدرر اليتيمة تشهد أنّه كان شاعراً فصيحاً غزير المادّة قويّ العارضة بديع التخيّل يترقرق شعرهُ عذوبة وطلاوة وانسجاماً لا يؤخذ عليه سوى تجوّزٍ في النظم كان في غنى عنهُ بما رُزق من حسن الملكة وفيض القريحة وهذه شذرة من شعرهِ يتغزّل بمحبة الله:

الله الله أنت السمع والبصـرُ ... في العاشقين وأنت الفوز والوطرُ[١]
هَوِيْتَكُمْ والهوى مني على صغرٍ ... با حبّذا والهُ قد زانهُ صِغَرُ[٢]
هجرت فيكم ربوع الوالدين وما ... أهوى فلم يُرضنى من دونكم أَثَرُ
سيروا الهُوينا بقلبٍ سائر بكمُ ... كـأنّـهُ فلك أنتم لـهُ قمـرُ
الذكر صورتكم والقلب مركزها ... والحبّ دائـرة شعـاعهـا الفكـرُ
كـأنّ عيني إذا صـوّرتكم فلكٌ ... في أفقها قمرٌ دانت لهُ الصورُ
أُفنى زمـاني بـأخبـارٍ أُعـدّدهـا ... والدهر يفنى وما يفنى لكم خبرُ
عشقي وشوقي غرامي في محبتكم ... سـرٌّ سرور ونـار ضمنها شَـرَرُ
إن تهجروني أجد في وَصْلكم طمعاً ... كالشمس تُرجى وجُنح الليل معتكرُ[٣]
قد مازج الحب قلب المستهام إذا ... رام انفصالاً فيوصلْ فَصْلهُ السهرُ
بُعـداً لقلب خليّ من صبـابتـه ... وهل يروقك غُصنٌ ما به ثمرُ[٤]
خذْ حُبّهم يا ضمير الرفع ملتزماً ... فصلاً ووصلاً فلا يخلو ولو هجروا

---

(١) الوطر المأرب.
(٢) الواله المتحير من شدة الوجد.
(٣) الشديد السواد.
(٤) خليّ فارغ والصبابة رقة الشوق.

كأنني الفعل والمحبوب فاعلهُ | سيّان متّصل فيهِ ومستترُ
أحلى غرامٍ إذا ما كان مشتهراً | يا عاذلين دعوني فيه أشتهرُ
أبيت والليلُ يطويني وينشرني | نوحاً وحباً فأطويه وينتشرُ
يا سالباً نور عيني في محبته | أبِرْ فؤادي إذا ما خانني البصرُ
الموت أوفق بي من هَجْركم فإذا | ما عِشتَ في غيركم فالعيش لي وزَرُ[1]
إنّي تحولت لا أنفكّ ملتفتاً | تلقا محيّاك حتى يهتدي النّظرُ
يشكو فؤادي الجوى من نار حبكم | فاعجب لجنّة نور ضِمنها سقَرُ[2]
سكرت من حبكم حتّى وحقّكم | غادرت كل الورى في حبكم سكروا
خسرتُ في عشقكم عمري فأسعدني | يا ربح قومٍ بكم بالريح قد خسروا
أجثو انكساراً إذا كررت ذكركم | كأنّما قد علاني الصارم الذكرُ[3]
ذلّي وضعفي ونقصاني يقابلهُ | عزّ وبطش كمالٌ فيكم وَقَرُ[4]
حمدٌ ومدح لكم من أصغريّ كما | لي منكم المضنيان الخوف والحذرُ[5]

وشعره كله في مدح السيد المسيح ومريم العذراء والرسل الأطهار والقدّيسين النسّاك والحدّث على اقتناء الفضائل المسيحيّة والوعظ وتذكير العواقب والتنويه بمزايا الحياة الرهبانية المقدسة وما الى ذلك من الحقائق الدينيّة والأغراض الروحيّة.

وأما تآليفه فمنها «بحث المطالب» في الصرف والنحو نهج فيه منهاجاً مستحدثاً في حسن الترتيب وتقريب منال القواعد العربيّة للطالب فجعلها منهم على حبل الذراع وكانت قبلاً بما سخرها متفلسفو النحاة من التحكّمات والتمحّلات في حيّز غير المستطاع. ولم يكن للنحاة العصريين لكي يجيدوا

(١) الوزر الحمل الثقيل وحرّك ثانيه بالفتح لإقامة الوزن.
(٢) الجوى الحبّ وسقر جهنم.
(٣) الصارم الذكر السيف القاطع الشديد.
(٤) وقر مصدر وقر أي كان رزيناً محترماً مهيباً وحرّك ثانية لإقامة الوزن.
(٥) الأصغران القلب واللسان.

ويفيدوا سوى اقتفاء آثاره والطبع على غراره. ومن تآليفه «الإعراب عن لغة الأعراب» وهو معجم اختصرهُ عن قاموس الفيروزباديّ وأضاف إليه ألفاظاً وفوائد من عندهِ ومنها «فصل الخطاب» في صناعة الوعظ ومنها «المثلّثات الدّرّية».

وخلاصة القول أن السيد جرمانوس فرحات كان بهمته الشمّاء وتآليفه الغرّاء داعياً لنهضة أدبيّة في مسيحيّ عصره ومركز دائرة العلوم لبني دهره وسابقاً بطلاً رفع منار المعارف فتألّق في الشرق ضياؤها وانتشر ومهّد سبيل اليقظة لنصارى القرن التاسع عشر.

نيقُولَاوُس الصَّائِغْ (١٧٥٦م ١١٧٠هـ)

هو نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ من طائفة الروم الكاثوليك. وُلد بحلب ونشأ على الصلاح والتقوى ولمّا ترعرع[١] جعلهُ والداهُ الفاضلان في أحد المكاتب فتلقّى مبادىء العربيّة وبدت فيه مخايل الذكاء والفطنة والنباهة فاستبشر بِهِ معلّموه وأنبأوا أنّهُ سيكون لهُ شأن خطير في المستقبل. ولم يتسنّ[٢] لهُ الإستزادة من الدرس لأن أباه ضمّهُ إليه وأحبّ أن يرث إبنهُ صنعتهُ ويزاول الصياغة. فصدع الغلام بالأمر وأخذ يتعاطى شغلهُ بهمّة وإتقان وكلّما ناهزته الفرص أقبل على المطالعة رغبةً في التضلّع من العربيّة فتبحّر في اللغة والصرف والنحو وسائر الفنون اللسانيّة ودرس على أحد الكهنة العلماء الرياضيّات والفلسفة واللاهوت استعداداً للكهنوت. وكان كَلِفاً بمباشرة أعمال الخير حريصاً على اقتناء الفضائل والإقتداء بأرباب البرّ والتقى.

وكان الفتى نيقولاوس الصائغ في الحادية والعشرين من عمرهِ إذ قدم حلب القسّ جبريل بن فرحات المارونيّ عائداً من رومية العظمى فاجتمع بِهِ صاحب ثمار الخلاص والكمال. وشدّد جبريل تلميذهُ فيما أرمع من الإنقطاع الى خدمة الله عزّ وجلّ فصرم نيقولاوس جبال الدنيا وهاجر مسقط رأسه وجاء الى لبنان وترهّب في دير القديس يوحنّا الصائغ بالشوير. وما توشّح بالاسكيم حتى

---

(١) تحرك وشبّ. (٢) سهل وتيسّر.

وجّه أنظاره الى ذروة الكمال الرهبانيّ وأخذ يرقى إليها بنشاط وثبات لا يثبطه[1] وهن ولا يدركه ملل. فبهر إخوانه بفضائله وأجمع رؤساؤه على أهليّته فرقّوه الى درجة القسيسيّة المقدسة.

وتقلّب القسّ نيقولاوس في رتب الرهبانيّة وانتخب رئيساً عاماً مع إبائه تقلّد المناصب الرفيعة ونفوره منها فقام بأعباء مهمته أتمّ قيام. ورأى أمامه مجالاً وسيع الجنبات فسيح الأطراف فأطلق لغيرته عنانها ووقف حياته على صلاح أبنائه فكان أبد الدهر يتعهّد الأديار وينظر في أحوالها الروحيّة والماديّة يستنهض همم الرهبان على السير الحثيث في سبيل الكمال مهما تمنّعت الطبيعة من انتهاجه[2] وصعب عليها مرتقاه. وبارك الربّ أتعاب عبدهِ وكلّل مساعيه بالنجاح فعاين البذر الذي ألقاهُ في القلوب نامياً مثمراً يانعاً. وأوضح دليل على غيرة القسّ نيقولاوس العثرات التي اعترضت طريقه والنقم والويلات التي صبّها عليه عدّو كلّ خير حقيقي والإضطهادات التي أثار زوابعها عليه وما الى ذلك من المحن والمصائب الفادحة التي تخور[3] دونها قوى من لم يكن نظيرهُ شديد الإعتصام بحبل الله راسخ القدم في أسمى الفضائل بحيث يكون أشبه بالذهب الإبريز لا تزيده البلوى سوى نقاء وصفاء. وأمّا رهبانيته فقد خرجت بحسن تدبيره من كلّ العواصف كالشجرة القويّة متأصّلة في الأرض عروقها باسقة[4] في الهواء غصونها فزهت أنوارها وينعت ثمارها وورفت أفياؤها وآنق الأبصار رُواؤها[5] وبهاؤها.

وكان القسّ نيقولاوس كاهناً فاضلاً غيوراً وأباً حنوناً بصيراً ومدبّراً حازماً خبيراً وعالماً بعيد الغور فسيح الذرع وشاعراً بديع التصّور لطيف الطبع ولهُ

---

(١) يحبسه ويعوقه.

(٢) سلوكه.

(٣) خار ضعف ووهى.

(٤) مرتفعة في علوها.

(٥) الرواء حسن المنظر.

ديوان أودعه الشعر الرقيق الرائق في الأغراض الدينيّة والمواضيع البيانية والمدح والرثاء والتهنئة وقد مرّ بك كلامٌ على بديعيته الحسناء التي جعلها روضة المعاني الأنيقة والتخيّلات الدقيقة تطرّد فيها مياه الإنسجام على أبيات كأنّها النَور في الأكمام[1] أو الدرّ في النظام.

ومن شعره قولهُ يذمُّ الغنى ويمدح الفقر الإختياري:

لا تغبطنّ أمرءا يزهو بثروته	ولا تخلْهُ سعيداً فالثراءُ ثرى[2]
أنّ السعيد الذي تمّت سعادته	بالموت هيهات من يحظى بذاك تُرى
فذو المسرّة من ساغت مسرّتـهُ	أوان مسراه لا من بالسرور سرى[3]
كم أذهب الذّهب المومق من شرفٍ	سامٍ وكم فضّة قد فضّت الفكرا[4]
والدُرّ كم دَرّ ضَراً للعقول وكم	من مُستهام بحبّ التبرِ قد ثُبرا[5]
وردُ الثراءِ يزيدُ الناهليه صدىً	فكلّما زاد زادت كبدهم سُعُرا[6]
أَضحوا لذاك كمستسقين ما فتئوا	صادين لن يشعروا عن وِرْدِهِ صدرا[7]
نـامَ الفقير خليـا من وساوسـهِ	وبات ذو المال يقضي ليلهُ سهرا
وكلّما بسط الأرقـام في عـدد	خوفاً من الكسر إلاّ وهو كُسرا
مأوى الكآبة مثرٍ يختشي أبـداً	فقر الغنى وغنيّ كان مفتقرا[8]
دعني من المال أني لست أُعدم من	قوتٍ وثوبٍ كفافاً يمنع الضررا

(١) جمع كم بالكسر وهو غطاء النور أي الزهر.

(٢) غبط الرجل صاحبه تمنى مثل حاله الحسنة من غير أن يريد زوالها عنه وسرى سار ليلاً والثّرى التراب.

(٣) ساغت جازت والمسرى مصدر سرى أراد به الموت وسرى سار ليلاً.

(٤) المومق المحبب وفضّت فرقت.

(٥) درّ أكثر والتبر الذهب وثبر هلك.

(٦) الورد الماء الذي يورد والصدى العطش والسعر شدة الجوع أو العناء والعذاب.

(٧) الصادي العطشان والصدر الأسم من صدر عن الماء إذا رجع.

(٨) الكآبة الحزن والمثرى الغني.

كم ذاد عني خمولي عن أذى وقذًى ... فليت باذخ ذكري قط ما ذكرا[1]
آفة المرء في دنياه شهرته ... وَيْسٌ لمن شاع بين الناس واشتهرا
ان فضّل الدرّ بعضٌ واستهام بِهِ ... فذُرّة القنع عندي تفضل الدُررا
كفاني الزهدُ شرّ الإهتمام لذا ... سيّان غِلتها الأيسار والعُسُرا[2]
زهدٌ تساوت لديّ الحالتان بِهِ ... أن قلّ ما في يدي يوماً وإن كثرا
ما نلت ضمن ضميري راحةً وَهَنا ... حتى نبذت الورى عن منكبيّ ورا[3]
فقدتُ كل هموم العيش مذ فقدتُ ... يدي النقودين أعنى البيش والصُفُرا
لا أرتضي عيشة من ذا الزمان وإن ... صفا فإني قد ألفيته كَدرا
وكيف أرجو أماناً والحياة بِهِ ... حربٌ على الأرض لن تُبقى ولن تذرا

ولا حاجة الى التنبيه أن شعراء عصر الإنحطاط أكثر من أن يتسع لذكرهم هذا المختصر ولعل فيمن ذكرنا كفاية للمطالع الأديب.

---

(١) ذاد دافع والخمول مصدر خمل الذكر إذ خفي وانخفض والقذى ما يقع في الشراب من
(٢) تبنة ونحوها والباذخ العالي.
الغِلّة شدة العطش والأيسار مصدر أيسر الرجل صار ذا غنى والعسر الضيق والشدة.
(٣) نبذ الشيء ألقاه وطرحه والمنكب مجتمع رأس الكتف بالعضد.

النحاة واللغويون

إبن منْظور (١٣١١م ٧١١هـ)

هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرّم الأنصاريّ الأفريقيّ المصريّ المعروف بإبن منظور نسبة الى جدهِ الرابع. كان علّامة عصرِهِ ونادرة مصرِهِ في علوم اللغة والتاريخ والنحو والإنشاء والأدب. ورُزق من سعة المحفوظ وغزارة المادّة وسرعة الخاطر في الكتابة ما لا يكاد يصدّق وأُولع باختصار كتب الأدب المطوّلة كالأغاني والعقد الفريد ومفردات إبن البيطار وغيرها حتى بلغت مختصراتهُ فيها يقال خمس مئة مجلّد. غير أن رأس مؤلّفاته هو كتاب اللغة الشهير المسمّى « لسان العرب » جمع فيهِ بين تهذيب للأزهري والمحكم لإبن سيدِهِ[١] والصحاح للجوهري وجمهرة العرب لإبن دُريد والنهاية لإبن الأثير الجَزري ورتّب موادّها وبسط وجيزها وأوضح مبهمها وأتمّ ناقصها وأكثر من الإستشهاد بالقرآن والسنّة وأشعار العرب وأمثالها وفنون آدابها ودقائق لغاتها بحيث جاء معجمهُ هذا أوسع المعاجم العربيّة وأعظمها شأناً وأتمّها نقلاً وأصحها ضبطاً وأحقها بالثقة عند جهابذة أهل النظر وأساتذة النقد والتدقيق. ولهُ مجموع في الأدب سمّاه « نثار الأزهار في الليل والنهار » وهو غاية في لطف

---

(١) هو لغويّ أندلسيّ توفي سنة ٤٥٨ هجرية ولهُ في اللغة مصنفان أحدهما لفظي وهو المحكم المشار إليه والآخر معنوي سمّاهُ المخصص والمراد بالمعنوي ما جمعت فيه الألفاظ طوائف بحسب معناها كما ترى في الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني وفقه اللغة للثعالبي ونجعة الرائد لإبراهيم اليازجي.

الإختيار وحسن التبويب ونفاسة الأغراض ونباهة المعاني وجزالة الإنشاء.

وكانت ولادة إبن منظور بأفريقية وهي بلاد المغرب وانتقل الى مصر وخدم في ديوان الإنشاء زماناً وولي قضاء طرابلس وكان صدراً رئيساً وافر الحركة كثير الفضل متشيّعاً بلا رفض وعُمّر كثيراً وعمى في أواخر حياته.

إبنُ آجُّروم (١٣٢٤م ٧٢٣هـ)

هو أبو عبيد الله محمد بن محمد بن داود الفاسيّ المعروف بإبن آجروم الصنهاجيّ نسبة الى صنهاجة وهي قبيلة بالمغرب. لم يصل إلينا من أخباره وآثاره سوى أنه وضع لإبنه أبي محمد مختصرة في النحو تعرف « بالآجرومية » كثيرة التداول في حلقات التدريس بالكتاتيب العربيّة وهي بمثابة مدخل العلوم النحويّة للمبتدئين ومقدّمة لما سواها من مطوّلات هذا الفن.

وقد علّق جماعةٌ من النحاة شروحاً وحواشي على متن الآجروميّة لإيضاح مبهمها وتسهيل مأخذها للطلاّب إذ كثيراً ما يترتّب على الإيجاز المفرط لَبسٌ وتشويش. فممّن شرحها الشيخ خالد بن عبد الله الأزهريّ المتوفيّ سنة ٩٠٥ هجريّة وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ محمّد أبي النجا الطندتاعيّ من نحاة القرن الثالث عشر. وشرحها الشيخ حسن الكفراويّ المتوفي سنة ١٢٠٢ هجريّة وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ إسماعيل الحامديّ من أبناء هذا العصر. ومن الشروح التي لا حاشية عليها شرح الشيخ أبي زيد عبد الرحمان المكوديّ المتوفيّ سنة ٨٠١ هجريّة. ووضع بعضهم «متممة»للآجروميّة ولهذه المتممة شرحٌ ولهذا الشرح حاشيةٌ...

إبنُ هِشَام (١٣٥٩م ٧٦١هـ)

هو جمال الدين أبو محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ المصريّ. كان إماماً في النحو لا يُجارى وأستاذاً متقدّماً في علوم العربيّة لا يُبارى وهو خاتمة النحاة ذوي الآراء والمذاهب وهي مزيّة تافهة لم يكن في حاجة الى الإمتياز بها على ما توفّر لهُ من العلم الواسع وقوّة الملكة في هذه الصناعة وسعة الإطّلاع على دقائقها وغوامضها ولهُ في النحو مصنّفات تشهد لهُ بعلّو القدر والبراعة الفائقة. وكان فقيهاً فاضلاً خبيراً شافعيّ المذهب ثم انتحل في آخر عمره مذهب الحنابلة.

ومن مصنّفات إبن هشام « مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو أوسع مؤلّفاته وأشهرها وأجلّها فائدةً وقد رتّبه على ثمانية أبواب إستوفى فيها أحكام الإعراب مُجملة ومفصّلة وتكّلم على الحروف والمفردات والجمل بغاية الوضوح والضبط والإحاطة بحيث جاء كتابه هذا نهاية في علم النحو وللعلماء شرحٌ وحواشٍ تفوت الحدّ علّقوها على « المغني » لكثر إقبال الناس على الإشتغال بِهِ. فممّن شرحهُ الشيخ بدر الدين محمّد بن أبي بكر الدمامينيّ المتوفيّ سنة ٨٢٨ هجريّة وسمّى شرحهُ « تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب » ومنهم الشيخ تقيّ الدين أحمد بن محمد الشمنيّ المتوفيّ سنة ٨٧٢ هجريّة وسمّى شرحهُ « المنصف من الكلام على مغني إبن هشام » والجلال الدين السيوطيّ الآتي ذكرهُ شرحٌ مسهب وحواشٍ مطوّلة على المغني لم يدع فائدة إلّا قيّدها ولا

قاعدة إلّا أيّدها.

ولإبن هشام أيضاً في النحو «قَطر الندى وبلّ الصدى» وعليهِ شرح وحاشية ولهُ «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وعليهِ شروحٌ وحواشٍ وغير ذلك ممّا لا محلّ لتعدادهُ.

الفيروزَابَادِيّ (١٤١٣م ٨١٦هـ)

هو مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزاباديّ نسبة الى فيروزأباد وهي بلدة بفارس على مقربة من شيراز كان أبوه منها. وُلد بكارزين وقضى معظم العمر يطوف البلاد شرقاً وغرباً في طلب العلم فدخل العراق وسكن مدّة في الطائف وبغداد يتلقّى عمن هنالك من العلماء الحديث والتفسير واللغة وإنقطع الى الشيخ تقيّ الدين السبكيّ يتفقّه عليهِ وصحبهُ الي بيت المقدس واشتغل ثمّ بعلوم الأدب نحو عشر سنوات فبرع فيها وفاق وذاع اسمهُ في الآفاق ثم شخص الى مصر وخالط أُدباءها فأفاد واستفاد ورحل الي بلاد الروم فأكرمهُ السلطان بايزيد العثماني إكراماً زائداً وقصد الهند وعاد منها الى بغداد فلقي من سلطانها أحمد بن أُويس معزّة وحفاوة واجتمع بشيراز بالفاتح الشهير تيمورلنك فنال منهُ حظوة وعطاءً وافراً ثم قصد الهند ثانية وانقلب راجعاً عن طريق اليمن متيمّماً[١] مكّة فبالغ الملك الأشرف إسماعيل بن عبّاس في إكرامهِ وأزوجه ابنته وقلّدهُ قضاء اليمن فألقى عصا التسيار في زبيد ولم يزل فيها قاضي القضاة الى وفاتهِ.

وكانت لمجد الدين الفيروزأبادي بسطةٌ[٢] في علوم عصرهِ ولا سيّما في اللغة فإنّهُ أنفق أيّامهُ على طلبها وتفرّغ للتبحّر فيها والتضلّع من فنونها ولم يزل

---

(١) قاصداً. (٢) سعة.

متوجهاً الى تحصيلها حتى نبغ فيها وبرّز فأحصى مسائلها واستبطن دخائلها ومحّص[1] حقائقها واجتلى[2] غوامضها ودقائقها بحيث شهد لهُ معاصروه أنهُ الإمام الذي يُصار إليهِ في معرفة شواردها وأوابدها[3] والأستاذ الذي يتلمذ لهُ مريدو فرائدها وفوائدها. وكان حريصاً على نشر العلم في قضائه وترقية عقول الشعب ببثّ المعارف فيهم فأنشأ عدة مدارس بالمدينة ومكّة ورتّب فيها معلّمين يتصدّرون للاقراء إذا غاب.

وللفيروزأبادي مصنّف في اللغة أشهر من نارٍ على عَلَم[4] يعرفهُ الصغير والكبير والمبتدىء والمنتهي والعربيّ والمتعرّب سمّاه «القاموس[5] المحيط والقابوس[6] الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط[7]» وضعهُ وهو مقيمٌ في بيتٍ مشرف على طريق الحاجّ بقرب الصفا وقد ألمع بتسميته أنه أحاط بألفاظ اللغة جمعاء وهو محض ادّعاء إذ فاتهُ من الكلم شيءٌ كثير وإن كان قد صرف غاية العناية الى تكثير الموادّ. ولمّا كان «صحاح» الجوهرّي أكثر كتب اللغة تداولاً لذلك العهد وأحقّها بالثقة تعمّد الفيروزأبادي تخطئته وكشف أوهامه والزيادة عليه وتمكنت دعواهُ من عقول كثيرين حتى أصبح «القاموس» عندهم رأس كتب اللغة صحة وإحاطة وصار اسمه مرادفاً لكل مصنّف فيها.

ومع ما للقاموس من الحسنات التي لا تُنكر والفضائل الجمّة التي إمتاز بها فإنَّهُ يؤخذ عليه الإفراط في الإيجاز والتقصير في التعريف الى حدّ التعمية[8]

---

(١) خلصها من كل عيب.
(٢) أبان وأظهر.
(٣) جمع الآبدة وهي الكلمة الغريبة.
(٤) العلم الجبل والعبارة مثل يضرب في الشهرة.
(٥) البحر.
(٦) ذو الوجه الجميل من الرجال.
(٧) جمع شمطوط أي متفرق.
(٨) عمّى الكلام لبسهُ عليه وأخفى معناهُ.

وإدخال التشويش واللبس على المطالع وقد استدرج الى ذلك بحرصه على مكاثرة[1] صاحب الصحاح وتبجُّحهُ[2] بالزيادة عليهِ مع الإختصار. ولهُ ديباجة[3] على مؤلّفهِ ضيـافة الذيول مشبعة الفصول بسط فيها ما للكتاب من الأغراض والمزايا وهي أصدق صورة لأخلاق الرجل ومذهبه ومن مطالعتها يستدّل القارىء أن الفيروزأبادي مع نادر اطّلاعه على غريب لغة العرب جافّ العبارة بادي التكّلف معتسف عن جادّة الوضوح والرشاقة بل إسم معجمه نفسهُ يشفّ عن ولوع بالاغراب.

وتصدّى لردّ دعوى الفيروزأبادي وإعادة الحقّ الى نصابه عدّة أُدباء منهم أبو زيد عبد الرحمان المغربيّ التادليّ وسمّى ردّه « الوشاح وتثقيف[4] الرماح في ردّ توهيم المجد للصحاح » ومنهم الشيخ عبد الغني النابلسيّ وغيرهما ولأحمد فارس الشدياق من أدباء القرن المنصرم كتابٌ جليل كشف فيه أوهام القاموس وأغلاطه سمّاه « الجاسوس على القاموس ».

وعلّق كثيرون من علماء اللغة شروحاً وحواشي على القاموس وأشهر مؤلّف في هذا الشأن هو « تاج العروس » لمحمّد مرتضى الزبيديّ المتوفيّ بمصر سنة ١٢٠٦ هجريّة وشرحهُ هذا بحرٌ زاخر بدرر الفوائد وقد طبع في عشرة مجلّدات ضخام.

---

(١) مغالبته في الكثرة.

(٢) إفتخارهُ. (٣) فاتحة

(٤) ثقف الرمح قوّمه وسوّاه.

المؤرّخون وَالجغرَافيون

ومَن إليهم

إبن الفِداء (١٣٣١م ٧٣٢هـ)

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إبن الملك الأفضل نور الدين عليّ الأيوبيّ. وُلِدَ بدمشق أيّام لجأ أبوه إليها عند اكتساح المغول مدينة حماة قاعدة ملكِهِ ونشأ في حِجر السيادة والفضل وتأدّب على علماء عصرِهِ وبرع في العلوم الدينيّة واللسانيّة وبرّز في الفقه والتاريخ والطبّ والأدب والشعر وحذق علم الهيئة فكان رأس الفنّ وواحده في زمانهِ وتدرّب من صغرِهِ في الفروسية وكان شجاعاً مقدماً مشيّع القلب[1] وحضر مع أبيه حِصار قلعة مرقب التي فتحها المسلمون على الأسبتارية وأبلى في حصار طرابلس وعكّاء بلاء حسناً وأبدى في كافّة الوقائع من الجرأة والبأس ما أُعجب به أمراء الجيش وأحلّهُ من قلوبهم مكانة رفيعة.

ولما كان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك تقرّب إليه أبو الفداء وسعى في مرضاته وبالغ في خدمته فسُرّ بِهِ الملك وولّاه نيابة حماة ووعدهُ بسلطنتها وقام بوعده بعد مدة وأحضرهُ الى القاهرة وأركبهُ بشعار السلطنة ومشى الأمراء والأكابر في خدمته ولقّب بالملك الصالح ثم بالملك المؤيّد وعاد الى حماة وملك فيها مطلق اليد يفعل ما يشاء دون رقيب ولا مسيطر. وحسنت مآثرهُ في الرعيّة وعمّت مكارمُهُ أهل الفضل والعلم والأدب فانطلقت الألسن

(١) قويّ.

بتعداد مناقبه الغرّ وتعطّرت بذكرهِ أندية الأدباء وحلقات الشعراء. وكان في كلّ قليل يتوجّه الى القاهرة ومعهُ أنواع الهدايا والتحف يرفعها إجلالاً لمقام متبوعة وإبراماً لأسباب تابعيته فضلاً عما يبعث بهِ من حماة من الطُرف المتابعة.

ولأبي الفداء نظم ونثر وتصانيف منها «المختصر في أخبار البشر» في التاريخ إختصرهُ عمن تقدّمهُ من مؤرّخي العرب كالطبريّ وإبن الأثير وتمّمه الى سنة ٧٣٠ هجريّة وقد عُني عدة من علماء الافرنج بنقلهِ الى لغاتهم. ولهُ في الجغرافية كتاب «تقويم البلدان» جمع فيهِ ما عزّت فائدته من تصانيف المتقدّمين من جغرافيين وفلكّين فضبط الأسماء وحققّ الأطوال والعروض وقدّم ما تجب معرفته من ذكر الأرض والبحار والأقاليم العرفيّة والحقيقيّة على مذهب القدماء وكان لهذا المصنف شأنٌ عند الأفرنج للوقوف على الجغرافية العربيّة.

ولمّا مات رثاهُ جمال الدين نباتة بقصيدة أوّلها:

ما للندى لا يلبّي صوت داعيهِ	أظَنّ أن ابن شاذٍ قام ناعيهِ[1]
ما للرجاء قد استدّت مذاهبهُ	ماللزمان قد اسودّت نواحيهِ
نعي المؤيد ناعيهِ فيا أسفي	للغيث كيف غدت عنّا غواديهِ[2]
كان المديح لهُ عرسٌ بدولتِهِ	فأحسن الله للشعر العزا فيهِ
يا آل أيّوب صبراً إن إرثكم	من اسم أيوب صبرٌ كان ينجيهِ
هي المنايا على الأقوام دائرةٌ	كلّ سيأتيهِ منها دور ساقيهِ

(١) يلبّي يجيب. وإبن شاذ هو أبو الفداء وقام ناعيه توفيّ.

(٢) غداً ذهب غدوة والغوادي جمع الغادية وهي السحابة تنشأ صباحاً ومطرة الغداة.

النُّوَيْرِيّ (١٣٣١م ٧٣٢هـ)

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويريّ الكنديّ المصريّ، وُلِدَ في نُوَيْرة، من البهنساء، من صعيد مصر الأدنى. كان إمام دهرِهِ وعلاّمة قطرِهِ، منقطع القرين في تنوّع المعارف وسعة المحفوظ وكثرة استيعاب أخبار السلف راسخ القدم في الفقه والتفسير خطاطاً مؤنق الوشي بديع التحبير كأنّ رقاعه شقق الديباج وقطع الرياض وكتب بخطّ يده الصحيح البخاريّ ثماني نسخ بذل لهُ في كلّ منها ألف درهم قرّبهُ الملك الناصر محمّد بن قلاوون وولاّه نظارة الجيش في طرابلس.

ولهُ المؤلّف الحاوي الشهير الموسوم: « نهاية الأرب في علوم العرب » وهو تاريخ كبير يقع في ثلاثين مجلّداً رتّبه على خمسة فنون: الأوّل في السماء والآثار العلويّة والأرض والعالم السفليّ والثاني في الإنسان وما يتعلّق بهِ، والثالث في الحيوان الصامت، والرابع في النبات، والخامس في التاريخ، وكل من هذه الفنونِ يشتمل على خمسة أقسام، وقد جعل القسم الخامس من النبات، في الطبّ.

إبنُ الوَرْدِيّ (١٣٦٧م ٧٦٨هـ)

هو زين الدين أبو حفص عمر بن مظفّر المعروف بإبن الورديّ. وُلد بمعرّة النعمان وتلقّى العلوم عن مشاهير وطنهِ وقدم حماة وأخذ الفقه عن القاضي هبة الله بن البارزيّ ونبغ في جميع الفنون التي اشتغل فيها وذاعت لهُ سمعة طيّبة وشهرة عالية في العلوم الدينية والأدبيّة وأجاد في الإنشاء وضروب الكتابة ولهُ نظم فتّان رشيق ونثر طليّ أنيق وكان كثير التفنن بليغ العبارة وشعره غاية في الرونق والإنسجام وقرب المأخذ ولهُ قصيدة حكميّة شهيرة تُعرف باللاميّة جعلها قلادة نظم فيها فرائد الحكم وجوامع الكلم وهي من السهل الممتنع الذي تُطمع مطالعته وتُعجز متابعتهُ وهذه بعض شذرات منها:

إعتزل ذكر الأغاني والغزل ... وقل الفصلَ وجانب من هَزَلْ[1]
ودع الذكرى لأيام الصِبا ... فلأيّام الصِبا نجمٌ أَفَلْ[2]
وافتكر في منتهى حسن الذي ... أنت تهواه تجد أمراً جَلَلْ
واهجر الخمرة إن كنتَ فتى ... كيف يسعى في جنون من عقلْ
واتّقِ الله فتقوى الله ما ... جاورتْ قلبَ أمرىء إلّا وَصَلْ
ليس من يقطع طرقاً بطلاً ... آنّما من يتقيّ الله البطلْ
كُتب الموتُ على الخلق فكم ... فلّ[3] من جيشٍ وأفنى من دُوَلْ

(١) الغزل الأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب والفصل والحقّ وهزل مزح.
(٢) أفل النجم غاب. (٣) فلّ الجيش هزمه.

أيـن نمـرود وكـنـعـان ومـن ... مـلك الأرض وولى وعـزلْ
أين من سادوا وشادوا وبَنوا ... هلك الكلّ ولم تغن القُلَلْ[1]
أين أرباب الحجى أهل النُهى ... أين أهل العلم والقوم الأُولْ[2]
سيُعيد الله كلّاً منهم ... وسيجزي فاعلاً ما قد فعَلْ
أطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخيرَ على أهل الكَسَلْ
لا تقل قد ذهبت أيّامُهُ ... كلّ من سار على الدرب وَصَلْ
في ازدياد العلم إرغامُ العدى ... وجمالُ العلم إصلاح العَمَلْ
جَمّلِ المنطقَ بالنحوِ فمن ... يُحرم الاعراب بالنطق إختبلْ[3]
أنظم الشعر ولازم مذهبي ... في اطّراح الرفدِ لا تبغِ النِحَلْ[4]
فهو عنوان على الفضل وما ... أحسن الشعر إذا لم يُبتذل
لا تقل أصلي وفصلي أبداً ... إنّما أصل الفتى ما قد حصلْ
قد يسود المرء من دون أبٍ ... وبحسن السبك قد يُنفى الزَغَلْ[5]
إنّما الورد من الشوك وما ... ينبت النرجس إلّا من بَصَلْ
قيمة الإنسان ما يُحسنهُ ... أكثر الإنسان منهُ أو أقلْ
ليس يخلو المرءُ من ضدٍ ولو ... حاول العزلة في رأس جبلْ
دارِ جارَ السوءِ بالصبر وإن ... لم تجد صبرا فما أحلى النُقلْ
جانب السلطان واحذر بطشهُ ... لا تعاند من إذا قال فَعَلْ
لا تلِ الأحكام إن هم سألوا ... رغبةً فيك وخالف من عَذَلْ[6]

---

(١) القُلل جمع قلة وهي أعلى كل شيء.
(٢) الحِجى العقل والفطنة والنّهى جمع نُهْية وهي العقل.
(٣) اضطرب.
(٤) الرّفد بالكسر العطاء والصلة والنِحَل جمع نِحلة وهي العطية والهبة.
(٥) سبك الذهب سبكاً أذابه وخلصهُ من زغله أي رذالته.
(٦) عذل لام.

إنّ نصف الناس أعداءٌ لمن ، ولي الأحكام هذا إنْ عَدَلْ
قصّر الآمل في الدنيا تفزْ فدليل العقل تقصير الأمَلْ
غِبْ وزرْ غبّا تزدْ حبّا فمن أكثر الترداد أقصاهُ المَلَلْ[1]

وتقلّد إبن الورديّ نيابة القضاء بحلب للقاضي محمّد بن النقيب وظلّ مدة في هذه الرتبة ثم استعفي منها على إثر رؤيا رآها ووقف أوقاته على معاناة الأدب والتأليف ولهُ مصنّفات عديدة منها ما عدا ديوانهُ شرح ألفية إبن مالك وتذييل تاريخ أبي الفداء سماهُ « تتمة المختصر في أخبار البشر » إنتهى بِهِ الى سنة ٧٤٩ هجريّة وغير ذلك مما لا حاجة الى ذكرِهِ. وللعلماء مباحث فيها إذا كان إبن الورديّ هذا هو نفس إبن الورديّ مؤلّف « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » في الجغرافية والطبيعة دسّ فيهِ روايات واهية وخرافات مستحيلة كما يدّل على ذلك أسمهُ وفيهِ كلام وخلطٌ كثير حتى على أحوال القيامة.

---

(١) زار غبّا أي زمناً بعد زمن وأقصى أبعد والملل الضجر.

الصَّفَدِيّ (١٣٦٢م ٧٦٤هـ)

هو صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أَيبك الصفديّ. كان من صدور العلماء المعدودين وفحول الشعراء المُوفين[1] ومبرّزي الكتبة المجيدين متضلّعاً من الآداب عارفاً بالأخبار والآثار وتولّى كتابة الإنشاء بدمشق والقاهرة وحلب. ولهُ نظمٌ رائق كثير الطلاوة ومن شعرِهِ قولهُ معاتباً إبن نباتة ومصدّراً أبيات أمرىء القيس كما مرّت الإشارة الى ذلك آنفاً:

أفي كلّ يومٍ منك عتبٌ يسؤني	كجلمود صخرٍ حطّهُ السيلُ من علِ[2]
وترمي على طول المدي متجنّباً	بسهْميكَ في أعشار قلبٍ مقتّلِ[3]
فأمسي بليلٍ طال جنحُ ظلامهِ	عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
وأغدو كأنّ القلب من وقدة الجوى	إذا جاش فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجلِ[4]
تطير شظاياه بصدري كأنّها	بأرجائه القصوى أنابيش عُنُصُلِ[5]

---

(١) الفائقين.

(٢) العتب ملامة الصديق على إساءته والجلمود الحجر العظيم وعل فوق.

(٣) تجنى على فلان ادعى عليه ذنباً لم يفعله وسهميك مثنى سهم أستعير للعينين لتأثيرهما في القلوب وجرحهما ايّاها والأعشار وقلب أعشار مكسور على عشر قطع.

(٤) الجوى شدة الحبّ وجاشت القدر غلت والحمى مرارة الغيظ والمِرجل القدر.

(٥) الشظايا الفلقات من الشيء جمع شظية والأرجاء النواحي والقصوى البعيدة والأنابيش, جمع أنبوشة وهي أصول النبت والعنصل البصل البريّ.

إذا عـاين الأخـوان مـا بي من الأسى	يقولون لا تهلك أسى وتجمّلِ (١)
ترفَّقْ ولا تجزعْ على فائت الوفا	فما عند رسمٍ دارسٍ من مُعوّلِ (٢)
ولي فيك ودّ طالما قد شددتُهُ	بأمراس كتّانٍ الى صُمّ جندلِ
ولي خطرات فيك منها جوانحي	صُبحن سُلافاً من رحيقٍ مُفَلْفَلِ (٣)
فكُرَّ على جيش الجنـاية عـائداً	بمنجـردٍ قيد الأوابـد هيكـلِ (٤)
وخلّ الجفا وارجع الى عهـد الوفا	وإن كنت قد أزمعت صَرمي فأجملِ (٥)
حلا ودّك الماضي وإن لم تعد أغُدْ	لدى سمرات الحيّ ناقفَ حَنْظَلِ (٦)

وللصفديّ عدّة مؤلّفات أشهرها وأعظمها « الوافي بالوفيات » في التراجم وهو كبير جداً يقع في ستة وعشرين مجلّداً حشر فيه أخبار الأعيان ونجباء الزمان ممّن وقع عليهِ اختيارهِ ولم يغادر أحداً إشتهر بأمر ما حُسن أو قَبُحَ إلاّ ذكرهُ. ولهُ في المعنى نفسهِ « أعيان العصر في أعوان النصر » إقتصر فيهِ على معاصريه. ولهُ « جنان الجناس » في علم البديع. وعلّق شرحاً على لاميّة العجم للطغرائي ورسالة إبن زيدون الى غير ذلك مما يطول تعدادهْ.

---

(١) الأسى الحزن وهلك الرجل مات وتجمل صبر ولم يظهر على نفسه المسكنة والذل.

(٢) ترفق لطف ولم يعنف والرسم ما بقي من أثر الدار والدارس الممحو ومعول معتمد.

(٣) خطرات جمع خطرة وهي المرة من خطر الأمر ببال مرّ وذكره بعد نسيان والجوانح الضلوع التي تحت الترائب مما يلي الظهر وصبح شرب الصبوح والسلاف أجود الخمر والمفلفل الذي أُلقي فيه الفلفل.

(٤) كرّ عطف ومال ورجع والجناية الذنب والمنجرد القصير الشعر صفة للفرس والأوابد جمع آبدة وهي الوحش والمراد بقيد الأوابد أن الفرس يلحقها فيمنعها عن الفرار والهيكل الضخم .

(٥) الجفاء الغلظة وترك الصلة وأزمع الأمر صمم عليه وأجمل أصبر والصرم الهجر.

(٦) سَمُرات جمع سمرة بفتح فضم شجر صغير الورق قصير الشوك له برمة صفراء وناقف الحنظل من يشقه.

إبنُ بَطُوطَة (١٣٧٦م ٧٧٧هـ)

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجيّ الرحّالة الشهير. وُلِدَ بطنجة ونشأ وتأدّب بها ولما بلغ الثانية والعشرين من عمرِهِ حدّثته نفسهُ بالرحلة في بلاد الله فاقتعد غارب الإغتراب[١] وأخذ يضرب في مناكب[٢] الأرض شرقاً وغرباً. فقصد مكّة وأقام مناسك[٣] الحجّ ثم جاب[٤] العراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة البلاد واتّصل بملكها فوقع منهُ موقعاً حسناً واستعملهُ بخطّة القضاء على مذهب المالكيّة وساح في الأقطار الصينيّة وابتلي هنالك بالأسر وتملّص من محنته بعد خطب طويل وعاد فدخل بلاد التتر وتوغّل في أواسط القارة الأفريقيّة الى تمبكتو وطاف في بلاد الأندلس وانقلب أخيراً الى المغرب وألقى عصا التسيار بفاس.

وتقرّب إبن بطوطة من السلطان أبي عنان أحد ملوك بني مَرّين فغمرهُ بصلاتهِ وقرّبه وأكرمهُ كثيراً فذاق لذّة الدعة والقرار وزهد في تجشّم الأسفار والأخطار. وكان يملك القلوب ويسترقّ الخواطر بحديثه الفكه الفتّان ويقصّ أخبار رحلتِهِ وما عاين من العجائب والغرائب التي بثها الخالق سبحانهُ وتعالى في أقطار الأرض وزان أصقاعها بِهِ. فأوعز إليهِ الملك أن يُملي على الكاتب

(١) الغارب من الجمل ما بين السنام والعنق والإغتراب أي سافر والعبارة مثل.
(٢) جمع منكب وهو الجهة من كل شيء ويضرب يسير فيها.
(٣) عبادات. (٤)

محمّد بن جُزَيّ الكلبيّ ما شاهد من الأمصار وما علق بحفظهِ من نوادر الأخبار. فلبيّ الأمر وقصّ على الكاتب المذكور ما جريات رحلتِهِ وجُمعت في سفرٍ سمّاه «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهي مشهورة متداولة. وعُني أُدباء الافرنج بنقلها الى لغاتهم لما فيها من الفكاهة واللذة والفائدة العلمية.

إبنُ خَلْدُون (١٤٠٦م ٨٠٨هـ)

هو وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمان بن محمد المعروف بإبن خلدون الحضرميّ فيلسوف المؤرخين وأستاذ المحقّقين وينتهي نسبهُ الى وائل بن حُجر من أقيال[١] كندة في حضرموت هاجر خلدون بن عثمان جده التاسع الى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة ونزل قرمونة ونمّت ذرّيتهِ فيها ثم انتقلت عشيرتهُ الى أشبيلية ومنها خرج جدّهُ الى تونس وهنالك وُلد صاحب الترجمة فغُذي بلبان الأدب ودرج من مهد السراوة[٢] والنباهة والعلم وتأدّب على أبيه وقرأ على مشاهير شيوخ عصرهِ فأتقن القرآن والفقه والنحو والعربيّة والشعر وتضلّع من فنون الأدب وتبحّر في التاريخ وأوغل في استقصاء مباحثه واستجلاء غوامضهِ بحيث أصبح فيهِ إمام وقتِهِ غير مدافع ونسيج وحدهِ غير منازع.

وتعلّق إبن خلدون بالخدمة السلطانيّة على حداثة سنهِ وما برح الى وفاتهِ يتقلّب في المراتب العالية ويتولّى الخطط الساميّة فقُلّد مراراً الكتابة والحجابة والنيابة والقضاء وهو في أثناء ذلك يعلو ويسفل ويُولّي ويُعزل فبينا هو يتفرّع[٣] ذرى المعالي فتشرئبّ[٤] إليه الأعناق وترمقه الأبصار وتعن[٥] لهُ الوجوه

(١) جمع قيل بالفتح أي ملك.

(٢) السيادة.

(٣) يعلو ويفوق شرفاً.

(٤) تتطالّ.

(٥) تخضع وتذلّ.

وتحفّ[1] بهِ الأنصار إذ تدبّ الى وثير[2] مهادهِ عقارب السعاية ويمشي الحسّاد الى سلطانه بضروب الوشاية الى أن يوغروا[3] صدرهُ فينكبهُ ويقذف بهِ من حالق ويعتقلهُ[4] مدّة يعاني فيها غصص المحنة ويندب العزّ السابق . . . وغادر المغرب ردَحاً[5] من الزمن وشخص الى الأندلس ووفد على أبي عبد الله بن الأحمر ملك غرناطة فاهتز السلطان لقدومه وأركب خاصّته للقائهِ وأنزلهُ في أحد قصورهِ وبالغ وزيرهُ لسان الدين بن الخطيب في إكرام ضيف مولاهُ والترحّب بهِ ونظم لاستقباله قصيدة غرّاء. وسفر إبن خلدون في عقد الصلح بين أمير غرناطة وصاحب قشتالة وقام بهمته أحسن قيام فلقي من ملك الافرنج الإحتفاء والكرامة الفائقة. ولحقهُ بالأندلس من شرور السعاية ما نغّص عيشهُ وكرّهُ إليهِ المقام فقفل راجعاً الى وطنه وجعل يترقّب ما تجيء بهِ الأيّام. فعاد الى ما كان عليه سابقاً من الأطوار المتفاوتة فتارة يتسنّم مناكب الرئاسة ويخدمه الجاه العريض وطوراً ترجح كفةً حسّادهِ في ميزان السياسة فيعثر بهِ الحظّ ويهوي الى الحضيض[6].

وسئمت[7] نفس ابن خلدون تقلّب دهرهِ وتلوّنهِ فاستأذن سلطانهُ بالسفر الى المشرق للحجّ وأبحر الى الاسكندرية فوصلها بعد مسير أربعين يوماً وتأهّب للحجّ فلم يتيسّر لهُ فانتقل الى القاهرة وما كاد يطأُها حتى انهال عليه طلّاب العلم يقتبسون من نبراسهِ[8] الساطع ويغترفون من بحرِهِ الواسع واتّصل بالسلطان برقوق فقرّبهُ وأكرم مثواهُ وولّاهُ على تمنّع منهُ قضاء القضاة على المالكيّة فعدل في وظيفته وساوى بين الناس غنيّهم وفقيرهم وصغيرهم وأنصف المظلوم من الظالم دون هيبة ولا محاباة وضرب على أيدي من دونهُ من القضاة

---

(1) تحيط. (2) لين.

(3) أوغر الصدر أحماه من الغيظ.

(4) يحبسه ويمنحه (5) مدة طويلة.

(6) القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

(7) ملّت وضجرت. (8) مصباحه.

وأقام لهم حدوداً لا يتعدّونها وعفىّ[١] آثار المخاتلات والمغابنات[٢]. فثار عليه ثائر القوم وأصلوهُ[٣] من عداوتهم ووشاياتهم ناراً حامية واختلقوا عليه الأكاذيب تشفياً من حزازات[٤] قلوبهم الدامية ورفعوا شكواهم الى السلطان فلم يعبأ بهم ولم يقم لكلامهم وزناً. فكانت لإبن خلدون من هذه الدسائس بلابل تخامرهُ[٥] وقلاقل تسامرهُ وبلغ السيل الزُبى[٦] بورود خبر غريق عيالهِ وهم قادمون إليه من تونس فأحنت هذه المحنة متنه[٧] وسهدت[٨] جفنهُ فاستعفى من القضاء وانقطع الى التأليف ثم قصد مكّة فقضى الحجّ وانكفأ راجعاً الى مصر واعتزل في الفيّوم وهي قرية أقطعهُ اياها السلطان وصرف همتهُ الى التأليف والتدريس ومراسلة الأدباء والشعراء.

وضهرت في الشام أثناء ذلك جحافل تيمورنك الجرّارة تدمّر البلاد وتستبيح دماء العباد فسار السلطان فرج بن برقوق لمحاربتهِ وصحبهُ إبن خلدون فدارت الدوائر على المصريين وولّوا مُدبرين. وأمّا صاحب الترجمة فقصد معسكر الفاتح السفّاح ولقي منهُ إكراماً وإعزازاً وشفّعهُ في أسرى المسلمين وأذن لهُ بالعودة الى مصر فعاد الى معالجة الحظوظ وما زال يُولّي القضاء ويُعزل ويُحقّق رجاؤهُ ويُخذل إلى أن وافته المنون وكفتهُ مرارة إخفاق الآمال وخيبة الظنون ـ ووصفهُ معاصرهُ العالم الشهير والكاتب النحرير لسان

---

(١) محا.
(٢) جمع مغابنة وهي الغش في البيع.
(٣) أصلى فلاناً النار أدخله وجعله يقاسي حرها.
(٤) جمع حزازة بالفتح وهي وجع في القلب من غيظ ونحوه.
(٥) يخالطهُ وتداخلهُ.
(٦) الزبى جمع زبية وهي الرابية لا يعلوها ماءٌ وهذا مثل يضرب في استفحال الأمر.
(٧) ظهره. (٨) أرقت وأسهرت.

الدين الخطيب قال: « . . . وأمّا المترجم به فهو رجلٌ فاضل حسن الخلق جمّ الفضائل باهر الخصل رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصيّ الزيّ عالي الهمّة عزوفٌ عن الضم صعب المقادة قويّ الجأش طامح لقُنن[1] الرئاسة خاطب للحظّ متقدم في فنون عقليّة ونقليّة متعدّدة المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصوّر بارع الخطّ مغري بالتجلّة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعينّ عاكف على رعي خلال الأصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربيّة . . . »

ولإبن خلدون كتابٌ جليلٌ في التاريخ ذائع الشهرة سماهُ « كتاب العبِر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر » وهو مؤلّف نفيس يقع في ثماني مجلّدات جمع فيهِ فضلاً عن أخبار الدول العربيّة ما لم تصل إليه يد غيره من تاريخ البرابرة وأخبار الدول التي تعاقبت في المغرب والإفاضة في الكلام على ممالك النصارى بالأندلس. وصدّر كتبهُ بمقدّمة طويلة تنيف على خمس مئة صفحة هي من أجلّ ما كتب في فلسفة التاريخ بالعربيّة افتتحها بنبذة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرّخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها وقسمها الى فصول متعدّدة تنطوي على مباحث خطيرة في أحوال الأمم والأطوار التي تتدرّج فيها من نشأتها الى شبابها الى كمالها الى هرمها الى اضمحلالها. وجرّه ذلك الى بسط الكلام على طبيعة العمران وما يعرض فيهِ من البدو وتغلّب الأمم الوحشية والقبائل على أهل الحضر وإخلادهم على إثر ذلك الى القرار وأخذهم بأطراف حضارة المغلوبين وتطوّرهم فيها وما يترتّب على ذلك من دفع عماد الدولة وتوثيق[2] دعائمها وأصل الملك والخلافة والإمامة وأحوال السياسة والمراتب السلطانيّة وتخطيط البلدان وتمصير الأمصار[3] وأسباب المعاش ووجوه الكسب ونشوء العلوم والصنائع وتنوّعها وترقّيها وهبوطها وكيفيّة التعليم وترتيب طرقه الى آخر ما

---

(١) جمع قنة بالضم وهي أعلى الجبل. (٢) إحكام.

(٣) الأمصار جمع مصر بالكسر وهو المدينة ومصر الأمصار بناها.

هنالك من الأغراض العامّة والخاصّة وما يعرض في كلّ ذلك من الأحوال.

ومن مزايا هذه المقدّمة المسهبة أن المؤلّف كلما وضع قاعدة وقرّر ناموساً عزّز كلامهُ بأمثلةٍ متنزعةٍ[1] من تاريخ المتقدمين يدعم بها مقالتهُ فلا يدع مجالاً للريب والتردّد في صحة المبادىء التي أيّدها وجعلها دستوراً لكتابة التاريخ ممّا دلّ على سداد رأيهِ وصدق نظرهِ وبُعد غورهِ وانفساح ذرعِهِ وحنكتِهِ في التعليل والإستدلال والإستنتاج. فجاء كتابهُ هذا «فذاً[2] بما ضمّنهُ من العلوم الغريبة والحِكَم المحجوبة القريبة». «على أنهُ لمّا لم يكن للمؤلّف إلمامٌ بتاريخ اليونان وحكوماتهم الجمهورية ولم يقف على أخبار الرومان قبل استبداد القياصرة تحيّزت[3] حتما فلسفته التاريخيّة بالممالك الإسلامية وقلّت مزيّتها من حيث التاريخ العامّ»[4] وممّا يجدر اعتبارهُ في هذا المقام أن المؤلّف أخلّ في النواميس التي وضعها هو نفسه لكتابة التاريخ ولم يسلم من المغالط عينها التي أخذ على سابقيهِ الوقوع فيها وما الكمال إلاّ لله.

---

(١) متخذة.

(٢) فرداً.

(٣) إنحصرت.

(٤) راجع تاريخ كليمان هوارت ص٣٤٩.

الدَّميريّ (١٤٠٥م ٨٠٨هـ)

هو كمال الدين محمد بن موسى الدميريّ. كان في أوّل أمرِهِ يتكسّب بالخياطة ثم أقبل على العلم وأخذ عن علماء القاهرة وبرع في التفسير والحديث والفقه والعربية ومهر في الأدب وشارك في عدة فنون وتصدّر للإقراء بالجامع الأزهر. وكان في صباهُ أكولاً نَهِماً ثم صار بحيث يطيق سرد[١] الصيام واشتهر بالزهد والقنوت[٢] والخشية والبكاء عند ذكر الله سبحانهُ وجاور بالحرمين مدّة.

ولهُ تآليف أشهرها « حياة الحيوان الكبرى » قيل أنّهُ جمعها من خمس مئة وستين كتاباً ومئة وتسعة وتسعين ديواناً وذكر فيها ما يزيد على ألف نوع من الحيوان رتّبها على حروف المعجم. على أن هذا الكتاب ليس في شيءٍ من تقرير الحقائق العلمية في الحيوان لأن المصنّف كان فقيهاً محققاً في العلوم الدينيّة وليس من أهل هذا الفن وإنّما مقصدهُ تصحيح الألفاظ وتفسير الأسماء المبهمة وقد جمع فيه الغثّ[٣] والسمين ولهُ استطرادات كثيرة في أغراض مختلفة من حكم وآداب ولغة وخصّص فصلاً بالتاريخ اختصر فيه أخبار الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين بالعراق ومصر والفاطميين والملوك الأيوبيّين والمماليك.

---

(١) متابعة.

(٢) القيام في الصلاة على الرجلين والامساك عن الكلام فيها.

(٣) الرديء.

القَلْقَشَنْدِيّ (١٤١٨م ٨٢١هـ)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عليّ القَلْقَشَنْدِيّ نسبة الى قَلْقَشَنْدة وهي قرية من أعمال قليوب في الديار المصرية. كان من شيوخ العلم وأقطاب[1] الصناعة واسع الإطّلاع كامل الآلة متبحّراً في فنون الكتابة وضروب الإنشاء. ولهُ في هذا المعنى مؤلّف جليل سمّاهُ « صبح الأعشى[2] في صناعة الإنشا » وهو كتاب مبسوط العبارة مستوعب لإطراف الفنّ رتّبهُ على سبعة أجزاء استوفى فيها الكلام على أصول هذه الصناعة وفروعها وأوضح مسائلها وقرّب مناها على الطلّاب ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا ذكرها وجعل باباً من أبوابهِ مخصوصاً بعلم الخطّ وأدواته. فجاء كتابهُ حاوياً للفوائد الأدبيّة الجمّة حافلاً بالنكات التاريخية النادرة التي يعنى الكاتب بالوقوف عليها وينضي مطايا الطلب في الوصول إليها وقد إختصرهُ في كتاب سمّاهُ « ضوء الصبح المسفر[3] وجنى الدوح المثمر » وهو وجيز كثير التداول بين طلّاب الأدب ومزاولي صناعة الكتابة.

---

(١) جمع قطب وهو مدار الشيء وسد القوم.

(٢) سيّء البصر.

(٣) أسفر الصبح أضاء وأشرق.

المَقْرِيزِيّ (١٤٤٢م ٨٤٥هـ)

هو تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عليّ المقريزي نسبة الى مقريز وهي محلّة ببعلبك من برّ الشام وكان أصل عشيرته منها. وُلد ونشأ بالقاهرة وتفقّه على مذهب أبي حنيفة ثم تحوّل شافعياً بعد مدة طويلة ومال الى مذهب الظاهر وتعصّب على الحنفية إخوانه بالأمس وسمع الحديث من شيوخ زمانه وتضلّع من الآداب وبرع في علوم الدنيا والدين. وكان مؤرّخاً ضابطاً للوقائع متفنناً ومحدثاً صادق الرواية واعياً وتقلّد عدة وظائف دينيّة وولي حسبة[1] القاهرة غير مرّة وأول ولايته من قبل الملك الظاهر برقوق. وعُرض عليهِ قضاء دمشق في أوائل دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فأبى ولم يقبل إلاّ مشارفة الأوقاف والنظر فيها.

واشتهر المقرزيّ بعلم التاريخ وصار يضرب به المثل في الإحاطة بأخبار السلف من العلماء والملوك وكان إماماً فاضلاً كثير المحاسن حسن المحاضرة ولم يزل منقطعاً في دارهِ للعبادة والتأليف قلّ أن يتردّد الى أحد إلاّ لضرورة. ولهُ في العلوم التي أخلى ذرعهُ لتحصيلها مصنّفات كثيرة كلّها مفيدة نفيسة أشهرها كتاب « الخطط » وعنوانهُ التام «المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار » بسط فيه الكلام على أخبار مصر وجغرافيتها وأحوال سكانها وكتاب « الأوزان

---

(١) المال الذي يأخذهُ محتسب البلد على الموزونات والمكيلات.

والمكاييل الشرعية » وكتاب « النقود الإسلامية » وكتاب « السلوك لمعرفة دُول الملوك » وهو تاريخ سلاطين المماليك بمصر ولهُ التاريخ الكبير المقفّي في تراجم أعيان مصر والواردين إليها ولو كمل هذا التاريخ تجاوز الثمانين مجلّداً وغير ذلك مما يطول عدّهُ.

إبنُ حَجَرٍ العَسْقَلَانِيّ (١٤٤٩م ٨٥٣هـ)

هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عليّ المعروف بإبن حَجَر العسقلاني. وُلِدَ بمصر العتيقة ونشأ يتيماً وربي في حجر وصيِّهِ[١] وحفظ القرآن وحجّ غير متجاوز الإحديِّ عشرة من عمرهِ واحترف التجارة وهو مع ذلك مغرى بالأدب وتحصيل العلم وقرض الشعر لا تسنح لهُ فرصةٌ للإستفادة إلّا قبض بناصيتها[٢]. ثم أُولع بالحديث فوقف على سماعِهِ أيامهُ وعانى في إتقانِهِ الرحلات العديدة في بلاد مصر والشام والحجاز يخالط مشاهير المحدّثين ويأخذ عنهم ولم يسمع بإمام عالمٍ إلّا شدّ إليهِ رحالهُ[٣] وعلّق بهِ حبالهُ فجاب مدن مصر ودخل دمشق وحلب وبيت المقدس والخليل والرملة وجاور بمكة زماناً وورد اليمن وقصد عدن وزبيد وهو في كل هذه الأسفار ينشد ضالتهُ ويقتبس عن شيوخ الحديث ما عندهم ولم يزل هذا دأبهُ وَدَيْدَنَهُ حتى أصبح حافظ زمانهُ وإمام فنّهِ ضابط لمسائلهِ قليلها وجليلها وكان المعوّل عليهِ في تلقيّ الحديث ومعرفة الرجال. وقلّد القضاء بمصر ذات المرار وعُزل عنهُ كذلك وانقطع في آخر عمرهِ الى التأليف والإقراء.

---

(١) الوَصي بفتح فكسر الذي يفوض إليه الحفظ والتصرف بمال القاصر.
(٢) الناصية مقدم شعر الرأس أي تشبث بها.
(٣) قصده للإستفادة منهُ.

ولإبن حَجر مؤلّفات عديدة أكثرها في الحديث علمهُ الخاصّ منها كتاب « الأصابة في تمييز أسماء الصحابة » وكتاب « تقريب التهذيب » في أسماء رجال الحديث وكتاب « نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر » في إصطلاح الحديث وكتاب « الدرر الكامنة[1] في أعيان المئة الثامنة » ضمّنهُ تراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة وهو مرتب على حروف المعجم. ولهُ غير ذلك تآليف يطول عدّها.

---

(١) المستترة والمستخفية.

السُّيُوطيّ (١٥٠٥م ٩١١هـ)

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن الكمال السيوطيّ إمام أئمة الإسلام. وزعيم العلماء الأعلام. وُلد بسيوط[1] ونشأ بمصر يتيماً منذ السادسة من عمرهِ وحفظ القرآن وهو دون ثماني سنين وتأدّب على جماعة من أكابر العلماء وكان فطناً يقظ الفؤاد سريع الفهم قويّ الذاكرة كثير الإستيعاب بعيد النسيان فأتقن في قليل من الزمن فنون عصرهِ ما عدا المنطق والحساب وقد قال عن نفسه: « أمّا علم الحساب فإنّهُ أعسر شيء عليّ وأبعدهُ عن ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق بهِ فكأنّما أحاول جبلاً. وكنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي وعوّضني عنهُ علم الحديث. ولو شئت أن أكتب في كلّ مسألة مصنّفاً بأقوالها وأدلّتها والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي » وقال: « ورُزقت التبحّر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم أهل الفلسفة. ودون هذه السبعة أصول الفقه والجدل والتصريف. ودونها الإنشاء والترسّل والفرائض. ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ. ودونها الطب . . . »

(١) وهي أسيوط اليوم.

وساح السيوطيّ في بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور وكانت بينه وبين من يلقي من العلماء مطارحات ومفاوضات[١]. وولي تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية وكان أبوه درّس فيها من قبله وبالمدرسة البيبرسية فترامى ذكرهُ في الآفاق وملأ صيتهُ الأسماع وشُدّت إليه الرحال من كل الأصقاع[٢] وانتهت إليه الرئاسة في العلوم الدينية ولم ينقطع قط عن االاقراء والتصنيف. وكانت لهُ شهرة عالية في الجدل ولم تزل المناظرات العنيفة قائمة بينه وبين علماء مصرهِ على قدم وساق وكثيراً ما استهدف[٣] لسهام الأضداد وأثار كامن[٤] الأحقاد بما يفرط في كلامِهِ من بوادر الحدة والنزق[٥]. ومن غريب أطوارِهِ أنه كان ثقيل الوطأة على الكتاب الذي يُخيّل لهُ أنهم إقتبسوا من مؤلّفاته فيندّد[٦] بهم ويشدّد عليهم النكير ويشهّرهم على حين كان هو نفسه لا يرعى للمتقدّمين ذماماً[٧] في مؤلّفاتهم فينتحلها[٨] وينسخها ويعبث بها كيفما شاء.

وكان السيوطي سريع الخاطر في الكتابة غزير المادّة سيّال القلم ومؤلّفاته تنيف على ثلاث مئة مؤلّف بين بسيط ووسيط ووجيز. على أن عدّة من هذه المؤلّفات هي من نتائج قرائح الأقدمين كما أشرنا الى ذلك آنفاً لا فضل لهُ فيها سوى الشرح أو التتمة أو التلخيص أو الترتيب الى غير ذلك من ضروب الإقتباس ولو ذكر أسماء المؤلّفين الذين استعان بهم ما أخذ بلوم ولا عيب

---

(١) جمع مفاوضة مصدر فاوض الرجل صاحبه فى الأمر ذاكره فيه.
(٢) جمع صقع وهو الناحية.
(٣) إنتصب كالغرض أي كان يرمى بالأقاويل.
(٤) مستور.
(٥) الخفة الطيش.
(٦) يصرح بعيوبهم.
(٧) عهداً.
(٨) ينسبها الى نفسه.

بسرقة بل كان يبرز[1] تلك المؤلّفات بعد إجالة القلم فيها كأنّها أعمال صناعته ويعرضها على الملإ عرض التاجر لبضاعتهِ. لكنّها لا يُنكر عليهِ أنهُ أفاد كثيراً بإبرازهِ الى عالم الوجود طائفة من المصنّفات لولاه لبقيت في زوايا النسيان وعبثت بها صروف الزمان فقرّب منالها على الطلّاب وجعلها منهم على حبل الذراع وهي مأثرة جليلة.

فمن مؤلّفاته « الإتقان » في علوم القرآن وقد جعله بمثابة مقدّمة لتفسير أكبر سمّاه « مجمع البحرين ومطلع البدرين » ومن تفاسير القرآن الشهيرة « تفسير الجلالين » وهما جلال الدين المحلي شيخ السيوطيّ وقد فسّر الى آخر سورة الإسراء وجلال الدين السيوطي ولهُ تفسير السور البواقي. ولهُ عدة طبقات كطبقات الأصوليين وطبقات البيانيين وطبقات الحفّاظ وطبقات الخطّاطين وطبقات الكتّاب وطبقات المفسّرين وطبقات النحاة. ومن مؤلّفاته المفيدة « حسن المحاضرة » في أخبار مصر والقاهرة لخّصهُ من ثمانية وعشرين كتاباً ومنها « الشماريخ[2] في علم التاريخ » وهي رسالة في هذا الفن ومنها « لبّ اللباب » وقد مرّ ذكرهُ الى غير ذلك مما يضيق عن استيعابه المقام.

---

(١) يُظهر.

(٢) جمع شمراخ أو شمروخ وهو العثكال الذي عليه بسر.

المَقَّرِيّ

(١٦٣١م ١٠٤١هـ)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقّريّ التُلُمْسانيّ نسبة الى مقّرة وهي قرية من قرى تلمسان ببلاد المغرب منها أصل عشيرتهُ. وُلد بتلمسان ونشأ بها وقرأ العلوم الدينية على عمّه الشيخ أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّريّ مفتي تلمسان ستين سنة وبرع فيها وتفرّد بعلم الحديث حتى لُقّب بحافظ المغرب وتضلّع من الآداب واللغة والشعر وكان آية في جودة القريحة وقوة البديهة وحسن المحاضرة وانتهت إليه رئاسة علماءزمانهِ في علم الكلام والتفسير والحديث وترامى صيتهُ في الآفاق ولمّا ورد فارس كرسيّ الخلافة المرّاكشية لقي من سلطانها غاية الإعزاز والإحتفاء وقلّدهُ الفتوى بأعباء مهمته أتمّ قيام وظلّ في هذا المنصب نحو ثلاث عشرة سنة ثم توالت القلاقل والفتن على إثر موت السلطان فسئم المقريّ الإقامة ورحل عن مراكش وقصد مكة فأدّى فرائض الحجّ وتوجّه الى مصر وسكنها مدّة فلم يطب لهُ فيها مقام فغادرها وزار بيت المقدس ورجع الى القاهرة وكرّر منها الذهاب الى مكّة خمس مرات وأملى فيها على قصد التبرّك دروساً عديدة ثم عاد فدخل بيت المقدس وألقى عدة دروس بالجامع الأقصى وزار الخليل وكانت مدة إقامته خمسة وعشرين يوماً ثم ورد من المقدس الى دمشق وأنزلهُ مواطنوهُ المغاربة في مكان لا يليق بِهِ فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الحقيقيّة ولمّا دخلها أعجبته فنقل أسبابهُ إليها واستوطنها مدة إقامته.

ولقي المقّريّ بدمشق من الإكرام والتجلّة والحظوة عند العامة والخاصة وإقبال الناس عليه ما لم يتفق لغيرِهِ من العلماء الواردين وكان كثيراً ما يشيد بذكر[1] أهلها ويفيض في تعداد مناقبهم ومآثرهم وينوّه[2] بكرم أخلاقهم وكمال أريحيتهم ويصف محاسن مدينتهم وقد عقد في كتابهِ « نفح الطيب » فصلاً يتعلّق بها وبأهلها وأورد في مدحها أشعاراً كثيرة. وجرت بينه وبين أُدبائها وعلمائها مطارحات[3] شتّى ومخاطبات شعريّة ونثريّة ذكر منها قسماً صالحاً في كتابه المشار إليه. ويحكي أنّهُ دُعي الى مجلس بعض الأعيان وكان في صحبته عبد الرحمان العماديّ مفتي دمشق وأحمد بن شاهين المارّ ذكرهُ فمسّ المقّريّ ثلجاً وقال: « الماس هذا » فأنشد أحمد بن شاهين مرتجلاً:

شيخنا المقّريّ وهو الناس والذي بالأنام ليس يقاسُ
مسّ ثلجاً وقال« ألماسُ هذا » قلتُ « ألماس عندنا ألماسُ »

ثم ارتجل بيتينِ آخرين في الثلج:

غنيت بالثلج عن سوداء حالكة من قهوة لم تكن في الأعصر الأُوَلِ
وقلت لمّا غدا خلّي يعنّفني في طلعة الشمس ما يغنيك عن زَحَلِ[4]

فقال العماديّ:

يا بردها ثلجةً جاءت على كبدٍ حرّاءَ من فرقة الأحباب في وجلِ[5]

فقال المقّريّ:

تحلو إذا كُرِّرت ذوقاً وعادةُ ما أُعيد أن يُلتقى بالكُرهِ والمللِ[6]

---

(١) يشيعهويعلنه بالثناء عليه.
(٢) يُشهر.
(٣) جمع مطارحة مصدر طارحهُ الكلام والشعر إذا جاوبهُ وناظرهُ.
(٤) عنّفه لامهُ ووبّخهُ وزحل نجم بعيد خفيّ.
(٥) الوجل الخوف.
(٦) الكره البغض والملل الضجر.

فقال العماديّ:

لعلّ أعلالةً بالثلج ثانيةً يدبُّ منها نسيم البرء في عللي[1]

فقال المقّريّ:

إذا دعاني بمصرٍ ذكر معهدها أجاب دمعي وما الداعي سوى طللِ

فقال العماديّ:

لو كان في مصر ماءٌ باردٌ لكفى عن الثلج ومن للعورِ بِالحولِ[2]

وكانت إقامة المقّريّ بدمشق دون الأربعين يوماً ورحل منها الى مصر وعاد الى دمشق مرّة ثانية وحصل لهُ من الإكرام ما حصل في قدمته الأولى وحين فارقها أنشد:

إن شام قلبي عنك بارق سلوةٍ يا شام كنت كمن يخون ويغدرُ[3]
كم راحلٍ عنها لفرط ضرورةٍ وعلى الفرار بغيرها لا يقدرُ
متصاعد الزفرات مكلوم الحشا والدمع من أجفانِهِ يتحدّرُ[4]

ورجع الى مصر واستقرّ بها مدة يسيرة وأراد العود الى دمشق للتوطّن بها ففاجأهُ الحمام قبل نيل المرام.

وللمقّريّ عدّة تآليف أجلّها وأشهرها كتاب «نَفْح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» وهو تاريخ كبير يقع في أربعة مجلّدات ضخام جمع فيه أقوال من سلفهُ من مؤرّخي الأندلس وزاد عليها ما وصلت إليه يدهُ مما لم يذكروهُ ورتبهُ على قسمين أوّلها في الكلام على جزيرة الأندلس وما توالى عليها من الدول وتعاقب فيها من الحدثان منذ افتتاحها على يد طارق بن زياد الى

---

(١) يدب يسري والبرء الشفاء والعلل الأمراض جمع علة.

(٢) لا يخفى ما في بعض هذه الأبيات من التضمين لبعض أشطر من قصيدة للمتنبي مطلعها: أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلباهُ قبل الركب والإبل.

(٣) شام البرق رقبه لينظر أين يمطر والسلوة الذهول والنسيان.

(٤) الزفرات جمع زفرة وهي إستيعاب النفس من شدة الغمّ ومكلوم مجروح.

انقراض ملك العرب فيها بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ مسيحية وقد أفاض في وصف مدنها وعوائد أهلها وتراجم ملوكها وأمرائها وعلمائها وأدبائها وأدبياتها والراحلين منها واليها بحيث أصبح كتابهُ هذا أكمل تاريخ لمدة العرب في الأندلس.

وأمّا القسم الثاني منهُ فمستقلّ بأخبار لسان الدين بن الخطيب وقد بسط فيه الكلام على أصلهِ وفصلهِ فعرّف بعشيرته وعدّد أسلافهُ واستوعب حوادث سيرته. وفصّل ما جرى لهُ منذ ولادته الى يوم نكبته وعقّب بتراجم مشايخه وأولادهِ وتلامذتهِ وما يتعلّق بهم وأطنب في إيراد لُمع من مخاطباته ومراسلاته ونظمه ونثره ومصنّفاته وكلّ ما يرمي إليـه من قريب أو بعيد ومن قليل أو جليل. ولا مرية أن تصنيفه هذا بحرٌ زاخرٌ بالفوائد التاريخيّة والعلميّة والأدبيّة ويكاد يكون غاية الغايات في هذا الباب لولا ما يؤخذ على المؤلّف من الإفراط في الإستطرادات ولو لفائدة ما وعدم اكتراثه بالترتيب والتبويب ممّا جرّهُ الى تكرارات كان في غنى عنها.

هؤلاء على ما ترى أشهر مشاهير المؤرّخين في « طور الإنحطاط » وقد بقي ولا شك عدد وافر من العلماء الأعلام نبغوا في تلك المدة المديدة وأيّدوا جانب الآداب لكن حدود هذا « المختصر » لا تتسع لذكرهم فعسى أن يكون فيما ورد كفاية في هذا المقام.

ملحق
في المؤلّفات الغُفْل[1]

لا يخفى على من له قليل إلمام[2] بالآداب العربيّة أن عدّة من المؤلّفات الشائعة الذكر على ألسنة الخاصّة والعامّة لا يُعرف لها واضع. منها ما هو بلغة العامّة كقصة بني هلال المعروفة بالتغريبة وليست من غرضنا ههنا ومنها ما هو باللغة الفصحى وسنذكر بعضها توفية للبحث وتتمة للفائدة.

سيرة عنترة

مرّ الكلام على هذه «السيرة» في باب «اللغة في الجاهلية» فعليك بالمراجعة.

ألف ليلة وليلة

هو الكتاب الشهير الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها وأُولع الناطقون بالضاد كبيرهم وصغيرهم بمطالعته والتفكه بهِ فأضحى أنيسهم في خلواتهم

(١) هي التي لا يعرف واضعها.
(٢) معرفة.

وجليسهم في حلقاتهم واتخذوه رفيق أسفارهم وحديث أسمارهم[1]. وترامت سمعتهُ الى الأعاجم فنقلوه الى لغاتهم وأقبلوا على قراءته وتفهّمه وأُعجبوا بِهِ شديد الإعجاب حتى فاقوا أصحابهُ بمعرفته وانتقادهُ وتمييز أقسامهُ وجمع شتاتهُ واللهج بذكرِهِ.

والمزيّة الجليلة التي اتّسم[2] بها هذا الكتاب وحبّبته الى الناس جميعاً على اختلاف أذواقهم وأطباعهم إنّما هي حسن وصفِهِ لأخلاق العرب في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام وبسط الكلام على عوائدهم في أفراحهم ومآتمهم[3] ومجالسهم ومعاملاتهم وسائر أحوالهم من أعلى طبقات الهيئة الإجتماعية الى أدناها فجاءت رواياته أشبه شيء بمشاهد حيّة إستحضر فيها مصطنعها أشباح[4] الغابرين من ملوك ومماليك وسراة وصعاليك[5] فأعادوا على مرأى من القارىء وقائع أيّامهم ومجريات أقوامهم. مما تلذّ الأديب مطالعته وتروق العالم المنقّب الإحاطة بِهِ لاستطلاع طلع الأمم والوقوف على آدابهم الإنفرادية والإجتماعية.

إلّا أنّه يستهجن ما فيه من الأخبار المجونيّة التي تنفر منها أذواق أهل العصر. ودفعت الغيرة حضرات الآباء اليسوعيين في بيروت الى تنقيحه وحذف ما يستسمج منه، فزاد ذلك في قيمة الكتاب. وقرّب متناوله من جميع الناطقين بالضاد.

ومع ما لهذا الكتاب من الشهرة البعيدة لم يهتد الباحثون الى معرفة واضعهِ أو واضعيه وقد شمّر علماء النقد عن ساعد الجدّ لإزاحة اللثام[6] عن وجه

---

(١) جمع سمر وهو الليل والحديث في الليل.
(٢) وسمُه جعل لهُ سمة أي علامة فاتسم
(٣) جمع مأتم وهو المناحة.
(٤) جمع شبح وهو الخيال والشخص والغابر الماضي.
(٥) السراة الأشراف والصعاليك الفقراء.
(٦) كشف الحجاب.

الحقيقة فسلكوا طرق الإستدلال والإستنتاج واستنفدوا أسباب التحقيق والإستنباط فلم يتسنَّ[1] لهم قطع عرق الشبه[2] والجزم بشيء في هذه المسألة المبهمة وتضاربت[3] آراؤهم في أصل وضعِهِ وزمان تأليفِهِ.

فذهبت جماعة أن الكتاب فارسّي اللغة وأن ما لدينا منقول عن نسخة فارسيّة قديمة العهد عُرِّبت فيما عُرِّب من الكتب الأعجمية في الدولة العباسية وسندوا مذهبهم الى ما جاء للمسعودي في مروج الذهب عند كلامهِ عن الكتب المترجمة من الفارسية والهندية والروميّة مثل كتاب «هزار أفسانه» وتفسير ذلك من الفارسيّة الى العربيّة «ألف خرافة» والخرافة بالفارسيّة يقال لها أفسانه والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرازاد ودينازاد» فيؤخذ من هذا النص أن الكتاب منقول برمّتهِ[4] عن الفارسيّة وهو غير الواقع كما سترى. ولصاحب الفهرست كلام في المعنى نفسه أشبه بالإستدراك على ما سبق. فقد قال عند ذكرِهِ كتاب «هزار أفسانه» ما محصّلهُ:

«ونقلتهُ العرب الى اللغة العربيّة وتناولهُ الفصحاء والبلغاء وهذّبوهُ ونمّقوه وصنّفوا في معناهُ ما يشبهه ... وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياريّ صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب أختار فيهِ ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم فاجتمع لهُ من ذلك أربع مئة ليلة كلّ ليلة سمرٌ تامّ يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ثم عاجلته المنيّة قبل استيفاء ما في نفسهِ من تتميمه ألف سمر»

فإذا اعتبرت هذه الأقوال معاً أستُفيد منها أن العرب لدي اطّلاعهم على الكتاب الفارسيّ «هزار أفسانه» أحبّوا أن يكون لهم شيء من مثل ذلك

(١) تسنى الأمر تسهل.
(٢) إزالة الإلتباس.
(٣) تصادمت.
(٤) بكليتهِ.

فهبّ قومٌ من العارفين بالأخبار يتحدّونهُ[1] وينسجون في لغتهم على منوالِهِ فعرّبوا عنهُ بضع حكايات ينمّ[2] على أصلها الفارسيّ الأعلام الواردة فيها كشهريار وشاه زمان وشهرا زاد ودينازاد وأضافوا إليها كلّ ما وصلت إليه يدهم من الأخبار المحققّة والمختلفة[3]. ولمّا أرادوا تحقيق عنوان الكتاب حشروا فيه حكايات متلوّنة انتزعوها من مآخذ متعدّدة لا جامع بينها سوى العدد المعهود. فأغاروا[4] لذلك على أساطير[5] الهنود وأقاصيص العجم وخرافات اليونان وأنباء الجاهلية وأخبار الإسلام حتى على التوراة والتواريخ النصرانية التي سمعوا رواياتها عن اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم[6]. وما زالت الأيدي تتداول هذا الكتاب دهراً دهراً وهو في عيون القوم ملكٌ مشاع[7] لا يرون بأساً بالزيادة عليه والتنقيص منهُ حتى وصل إلينا على هذه الصورة شبيهاً بفلك نوح فيه من الأنواع والأجناس ما فيه . . .

هذا وقد يمكن أن يكون المسعوديّ رأى ترجمة كاملة لكتاب « هزار أفسانه » لم يبلغنا منها سوى القليل ولا يبعد أن يكون القوم قد وضعوا كتباً متعدّدة اتفقت في المعنى والتسمية وهو كثير الحدوث في العربيّة.

وأمّا زمان وضع الكتاب فلعلّ الأرجح أنه جمع نبذاً نبذاً في أزمان متفاوتة كما ألمعنا إليه سابقاً ولا شك أن جلّ الكتاب إن لم نقل كلّهُ من موضوعات طور الإنحطاط فإنّ لغتهُ أقرب الى اللغة العاميّة منها الى الفصحى. على أن روايتهُ لا تخلو من تفنن في سرد الحكايات وسياق الحوادث مع رقة وإنساج في العبارة وبراعة في الوصف تنشط على مطالعة الكتاب والتفكّه بأحاديثه الغريبة ووقائعه العجيبة.

---

(١) يتعمدون أسلوبه.
(٢) يدلّ.
(٣) الموضوعة والمخترعة.
(٤) هجموا.
(٥) جمع أسطورة وهي القصة التي لا أصل لها.
(٦) في وسطهم.
(٧) مشترك.

أمثال لقمان

من هو هذا لقمان الذي تنسب إليه هذه الأمثال؟ أهو لقمان الحكيم أو لقمان بن عاد أو لقمان آخر؟ هل لقمان الحكيم ولقمان بن عاد رجلٌ واحد؟ في أي زمن عاش؟ هل هذه الأمثال عربية أو معرّبة؟ متى دُوّنت؟ تلك أسئلة يتعذّر[1] الجواب عليها بوضوح.

أمّا لقمان الحكيم فقد ورد لهُ ذكرٌ في القرآن في آيتين من « سورة لقمان » وهما: ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسهِ ومن يكفر فإنّ الله غنيّ حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظهُ يا بُني لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم** » وقيل في التفسير أن لقمان كان نبياً وقيل كان حكيماً وقيل كان رجلًا صالحاً وقيل كان خيّاطاً وقيل كان نجاراً وقيل كان راعياً وقيل كان حبشياً غليظ المشافر[2] مشقّق الرجلين وقيل كان من عبيد سليمان وقيل أنه هو سليمان نفسهُ وقيل غير ذلك. وكم للعرب من قيل وقال في مشكلات الأمور. ورُوى أن إنساناً وقف على لقمان وهو في مجلسه فقال: « ألست الذي كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا » قال: » « فما بلغ بك ما أرى » قال: « صدق الحديث وإداء الأمانة والصمت عمّا لا يعنيني ».

---

(١) يستحيل.

(٢) جمع مشفر وهو شفة البعير.

وأمّا لقمان بن عاد فإنّ العرب يصفونه بالحذق والزكن والفراسة[١] والمكر والدهاء والحسن والقبيح ويزعمون أن لقمان هذا هو الذي بعثته عاد في وفدها الى الحرم يستسقي لها فلمّا أُهلكوا خُيّر لقمان بين بقاء سبع بعرات سُمر من أَظبٍ عُفر[٢] في جبلٍ وَعر لا يمسّها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعدهُ نسر. فاختار النسور. وكان يأخذ فرخ النسر فيعيش عندهُ خمس مئة سنة أو أقل أو أكثر فإذا مات أخذ آخر مكانهُ وهكذا الى السابع وهو أطولها عمراً وسمّاهُ لُبَداً ولما مات لُبِد مات لقمان. وقد ذكرته الشعراء، قال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها أحتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد[٣]

هذا مجمل ما يروى عن اللقمانين. وأمّا الأمثال فيرجّحون أنها من قلم راهب سريانيّ نبغ بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر للميلاد حذا فيها حذو «أمثال إيزوب» اليونانيّ وضعاً وتعريباً فإنّ كثيراً من هذه الأمثال مرويّة في اليونانيّة ومعزوة الى إيزوب. وأخبار الحكيمين العربيّ واليونانيّ تتشابه جداً بحيث قالوا أنّهما واحد والله أعلم.

---

(١) الزكن الفطنة والفراسة الإستدلال بالظاهر على الباطن.

(٢) الظبي الأعفر ما كان أبيض في غبرة.

(٣) الضمير في أضحت للديار واحتمل ارتحل وأخنى عليه الدهر أهلكهُ.



اللغة

في طور الإنبعاث

من أوائل القرن التاسع عشر الى أيامنا

اليقظة

جرت في الأصقاع[1] الغربية في أواخر القرن الثامن عشر حوادث خطيرة أدّت الى فتن وقلاقل اضطربت لها القارّة الأوروبيّة جمعاء. فمادت[2] عروش الملوك وتحطّمت صوالجتهم[3] وهوت تيجانهم الى الحضيض[4] وانقلبت الممالك ساحات قتال وعراك اصطدمت فيها الشعوب فبيعت النفوس رخيصة وانهمرت[5] الدماءُ غزيرة. فما هو إلاّ صباح يوم ومساؤه حتى انقلبت طبقات الهيئة الإجتماعية هنالك ظهراً لبطن وأصبح عاليها سافلها فتبوّأ المأمور منّصة الأحكام واغتصب[6] المملوك تاج الملوك العظام وقبض الصعلوك عصا السيطرة[7] على الأنام.

واستطارت شعلة الحرب الى الشرق بإغارة الفرنسيس على البلاد المصرية لغايات ليس لذكرها محلٌ في هذا المقام فتوغّلوا[8] في البلاد شرقاً وغرباً وتخطّت[9] جيوشهم الى ما وراء القطر المصريّ فدخلوا سورية وفتحوا عدة

---

(١) بعثهُ فانبعث أحياهُ فحيي.

(٢) جمع صقع وهو الناحية.

(٣) تحركت واضطربت.

(٤) جمع صولجان وهو عصا الملك.

(٥) إنسكب.

(٦) المنصة الكرسي واعتصب التاج لبسه.

(٧) سيطر على القوم تسلط عليهم.

(٨) أبعدوا.

(٩) تجاوزوا.

مدن منها. فهبّ الشرقيّون فجأة من عميق سباتهم على دويّ المدافع وصلصلة النصول[١] وأخذوا في الكفاح والدفاع مدةً من الدهر وتعدّدت المعارك الهائلة التي ازدحمت فيها الأقدام وتحكّكت الأقوام بالأقوام. ثم ما لبثت الأحوال السياسية ان اضطرّت الفاتحين الى التقهقر[٢] والجلاء عن البلاد التي شنّوا عليها غاراتهم[٣] فانفثأت سورة[٤] الإضطراب وحطت الحرب أوزارها[٥] الى حين وعاد الشرقيّون يرتعون مدّة في بحبوحة الطمأنينة والسلام وفي قلوبهم مما رأوا من الأوربيين أشياء.

ولا يتوهّمنّ المطالع الكريم أنّ في ذلك إشارة ولو بعيدةً الى شيءٍ من الحفيظة تسرّب[٦] الى قلوب بني المشرق فإنّ الأريحيّة العربيّة أسمى من أن تنالها هذه الشواعر الدنيئة وإن هم إلّا أبناء أولئك الأبطال الذين طالما أبدوا آيات البطش والبسالة في حومة الوغى[٧] فقهروا العدّو بجريّ كرّاتهم وصادق طعناتهم حتى إذا عدلوا الى المحاجزة بعد المناجزة[٨] صافح الخصم خصمهُ مصافحة الصداقة والإخاء أطرى[٩] كلّ بأس صاحبهِ وإقدامهُ بعبارات ثناءٍ لا يشوبه رثاء وكلاهما يعلمان أنّهما أخوان في الفروسيّة قد قُدّا من أديمٍ[١٠] واحدٍ فكانا أشبه من الساعد بالساعد.

---

(١) النصل حديدة السيف وصلصلة النصول صوتها إذا حرّكت.

(٢) التقهقر الرجوع الى خلف والجلاء عن البلاد الخروج عنها.

(٣) شنّ الغارة فرّق الخيل وصبها من كل جهة.

(٤) سكنت حدّته.

(٥) أوزار الحرب أثقالها أي آلاتها وسلاحها وحطت الحرب أوزارها كناية عن انقضاء القتال.

(٦) الحفيظة الغضب وتسرّب الماء سال.

(٧) ساحة الحرب.

(٨) المحاجزة المسالمة والمناجزة المقاتلة.

(٩) مدح.

(١٠) قدّ شقّ والأديم الجلد.

بل ما وقع في قلوبهم إنما هو إعظام مدنية أولئك الغرباء وإعجابهم بما في أيديهم من أسبابها وأدواتها ومعدّاتها وراعهم ما رأوا من إحتفال الفاتحين بأمر العلوم والآداب والصنائع ورغبتهم في رفع لوائها بينهم وإيثارهم بفوائدها غير مستأثرين[1] عليهم بشيء منها وازداد دهشهم لمّا رأوا مع تلك الحملة الحربية حملة علمية قوامها من مشاهير العلماء الأعلام لا همّ لهم سوى التنقيب عن آثار السلف واستكشاف ما كان عندهم من وسائل العمران والتمدّن. وألقوا نظرةً الى الطارئين عليهم والى أنفسهم فألفوا والأسف ملء قلوبهم أن بين الفريقين بوناً شاسعاً وشوطاً[2] بعيداً ضربتهُ أيدي الدهور المتطاولة التي أركن فيها العرب الى الدعة والخمول ولم يزل نجم العلوم والآداب عندهم يهوي الى الأفول. فربأوا[3] بأنفسهم وهم أرباب الحضارة القديمة أن يظلّوا في هذه الوهدة[4] من الإنحطاط والتقهقر وآلوا[5] أن يتشبّهوا بهؤلاء الكرام ويفلحوا فلاحهم. فنشطت هممهم من عقلتها وثابت[6] نفوسهم من غفلتها وتربّصوا[7] يتحيّنون الفرص[8] لنيل المنى والنهوض الى أوج[9] العلى

---

(١) آثرهُ بالشيء إيثاراً خصهُ بِهِ واستأثر بالشيء خصهُ بنفسِهِ.
(٢) المسافة التي تجريها الخيل مرّة.
(٣) رفعوا.
(٤) الهوّة.
(٥) حلفوا.
(٦) نشطت خرجت والعقلة القيد وثابت رجعت.
(٧) إنتظروا.
(٨) يقصدونها.
(٩) أعلى الشيء.

النّهْضة المِصْريّة

ولم تمر بضع سنوات حتى أحلّت الأقدار في دست ولاية مصر المصلح الكبير والرجـل العصاميّ[1] الشهير محمد علي باشا رأس الأسرة[2] الملكيّة فرأى ببعيد نظرهِ وثاقب بصيرته أنهُ لا سبيل الى لم شعث[3] الأمة وتدارك أمرها قبل الإنحلال والإضمحلال إلّا بتثقيف عامة الشعب وتنوير عقولهم بالآداب والعلوم الصحيحة. وشاهد عياناً ما خلّف الفرنسيّون في القطر من الآثار الحسنة الصالحة على قصر مدة احتلالها للبلاد فقدّر مدنيّتهم حقّ قدرها ووطّن النفس على استقدام عصابة من علمائهم يتخرّج عليهم أبناء الوطن ويتلقّون عنهم علومهم وفنونهم حتى إذا أحكموها استظهر[4] بهم على إصلاح البلاد وترقية شؤونها. وكما عزم فعل فمهّد وسائل الإستيطان لأولئك الغرباء ووفّر لهم أسباب الراحة والرفاهية والغنى فطابت لهم الاقامة في ظلّه الظليل وسمع مواطنوهم بما يلقون من الإعزاز والإكرام فتقاطروا زرافات[5] الى وادي النيل يفيدون بما عندهم ويستفيدون في مقابلة ذلك الثروة الطائلة والجاه العريض.

---

(١) هو الذي شرف بأعمالِهِ ويقابله العظاميّ وهو الذي ورث الشرف من أجدادِهِ.
(٢) العشيرة.
(٣) ما تفرق من الشيء.
(٤) إستعان.
(٥) جماعات.

ولم يكتف محمد علي بدعوة الأجانب لتدريب شعبِهِ على ضروب التمدّن الحديث بل أرسل أيضاً فئة من نخبة شبّان البلاد الى فرنسا يتعلّمون في مدارسها ويتفحّصون خواصّ الحضارة الغربية في منبتها ومتى وقفوا على حقائقها وكشفوا أسرارها واستنبطوا دخائلها رجعوا الى وطنهم ولقّنوا أبناء جلدتهم[1] بلغتهم ما حصلوا من العلوم والفنون وهكذا كان. ولم يدّخر وسعاً في بذل ما عندهُ من الحكمة والسلطة والمال لتوفير أسباب الرقيّ في البلاد باستحضار ما لا بدّ من الأقطار الغربيّة للمشروعات الجديدة واستنباط كل ما يمكن استنباطه من القطر نفسهِ. فأنشأ المدارس وأوعز بترجمة المؤلّفات المفيدة وطبعها وأمر بها فنُشرت في الشعب وصارت العلوم بها من عامّة الطلّاب على حبل الذراع وكانت المطبوعات قبلاً بمثابة تحف نفيسة عزيزة الوجود في الشرق لا يتسنّى اقتناؤها لغير الأغنياء.

وجرى خلفاء محمد علي الكرام على أسلوب أبيهم المقدام فرفعوا للعلم دولة فسيحة الأرجاء وارفة[2] الأفياء وجعلوا قطرهم مركز دائرة المعارف والآداب العربية ومنبثق[3] أشعتها البهية فنُقلت بأمرهم تآليف الافرنج في العلوم الحديثة وأبرزت المطابع مصنّفات السَلَف النفيسة من زوايا النسيان وبذلوا الأموال عن يدٍ سخيّة لاقتناء الكتب المنوعة وحشدها من الجهات وأنشأوا في عاصمتهم مكتبة شرقية حافلة تباري[4] أعظم مكاتب العواصم الأوربية في غناها العلمّي بما حوت من المطبوعات والمخطوطات الثمينة. فسجّلوا لأنفسهم من المناقب المشكورة ما يسطّر بمداد الفخر في جبين الدهر.

---

(١) أبناء جنسهم.
(٢) الأرجاء الأنحاء وظلّ وارف أي ممتد واسع.
(٣) مكان انبثاق النور أي انبعاثهُ
(٤) تسابق.

النَّهْضَةُ السُّورِيَّة

وأمّا في سورية فلم يكن القوم ليلبثوا هنيهة في معزلٍ عن حركة العلم والتجدّد الأدبيّ التي دبّت عواملها في جيرانهم وقد اشتهروا منذ القدم بعلّو اهمم والإقدام على العظائم وما زال العلم ضالّتهم المنشودة ولو كان منهم مناط الثريّا[١] فكيف وقد أصبح على طرف الثمام[٢]. وقد رأيت آنفاً أن بلاد الشام أصابها من احتلال الأجانب بعض ما أصاب مصر ولما ألفت الأحكام أزمّتها الى محمد علي ساقته الحوادث الى إرسال جنودِهِ الى سورية وكان يتمنى تملكها فبسط أبنهُ إبراهيم باشا سلطته عليها بضع سنوات وكان من حروبه وتداخل الدول الأوربية ما كان.

فامتزج الشعبان في الحرب والسلم وورد كثير من نبهاء السوريين الى مصر ورأوا فيها متّسعاً لاستثمار قواهم العقلية ومجالاً لجياد قرائحهم الذكية فاستوطناها وخدموا العلم خدمة جليلة. ولقي محمد على في لبنان رجلاً مقداماً طمّاحاً الى العلى وهو الأمير بشير الشهابي الكبير فوقعت محبة كلّ منهما في قلب صاحبه وتآخيا على السراء والضراء وطلب الأمير من صديقه أن يأذن لعصابة من نجباء اللبنانيين في الذهاب الى مصر ليتلقّوا علوم الطبّ في القصر العينيّ

---

(١) المناط مكان النوط أي التعليق والثريا سبعة كواكب في عنق الثورة والعبارة مثل يضرب في البعد.

(٢) الثمام نبت قصير ضعيف لا يطول. والعبارة مثل.

فأجابهُ الباشا الى سؤْلِهِ وازدادت روابط العلم وثاقة بين البـلدين. وكأنّ تقدّم المصريين في النهضة الحديثة هاج غيرة شريفة في السوريّين فاندفعوا يجرون في مضمار[1] العلوم اندفاع الجواد أضرَّ بِهِ طول الجمام[2] ولم تنِ لهم همّة حتى أدركوا إخوانهم السابقين ومشوا معهم قدماً لقدمٍ كفرسي رهان[4] ورضيعي لبـان والله يعلم كيف كانت حالهم لو مدّت إليهم يد الأقدار من الإسعاف ما مدّت لجيرانهم.

غير أنّ للنهضة الحديثة في سورية أسباباً أُخر من الخطورة بمكان عظيم وهي الرسالات التي تقاطرت إليها من الآفاق الأروبية والأميركية على تعدّد مللها ونحلها. وكأنّ أبناء الغرب لما رأوا ما في احتلال الشرق بقوة السلاح من خشونة المركب عدلوا الى الفتح السلمّي وهو أسلم عاقبةً وأوفر عائدة لكلا الفريقين فضلاً عمّا لهم فيهِ من حسن الذكر وطيب الأُحدوثة والمأثرة السنيّة. فتباروا[5] جميعاً في إنشاء المدارس العالية وفرّوا فيها أسباب العلم النظرية والعلمية وتخرّج فيها الجماهير الغفيرة من أبناء سورية ونبغ منهم جماعةٌ هم أساطين العلم ونوابغ الأدب حلّقوا[6] في سماء الشرق كالكواكب الساطعة وبعثوا أشعّتهم المحيية الى أقاصي البلاد العربيّة.

ولأرباب هذه المدارس الأجنبية فضلٌ على السوريين خاصّة وأبناء العرب عامّة لا يمحوهُ كرور الزمان ولن ينسوه ما تعاقب المَلَوان[7]. فقد ربي في ظلّهم أجيالٌ متتابعة لا تقع تحت حصر كان منها العلماء والأطبّاء والشعراء والكتبة الى آخر من هنالك من حَمَلة العلم وأُولي العرفان الذين يفاخر بهم

---

(١) ميدان. (٢) الراحة.

(٣) ونى الرجل يني ضعف.

(٤) خيل الرهان هي التي يراهن على سباقها والعبارة مثل في التساوي.

(٥) تسابقوا.

(٦) النوابغ جمع نابغة وهو الرجل العظيم الشأن وحلق الطائر إرتفع في طيرانه.

(٧) الليل والنهار.

الشرق سائر أمم العالم. ومهما قال أصحاب العصبيات في الغايات التي يرمي إليها منشئو هذه المعاهد العالية ومدبّروها فلا أقلّ من أن يقرّ كل أمرىء حرّ صادق أن هؤلاء الأعاجم الذين نشروا لغاتهم وعلومهم فيما بيننا قد أنعشوا أيضاً اللغة العربيّة من عثرتها[1] وحبّبوها الى أبنائها أنفسهم واستثاروا كامن هممهم لتحدّي[2] أجدادهم الأماجد واسترجاع سالف عزّهم بعد أن أصبح أثراً بعد عين[3]. فتداركوا قبس[4] العلم عند الشرقيين قبل انطفائه واحتلوا في تلك الشعلة الضئيلة[5] حتى امتدت شئياً فشيئاً وعمّت البلاد العربيّة وكان عنها هذه الحياة الجديدة التي نستمتع بها الآن ونتمنى لها بِحَوْلِهِ تعالى مستقبلاً مجيداً.

وهبّ الوطنيون وقد ثارت في رؤوسهم حمّيا الغيرة القوميّة فأنشأوا هم أيضاً المدارس الكبرى جعلوا فيها للُغة العربية المقام الأول فتقاطر إليها الطلّاب من كلّ فجّ وصوب[6] وضاقت بهم حلقات التدريس على رحبها وأكبّوا جميعاً على التضلّع من العلم ولا إكباب الجياع على القصاع[7] حتى إذا ما قضوا نهمتهم[8] منها أخذوا على أنفسهم بثّ ما اقتبسوه في عامّة الشعب فبرزوا في ميدان الحياة يجولون جولات الفرسان ويصولون صولات الشجعان. فمنهم من عقدوا الجمعيات العلمية يتعاضدون[9] فيها على رفع منار العلم ويتعاونون ومنهم من انقطعوا الى التأليف والتصنيف فأحيوا الليالي[10] في

---

(١) سقطتها.
(٢) يتعمدون طريقتهم.
(٣) عين الشيء ذاتُهُ وشخصهُ.
(٤) شعلة النار.
(٥) الضعيفة.
(٦) الفج الطريق بين جبلين والصوب الناحية.
(٧) جمع قصعة وهي الصحفة الكبيرة.
(٨) شهوتهم.
(٩) يتساعدون.
(١٠) سهروها.

التحرير والتحبير ومنهم من احتذوا مثال الأوربيّين في احتراف الصحافة يخاطبون بها القريب والبعيد ويبعثون فوائد العلم الى قصر الأمير وكوخ الفقير.

وليس المراد بهذا المقال أن المدارس العالية كانت معدومة في الشرق قبل القرن التاسع عشر فإنّ رؤساء الطوائف الكاثوليكية كانوا شديدي الحرص على تلقين رعاياهم العلوم الصحيحة لا تفتر لهم همّة في تنشيط الناشئة على ارتشاف أفاويق[1] العلم والأدب والتبحّر في المعارف والفنون لعلمهم أن الجهل عاقبتهُ وخيمة حتى في أمور الدين وأنّ العلم والدين صنوان[2] شقيقان ما فُرّقا إلّا تطرّق الوهن الى كلّ منهما وإن هما إلّا شعاعان من شمس الحقّ السرمديّ الذي قال عن نفسهِ عزّ وجلّ «إنّ الله نور» ـ وأمّا المسلمون فمدرستهم المصرية المعروفة بالجامع الأزهر أشهر من أن تحتاج الى تعريف ولم تزل في طور الإنحطاط ملجأ العلوم العربيّة وقد تفقّه فيها عصابة جليلة من أولي المعرفة كانت لهم في الآداب القدم الفارعة. غير أنّ فوائد تلك المدارس مهما عظمت وجلّت لم تتعدّ الخاصّة ولا سبيل الى النهضة إلّا بتنوير عامّة الشعب ونشر المعارف حتى في أدنى طبقاتهِ فيهبّ كلّهُ دفعةً واحدة ينفض عن عاتقهِ[3] غبار الخمول ويسعى في طلب العلى سعياً حثيثاً[4].

وما قيل في نهضة مصر وسورية يقال في نهضة سائر البلاد العربيّة وإن كانت غالباً أخفّ وأضعف فإنّ اللغة هي لجميع هذه الأقطار بمثابة الروح من الجسد تنتعش في الأعضاء الرئيسية ثم تعم سائر الأعضاء. فكأنّ صوت النفير[5] الذي دوى في مصر وسورية ترامى صداهُ الى الآفاق القاصية فاستيقظ الأقوام جميعاً على نداء: حيّ على الفلاح.

---

(١) إرتشف الماء بالغ في شربهِ والأفاويق جمع أفواق جمع فيقة وهي اللبن يجتمع في الضرع بين حلبتين.

(٢) أخوان.

(٣) موضع نجاد السيف (علاقتهُ) من الكتف.

(٤) سريعاً.

(٥) البوق.

وَسَائِلُ النَّهْضَة

مَن أمعن النظر فيما آلت إليه الآداب العربيّة من الإنحطاط في الطور الماضي وما أسفر[1] عنهُ القرن التاسع عشر من النهضة الزاهرة الزاهية أيقن أن السرّ في ذلك الإنقلاب الحميد إنّما هو إنشاء المدارس في انحاء الشرق وترقى فنّ الطباعة ودخول الصحافة عند الناطقين بالضاد. ولا مراء أن تعدّد المطابع واستحداث الصُحُف من أقوى العوامل التي استظهر بها عقلاء الأمة وعلماؤها على سلطان الجهل الذي كان قد مدّ أطنابهُ وضرب سُرادقهُ[2] على هذا الوطن العزيز ولولاها لما استفدنا كثيراً من احتكاكنا بأُمم الغرب وإقبالنا على اقتباس علومهم وفنونهم وصنائعهم ومدنيّتهم من مدارسهم ومن أوطانهم نفسها ولَكُنّا الآن في أوّل شوطنا من مضمار الحضارة أو إن أحببت فقل لكانت بلادنا تستضيء بغَلَسٍ عميق نسير في نورهِ الضئيل بخطواتٍ مضطربة. ولما كانت الصحافة من الطباعة بمنزلة الثمرة من الشجرة أحببنا أن نأتي بفذلكة[3] من تاريخ الفنّين عندنا تتمّة للبحث وزيادة للفائدة. وأمّا المدارس فقد مرّ عليها من الكلام ما فيه كفاية.

---

(١) أسفر الصبح أشرق.

(٢) الأطناب جمع طنب وهو حبل طويل تشد به الخيمة والسرادق الخيمة العظيمة.

(٣) بخلاصة وهو مأخوذ من قول الحاسب إذا فرغ من حسابه وأجمله: فذلك كذا وكذا.

الطِّبَاعَة[1]

١٥١٤ م

يعلم المطالع الأديب أن فنّ الطباعة اكتُشف في أواسط العقد الثالث من القرن الخامس عشر على يد غوتنبرج الألماني الشهير وكان لاختراعه في قلوب معاصريهِ من الدهشة والإعجاب ما كان. وما كاد يشتهر أمر الطباعة بالحروف النقّالة حتى اصطنع منها قوالب للُّغات الشرقية وفي سنة ١٥١٤ ظهر أول كتاب طُبع بالعربية وهو كتاب صلوات عُنيت بنشرهِ مطبعةٌ سعى بإنشائها الحبر الأعظم يوليوس الثاني ثم طُبع الزبور[2] في جنوة سنة ١٥١٦ بأربع لغات منهم العربيّة على يد أحد الأساقفة. وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيّما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى عمّ استعمالها في العواصم وأمهات المدن بأوروبا وأصدرت مطابعها عدداً غير قليل من المؤلّفات الخطيرة كالأسفار المقدسة للعهدين العتيق والجديد وكتب دينية وجدلية ومصنّفات علمية كنزهة المشتاق للإدريسيّ وقانون إبن سينا وتحرير أصول إقليدس للطوسيّ وغير ذلك مما يطول استقراؤهُ[3]. فكانت المطبوعات العربيّة ذات الشأن من واردات أُوربّا.

ودخلت الطباعة الى الشرق عن طريق القسطنطينية سنة ١٤٩٠ بمساعى

اقتطفنا هذه العجالة من مقالة مطولة في تاريخ الطباعة في الشرق لحضرة الأب الفاضل لويس شيخو اليسوعي (المشرق: ٣).

(٢) الزبور بفتح الزاي الكتاب وغلب على مزامير داود.

(٣) تتبعهُ.

عالم يهوديّ طبع لأبناء ملّتِهِ تآليف عديدة دينيّة وعلميّة ولم تظهر فيها المطبوعات بالحرف العربي إلاّ سنة ١٧٢٨ ولم تزل نزرةً جداً الى أوائل القرن التاسع عشر. ولا عجب فإنّ العربية هنالك لغة فئة قليلة من أرباب العلم.

وأمّا البلاد العربية فكان السبق فيها لسورية في اتخاذ المطابع وأوّل مطبعة استُحضرت إليها هي مطبعة دير قزحيا أنشأها الرهبان اللبنانيون في أوائل القرن السابع عشر وطُبعت فيها التآليف العربية بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني واقتصرت في الأغلب على إصدار كتب دينيّة. وظلّت الكتب العربية تُطبع في الشرق بحرف أجنبيّ إمّا عبرانيّ أو سريانيّ الى أن ظهرت في حلب في أوائل القرن الثامن عشر المطبوعات العربية بحرف عربي اصطنعه أحد أساقفة الروم الملكيين وأبرز بِهِ عدة مؤلّفات دينية فكان للشهباء بمساعيه الحميدة شرف التقدم على ما سواها من مدن الشرق في فن الطباعة العربية وكفت اللغة مؤونة العارية فلم تعد عالّةً[1] على أُختيها في أمر المطبوعات. ولا شكّ أن هذه المأثرة من ثمار النهضة العلمية التي دبّت عواملها في نصارى حلب وبدت طوالعها في أوائل القرن الثامن عشر وكان قطب[2] رحاها المثلّث الرحمات السيد جرمانوس فرحات الماروني ومن هنالك انتشرت شيئاً فشيئاً في القطر الشاميّ.

ثم جاءت مطبعة دير مار يوحنا الصابغ في الشوير من لبنان أنشأها رجلٌ حلبيّ شهير بتقاه وعلمِهِ يُعرف بعبد الله زاخر كان قد هاجر الى لبنان وانقطع في العبادة والتصنيف وأنشأ مطبعة أبرز منها تآليف دينيّة عديدة. وتلت المطبعة الشويريّة مطبعة القديس جاورجيوس للروم غير الكاثوليك في بيروت برزت منها بعض كتب دينية ثم عُطّلت نحو مئة سنة ولم تعد الى العمل إلاّ في أواسط القرن المنصرم. وأنشأ الإنكليز مطبعة عربيّة في مالطة سنة ١٨٢٢ تولّى تصحيح مطبوعاتها اللغويّ الشهير فارس الشدياق ونُقلت الى بيروت سنة

---

(١) يقال هو عالة على أهلهُ إذا كان عاجزاً مفتقراً لمن يعولهُ.

(٢) حديدة تدور عليها الرحي.

١٨٣٤ وهي المعروفة بالمطبعة الأميركية واصطنع لها أربابها حروفاً جميلة جليّة طبعوا بها تآليف عديدة في كلّ علمٍ وفنّ وهي مشهورة متداولة.

ولمّا كانت سنة ١٨٤٨ أُنشئت المطبعة الكاثوليكية الشهيرة وما زالت ترقى شيئاً فشيئاً معارج[١] النجاح والفلاح حتى بلغت مقاماً رفيعاً قصّرت عن الوصول إليه مطبعةٌ سواها في الشرق وندر وجود نظيرها في الأصقاع الأوربية نفسها. فضُرب المثل بنضارة[٢] وتنوّع أشكالها ودقة عملها وإحكام صنعتها وإشراق المطبوعات التي تبرز منها وبها بلغت الطباعة العربية أوج الزهاء والأناقة[٣]. ولا حاجة الى الإفاضة في وصف كتبها وتعداد محاسنها وهي منتشرة في أنحاء العالم المتمدّن حاملةً كنوز العالم الدينية والعقلية والأدبيّة ناطقة بفضل أربابها الكرام الذين وقفوا حياتهم ومشروعاتهم الجليلة على خدمة الدين القويم والآداب السليمة. وتعدّدت على إثر ذلك المطابع في بيروت وخدمت جميعها الآداب العربية خدمة تُذكر فتُشكر. ولا تزال بيروت الى الآن مدينة المدارس والمطابع.

ودخلت الطباعة القدس الشريف بهمّة الآباء الفرنسيسيين فأنشأوا سنة ١٨٤٦ مطبعة الأرض المقدسة أضافوها الى ديرهم العامّ لتسهيل خدمة رسالاتهم في فلسطين ومع أن هذه المطبعة خاصّة بمصالح رهبانيتهم فقد طُبع فيها عدة كتب دينية وعلمية كثيرة الفائدة. وحذت سائر المدن الشامية حذو بيروت باستحضار أدوات الطباعة وافتتاح المطابع. وأنشأ حضرات الآباء الدومينيكيين سنة ١٨٥٦ مطبعة في الموصل لها في خدمة الدين والعلم مآثر معدودة وقد أعانت على النهضة في بلاد العراق.

أمّا الديار المصرية فكان دخول الطباعة فيها على يد الحملة الفرنسوية سنة

---

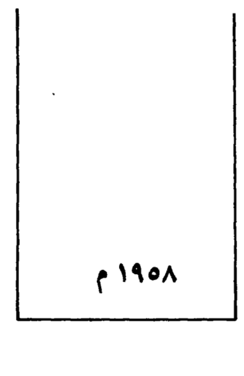
(١) جمع معرج وهو مكان العروج أي الصعود.
(٢) حسن.
(٣) الإتقان.

١٧٩٨ ولما أجلوا[١] عن البلاد أخذوا أدواتهم معهم حتى إذا قبض محمد علي باشا على أزمّة الأحكام ورأى مسيس الحاجة الى تعميم العلم في رعيته استعاد أدوات الطباعة من الفرنسويين وأنشأ مطبعة بولاق الشهيرة سنة ١٨٢٢ وما انفكّ أرباب الأمر من بعدهِ يسعون في ترقيتها وتوسيع نطاقها الى أن بلغت مقامها الحاليّ من النجاح وقد طبعت فيها المؤلّفات الخطيرة كما أشرنا إليه سابقاً وكان لها في إحياء اللغة فضلٌ عظيم. وازدادت المطابع في القطر المصريّ بازدياد جمهور المتأدّبين وكثرت المطبوعات العربية الى حدّ يفوت الإحصاء كما هو معلوم.

ومن هذه اللمحة الخفيفة التي ألقيناها على تاريخ الطباعة يتّضح جلياً لكلّ ذي عينين ما لرجال الدين الكاثوليكيّ من المآثر[٢] الغرّاء والمساعي المشكورة في تمهيد السبل لهذه النهضة الشريفة وتوفير أسبابها وما لهم على البلاد العربية من الأيادي[٣] البيضاء ببذلهم النفس والنفيس في إنشاء المدارس واستحداث المطابع. فأزهرت رياض العلوم وأينعت[٤] ثمارها وراجت سوق الآداب وازدحم طلّابها وتشبّث الشرقيون على إثر يقظتهم بالعلم فصانوا لغتهم من الفناء ووقوا أنفسهم شرّ الإضمحلال في حومة[٥] تنازع البقاء وشرعوا يجارون الأمم الراقية في مضمار العمران وفي قلوبهم من الأوانيّ ما فيها.

---

(١) خرجوا.
(٢) جمع مأثرة وهي المكرمة.
(٣) النعم.
(٤) نضجت.
(٥) موضع القتال.



الصَّحافَة ١٩٥٨ م

لا حاجة فيما نرى أن نفيض في الكلام على جلال هذا الفنّ الحديث ونصف ما لهُ من الخطورة في الهيئة الإجتماعية فأنّ مقام الصحافة أصبح في أيّامنا أعلى من أن يحتاج الى توجيه الأنظار إليهِ وتأثير الصحف في الخاصّة والعامّة واقعٌ لا يشك فيهِ كبير ولا صغير ولا يعزب عن فكر السياسيّ المحنّك والأميّ الغرير[1]. فالأمر والنهي والحرب والسلم والأمن والإضطراب والفقر والغني كلّ ذلك متوقفٌ على الرأي العامّ والرأي العام متوقفٌ على رأي الصحافيين. فهم في حقيقة الأمر حكّام الحكّام وأرباب النقض والإبرام[2] وما إرخاء عنانهم[3] في بعض البلدان والقبض عليهِ في البعض الآخر سوى الدليل البيّن على ما في أيديهم من القوة العظيمة التي يُخشى منها ويُتّقى جانبها.

وكان دخول الصحافة في بلاد الشرق عن طريق مصر على يد الحملة الفرنسيّة المارّ ذكرها فأنشأ القوم جريدتين فرنسيتين سمّوا الواحدة « بريد

---

(١) الجاهل.
(٢) أبرم الأمر أحكمه ونقضهُ ضد أبرمهُ.
(٣) العنان سير اللجام.

مصر» والأخرى «العُشار المصريّة»[1] وكانت توزّع نشرة عربية تحتوي فذلكة حوادث الديوان الذي رتبوه للنظر في قضايا الوطنيين. ذكر ذلك عبد الرحمان الجبرتي في تاريخه عند ترجمته لإسماعيل بن سعد الخشاب قال: «ولما رتب الفرنساوية ديواناً لقضايا المسلمين تعينّ المترجم في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم. لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم. ثم يجمعون المتفرق في ملخّص يُرفع في سجلّهم بعد أن يطبعوا منهُ نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم. فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذُكر كان هو المقيّد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهي أو خطاب أو جواب أو خطإٍ أو صوابٍ وقرّروا لهُ في كلّ شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيّداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو[2] حتى ارتحلوا من الإقليم».

ولمّا آلت إمرة[3] مصر الى محمد عليّ باشا أمر بإنشاء جريدة سمّيت «الوقائع المصريّة» عهد بإدارتها الى رفاعة الطهطاويّ وكانت تصدر أوّلاً باللغتين العربية والتركية ثم جعلت عربية محضة ولا تزال الى أيامنا الجريدة الرسمية للحكومة المصرية تصدر ثلاث مرات في الأسبوع. وظلّت الوقائع المصرية الجريدة العربية الوحيدة في الديار المصرية الى أن صدرت جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٧ ثم ظهرت بالإسكندرية جريدة الأهرام الشهيرة بمساعي سليم وبشارة تقلا السوريين ثم نقلاها الى القاهرة. وكانت في ابتداء الأمر عثمانية النزعة، موالية لفرنسا، ولم تزل على هذه الخطّة حتى استعرت

---

(١) كان بريد مصر صحيفة سياسية والعشارة المصرية صحيفة علمية والمراد بالعشارة مدة عشرة أيام لأن الفرنسيين على أثر الثورة قسموا الشهر الى ثلاثة أقسام جعلوها بمثابة الأسابيع كل قسم عشرة أيّام.

(٢) هو أحد قوّاد الحملة الفرنسية أسلم بمصر وتسمى عبد الله.

(٣) أمارة.

الحرب الكونية، ولمّا حطت أوزارها، وتألّف الوفد المصري كانت ممّن شدّ أزرهُ وعضدت سعد زغلول باشا، ودافعت عن القضية المصرية الدفاع المجيد. وهي تعدّ الآن من أمهات الجرائد الوفدّية.

وتعدّدت الجرائد في القطر المصريّ ولا سيّما بعد الإحتلال الإنكليزيّ وإطلاق حريّة الطباعة فنشأت صحفٌ متلونة الطرق والمذاهب لكلّ الملل والنحل لا سبيل الى إحصائها وكان يرجى منها إحداث حركةٍ أدبيّة جليلة الفوائد لولا تطرّف طائفة منها بانتهاك[1] حرمة الدين والآداب وتطاولها على أرباب الأمر وذوي الأحساب الكريمة فعظم لغطها[2] وعلا صياحها وكان عنها فوضى[3] قلميّة مستهجنة أدّت الى تقصير عنانها والضرب على أيدي الجامحة منها.

وأمّا سورية فظهرت أول جريدة فيها ببيروت في غرّة كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٨ على يد فقيد الصحافة المرحوم خليل الخوري. فأنشأ « حديقة الأخبار » خدم بها الوطن والآداب خمسين سنة لم تنِ لهُ في أثنائها عزيمة ولا عرا ثباته ملل[4] الى أن لبّى داعي ربه فاحتجبت جريدته معه. وأخذت الصحف العربية تتكاثر شيئاً فشيئاً. فأنشئت سنة ١٨٦٠ جريدة تونس الرسمية « الرائدة[5] التونسي » وجريدة « الجوائب[6] » بالأستانة لأحمد فارس الشدياق وجريدة « البرجيس[7] » في باريس لسليمان الحرائريّ وصدرت سنة ١٨٦٥ جريدة دمشق الرسمية « سورية » وتلتها في السنة التابعة جريدة حلب

---

(١) إنتهك حرمتهُ تناولهُ بما لا يليق من الكلام.
(٢) اللغط الأصوات المختلطة.
(٣) حالة قوم لا حاكم فيهم.
(٤) ضجر.
(٥) الرسول.
(٦) جمع جائبة وهي الخبر الطارىء.
(٧) المشتري وهو أعظم السيارة جرماً.

الرسمية « الفرات » ثم ظهرت بمساعي الأميركان ببيروت « النشرة الشهرية » خلفتها سنة ١٨٧٠ « النشرة الأسبوعية » فهبّ الآباء اليسوعيين الأفاضل يعارضون الصحيفة البروتسطانية بصحيفة كاثوليكية. أنشأوها في السنة عينها وسمّوها أولاً « المجمع الواتيكاني » ثم دعوها « البشير » وهي تخدم الى يومنا بهمّة ونشاط مصالح الدين القويم والآداب واللغة وعزّزها أصحابها سنة ١٨٩٨ بمجلة علمية سمّوها « المشرق » وقفوها على خدمة الدين والعلوم والفنون في الأقطار الشرقية.

وظهرت على إثر الجرائد الإخبارية المجلات العلمية وأوّل من سعى في استحداثها اللغويّ الشهير المعلم بطرس البستاني فأصدر في غرّة كانون الثاني سنة ١٨٧٠ مجلّة « الجنان ». وشفعها بجريدة سياسية دعاها « الجنّة ».

وجاءت بعد الجنان بسبع سنوات مجلّة « المقتطف » المشهورة أنشأها الأدباء فارس نمر ويعقوب صرّوف وشاهين أبكاريوس من تلامذة الكليّة الأميركية وأصدروها أوّلاً في بيروت ثم اضطرّوا أن ينقلوها الى مصر وأضافوا إليها جريدة سمّوها « المقطّم » مالأوا[1] فيها المحتلّين. وقد أودعوا

(١) عاونوا.

مجلتهم المشار إليها المقالات المفيدة في العلوم والفنون والآداب نهجوا فيها المنهج الحديث وبثّوا في كتبة العصر روح التحقيق والتدقيق في مباحثهم وهوّنوا عليهم احتمال الإنتقاد لما يبرزون الى عالم الصحافة من ثمرات عقولهم سواءٌ كان في الجرائد والمجلات أم في التآليف الخاصّة ولا تزال هذه المجلة على خطتها الى يومنا تخدم العلوم والآداب العربيّة بهمّة ونشاط وحبذا لو تحاشت التطرّف في مباحثها الدينية والفلسفية ولم تصوّب سهام الطعن والوقيعة الى العقائد المقدّسة بدعوى العلم وحرية البحث.

وكثرت الصحف السياسية والعلمية في سورية وبشّرت بواكيرها بريعٍ[1] خصيب ولكنّ القوانين الشديدة التي تواترت على المطبوعات قصّت أجنحتها وشدّدت عليها الخناق حتى لم يعد لها شأنٌ يُعتدّ بِهِ. فصبر من الصحافيّين من صبر وهاجر من هاجر وحطّ المهاجرون رحالهم في مصر. وما من أديب يجهل أن عدداً وافراً من حملة الأقلام المشهورين بمصر هم من أبناء سورية هاجروا الأوطان الى قطر مضياف آنسوا فيه حريّة حُرموها في ديارهم وما المنشورات الموسومة بالأهرام والمقطم والمقتطف والهلال والمنار بمحتاجة الى تعريف وإطراء وهي جوّابة[2] الآفاق العربية وكلّ بلاد حلّ فيها عربيّ أو مستعرب فضلاً عمّا يصدر من الصحف في الأقطار الأميركيّة.

وللجرائد والمجلات لو اتخذ لها أصحابها الأهبة التامة مزية عظيمة في إيقاظ الشعب وإنهاضه من وهدة الجهل والخمول بما تنشر من الحقائق النيّرة والمباحث المفيدة التي تعمّم العلوم بين أفراد الأمة وتقرّبها الى أفهامهم بالمقالات المستحسنة الجامعة الى فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ومتانة التركيب جلاء العبارة ووضوح الغرض وسهولة المأخذ بحيث تشف الألفاظ عن المعاني

---

(١) غلّة.
(٢) صفة مبالغة من جاب البلاد إذا قطعها.

شفوف الماء الزلال عن الحصباء[١] فيتشرّب لبّ العاميّ على الفور[٢] معنى ما يقرأ ويسمع وتنطبع صورة التعبير عنهُ في ذهنه بدون عناء فتجري على لسانِهِ عند الحاجة حتى إذا استأنس الجمهور باللغة الفصحى دارت على لسانه رويداً رويداً على توالي الأيام.

ولا يخفى أن الصحيفة هي من الشعب بمنزلة الأستاذ العامّ الذي يعي كلامهُ كبير القومُ وصغيرهم غنيّهم وفقيرهم شيخهم وشابّهم. وذلك الأستاذ على عظم شأنه وعلوّ مكانِهِ لين العريكة[٣] خافض الجناح لا يجشّم تلميذهُ تعب المسير إليه بل يقصد هو نفسه داره ويبثهُ أسرارهُ وأخبارهُ. سيّان عندهُ دخول قصر الأمير الخطير وكوخ الصعلوك الحقير فهو المؤدّب الوحيد الذي لا يُملّ إرشاده ولا يتجالّ[٤] عن التلميذ له عظيم القدر مهما رفع عمادهُ[٥] وقد ازدحم في حلقته طلاّب من جميع بني الإنسان على تنوع أجناسهم وأصنافهم وأنسابهم وطبقاتهم ومذاهبهم وليس عليه في هذا الإختلاط حرجٌ ولا تثريب.[٦]

وعلى كلّ حال فمن منشئي الصحف وسائر كتبة العربية الأفاضل يرجى تعزيز هذه اللغة الشريفة وتجديد شبابها وتسهيل صرفها ونحوها وترتيب متنها وتوفير مادّتها العلمية بحسن الوضع والنقل والتعريب واعتماد خطة معتدلة في تحدّي اللغات الأجنبية تقينا إن شاء الله مرّة الفشل والخذلان في معترك الأمم يتقّون تعصباً ذمياً للغة العربية يعدّ إدخال اللفظ المستحدث فيها إنتهاك

---

(١) شفّ الثوب رقّ حتى يرى ما خلفه والحصباء الحصى الصغار.
(٢) بسرعة.
(٣) الخلق.
(٤) يترفع.
(٥) العمود وفلان رفيع العماد أي شريف.
(٦) الحرج الاثم والتثريب اللوم.

لحرمتها وغضًا[1] من كرامتها ويستنكفون[2] من تفرنج سمج[3] يحدو جمهوراً كبيراً من المتحذلقين[4] الى الغلّو في الإقتداء والتشبه بمن توهّموا فيهم الكمال فأدّى بهم حرصهم على النقل عنهم دون رويّة الى عقوق شائن[5] وعبوديّة تعافهُ[6] النفس الأبيّة وخير الأمور أوساطها.

وقد مرّ لنا فيما سبق كلامٌ على حاجاتنا اللغوية العصرية نضرب صفحاً عن إعادته ههنا تفادياً[7] من الترديد المملّ ونُحيل المطالع الكريم إليه - أنار بصائرنا ربُّ العباد وألهمنا السداد[8] وهدانا سبل الرشاد فمنهُ عزّ وجلّ المبدأ وإليه المعاد.

---

(١) غضّ من فلان نقص من قدرِهِ.
(٢) يأنفون ويترفعون.
(٣) قبيح.
(٤) تحذلق إدّعى الحذق.
(٥) العقوق نكران الولد فضل والدِهِ والشائن العائب.
(٦) تكرهها.
(٧) تجنّبا.
(٨) الصواب في القول والفعل.

الشعَرَاء

نقدّم ذكر الشعراء لا لرفعة مقام الشعر في أيامنا هذه وخطر أمر قائليه في الهيئة الإجتماعية واهتمام السلطة بما يقولون كما كان الشأن في أيام الدول العربيّة بل لاتّباع السَنَن[1] الذي جرينا عليه في تبويب هذا الكتاب حتى الآن.

وشعراء هذا الطور الجديد تختلف سمة شعرهم تبعاً لزمانهم فالمتقدّمون منهم لا يكادون ينكبّون عن المنهج[2] القديم ثم يأخذ الشعر بالتطوّر[3] مع الأمة شيئاً فشيئاً فيرقّ ويروق ويأخذ مسحة عصرية هي غاية في الأناقة والتفنن في الإستنباط والتبسّط في وصف الأخلاق العصرية ومُعدّات المدنية الحاضرة ومرافقها.

(١) الطريق.
(٢) نكّب عن المنهج عدل عن الطريق.
(٣) التنقل من حال الى حال.

بُطْرُسْ كَرَامَة (١٨٥١م ١٢٦٨هـ)

هو بطرس بن إبراهيم كرامة الحمصي من طائفة الروم الكاثوليك. وُلِدَ ونشأ وتأدّب بحمص وقال الشعر من حداثته ولهُ في أعيان بلدتِهِ مدائح حسنة نوّهت بذكرِهِ[1] ورفعت من قدرهِ وهو غضّ الاهاب[2] زاهي الشباب وفي تلك المدّة لحق الكاثوليك بحمص اضطهاد أثار عليهم أعاصيرهُ[3] قومٌ من الأعداء فاضطر الشاعر الشاب أن يهاجر وطنه مع والده فقصدا بلاد عكّار ومدح بطرس حاكمها فحظي عندهُ وخدمهُ نحو خمس سنوات ثم قدم جبل لبنان واتّصل بالأمير بشير الشهابيّ الكبير فأُعجب برجاحة عقلِهِ وفصاحة لسانه فقرّبه ورفع منزلته ولقي من أمانتِهِ وحسن تدبيره وحصافة رأيه[4] فوق ما تمنى فاستنابه في المهمات وفوّض إليه كتابة سرهِ لحسن إنشائه ومعرفته باللغة التركية واعتمد عليه في تهذيب ولده الأمير أمين وغمرهُ بصلاتِهِ ونعمه فحصلت لهُ من ذلك دنيا واسعة وجاه عريض وهيبة في قلوب الناس.

وجرت في حدود سنة ١٨٤٠ حوادث سياسية أفضت[5] الى نفي الأمير

---

(١) نَوّهَ بِهِ شهره وأذاعهُ.

(٢) الغض الطري والأهاب الجلد كناية عن نضارة عمرِهِ.

(٣) جمع أعصار وهو الريح الشديدة تثير الغبار.

(٤) جودتِهِ. (٥) أدّت.

بشير الى مالطة فالأستانة فرافقه بطرس في منفاهُ ولزم خدمتهُ حتى قضى نحبه ثم عيّن مترجماً في المابين الهمايوني فقام بأعباء وظيفته أحسن قيام ولم يزل في ذلك المنصب الى وفاته. وخالط في الأستانة جماعة من أولي[1] الفضل والعلم والأدب فكانت لهُ عند الجميع المكانة العالية والحرمة الوافرة لبراعته وظرفِهِ وحسن أسلوبِهِ.

وكان بطرس كرامة شاعراً مطبوعاً حافل القريحة قويّ العارضة[2] كثير التصرف في المعاني مالكاً لأعنّة[3] القوافي تنقاد لهُ شواردها وتسهل عليهِ أوابدها[4] وقد أقرّ لهُ فضلاء عصرِهِ بعلو الكعب[5] ورسوخ القدم في صناعة النظم.

فمن شعره قوله في باقة زهر أهداهُ إياها الأمير بشير:

وباقة زهرٍ من مليكٍ مُنحتها ... معطّرةِ الأرواح مثل ثنائِهِ
فأبيضها يحكي جميع خصالهِ ... وأصفرها يحكي نضار[7] عطائِهِ
وأزرقها عينٌ تشاهد فضلهُ ... وأحمرها يحكي دماء عدائِهِ

ولهُ في الأمير بشير شعرٌ كثير رائق ولهُ أيضاً في مدح أكابر زمانِهِ قصائد رنانة أشهرها قصيدته الخاليّة رفعها الى داود باشا حاكم العراق وركن النهضة الأدبيّة فيه قال:

أمن خدّها الورديّ أفتنك الخال ... فسحّ من الأجفان مدمعك الخالُ[8]
وأومض برقٌ من محيّا جمالها ... لعينيك أم من ثغرها أومض الخالُ[9]

---

(١) جمع ذو الصاحبية.
(٢) القدرة على الكلام.
(٣) جمع غنان وهو سير اللجام.
(٤) القوافي الشاردة.
(٥) الشرف.
(٦) جمع ريح
(٧) الذهب.
(٨) الخال في الشطر الأول شامة الخد وفي الثاني السحابة الماطرة.
(٩) أومض لمع والخال البرق.

رعى الله ذيّاك القوام وإن يكن   تلاعب في أعطافهِ التيهُ والخالُ[1]
ولله هـاتيـك الجفـون فـإنّها   على الفتك يهواها أخو العشق والخالُ[2]
مَهـاة بـأمي أفتـديهـا ووالـدي   وإن لام عمي الطيِّب الأصل والخالُ[3]

وهكذا الى آخر القصيدة وهي ذات خمسة وعشرين بيتاً جعل قافية كلّ منها لفظة « الخال » بمعنى غير المعنى السابق فافتتن بها داود باشا وأُعجب بها كلّ مطلع عليها من قالة الشعر وأرباب الصناعة وخالفهم الشيخ صالح التميمي وردّ عليها بقصيدة قال في مطلعها مخاطباً داود باشا.

عهدناك تعفو عن مسيء تعذّرا   الا فاعفنا عن ردّ شعرٍ تنصّرا[4]

وكفى بمطلعها دليلاً على ضيق صدر قائلها وغرابة مذهبه فلم ترُقْ داود باشا هذه المعارضة وأوعز الى بطرس أن ردّ عليه وأحسن الأدب معهُ. فامتثل الشاعر الأمر ونظم قصيدة من نفس البحر والقافية قال:

لكلِ امرىءٍ شأنٌ تبارك من برا   وخصّ بما قد شاءَ كلًا من الورى[5]
ولو شاء كان الناس أُمّة واحدٍ   ولم تلقَ يوماً بينهم قطّ مُنكَرا
إذا انحطَّ قدرُ الدر من أجل بائعٍ   فذلك جهل باللآلي بلا امترَا[6]
كما عابَ شعري قائلٌ في قريضهِ   ألا فاعفنا عن ردّ شعرٍ تنصّرا
عجبتُ لهُ مع أنّهُ خير فاضلٍ   فكيف تغاضى عن أخي الفضلِ وازدرى[7]
نعم إنّني من أُمـةٍ عيسـويّـةٍ   وأهل كتاب لن يُشانَ وَيُحْقرا[8]

---

(١) ذياك تصغير تحبب لذاك والاعطاف جمع عطف وهو الجانب والخال العجب والكبر.
(٢) الخال ضد العاشق أي الخالي من الحب.
(٣) المهاة البقرة الوحشية تشبه بها المرأة الحسناء والخال أخو الأم.
(٤) ساءَ الرجل أذنب وتعذّر المسيء أظهر عذرهُ.
(٥) برأ الله الخلق أنشأهم والورى الناس..
(٦) امترى في الشيء شك بهِ.
(٧) تغاضى تغافل وإزدرى إحتقر.
(٨) عيسوي نسبة الى عيسى وهو إسم السيد المسيح عند المسلمين وأهل الكتاب هم الذين لهم كتاب منزل كالنصارى واليهود وشانه عابَهُ.

وأقرب من كلّ الأنام مودّةً إليه كما قد جاءهُ الذكر مخبرا
لعمرك ما داعي الفصاحة ملّةٌ ولا نسبٌ حتى ألام وأُهجرا
فقِسٌّ مسيحيّ والسموأل مُوسويْ وغيرهما ممّا تقدم أعصرا

وللسيد عبد الجليل البصريّ قصيدة محكمة الأبيات سديدة المنهج حكم فيها بين الخصمين مطلعها:

حكمت وحكمي الحقّ ناءٍ عن المرا بأن التميميّ الأديب تعثرا[١]
بذمّ قوافٍ في تمام جناسها وذلك نوعٌ في البديع تقررا[٢]

قلنا لا مراء أن ذلك شكل من أشكال البديع اللفظي يدل على طول باع الشاعر وسعة محفوظه واستحكام ملكته غير أنّا إذا اعتبرنا هذه الألفاظ المشتركة ـ كالخال والعين والعجوز ـ رأينا أن معانيها المتبادرة الى الفهم المأنوسة في الإستعمال لا تتعدى الثلاثة في الأكثر وما بقي منها غريب مهمل يحتاج المطالع حتى المتضلّع من اللغة أن يفزع[٣] الى معجمهِ ليقف على المراد بهِ وهو عيبٌ نبّه إليهِ علماءُ الفصاحة وقضوا بالعدول عنهُ. ويا حبذا لو أمكن الإبدال لاستبدلنا إذا بأخوالنا وعيوننا وعجائزنا وزدنا عليها مئات من مترادفاتنا ـ لاستبدلنا بكل ذلك بضع عشرة لفظة لبضعة عشر معنى من عدّة معانٍ نحن في أمسّ الحاجة إليها.

---

(١) ناءٍ بعيد والمراء مصدر مارى الرجل خصمهُ إذا افرط في جدالِهِ تعنتاً لهُ وتعثر في الشيء عثر أي اصطدم بِهِ فسقط.
(٢) أراد بالقوافي الأبيات من تسمية الكل بالبعض.
(٣) تضلّع الرجل من الشيء أكل منهُ حتى امتلأت أضلاعُهُ وفزع لجأ إليهِ.

آل اليازجيّ

خدم آل اليازجيّ الكرام آداب اللغة العربيّة خدمة جليلة قلّما قامت بمثلها عشيرة أخرى وقد نهجوا[1] جميعاً منهاج كبيرهم وعماد أسرتهم في القرن الماضي الشيخ ناصيف اليازجي نابغة شعراء زمانه وحجة بلغاء عصرهِ وركن النهضة العلمية في البلاد السورية ومعزّز جانب الآداب في سائر الأقطار العربية. وأصل هذه الأسرة الكريمة من حمص جلت عنها جماعة منهم في العقد الأخير من القرن السابع عشر لحيفٍ[2] لحق بهم فاستوطن بعضهم جبل لبنان ونزل غيرهم وادي التيم وتفرّق الآخرون في البلاد. والذين نخصهم بالذكر ههنا هم من الفرع اللبناني كان أحدهم كاتباً لبعض عمّال الدولة في أواسط القرن الثامن عشر فعُرف باليازجي ولزم لقبه أبناءه من بعدهِ.

---

(١) نهج منهاجه سار على طريقه.

(٢) ظلم.

ناصيف اليازجيّ (١٨٧١م ١٢٨٨هـ)

هو ناصيف بن عبد الله اليازجي من طائفة الروم الكاثوليك. وُلد بكفر شيما من قرى جبل لبنان ونشأ ذكياً حادّ الذهن متلهب الفؤاد يتلقّف[١] ما يُلقى عليه من مبادىء العلوم تلقُّفا ويتمثلها عقله بسرعةٍ عجيبة ودقّة تامّة.

وكان والده أديباً شاعراً وطبيباً حاذقاً على المذهب القديم فعُني بتهذيب إبنهُ والتمس من أحد القسوس أن يعلمهُ مبادىء القراءة والكتابة ثم لقّنه الطب فوعى أصوله ووضع فيه أرجوزة سماها «الحجر الكريم في أصول الطب القديم».

ثم أقبل على تحصيل العلوم بنفسه فأكبّ على مطالعة المؤلّفات التي تصل إليها يده فمنها ما كان يستظهره استظهاراً[٢] ومنها ما يكتفي بخلاصته ومنها ما ينسخه بخط يده وهو كثير لقلة المطبوعات في ذلك العهد بحيث أصبح وهو في شرخ الشباب[٣] ومقتبل العمر آية في سعة المحفوظ وكمال الآلة في الكتابة وعلوم اللغة والأدب والشعر.

---

(١) يتناولهُ بسرعة. (٢) يحفظهُ.

(٣) أوله.



وكان الأمير بشير حينئذٍ في ذروة مجدِهِ[1] يقصدهُ الأدباء والشعراء من كلّ فجّ وصَوْب فينزلون عنده على الرحب والسعة وينالهم من إفضالِهِ وإنعامِهِ حظّ وافرٌ فأَمَّ[2] الشيخ ناصيف فناءَهُ ولقي عندهُ حظوة فقرّبه واعتمد عليه وجعلهُ كاتب سرهِ ولم يزل في خدمته الى سنة ١٨٤٠ إذ نُفي الأمير وتفرّق شمل أتباعه فنزل ناصيف بعيالِهِ الى بيروت وانقطع الى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء فترامت شهرته في البلاد ولهج[3] بذكره كل ناطق بالضاد وكان منزله قبلة[4] الشعراء ومحط رحال البلغاء على اختلاف مِلَلهم ونِحَلهم وكلّ يجد منه فوق ما انتظر ويصدّق عندهُ الخبرُ الخَبَرَ[5].

والشيخ ناصيف اليازجيّ فريد دهره ووحيدُ عصرهِ في قرض الشعر نظمه وهو لا يتجاوز العشر سنوات ولم تزل ملكته في نموّ ونضج واتساع الى أن بلغ أَشُدَّهُ[6] فكان شاعراً فحلاً مطبوع اللهجة سريع البديهة بديع الإبتكار[7] نبيه

---

(١) ذروة الجبل أعلاهُ.

(٢) قصده.

(٣) ردّد اسمه.

(٤) المكان الذى يستقبلهُ الرجل.

(٥) الخبر هو الإختبار والتجربة.

(٦) إستكمل قواهُ.

(٧) البديهة خلاف التبصر والإستعداد للكلام وابتكر المعنى سبق إليه.

المعنى جزيل العبارة ناصع[1] اللفظ شديد الأسر دقيق الديباجة حكميّ المذهب لم يدع فنّا من فنون الشعر إلاّ تعاطاه وبرّز فيهِ ولا ضرباً من ضروب النظم إلاّ طرق بابهُ وجاء فيه بالعجيب المعجز. وكان ينحو في شعره نحو كبار شعراء القرون الغابرة فيجري في مضمارهم ولا تني[2] خطاهُ عن تقفّي آثارهم وكان شديد الإعجابِ بالمتنبي حتى حفظ ديوانه بتمامه فيما حفظ من الشعر القديم وكثيراً ما تحدّى[3] مذهبه وأخذ نفسه بالطبع على غرارهِ[4] ولهُ عدة قصائد دبّت فيها روح متنبيء زمانه وشهدت لقائلها أنه من فرسان ميدانه.

وشعر ناصيف اليازجي جارٍ على الألسنة متداول عند الأدباء لحسن أسلوبه وكثرة ما جمع من الحكم السديدة والأمثال السائرة. ولهُ في عظماء عصرهِ مدائح ومراثٍ غرّاء كلها مشهورة ولهِ في التاريخ الشعري براعة عجيبة وقلّما جرى حادث خطير في زمانه إلاّ نظم تاريخهُ في أبيات هي النهاية في الرقة والسلاسة فمن شعرهِ قوله يمدح أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية:

بناءُ العُلى بين القنا والبوارق ... على صَهَوات الخيل تحت البيارقِ[5]
ولله سرّ في العباد وإنّما ... قليلٌ محلّ السرّ بين الخلائقِ[6]
يقلّب هذا الدهر أحوالنا كما ... تقلّب فينا لاحقاً إثر سابقِ
ولولا اختبار الدولة ابنَ سريرها ... لما اعتمدتْهُ في المعاني الدقائقِ[7]
كريمٌ تَوَلّى الأمرَ يُصلح أمره ... كفتقٍ تولته أنامل راتقِ
أقام السرايا يُنفر الموج خيلها ... بكل لواءٍ فوق لبنانَ خافقِ[8]

---

(١) نقي خالص.
(٢) ونى يني ضعف.
(٣) تعمد.
(٤) مثالِهِ.
(٥) القنا جمع قناة وهي الرمح والبوارق جمع بارق وهو السيف وصهوة الفرس مقعد الفارس منهُ.
(٦) يقول أن الذين يختارهم الله ويجعلهم سره ليتمه بهم هم قليلون.
(٧) سرير الملك عرشه وأراد بإبن سرير الدولة حامي حماها والمعني الدقيق الخفي يحتاج فيه الى زيادة تبصّر.
(٨) السرايا جمع سرية وهي الجيش وأنفر أعان واللواء الراية يقول أن الجيوش البحرية مستعدة لإمداد جيوشه في البر إذا استنفرها أي استحثّها على القتال.

يُحدّث أهلُ الغرب في كل ليلةٍ بما فعلت غاراته في المشارقِ
فَيَعجب من أفعالِهِ كلّ عاقلٍ ويُثني على أفضالِهِ كلّ ناطقِ
تَضيق بحارُ الشعرِ عنهُ وتستحي ببحرٍ لها في بحر كفّيهِ غارقِ

ومن قصائده الحكمية قوله:

لَعمرك ليس فوق الأرض باقِ ولا ممّا قضاهُ الله واقِ
وما للمرء حظّ غير قوتٍ وثوبٍ فوقهُ عقد النطاقِ[1]
وما للميت إلاّ قيدُ باعٍ ولو كانت لهُ أرض العِراقِ[2]
أضلّ الناس في الدنيا سبيلاً محبٌ بات منها في وثاقِ[3]
وأفضلُ ما اشتغلت بِهِ كتابٌ جليلٌ نفعُهُ حُلوُ المَذاقِ
مضى ذكرُ الملوك بكل عصرٍ وذكرُ السوقَة العلماء باقِ[4]
إذا هلكت رجال الحيّ أضحى صبيّ القوم يحلف بالطلاقِ

ومن تواريخه قولُهُ مؤرّخاً وفاة يوسف العُسيلي وقد تُوفي قتيلاً سنة ١٨٤٧ مسيحيّة:

هذا العُسيليّ الذي نزل الثرى كالغصن من حمر المنايا يُقصفُ
ومسطّر التاريخ أنشد حولهُ هذا قميصك شاهدٌ يا يوسف

ومن عبْقريّاته[5] في التاريخ الشعري قصيدته التي يمدح بها إبراهيم باشا وقد ضمّن كلّ شطر تاريخاً لسنة ١٢٤٨هـ ومطلعها:

الزهر تبسم نوراً عن أقاحيها[6] إذا بكى من سحاب الفجر باكيها

---

(١) النطاق ما يشد به الوسط.
(٢) العراق بلاد ما بين دجلة والفرات.
(٣) الوثاق الرباط.
(٤) السوقة من الناس خلاف الملوك.
(٥) العبقري كلّ ما بلغ غاية من الكمال تقصر عنها قوى الناس عادة.
(٦) جمع أقحوان وقحوان وهو زهر أبيض في وسطه كتلة صفراء تشبه بِهِ الأسنان.

وقد جاء بها مع إلتزامه التاريخ في كل شطر منها غاية في الرقة والإنسجام وهي طويلة ذات تسعين بيتاً إذا جُمعت أوائلها حرفاً حرفاً كان منها بيتان يتضمن كل شطر منها تاريخين للسنة عينها وهما:

أنت الخليلُ وفي. الأطلالِ بردُ لظًى
أطلال عكا ورفضُ. الرعب والحذرِ
كن بالغاً سعدٍ. ما بهِ ضررٌ
أو غالباً لم يزل في. أوّلِ الظفرِ

ولناصيف اليازجي مؤلّفات عديدة في علوم الأدب موضوعة على طريقة مدرسية تسهّل على الطالب اقتباس الآداب العربية وهي متداولة[1] في حلقات المدارس منها «مجمع البحرين» وهو كتاب مقامات عِدّتُها ستون مقامة نسج فيها على منوال الحريري ضمّنها شيئاً كثيراً من غريب اللغة والنكات الأدبية وأشكال البديع المعنوي واللفظي وأخبار العرب وأنسابهم وأيّامهم وعاداتهم وأمثالهم ممّا دلّ على غزارة مادّته ورسوخ قدمِهِ في فنون اللغة. ومنها «الجمانة[2]» وهي أرجوزة في الصرف و «جوف الفرا[3]» وهو أرجوزة أخرى في النحو ولهُ عليها شرح مطوّل ولهُ «فصل الخطاب» وهو مختصر محكم في الصرف والنحوو «عقد الجمان» في علم البيانو «نقطة الدائرة» في العروض والقوافي و «قطب الصناعة» في المنطق وغير ذلك مما يطول تعداده. وشعره مفرّق في ثلاثة دواوين «نفحة الريحان» و «فاكهة الندماء[4] في مراسلة الأدباء» و «ثالث القمرين» وشرع في وضع شرح لديوان المتنبىء حالت منيته دون إتمامه فأتمّهُ إبنه الشيخ إبراهيم ومن آثاره مساعدة جماعة الأميركان في تعريب الأسفار المقدسة.

---

(١) تداول القوم الشيء أخذهُ هذا مرة وهذا مرة.
(٢) واحدة الجمان وهو اللؤلؤ.
(٣) حمار الوحش وهو إشارة الى المثل: كل الصيد في جوف الفرا.
(٤) جمع نديم وهو الذي يجلس معك على الشراب.

ومُني[1] الشيخ ناصيف في آخر عمرهِ بفالج نصفي عطّل شطرهُ الأيسر ثم فوجيء بوفاة بكرِهِ الشيخ حبيب فانقضّ[2] هذا المصاب عليه إنقضاض الصاعقة فقوّض[3] أركانه ولم يعش بعده إلاّ يسيراً وتوفي بغتة على اثر سكتة دماغية عرته فقضى فيها نحبه وكان قد أخذ في نظم مرثية لفلذة كبدهِ فعمل منها أبياتاً ثم خانته قريحته فلم يتمها وهي هذه:

ذهب الحبيب فيا حشاشة[4] ذوبي	أسفاً عليهِ ويا دموعُ أجيبي
ربّيتهُ للبين حتى جاءهُ	في جنح ليلٍ خاطفاً كالذيب[5]
يا أيّها الأمّ الحزينة أجملي	صبراً فإنّ الصبرَ خيرُ طبيبِ
لا تخلعي ثوبَ الحداد ولازمي	ندباً عليه يليقُ بالمندوبِ
إنّي وقفتُ على جوانب قبرِهِ	أسقي ثراه بمدمعي المصبوبِ
ولقد كتبتُ له على صفحاتِهِ	يا لوعتي من ذلك المكتوبِ
لك يا ضريحُ[6] كرامةٌ ومحبّةٌ	عندي لأنّك قد حويت حبيبي

(1) بلي.　　(2) سقط.
(3) هدم.
(4) بقية الروح في المريض.
(5) البين البعاد والجنح القطعة من الليل.
(6) قبر

خليل اليازجيّ (١٨٨٩م ١٠٣٧هـ)



هو أصغر أبناء الشيخ ناصيف اليازجي وُلد ببيروت ودرج من حجر[1] الفضل والأدب والعلم فنشأ ذكياً مولعاً باقتباس العلوم والآداب حريصاً على اقتفاء آثار أخويه ومجاراتهما في تقيّل أبيهم[2] والتشبّه بأخلاقهِ الكريمة وهو إذ ذاك زعيم عصابة الأدباء وإمام جهابذة اللغويين والشعراء فأخذ بقسم صالح من الأدب ونظم الشعر وهو صغير ثم دخل الكلية الأميركانية، فتلقّى فيها العلوم ومهر في الطبيعيات والرياضيات ونظمها شعراً وفي سنة ١٨٨١ قدم مصر وتقرّب من عظمائها فحظي عندهم وشرع في إصدار مجلة سمّاها « مرآة الشرق » ظهرت منها بضعة أعداد ثم هبّت أعاصير[3] الثورة العرابية فاضطرّ

(١) حضن. (٢) التمثيل بهِ.

(٣) جمع إعصار وهو ريح عاصف ترتفع بالتراب أو بمياه البحار وتستدير كأنّها عمود ثم تجري فتدمر كل ما اعترض سبيلها.

أن يرجع الى وطنه وأقام في بيروت يدرّس اللغة العربية في المدرسة البطريركية والكلية الأميركانية الى أن أصيب بصدره فانقطع عن التدريس وأخذ يطلب علاجاً لدائه فقصد الديار المصرية ثانية للاستشفاء فلم يجده تبديل الهواء نفعاً فعاد الى لبنان وهنالك وافته المنية في ريعان الشباب وربيع الحياة.

وكان الشيخ خليل شاعراً حافل القريحة حسن التفنُّن والإستنباط ومن شعرهِ قولهُ يرثي المعلم بطرس البستاني:

أجرى اليراعُ عليك دمعَ مذادِهِ ... فكسا بِهِ القرطاس ثوبَ حدادِهِ[1]
وبِهِ نخطُّ لك الرثاءَ من الأسى ... فهو المقيمُ على عهودِ ودادِهِ[2]
فلكم بِمَيْدان الطروس هززتهُ ... حتى جعلت الرمح من حسّادِهِ[3]
إن كان يبكيك اليراعُ بدمعِهِ ... فلقد بكاك حزيننا بفؤادِهِ
يا صاحب الفضل الذي لو أننا ... نبكي بِهِ لم نخشَ وشْلَ نفادِهِ[4]
يا قطرَ دائرة المعارف والحجى ... ومحيطَ فضلٍ فاضَ في إمدادِهِ[5]
فإذا المُحيط بكاك لم يكُ دمعُهُ ... دون المحيط يزيدُ في إزبادِهِ[6]
يبكي الحسابُ عليك متخذاً لهُ ... دمعاً يسيلُ عليك من أعدادِهِ
خدم البلاد وليس أشرفُ عندهُ ... من أن يُسمّى خادماً لبلادِهِ
ومحبة الأوطان كان يعُدُّها ... مما يدور عليهِ أمرُ معادِهِ[7]

وكتب على إحدى صورهِ:

لمّا تملكتم على قلبي ولم ... أطمعْ له من عندكم بمعادِ

---

(١) اليراع القلم والمداد الحبر والقرطاس الورق.
(٢) الأسى الحزن.
(٣) الطروس جمع طرس بالكسر وهو الصحيفة.
(٤) الوشل السيلان والنفاد الانقطاع.
(٥) الحجى العقل وفي البيت تورية ظاهرة لقطر المحيط ودائرة المعارف.
(٦) المحيط الأول مؤلف المعلم بطرس البستاني والمحيط الثاني البحر المحيط.
(٧) المعاد الآخرة.

أهـديتكم رسمي لكيـما تجمعـوا ما بين جسمي عندكم وفؤادي .

ومن آثار الشيخ خليل ما عدا ديوانَهُ المعروف « بنسمات الأوراق » رواية شعرية تمثيليّة سمّاها « المروءة والوفاء » جعل محورها ما يروى عن حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر وهو الحادث التاريخي المشهور الذي جرى على عهد الجاهلية وآل الى تنصّر النعمان لما رأى من وفاء حنظلة وكمال مروءته. ومنها « الصحيح بين العاميّ والفصيح » وهو شبه معجم جمع فيه ما يرادف الألفاظ العامية من مفردات اللغة الفصحى وهو مبحث جليل جدير بأن يهتمّ لهُ أدباء العربية ومن يعنيهم أمر إصلاحها ولحاقها بلغات العصر الراقية لما يترتب عليه من الفائدة العظمى بسدّ ثلمة لا تزيدها الأيّام إلاّ اتساعاً.

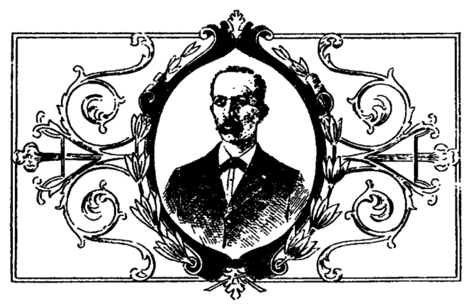
إبراهيم اليازجيّ (١٩٠٦م ١٣٢٤هـ)

هو واسطة عقد بني اليازجي الكرام ووريث أبيهِ في زعامة العلماء الأعلام وُلد ببيروت ورضع أفاويق العلم مع اللبن وما تفتقت أنوار عقله حتى وجّه والده إليه مزيد العناية وتعهّده بالتهذيب والتثقيف فأقرأه علوم العربية وخرّجه في فنونها ولقّنه آدابها بحيث تضلّع منها وأتقن أصولها وفروعها وهو في زهاء الشباب وغضارة العمر ثم عكف على المطالعة ووقف أوقاته على التبحّر في اللغة واستبطان دخائلها واستجلاء غوامضها والوقوف على أسرارها ودقائقها ولمّا كان متوقد الفؤاد صافي الذهن نيّر البصيرة بلغ في مدة غير طويلة من الإحاطة بعلوم اللغة مبلغاً بعيداً حتى أصبح نسيج وحده[١] في فنون الآداب من بعد أبيه إمام البلاغة غير منازع وحجة اللغة غير مدافع.

وقال إبراهيم اليازجي الشعر وهو صبيّ وزادت ملكته استحكاماً مع الأيّام واشتهر بجودة النظم وتناقلت حلقات الأدباء شعرهُ وأعجبوا به أيما إعجاب فتهافت[٢] إليه رجال العلم والأدب يناشدونه ويشاورونه وكان منزلهُ مجتمع الشعراء والمنشئين وملتقى حملة الأقلام على اختلاف النزعات والمذاهب وهم يتساجلون[٣] ويتفاوضون ويحتكمون إليه فيما ينظمون ويؤلّفون لما آنسوا[٤] من سعة علمه وبعد مرمى نظره.

---

(١) لا نظير لهُ.
(٢) تتابعوا.
(٣) يتناشدون الشعر هذا بيتاً وهذا بيتاً
(٤) علموا وأبصروا.



إلاّ أن هذه المباحث مع ما فيها من الفائدة واللذة لم تكن لتفي بما تتوق[1] إليه نفسه من الشهرة وإذ رأى الشعر والإهتمام بالشعر يستغرق معظم أوقاته عدل عنه وانقطع الى الإنشاء وتفرّغ للغة وآدابها وكانت نفسه تتوق الى رفع منار اللغة العربية وإعلاء شأنها وإلحاقها بأرقى اللغات الأوربية في جميع العلوم العصرية وهي الأمنية التي لم يزل يسعى وراءها ويقصدها والضّالة التي قضى العمر يُنشدها[2] ومن ذلك الحين الى يوم وفاته وقف مواهبه ومعارفه على هذه الغاية ولم يبتغ الشهرة إلاّ من هذا السبيل.

ورأى الشيخ إبراهيم أن مزاولة الإنشاء خير وسيلة في هذه الايّام لنشر العلم وتعميم اللغة الفصحى بين الناطقين بالضاد فخاض عباب[3] هذا الفن فبرّز فيه وجرى في حلبة[4] الصحافة فحاز قصب السبق إلاّ أنّه آثر المجلاّت العلمية على الجرائد السياسية فصرف إليها عنايته وأول مجلة ظهرت فيها آثار قلمه هي « الطبيب » أصدرها سنة واحدة بمؤازرة[5] الطبيبين بشارة زلزل وخليل سعادة وكان ينشيء فيها المقالات الأدبيّة واللغويّة.

---

(١) تشتاق. (٢) تعاطيه.

(٣) معظم الماء.

(٤) الدفعة من الخيل في الرهان خاصة.

(٥) مساعدة.

ثم طرأ على حريّة الصحافة بسوريا ما طرأ على ما أشرنا إليه في صدر هذا الباب وتحّول الكتّاب والأدباء الى مصر فهاجر الشيخ فيمن هاجر من حملة العلم وعزم على استيطان مصر إلاّ أنه قصد أوّلاً البلاد الأوربية وتجوّل في مدائنها ثم قفل راجعاً وألقى عصا التسيار في القاهرة وباشر إنشاء مجلة «البيان» بمعية صديقه وزميلِه[١] الدكتور بشارة زلزل أصدارها ثم افترقا سنة فاستعاض عنها الشيخ إبراهيم بمجلة «الضياء» الشهيرة واستقل[٢] بإنشائها وتوفر لتحبير مقالاتها الرائقة وتدبيج[٣] فصولها الشائقة ولم يزل يصدرها مرتين في الشهر إلى وفاته فانطفأ بانطفائها نبراس[٤] الأدب ورزىء بها وبصاحبها كل ناطق بلسان العرب.

وللشيخ إبراهيم اليازجي في العربية آثارٌ جليلة أجلّها تصحيحهُ للأسفار المقدسة التي عرّبها حضرات الآباء اليسوعيين الأفاضل وقد بذل في القيام بهذه المهمة الشريفة ما فوق الطاقة[٥] من الهمّة والعناية وظلّ نحو تسع سنوات وهو لا يألو جهداً في ضبط العبارة وتهذيبها وتنقيحها حتى برزت من بين يديه آيةً غرّاء تميس من فصاحة قلمه وبلاغته ببرد قشيب[٦]. ومن آثاره شرح ديوان المتنبيء الذي كان أبوه قد شرع فيه. ومنها كتاب «نجعة الرائد[٧]» في المترادفات يقع في ثلاثة أجزاء لم يظهر منها إلاّ إثنان وهذا التأليف عنوان فضله وحسن ذوقه ودليل على بعد غوره وسعة اطّلاعه. وقد خدم والده باختصار بعض مؤلّفاته وشرحها فقرّب على الطلاب متناولها والإنتفاع بها. وكان قد شرع في وضع معجم اقتصر فيه على الصحيح الفصيح من كلام العرب الأقدمين والمولدين فحالت منيته دون إتمامِهِ.

---

(١) رفيقة.

(٢) إنفرد.

(٣) نقش وتزيين.

(٤) مصباح.

(٥) القدرة.

(٦) ماس تمايل كبراً والبرد القشيب الثوب الجديد.

(٧) النجعة إسم من الإنتجاع وهو طلبِ الكلاء في مواضعه والرائد هو الرجل يرسلهُ القوم في طلب المرعى.

وكان الشيخ إبراهيم غيوراً على اللغة حريصاً على سلامتها من كل شائبة[1] شديد الإنكار لما تشطّ[2] بِهِ أقلام الكتّاب ولهُ في الضياء مقالات إنتقادية حمل فيها حملات عنيفة على أرباب القلم من قدماء ومحدثين ولم يسلم من تخطئته شعراء الجاهلية وأصحاب المعلّقات أنفسهم وهو غريب. وكثيراً ما قامت بينه وبين أدباء عصرِهِ المجادلات والمشاحنات[3] لما نالهم من لواذع كلامِهِ وقوارص نقدِهِ ومع ما استباح لنفسِهِ من تناول رصفائهِ بالتنديد والتفنيد[4] لم يكن يحتمل ردودهم برحابة الصدر لما طُبع عليه من الاباء والأنفة والترفّع الى حد الإفراط وهي خلالٌ[5] أدّت بِهِ أحياناً الى مقالات كان في غنى عنها وحبذا لو نزّه قلمهُ عن تسطيرها.

ولهُ فضلٌ على المطابع العربية باصطناع قوالب للأحرف على شكل أنيق بهج وكان ماهراً في الأعمال اليدوية من رسم وحفر كثير التأنّق في الخط كأن كتابته سلاسل الذهب وقلائد الدر إلّا أنهُ أفرط في هذا أيضاً فكان بطيئاً في نسخ مؤلّفاته بحيث لم يؤدّ للغة الخدم العديدة التي كان يترقبها القوم من مثله.

ومن حميد آثاره وضع مرادفات عربية لعدة ألفاظ إفرنجيّة في العلم والصناعة خلت منها لغتنا ولهُ في ذلك من طول الباع ولطف الذوق ما يندر اتفاقه لغيره من كتّاب العصر ـ ومن أمثلة شعره قوله يصف الزهرة:

وقف بي نحيَّ رباها أيها الحادي فتلك أبياتها في عدوة الوادي[6]
قد خيّمت باللوى الغربي ضاربةً عليه أطنابها من غير أوتادِ[7]

---

(١) عيب.

(٢) شط الرجل تجاوز الحد.

(٣) المباغضات.

(٤) ندد بفلان عدد عيوبه وفنّد رايه خطأه وكذّبهُ.

(٥) خصال.

(٦) الحادي السائق الأبل وعدوة الوادي شاطئه وجانبهُ.

(٧) اللوى منعطف الوادي والإطناب جمع طنب وهو جبل طويل يشدّ به الخيمة.

مقيمةٌ لم تُقم إلّا على سفرٍ ما ينقضي بين تأويب وإسآدِ[١]
تمشي الهُوَيْنا كما مرّ النسيم ضحىً في هودجٍ من شعاعِ النورِ وقّادِ
يسارق الطرف عين الشمس منظرها فالشمس من دونها حلت بمرصادِ
حتى إذا هجعت في ليلها ظفرت منها العيون بلمح الميسم البادي[٢]
فنبئينا رعاك الله جارتَنا بل أنتِ سوغٌ لنا من عهد ميلادِ[٣]
قد انقطعنا فما أن بيننا صلة ولا سبيلٌ لملاحٍ ولا حادِ[٤]
ولم يكن بيننا سدٌّ وقد ضربت أيدي الفضا دون لقيانا بأسدادِ
ما أن ينالكم للبرق منطلقٌ ولا يقرِّب منكم سير منطادِ
وإنّما رُسلنا الأنوار حاكيةً نار الصليب تبدّت فوق أنجادِ[٥]
تهدي لنا عنكم رمزاً تعود لكم بمثلِهِ بين إصدارٍ وإيرادِ[٦]
يا ليت شعري هل تدرينَ موضعنا وهل لديك رجالٌ *أهل ارصادِ*
وهل رأوا ركبنا *النوريّ* منطلقاً *في ليلهم* بين *تصويبٍ وإصعادِ*[٧]
وهل أقاموا لنا مثل الذي رفعت آباؤُنا لكِ من تكريمٍ عبادِ
فذي هياكلكِ الشمآءُ قد شخصت هاماتها في الذرى أمثال أطوادِ[٨]
رأوك للحسن معبوداً وما وهموا فالحسن معبود عشاقٍ وزهادِ
لعلّ للأرض هذا الحظ عندكمُ وإنّها لو علمتم دار إفسادِ

---

(١) التأويب السير في النهار والإسآد السير في الليل.
(٢) هجعت رقدت (أي الشمس) والضمير في منها عائد الى الزهرة وإمرأة ذات ميسم أي ذات جمال والبادي الظاهر.
(٣) يقال هو أخوهُ سوغهُ وهي أختهُ سوغه أي لم يولد بينهما.
(٤) الملاح النوتي.
(٥) تبدي تظهر والأنجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض وأراد بنار الصليب النيران التي يوقدها النصارى في أعالي الجبال ليلة عيد الصليب.
(٦) الرمز الإشارة والإصدار الإرجاع وإيراد ضد الإصدار.
(٧) أراد بالركب المركوب والتصويب الخفض والإصعاد الإرتفاع.
(٨) الشماء المرتفعة وشخصت ارتفعت وهاماتها رؤوسها والذرى جمع ذروة وهي أعلى الشيء والأطواد جمع طود وهو الجبل.

وعلّك اليوم خلوٌ من مفاسدها وإن نكن قد خلقنا خلق أندادِ[1]
أنت الفتيـة لا تدرين مفسـدةً أين المفاسد من أخـلاق أولادِ

*

* *

ضل الجميع وتاهوا في غوايتهم فما اهتدى حاضرٌ منهم ولا بادِ[2]
وأصبح الزور مرفوع اللواء بهم وقائل الحق مـوصوفـاً بإلحـادِ[3]
قام الخصامُ بما لا يعلمون لهُ كنهـاً ولم تـرهُ أبصـار أشهـادِ
شغبٌ تفاقم في الأجيال واضطرمت بهِ العداوات دهراً بين أكبادِ[4]

*

* *

أما كفاكم بني الإنسان شقوتكم وإنّكم للمنـايـا جـدّ ورّادِ[5]
وما تعانون من جهد الحياة وقد أمست كوقرٍ ثقيل بين أكتادِ[6]
ومن تقلّب أطوار الزمـان بكُمْ كـأنّمـا هــو حـربـاءٌ بـأعـوادِ
ومن مـراغمـة الأقــدار طـاردةً لكم كتيـار يَمّ حول طـرّادِ[7]

---

(١) الأنداد جمع ندّ وهو المثل والنظير.
(٢) الغواية الضلال والحاضر المقيم في المدن والبادي المقيم في البادية.
(٣) الالحاد الكفر.
(٤) الشغب الخصام وتفاقم تعاظم.
(٥) المنايا جمع منية وهي الموت وورد الماء أقبل عليه وبلغهُ فهو وارد وهم ورّاد ورجلٌ جدّ عالم أي متناهٍ في العلم كرجل عالم جداً.
(٦) الوقر الحمل والأكتاد جمع كتد وهو ما بين الكاهل الى الظهر.
(٧) المراغمة المهاجرة والمعاداة والتيار الموج واليم البحر والطراد السفينة الصغيرة.

ومن مـزاولـة الأرزاق بغيتهـا تزاحمون بـأقـدام وأعضـاد[1]
ومن مكـابدة الأدواء سـاطيـة ومن نوازل لا تحصى بتعدادِ[2]
فما لكم تسعدون الدهر بعضكم لكيد بعض بهِ يا شرّ اسعادِ[3]

*

* *

وإنّما أرضنـا دار السـلام لمن يبغي السلامِ ودار الحرب للغادي
وكلنا فوقهـا رهن الزوال فـلا أضلٌ بعد الكُفى من سعي مزدادِ[4]

---

(١) المزاولة المعالجة وبغيتها مفعول لأجله والأعضاد جمع عضد وهو ما بين المرفق والكتف.
(٢) كابد المشقة قاساها وتحملها والأدواء جمع داء وهو المرض والعلة وسطا عليه عدا عليه والنوازل المصائب.
(٣) أسعدهُ أسعفهُ والكيد الخداع والمكر بالغير.
(٤) الكفى جمع كفية وهي القوت.

عبد الغَفّار الأخْرس (١٨٧٣م ١٢٩٠هـ)

هو السيد عبد الغفار بن عبد الواحد الملقب بالأخرس لحُبسةٍ[١] في لسانِهِ. وُلد بالموصل ونشأ وتخرّج في بغداد وبرع في العلوم الفعلية واللسانيّة ونظم الشعر وهو فتى فأجاد كل الإجادة ولنظمه رقة وطلاوة ونباهة حببت شعرهُ الى الأدباء فتناقلته الألسن وتناشدته حلقات الأنس. وكان يتجول في مدن العراق ويتقرّب الى الفضلاء والأعيان فيمدحهم ويستعين على دهرِهِ بما ينال من صلاتهم وأكثر إقامته في بغداد والبصرة. ومن شعرِهِ قوله من قصيدة رفعها الى داود باشا والي العراق يلتمس منه أن يأمر بمعالجة عقلة لسانه:

هـذا لسـاني يعـوقـه ثـقـل وذاك عندي من أعظم النُوب[٢]
فـلو تـسبّبت في مـعـالجـتي لنلت أجـراً بـذلـك السبب
وليس لي حـرفـةٌ سـوى أدبٍ جمٍّ ونـظم القـريضِ والخُطَب
من بعد داود لا حرمتُ مُنى[٣] فقلت قـد مضت دولة الأدب

فأرسله الوالي الى الهند وتقدم الى أحد الأطبّاء بمعالجة لسانه فقال له: « أنا أعالج لسانك بدواء فأمّا أن ينطق وإمّا أن يكون حتفك[٤] فيه » فقال:

---

(١) إسم من الإحتباس وهو تعذر الكلام عند إرادتِهِ.
(٢) النوب جمع نوبة وهي النازلة والمصيبة.
(٣) المنى جمع منية وهي ما يتمناه المرء.
(٤) موتك.

« لا أبيع كلّي ببعضي » وأبى العلاج وقفل راجعاً الى بغداد ومن شعرِهِ قولهُ يصف سفره من البصرة الى بغداد على سفينة بخارية:

قد ركبنا بمركب الدخانِ   وبلغنا بهِ أقاصي الأماني[1]
ثم سرنا والطير تحسدنا بالأمـ   ـس لإسراعنا على الطيرانِ
يخفق البحر رهبةً حين يجري   والذي فيهِ كائنٌ في أمانِ
كلما أبعد البخار بمسرى   قرّب السيرُ بعد كل مكانِ
أتقنت صُنعَهُ فطانةُ قومٍ   وصفوهم بدقة الأذهانِ
أبرزوا بالعقول كلّ عجيبٍ   ما وجدناهُ في قديم الزمانِ
وبنوا للعلى مباني عِلاءً   عاجزٌ عنها صاحب الإيوانِ[2]
فلهم في الزمان علمٌ وفخرٌ   ومقامٌ يعلو على كَيْوانِ[3]

---

(١) جمع أمنية بمعنى منية.
(٢) العلى الرفعة وعلاء جمع عليّ أي مرتفع وصاحب الإيوان هو كسرى أنوشروان الشهير.
(٣) كيوان إسم زحل بالفارسية وهو أحد الكواكب السيارة يضرب به المثل في العلوّ.

فرنسيس المرّاش (١٨٧٣م ١٢٩٠هـ)

هو فرنسيس بن فتح الله المرّاش من طائفة الروم الكاثوليك. وُلد بحلب وأكبّ من صغرِهِ على تحصيل العلوم فأتقن فنون العربية وأولع بالآداب والفلسفة منذ صباه فكانت لا تفوته فرصة للإزدياد منها إلاّ قبض بناصيتها[١] ثمّ حدثته نفسُه باحتراف الطبّ فدرس أصوله على طبيب إنكليزي بحلب ولّما كانت نيتهُ التوسع في الصناعة وإتقانها نظراً وعملاً قصد باريز لبلوغ أربه والحصول على الإجازة المؤذنة بكفايته وأهلته لتعاطي الفنّ إلاّ أن الدهر الخؤون أبى إلاّ مناوأته[٢] فانتابته أسقامٌ أوهنت قواه[٣] وختمت محنته بأن أصيب في عينيه بحيث كاد يكفّ بصرهُ [٤] فعاد الى موطنه مرغوماً دون أن ينال مبتغاه وتفرّغ للآداب مع ما هو عليه من ضعف البصر وانحطاط القوى الى أن وافته المنون وهو في ريعان العمر.

وكان فرنسيس المرّاش عالي الهمّة عزيز النفس حرّ المقال يعاف التعبيد والتقليد وقد أدى بِهِ حرصه على حفظ استقلاله الفكري الى نبذ قوانين الإنشاء ظهرياً وكسر قيود اللغة نفسها فكثيراً ما خالف قواعدها في كتاباته غير

---

(١) شعر مقدم الرأس.

(٢) معاداته.

(٣) إنتابتهُ الأقسام أصابته وأوهنت أضعفت.

(٤) يعمى.

مبالٍ بشقشقة البيانيين وهدرات النحاة. ولهُ شعر رائق حسن حكمي النزعة فمن ذلك قولهُ:

صدقوني كلّ الأنام سواءٌ — من ملوك الى رعاة البهائمْ
كل نفس لها سرورٌ وحزنٌ — لا تني في ولائم أو مآتمْ[1]
كم أميرٍ في دسته[2] بات يشقى — باله والأسير في القيد ناعمْ
أصغر الخلق مثل أكبرها جر — ماً لهذا وذا مزايا تلائمْ
هذه النمل تستطيع الذي تعـ — جز عن فعلِهِ الأسود الضياغمْ[3]
والخلايا للنحل أعجب صنعاً — من قصور الملوك ذات الدعائمْ[4]

ولفرنسيس المراش مؤلّفات منها « غابة الحق » و« مشهد الأحوال » أولهما شعري والآخر نثري ضمنهما آراء فلسفية واجتماعية على أسلوب مبتكر وله ديوان سمّاه « مرآة الحسناء » وله في علم الطبيعة كتاب دعاه « المرآة الصفيّة في المبادىء الطبيعيّة » وغير ذلك.

ولفرنسيس المراش أخٌ أسمهُ عبد الله عُرف بالفضل والأدب تلقى مبادىء العلوم بالشهباء ثم تعاطى التجارة في البلاد الأوربية واشتهر بالإستقامة وحسن المعاملة والحنكة[5] في التدبير وقضاء المهّام التجارية وكان مع اشتغاله بالتجارة لا يهمل جانب الآداب ويسترق الفرص فيختلف[6] الى مكاتب العواصم التي ينزلها كباريس ولندن ويطلع على ما هنالك من الأثار العربية وينسخ منها ما يروقه ويرى فيهِ منفعة لبني جنسه وقد أثبت المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي ترجمته في ضيائه (٢ : ٣٤٤) وعقبها بذكر شيءٍ من آثاره الأدبية وهي تشهد لصاحبها بدقة النظر ولطف الذوق وسعة الإطّلاع. وتوفي سنة ١٩٠٠م ١٣١٨هـ.

---

(١) ونى يني ضعف والمآتم جمع مأتم وهو المناحة.
(٢) صدر المجلس.
(٣) المفترسة.
(٤) الخلايا جمع خلية وهي بيت النحل والدعائم جمع دعامة وهي عماد البيت.
(٥) التجربة والبصر بالأمور. (٦) يتردد.

عُمَر الإنْسِيّ (١٨٧٦م ١٢٩٣هـ)

هو الحاج عمر بن محمد ديب من أسرة عريقة[١] في الشرف إشتهر لقبها بالصقعان. وُلد ببيروت وتخرّج في العلوم الدينية واللسانية ونظم الشعر فبرّز فيه وكان لطيف الأسلوب فصيح المنطق عذب المحاضرة[٢] وقلّد من لدن الحكومة عدة مناصب حمدت فيها آثاره وعُرف بالإستقامة والاباء وعلّو الهمّة وحسن الدربة[٣] غير أنهُ ما زال مشتغلاً بالمطالعة والتأليف والتدريس كلّما وجد الى ذلك سبيلاً فكان يقضي في خدمة الآداب الأوقات التي لم تستغرقها مهامّ خدمته للوطن. وله شعرٌ رقيق حسن جُمع في ديوان سُمّي « المورد العذب » فمن شعره قوله في الزهد:

رغبت عن الدنيا وزخرف أهلها ... وقلت لنفسي إنّما العيش في الأخرى
فدعني وزهدي في الحطام[٤] فإنّني ... أرى الزهد في الدنيا هو الراحة الكبرى

وقال عن لسان نارجيلة:

أنا التي اختارني قومي سمير عُلىً ... إنّ الأديب فصيحَ النطق مختارُ[٥]

---

(١) أصيلة. (٢) المحاورة.

(٣) درب الرجل بالشيء دربة مرن عليه وأعتادهُ.

(٤) حطام الدنيا أموالها وخيراتها الفانية.

(٥) السمير الذي يتحدث معك بالليل.

إذا الهوى بفؤادي مرّ أكتمهُ ‏ وللهوى بفؤاد الحرّ أسرارُ
قالوا تحملت نيراناً فقلت لهم ‏ النار في حبّ من أهوى ولا العارُ
شُهرت حتى غدت تعشو السُراة الى ‏ ناري ولي بمزيد الفضل آثارُ[1]
فها أنا مثل صخر حيث قيل بهِ ‏ كأنّهُ علمٌ في رأسهِ نارُ[2]

وقال يهجو غلام قهوة يدعى هلالاً:

تعس الهلال القهوجيّ لأنّهُ ‏ قد قطّع الأنفاس من أنفاسِهِ[3]
هذا الهلال هو الهلاك وإنّما ‏ غلطوا فلم يضعوا العصا في رأسِهِ[4]

---

(١) عشا المسافر الى النار رآها ليلاً من بعيد فقصدها والسراة جمع سارٍ من سرى الرجل إذا سار ليلاً.
(٢) العلم الجبل.
(٣) الأنفاس الأولى جمع نفس بمعنى الهواء الخارج من الرئتين والثانية بمعنى ما يشرب من التنباك في المرة الواحدة.
(٤) أراد بالعصا معناها البعيد وهو الخط الذي يجعل فوق اللام فتصير كافاً ولا يخفى ما في البيت من التورية.

ارسانيوس الفاخوري (١٨٨٣م ١٣٠١هـ)

هو فارس بن يوسف الفاخوري الماروني وُلد ببعبدا من قرى جبل لبنان ولّما ترعرع أرسلهُ والدهُ الى مدرسة عين ورقة الشهيرة فتفرّغ الفتى لإحراز الفضائل المسيحية واقتباس العلوم الدينية والدنيوية وما مضى عليه ردح من الزمن حتى رسخت قدمهُ في سبيل البرّ ونبغ في كافة الفنون التي يتلقاها الطلبة بحيث أصبح أنموذج الفضل والعلم يغبطه الأقران[١] ويسعون بتقفي خطاه[٢] ويعزّهُ الأساتذة ويعجبون بأدبِهِ وتقاهُ ومن العلوم التي أتقنها الفلسفة واللاهوت والحق القانوني وبرع في العربية والسريانية والطليانية واللاتينية وأولع بالتاريخ فتبحّر فيه ووعى من الأخبار والوقائع ما لا يقع تحت حصر وكان إذا روى حادثة جاء على تفاصيلها التاريخية بدقة عجيبة حتى يخيل للسامع أنه إنما يقرأ في كتاب لا عن ظهر القلب.

وعُهد الى الخوري أرسانيوس بعدة مهامّ كان فيها مثال النشاط والغيرة والإستقامة فكتب السرّ لغبطة البطريرك ثم للقصّاد الرسوليين وعلّم في مدرسة مار عبدا هرهريّا ولما كان قد درس الفقه ومهر فيه وأحاط بأصوله وفروعه تولّى القضاء في لبنان على عهد الأمير بشير الكبير وخلفهِ الأمير حيدر اللمعي وظلّ

(١) الردح المدة الطويلة ورسخ ثبت ونبغ في كذا أجاد والأنموذج المثال وغبطه الأقران تمنوا لأنفسهم مثل حالِهِ الحسنة من غير حسد.

(٢) تتبعها.

في منصبه سبع عشرة سنة اشتهر في أثنائها بالنزاهة والعدل وتحدث القوم بعفافهِ[1] وعلّو همته على اختلاف الملل والنحل.

وما زال في خطة[2] القضاء الى أن أصيب بعينيه فاستعفى من الخدمة واعتزل في بيته منقطعاً للتأليف والمطالعة وقرض الشعر الى أن كُفّ بصرهُ وحاقت[3] به شدائد الشيخوخة فتحمل هذه المِحن بالصبر الجميل وازداد خشوعاً وتقىً وشكراً على كل مكروهٍ يحل به استعداداً للقاء ربهِ الى أن وافته المنية فكان على أتم الأهبة[4] للسفر الأبديّ.

وكان الخوري أرسانيوس كاهناً غيوراً وخطيباً مصقعاً[5] وشاعراً فصيحاً رشيق النظم جيد القريحة ومن شعرهِ قولهُ يرثي أباهُ:

أشكو بعادك يا أبي وأودّ لو أن المسبب للبعاد بعيدُ
وأبيت أحسدُ من ينادي يا أبي يا ليتني في ذا أنا محسودُ
قد بات بعدك مأنسي في وحشةٍ وعلا موائد عَيشتي التنكيدُ

ومما نظمه قبل وفاته بيوم واحد قولهُ متشوقاً الى الموطن السماوي:

نفسي تناءت عن حماك بوزرها يا خالقي قد أسخطتك بشرها[6]
فبحبك السامي انحدرت من السما لخلاصها وفدائها من أسرها[7]
إذ متّ عرياناً ومصلوباً على عود لتكسوها ملابس برها
يا ربها الفادي يسوع إلهنا لكم السجود من النفوس بأسرها[8]

---

(١) ترفعهِ عن الأطماع الدنيئة.
(٢) مقام. (٣) أحاط.
(٤) العدة. (٥) بليغاً ماهراً.
(٦) تناءى بعد وحمى القوم المرضع ينزلونه فيحمونه عمن سواهم والوزر الأثم.
(٧) الأسر العبودية. (٨) بأسرها كلها.

خذني إليك لكي أحبك في السما حبّا عظيماً كاملاً في خدرها[1]
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

وللخوري أرسانيوس ثلاث بديعيّات سبق لنا ذكر إحداها وله على الثانية شرحٌ سمّاهُ « زهر الربيع في فنّ البديع » ومطلعها:

فحيّ حيّ الجليل الجامع العِظَمِ وبيت لحماً وآلاً قد سمت بهم

ومطلع الثالثة:

إني لأحكام القضاء مسلّمُ ولسان حالي بالهوى متكلّمُ

والبديعيّات الثلاث في الموضوع عينه. وله مؤلّفات منها « روض الجنان في المعاني والبيان » و« الميزان الذهبي في الشعر العربي » ولهُ شرح لديوان المطران جرمانوس فرحات وشرح لديوان المتنبيء وغير ذلك.

---

(١) الخدر ستر يمد للجارية في ناحية البيت أستعير لمقام البارّ في دار القرار ومن ثم قيل الأخدار السماوية.

عبد الله باشا فكري (١٨٩٠م ١٣٠٨هـ)



هو عبد الله فكري بن محمد بليغ من نوابغ الناشئة المصرية. وُلد بمكّة ونشأ بالقاهرة وتلقى العلوم الدينيّة واللسانيّة في الجامع الأزهر فبرّز فيها واستوعب[1] أطرافها واستبطن دخائلها ثم استخدم في مناصب الحكومة المصرية فأظهر من البراعة والنشاط ما حبّبه أولياء الأمر وكان مع تضلّعه من المعارف والفنون عالماً باللغة التركية فألحقه سعيد باشا بمعيته ولما تولّى الأريكة[2] الخديوية إسماعيل باشا أقرّهُ في منصبه واستصحبه في سفره الى الأستانة وعهد إليه بمهمات عديدة قام بها أحسن قيام وكان موضع ثقة عند مولاه فقرّبه وأحسن إليهِ وما زال يرقى من رتبةٍ الى أعلى منها حتى تقلّد أسمى الخطط ووجهت إليه نظارة المعارف.

---

(١) وعى.

(٢) السرير.

وتقدم إليه اسماعيل باشا بمراقبة دروس اللغات الشرقية التي على ولي عهده وبعض أمراء الأسرة الخديوية فبذل ما فوق الطاقة في مشارفة[1] أمرهم والإهتمام بأسلوب تخريجهم[2] وتهذيبهم على ما تقتضيه مقاماتهم العالية فكان يتعهد[3] الأساتذة بإرشاداتِهِ ويباشر أحياناً هو نفسه أمر التعليم حرصاً على أداء واجبات الخدمة الجليلة التي ألقيت على عاتقه[4] بدقة وأمانة.

وهبت سنة ١٨٨٢ زوبعة الثورة العرابية وكان من أمر أصحابها ما كان على ما هو مشهور فقُبض على عبد الله باشا فيمن قبض عليهم من المتهمين بممالأة[5] الثائرين واعتُقل[6] مدة ثم استنطُق فظهرت براءته وأُطلق سراحه إلاّ أنهم قطعوا عنه معاشهُ فالتمس المثول بين يدي الخديوي فلم يؤذن له فنظم حينئذٍ قصيدة فريدة عامرة الأبيات وبعث بها الى الأمير فوقعت عنده موقع القبول وأوعز[7] فرُدّ له راتبه وأعيد الى سابق مقامه. قال:

كـتـابي تـوجّـه وجهـة الـسـاحـة الـكـبـرى
وكـبّـر إذا وافـيـت واجـتـنـب الـكِـبْـرا[8]

ومنها:

مليكي ومولاي العزيز وسيدي ... ومن أرتجي آلاء معروفه العمرا[9]
لئن كان أقوامٌ عليّ تقوّلوا ... بأمرٍ فقد جاءوا بما زوّروا نكرا[10]

---

(١) مراقبة.

(٢) تعليمهم.

(٣) يتفقد.

(٤) موضع نجاد السيف من الكتف.

(٥) معاونة.

(٦) حبس.

(٧) أمر.

(٨) كتابي منادى محذوف الأداة وعنى بالساحة الكبرى حضرة الأمير وكبر الرجل قال الله أكبر.

(٩) الآلاء النعم مفردها إلىً أو إليٌ.

(١٠) تقول عليه الباطل أتهمهُ بِهِ والنكر القبيح المنكر.

حلفت بما بين الحطيم وزمزمٍ وبالبابِ والميزابِ والكعبةِ الغرّا[1]
لما كان لي في الشرّ باعٌ ولا يدٌ ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرّا
ولكنّ محتوم المقادير قد جرى بما الله في أمّ الكتاب لهُ أجرى[2]
أتذكر يا مولاي حين تقول لي وأني لأرجو أن ستنفعني الذكرى
أراك تروم النفع للناس فطرةً لديك ولا ترجو لذي نسمة ضرّا
فعفواً أبا العباس لا زلت قادراً على الأمر أنّ العفو من قادرٍ أحرى[3]
وحسبي ما قد مرّ من ضنك أشهرٍ تجرعت فيها الصبر أطعمه مرّا[4]
يعادل منها الشهرُ في الطول حقبةً ويعدل منها اليومُ في طولِهِ شهرا
أيجمــل في دين المــروءة أنّني أكايد في أيامك البؤس والعسرا

وكلها من هذا الطراز البديع تشهد لموشي بردتها[5] بعلو الكعب وكمال الشاعرية. ثم نظم قصيدة أخرى يشكر مولاهُ على نعمتِهِ. منها قولهُ:

ألا أنّ شكر الصنع حقٌّ لمنعم فشكراً لآلاء الخديويِ المعظّم[6]
مليكٌ له في الجـود فضلٌ ومفخرٌ على كل منهلٍ من السحب مُرهم[7]
سأشكره النعماءَ ما عانقت يدي يراعي أو استولى على منطقي فمي

وتجوّل عبد الله باشا في جهات الحجاز والشام ثم أُوفد الى أستكهلم نائباً عن الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٨ وزار العواصم وأمهات

---

(١) الحطيم جدار حجر الكعبة وزمزم بئر عند الكعبة والباب باب الكعبة والميزاب ميزاب الكعبة أي مزرابها والكعبة المسجد الحرام بمكة سمي بذلك لأنهُ مربع الشكل يقول أنهُ يحلف بأقدس الأشياء عند المسلمين.

(٢) القدر المحتوم هو الواجب وجوباً لا يمكن ردّه والمقادير جمع مقدور بمعنى القدر وهو قضاء الله للأشياء وجعلها على وجه مخصوص وأمّ الكتاب فاتحة القرآن.

(٣) أحرى أولى وأجدر.

(٤) تجرع الماء إبتلعهُ شيئاً بعد شيء.

(٥) الطراز النمط والبردة ثوب مخطط ووشي نقش.

(٦) الصنع الصنيعة أي الإحسان.

(٧) أنهل المطر إشتد إنصبابه وأرهمت السماء أتت بالرهمة وهي المطر الضعيف الدائم.

المدن الأوربية وقد وصف رحلته هذه في كتاب سماه « إرشاد الألبّا الى محاسن أوروبّا » حالت منيته دون إتمامه فأنجزه من بعده نجلهُ أمين باشا فكري وكان من مشاهير المحامين ومهرة الكتّاب.

وكان عبد الله باشا شاعراً مبرّزاً وكاتباً محبّراً[1] طويل الباع في الإنشاء متفنناً في ضروب الكلام راسخ القدم في علوم البلاغة ذلق اللسان[2] لكلامه طلاوة ورونق ولهُ آثار أدبية منها « نظم اللآل في الحكم والأمثال» و«المقامة الفكرية في المملكة الباطنية» وغير ذلك ومن مآثره الغرّاء تحريض الحكومة على الإهتمام بأمر الكتب التي في حوزتها ورفع في ذلك تقريراً أفضى إلى إنشاء المكتبة الخديويّة الشهيرة.

---

(١) حبّر الكلام حسنه.

(٢) حديد اللسان فصيحه.

نجيب الحدّاد (١٨٩٩م ١٣١٧هـ)

هو نجيب بن سليمان الحدّاد من طائفة الروم الكاثوليك وأمه كريمة[١] الشيخ ناصيف اليازجي وُلد ببيروت وظهرت عليه مخايل[٢] النجابة من صغره وورد معين الآداب منذ ذرّ[٣] شارق عقلِهِ فتخرّج على خاليه الشيخين إبراهيم وخليل اليازجي ونحا نحوهما في الولوع بفنون العربية والتبحّر في علومها وقدم القطر المصريّ وهو حديث السن فدخل إحدى مدارس الإسكندرية وأتقن فيها الفرنسية ثم ثار ثائر العرابيين هنالك فكرّ راجعاً الى بيروت وأَتمّ دروسه في المدرسة البطريركية.



(١) إبنة. (٢) دلائل. (٣) ظهر.

ولما انقشعت غياهب[1] الفتنة عاد الى الإسكندرية وخاض عباب الصحافة وجال في ميدان الكتابة فأحرز في قليل من الزمن شهرة واسعة وأصبح على حداثة عهده في التأليف ممن يشار إليهم بالبنان[2] وتهافت الأدباء على مطالعة مقالاته وهم يعجبون بغزارة مادة منشئها ومتانة عبارته وحسن أسلوبه.

وكان نجيب الحدّاد مع تضلّعه من الإنشاء وتحبيره للفصول الشائقة الرائقة في الجرائد والمجلات المصرية شاعراً سيّال القريحة رائق الديباجة سلس العبارة دقيق المغزى عصري المذهب جامعاً في قصائده بين المتانة والرقة قارناً فصاحة الأقدمين بهلهلة[3] المحدثين.

ومن مستحسن شعره قوله في ذم القمار:

لكلِّ نقيصة في الناس عارُ	وشرّ معايب المرء القمارُ
هو الداءُ الذي لا بُرءَ منهُ	وليس لذنب صاحبه اغتفارُ
تُشادُ له المنازل شاهقاتٍ	وفي تشييد ساحتها الدمارُ[4]
منازلُ كم أُريق دمٌ عليها	وكل دم أراقته جبارُ[5]
نصيب النازلين بها سهادٌ	فإفلاسٌ فيأسٌ فانتحارُ[6]
قد اختصروا التجارة من قريب	فعدمٌ في الدقيقة أو يسارُ[7]
كأن وجوههم ندماً وحزناً	كساها لون صفرته النضارُ[8]
فبينا تبصر الوجنات ورداً	إذا هي في خسارتهم بهارُ
عصائب لا يود المرء فيها	أخاهُ ولا يراعي الجارَ جارُ[9]

---

(١) إنقشعت إنكشفت والغياهب الظلمات مفردها غيهب.

(٢) الأصابع واحدها بنانة. (٣) رقة النسج.

(٤) شاد المنزل وشيّده رفعه والدمار الخراب.

(٥) ذهب دمه جباراً أي هدراً.

(٦) السهاد عدم النوم وانتحر فلان قتل نفسه.

(٧) العدم الفقر واليسار الغنى. (٨) الذهب.

(٩) العصائب جمع عصابة أي جماعة.

يـلاحظ بعضهم بعضاً بعـين يكـاد يضيء أسودَهـا الشـرارُ
فكم غضبـوا على الأيّـام ظلماً وكـم حنقوا على الـدنيا وثـاروا
وكم تركوا النساء تبيت تشكو وتُسعـدهـا الأُصيبيـةُ الصغـارُ[1]
تبيت على الطوى ترجو وتخشى يؤرِّقهـا السهـادُ والانـتـظارُ[2]
فبئست عيشة الزوجـات حـزنٌ وتـسهـيـدٌ وهجـرٌ وافـتقـارُ[3]
وبئست خلة الـفـتيـان هـمٌّ وأتـعـابٌ وخـســران وعـارُ

ومن قلائدهِ النفيسة قولهُ في احتراق سوق المحبة بباريس حيث فجع الكاثوليك الفرنسيون بجمهور غفير من سراتهم فذهبوا جميعاً رجالاً ونساءً ضحيّة نقية في سبيل البرّ:

أيّ رُزء أجـرى الدمـوع دماء وأذاب الـقـلوب والأحـشـاء[4]
وأسـال النفـوس حـزنـاً وأذكى الصدر ناراً وإستنزف العين ماءَ[5]
أي خَـطب أصاب بـاريس أمّ المـدن بنت التمـدن الـزهـراءَ
فجعة أكمدت ضحاها وقد خصّـ ـت بنيهـا وعمت الغـربـاءَ[6]
ليس بَدع في خطب باريس أن تشمـل آثار حـزنِهِ الـدنيـاءَ[7]
هي قلب الدنيا أصيب بسهم فـأصـابـت آلامـه الأعـضـاء
وهي أمّ الآداب أثكلها الدهر فـأبكت بـوجـدهـا الأبنـاءَ[8]
قد دهاها مصاب سادوم لكن خص من بين قومها الأبرياءَ
فهي في الحزن مثل راحيل إذ تبكي بنيهـا ولا تـريـد عـزاءَ

---

(١) الاصيبية تصغير تحبب لاصبية جمع صبي.
(٢) الطوى الجوع وأرّقه جعلهُ يأرق أي لا ينام.
(٣) سهده تسهيداً منعهُ النوم. (٤) الرزء المصاب.
(٥) أذكى النار أضرمها واستنزف الماء استخرجه كلهُ.
(٦) الفجعة المصيبة المؤلمة وأكمده الحزن غمهُ وغيرلونه والضحى من النهار بعد طلوع الشمس إستعارة للبهجة.
(٧) البدع الأمر الغريب.
(٨) أثكلهُ إبنهُ أفقدهُ أياه والوجد الحزن.

أصلت الكهـربـاءُ فيهـا لهيباً قـد كـرهنـا لأجله الكهـربـاءَ
ورمـاهـا نـور الضيـاء بنـارٍ أظلمتهـا فـما تُـلاقي الضيـاءَ
في مكـانٍ أنشي لـدفـع بَلاءٍ عن فقـيرٍ فكـان فيـهِ بـلاءَ
سوق برّ تباع فيها اللُّهى بيـ ـعاً ويشرى الثواب فيها شراءَ[1]
زيّنتهـا بيض الأيـادي وأيـدي البيض من محسنٍ ومن حسناءَ
أنفسٌ تبتغي السماءَ فـما أمسـ ـين إلاّ وقـد بـلغن السـماءَ
أدركت مـا تـروم من جنـة الخلد ولكن كان الطريق صِلاءَ[2]
من رأى قبلهـا جحيماً يؤدي لـنعـيـمٍ أبـنـاءَه الـشـهـداءَ
أو رأى محسناً يجود على النا س فيلقى نـار الحـريق جـزاءَ
أترى كان ذاك مطهر من مـا توا فيمحو عن النفوس الخطاءَ
أم هو الدهر لا يزال مسيئاً لكـريم ومُكـرمـاً من أسـاءَ
يا ربوعاً كانت معاهد إحسا نٍ وحسن فـأصـبحـت قفـراءَ
وديـاراً كـانـت منـازل إينـا سٍ فأضحت بَلاقعاً وخلاءَ[3]
وكـرامـاً كـانـوا مَنَـاهـلَ جـودٍ لـفقـيرٍ فـأصبحـوا فـقـراءَ[4]
أمـراءُ نـادى النـدى فـأطـاعـو هُ أميـراً لهم ولبّـوا نـداءَ[5]
وحسـانٌ قد جُـدْنَ بـراً فكـان البـرّ ثـوبـاً يـزيـدهن بهـاءَ
سـاحـةٌ تُنبتُ المكـارمَ والـرأْ فَـةَ والمجـد والنـدى والأخـاءَ
فنسـاءٌ بهـا تبـاري رجـالاً ورجـالٌ بهـا تبـاري النسـاءَ[6]
أوجـهٌ يشـرق السنا من محيـا هـا فتـزداد بـالجميـل سنـاءَ

---

(١) اللهى جمع لهوة وهي العطية الجزيلة والثواب الجزاء.
(٢) الخلد البقاء والصلاء النار.
(٣) البلاقع جمع بلقعة وهي الأرض القفر.
(٤) المناهل جمع منهل وهو عين الماء.
(٥) الندى الكرم ولبى نداءهُ أجابهُ مطيعاً.
(٦) تبارى تسابق.

رحن يزهون بالبياض فما أمسـ ـين إلّا كـوالحـاً سـوداءَ[1]
رمماً لم تـدع بهـا النهار إلّا رسـمَ جسـمٍ وأعـظماً جـرداءَ
كنّ ناساً فصرن ناراً فـأصبحـ ـنَ رمـاداً بها فصـرن هبـاءَ[2]
قد كفت لحظةٌ لأن تقلب الأمـ ـر وإن تجعـل النعيم شقـاءَ
فـاستحـالَ الهنـاء بؤسـاً وأحـزا نـاً وأضحى ذاك السرور بكـاءَ
نقمـة صبّها القضـاءُ على الأبـ ـرار ظلماً ومن يـردّ الـقضـاءَ
رحم الله من قضى وشفى الجر حى وعـزّى البـاكـين والتعسـاءَ

ومن آثار نجيب الحداد روايات تمثيلية وغير تمثيلية عرّب بعضها عن اللغات الأوربية ووضع البعض الآخر، منها رواية السيّد للشاعر كُرنيل الفرنسي ورواية حمدان عربها عن رواية « أرناني » لفكتور هوغو ورواية شهداء الغرام عربها عن رواية روميو وجوليت لشكسبير وروايتا البخيل والطبيب المغصوب لموليار ورواية الفرسان الثلاثة لإسكندر دوماس. ورواية صلاح الدين الأيوبي لولتر سكوت الشاعر الانكليزي عربها بتصرف وسبكها في قالب التشخيص ورواية المهدي ورواية الرجاء بعد اليأس ورواية غصن البان ورواية ثارات العرب. ولهُ ديوان شعري هو النهاية في النباهة والظرف يعرف « بتذكار الصبا ».

وكان يرجى من همة نجيب الحداد خدمٌ جليلة للآداب العربية لولا أن الأسقام ما زالت تنتابه وتثبّط[3] عزيمتهُ وهو يعاندها وتعيد عليهِ كراتها فتجهد[4] قواهُ وهو يجاهدها الى أن هصرت غصن حياته غضّا[5] رطيباً ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمرهِ.

---

(١) الكوالح جمع كالحة أي عابسة.
(٢) الغبار المتطاير في الهواء.
(٣) إنتابهُ المرض أصابه وثبط عزيمته حبسها وردعها.
(٤) جهدهُ وأجهدهُ حمّلهُ فوق طاقتِهِ وأجهد مالهُ أفناهُ.
(٥) هصر الغصن كسرهُ والغضّ الناعم الناضر.

حَفْني ناصف (١٩١٩م ١٣٣٨هـ)

هو محمّد حفني بن إسماعيل ناصف، وُلد يتيماً فقيراً، ببركة الحجّ من أعمال القليوبية بمصر سنة ١٨٥٥، فكفله خاله، وجدّته أم أبية، ولما ترعرع، تعلّم القرآن على أُستاذ كان يسيء معاملته، ويضربه، ففرّ هارباً ماشياً الى الأزهر وأقام فيه عشر سنين فجوّد القرآن وحفظ المتون ودرس الفقه الشافعي، والعلوم العربيّة وزاول الأدب، والشعر فبرع فيهما، وأجاد ولعلّه أكثر أدباء عصرهِ اطّلاعاً على تاريخ الأدبيات العربية ودخل دار العلوم فبزّ زملاءه وتقلّب في مناصب عديدة بعد خروجه منها.

درّس الآداب العربيّة والمنطق وآداب البحث والمناظرة بمدرسة الحقوق، وتولّى القضاء الأهلي مدّة عشرين سنة، كان في خلالها مثال العدل، والنزاهة ثم عيّنته وزارة المعارف مفتشاً أول للغة العربية فأقام في منصبه هذا ثلاث سنوات، بذل فيها طاقته في ترقية اللغة العربية، وفنّ التعليم فخدم أمّته ووطنه، خدماً تذكر فتشكر.

وكان شيّق الحديث، رقيق الفكاهة، مليح النوادر، حاضر الجواب مفحماً مع دعابة فيه، يورد شعره بقالب جيّد منمّق، إذا جالس الفقهاء، والأُدباء، أو المعلمين خلتهُ منهم، وشعره يحلّه المحلّ الأوّل، بعد البارودي وعبد الله فكري، وأكثره من السهل الممتنع، يسيل رقة وعذوبة وينسجم انسجام الماء،

فهو مرآة الحضارة العصرية، ولا بدع، فقائله ممّن تمّ على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة المسجوعة القديمة، الى الطريقة الحالية. له ما عدا ديوان شعره كتب النحو والبلاغة المستعملة في المدارس المصرية، وكتاب حياة اللغة العربية، وكتب في علم البديع واللغة العامية في الشام والصعيد، ورسائل في المنطق، والأصول، والعروض والقوافي، والبحث والمناظرة وأكثرها لم يطبع، أو عبثت به يد الضياع.

قال متأسفاً على ضياع خبرته:

أتَـقْـضـي معـي، إن حـان حَـيْـني، تجـاربي
وما نـلتـهـا إلاّ بِـطُول عـنـاءِ
ويُحـزنـني أن لا أرى ليَ حـيـلةً
لإعـطائِـهـا مَـنْ يَـسْـتَـحِـقّ عَـطائـي
إذا وَرّث المثـرون أبـنـاءَهـم غِـنى
وجـاهـاً، فـما أشْـقـى بـني الحُـكـماءِ!

وقال قصيدة في وصف قنا. مخاطباً وزير الحقّانية:

رقّـيـتـني حـسّـا ومـعـنى، فـلِصُنْـعـك الـشكـرُ المثـنّى

منها:

هـا قـد أمنتُ البـردَ والـ بُـرداءَ، والـقـلبُ اطـمـأنّـا
ووُقِـيـتُ أمـراضَ الـرطـو بَـة واستراق الـريـح وَهْـنـا
وأنـامُ غـير مـدثّـرٍ شيئـاً إذا مـا الليـل جـنّـا
قـد خـفّـت الـنـفـقـات، إذْ لا أشتـري صـوفـاً، وقـطنَـا
وَفّـرتُ مـن ثـمـن الـوقـو دِ النصفَ أو نصفـاً وثُمنـا
فـإذا بـدتْ لي حـاجـةٌ في الغسـل، ألقي الماء سخنا
أو رمتُ طبخـاً، أو عـلا جَ الخبـز، ألقى الجوّ فـرنـا
عش في القُـرى رأسـاً، ولا تـسكـنْ مـع الأذنـاب مُدْنا

توفي في ٢٥ نوفمبر «تشرين الثاني» ودفن بالقرافة.

وكان لحفني ناصف إبنة تدعى ملك، على جانب عظيم من الذكاء، وكرم الأخلاق تلقّبت « بباحثة البادية » وقد حلّت محلاً سامياً بين أديبات هذا العصر، وُلدت ونشأت بالقاهرة، وتلقّت العلوم بمدارسها فنالت الشهادتين الإبتدائية والعالية، ومارست فنّ التعليم ردحاً من الزمن، ثمّ اقترنت بعبد الستار باشا الباسل، ورغماً مما كان لدي زوجها من وفرة المال، لم تأنف أن تمارس هي بنفسها أكثر أعمالها المنزليّة وتدبّج المقالات الرائعة، أبّان الفراغ، وهي مع ذلك تكره المولعات بالسرف في الحلي والملابس؛ وبالإجمال كانت مثال الأدب، والعفاف وخير قدوة للنساء المصريات، برزانتها، ونفعها لأمّتها.

بلغت بمساعدة والدها، وميلها الفطريّ، وذكائها درجة مقبولة في النظم والنثر، لها كتاب « النسائيّات » مجموع مقالات وأبحاث، وما عداه تقرير وافٍ ضمنته آراءَها في وسائل تربية المرأة. توفيت عام ١٩١٨م.

إسماعيل صبري باشا

(١٩٢٣م ١٣٤١هـ)

هو إسماعيل صبري، شيخ شعزاء العصر، وزعيمهم المتّبع، في سلامة الذوق، ونقد الشعر، ونهج منهج جديد لم يسبق إليه أحد. نشأ متوقّد الذكاء، ميّالاً بفطرته الى الشعر، والأدب، زاول النظم، وهو حديث السنّ وبرع فيه، وله شعر أنيق، رائق الديباجة، حسن الأسلوب يشفّ عن رقّة في الطبع، ودقّة الإحساس، والذوق، وعبقريّة، قد أضاف الى مواهبه الفطريّة حسنات آداب الفرنجة، والتضلّع من لغتها إذ أتمّ علومه العالية في مدارس فرنسا.

تقلّب في المناصب حياته كلّها، وكان مثال النزاهة، والعدل والإستقامة واستقال الخدمة لبلوغه المرتّب الكامل، وهو وكيل الحقانيّة سنة ١٩٠٧.

نضجت ملكته الشعريّة في العقد الرابع من سنه فجاء شعره آية في الإبداع ولطف الشعور، وحسن الذوق، وجودة اختيار اللفظ كان في نظمه أميل الى البيتين، والثلاثة والمقاطيع، منه الى القصائد الطويلة، شديد النقد لشعره، شأن زهير، كثير التعديل، والتحويل، حتى إذا استقام على ما يتطلّبه ذوقه الصائب، من رقة اللفظ، وفصاحة الأسلوب أهمله فنسيه، ولم ينظم إسماعيل صبري الشعر للشهرة أو التزلّف الممقوت، وإنما كان يدعوه الى قرض الشعر خواطر تجيش في صدره، لحادثة شهدها، أو خبر ذي بال سمعه، أو كتاب طالعه، فينفثه لسانه، ويعلّقه قلمه وهذا هو الشعر الحقيقي.

ولا يكاد المأثور من نظمه يخرج عن تمثيل الوجدان أو الشعور والحكمة وحبّ الوطن، أما تمثيل الوجدان فهو فارس حلبته المجلّى، الذي لا يشقّ له غبار ومن أمثلة ذلك قوله في الرجاء، واستعطاف العزّة الألهيّة:

يـاربِّ! أينَ تُرى تُقامُ جَهَنّمٌ ... لـلظالمـين غـداً، ولـلأشـرارِ؟
لَمْ يُبْقِ عَفْوكَ في السماوات العلى، ... والأرض شبـراً خـاليـاً للنّارا
يا ربُّ! أَهِّلْني لِفَضْلِكَ، وآكفني ... شَطَطَ العقولِ، وفِتْنة الأفكارِ،
ومُرِ الوجودَ، يشفَّ عنك، لكي أرَى ... غَضَبَ اللطيفِ، ورحمة الجبَّارِ
يا عالم الأسرارِ، حسبي محنةً ... علمي بـأنّكَ عـالِمُ الأسـرارِ،
أَخْلِقْ برحْمَتِكَ التي تسعُ الورى ... ألّا تَضيقَ بـأعـظَمَ الأوزارِ![1]

ومن جيّد قوله في الحكم:

إن سئمت الحياةَ، فارْجعْ الى الأر ... ضِ، تنمْ آمناً من الأوصابِ
تلكَ أُمّ أحنى عليكَ من الأُ ... مِّ التي خلّفتـكَ لـلأتعـابِ
لا تَخَفْ، فالممات ليس بماحٍ ... منك إلّا ما تشتكي من عذابِ
كـل ميت بـاقٍ، وإن خـالف الـ.. ..ـعنوان ما نُصَّ في غضون الكتاب
وحياة المرءِ اغتـرابٌ، فـان مـا ... تَ، فقد عادَ سالماً للترابِ[2]

ومما قاله عن لسان شوقي، وهو بالأندلس:

يا ساكني مِصْرَ: إنّا لا نزالُ على ... عهد الوفاء، وإن غبنا مُقيمينا
هلّا بعثتم لنا من ماء نهركُمُ ... شيئاً، نبل بِهِ أحشاءَ صـادينا!
كلّ المناهل، بعدَ النيلِ، آسنةٌ، ... ما أبعد النيلَ إلّا عن أمانينا!

---

(١) لا شكّ أن رحمة الله عزّ وجلّ غير متناهية، ومهما عظمت ذنوب المرء، لا ينبغي له أن ييأس من المغفرة بشرط أن يعود تائباً، ألّا أنهّ لا يؤخذ من ذلك التهافت على ارتكاب الإثم طمعاً بالمغفرة.

(٢) الجسم يعود الى التراب أما النفس فتدان وتعاقب أو تثاب.

ومن جميل قوله في الوفاء

إذا خـانـني خـلٌّ قـديم، وعـقّني، وفوّقت يوماً في مقاتله سَهمي،
تعرّض طيفُ الوِدّ بيني، وبينهُ، فكسّر سهمي، فانثنيت، ولم أرْمِ

وجميع شعر صبري يمتاز بهذه الروح التي تشفّ عنهُ، وتصوير العواطف والوجدان، تصويراً صادقاً لا يشوبه تعمّل، وسيبقى شعره خالداً ما بقي قلب يخفق في صدر ناطق بالضاد.

سليمان البستانيّ[1]

(١٩٢٥م ١٣٤٤هـ)



هو سليمان بن خطار البستانيّ الماروني، السياسيّ المحنّك الشهير، والشاعر النابغة المفلق، واللغويّ المؤلّف الكبير، من أسرة عريقة في الفضل، والفضيلة، والأدب، والمجد المؤثل، وُلد ببكشتين، وهي قرية بقضاء الشوف من أعمال لبنان، ونشأ فيها متوقد الذكاء، سريع الفطنة، آية من آيات الله في قوّة الحفظ، فاتحاً صدره للهواء الطلق، وذهنه لإلتقاط العلوم، ميّالاً الى الوقوف على كنه الحقائق، ودقائق الأمور، يستقصي البحث عمّا تحت حوّاسه، وقد ورث عن ذويه وأنسبائه روح التقوى، والتديّن، ولم يحد عن إيمانه قطّ. دخل المدرسة الوطنيّة لنسيبه، أبي النهضة الأدبيّة المعلم بطرس البستاني، وهو في السابعة من سنةّ، فأكبّ على الدرس، واقتباس العلوم بجدّ ونشاط، وتمكّن من اللغات العربيّة، والإنكليزية، والفرنسيّة، وتلقى

(١) مجلّة المشرق: سنة ١٩٢٥.

الطبيعيّات، والرياضيّات والتاريخ، والجغرافيا في خلال ثماني سنوات، ونال شهادة المدرسة النهائية. حرّر في الصحف، ودبّج المقالات الشيّقة في «دائرة المعارف» وبذل جهد المستطاع في نشر العلوم، فكان ركناً من أركان النهضة السورية، وعلماً من أعلامها، واغتنم ربيع الحياة، لارتياد منهل المعارف، وترويض النفس بالإطّلاع على آداب الأمم المختلفة، وإتقان اللغات.

وعلقت نفسه بالأسفار، فباشر رحلاته العلميّة الى جزيرة العرب، فزار اليمن ونجد، وحضرموت، وغيرها، ودرس أحوالها وأخلاق أهلها، وزار الأماكن المشهورة في شعر العرب، وهو يبحث أينما حلّ، بحث العالم المدقّق. ثم رجع الى بيروت وعاد الى التأليف، والتحبير في دائرة المعارف، ثم إستأنف أسفاره فلم يزل دهراً طويلاً في حلّ، وترحال، فجاب لبنان والشام والأناضول ومصر، والهند، والعراق، والعجم، وهو لا يألو جهداً فيما يعود بالفائدة على البلاد الشرقية من أبحاث دقيقة لغوية، وأدبيّة، واجتماعية، وسياسيّة، وتضلّع من اللغة الفارسيّة، واطّلع على مؤلّفاتها الثمينة، وملاحمها الشهيرة، وأقبل على درس اليونانية القديمة، والحديثة، والسريانية، واللاتينية وفروعها وتعلم التركية، وألمّ بعض الإلمام بالعبريّة، والألمانيّة، والروسيّة، والهنديّة، وهو لا يفتأ يواصل تآليفه الثمينة، فأصدر جزئين من دائرة المعارف وعرّب إلياذة هوميروس، منظومة نظماً بديعاً تختال ببرد قشيب من البلاغة العربية، وظهرت في عالم الطباعة تحفة ثمينة، يحسد الغربُ الشرقَ عليها.

وتقلّب البستاني في مناصب الدولة التركيّة كعضو في مجلسي النواب، والأعيان، وتوزّر، وترأس وفوداً الى أوربا. ولمّا شبت نار الحرب، العظمى قدم استعفاءه، واعتزل السياسة، وغادر الأستانة الى سويسرا ، فأقام الى ما بعد الحرب، وألمّ به مرض فقدم مصر للإستشفاء، ولم ينقه من مرضه حتى عاوده ألم عينيه، فأمّ أمريكا، ولم يطأ أرضها حتى هرع لاستقباله، والإحتفاء به المهاجرون من أبناء الوطن، ولم تمهله الكوارث طويلاً حتى ألمّت به ففقد بصره واغتالته المنون في غرّة يونيو «حزيران» سنة ١٩٢٥ وله من العمر ٦٩ عاماً.

وجيء بجثمان الفقيد الى لبنان فدفن في بكشتين، مسقط رأسه، ومحطّ جثمانه. وكان المترجم قويّ العزم، ماضي الهمّة ثابت الإرادة، عظيم البصر، شديد التعلّق بدينه، محترماً لدين قريبه، يكره التعصب الذميم، وهو مع ذلك، متواضع الجانب، واسع الصدر، لطيف المعاشرة، رقيق العواطف، شهم الفؤاد ذو مهابة، وجلال عظيمين.

أما في السياسة فهو الحكيم المحنّك الحصيف الرأى، وله فيها الغرر الواضحة والأيادي البيضاء، والمساعي المحمودة، أخلص الخدمة للدولة، والأمّة، والوطن،

وآثاره وفضله على العلم والأدب أكثر من أن تحصى، منها تعريب الإلياذة نظماً، وقد ضمنها من بدائع الإعجاز، وعلّو الطبقة، مع طول النفس، واستمرار اللهجة العلوية ما يخلب القلب، ويبهر العقل، وصدّرها بمقدمة مطولة أودعها المباحث الجليلة في آداب العرب، واليونان،وأشبع الكلام على الشعر العربي، وأوزانه، وفنونه، ومزاياه، وأطواره، من عهد الجاهليّة الى أيّامنا، فأجاد وأفاد، لو لم يكن له إلاّ هذا الأثر الجميل، لكفاه فخراً أبد الدهر، بيد أن له، ما عدا مخترعات لطيفة منها آلة لقلب ورق المعزف، وآلة الكتابة العربيّة، وإشتراكه في تأليف دائرة المعارف، عبرة وذكرى، والداء والشفاء، وتاريخ العرب، ومذكرات، وديوان شعر العرب الحاليّين، وغيرهما من القصائد، ومقالات بالعربيّة، والإنكليزية، والتركيّة.

من قوله في وصف حالته مريضاً:

وقالوا: صف علاجك، قلت: ضيمٌ	أحمّلهُ لـدفـعِ الضـرّ ضُـرا
فحـين أهبّ ممّا قـد دعـوه	رُقـاداً وهـو مني قـد تبـرّا،
لكهف الكهـربـاء أُقـاد، حتى	مجـاريهـا تـسـاق إليّ جَـرّا
كـأنّ لهـا شعـوراً بـالتيـاعي،	فتسمعني أنـينَ الحـزن جَهْـرا
فمن ظهـر الى بـطنٍ، وفخـذٍ	صفـائح تُـرمضُ الأعضاء حـرّا

ومن غرر أقواله:

شؤون ذوي الشـأن مـرعيّـةٌ، ولـو أعـلت الأرض أنـذالهَـا
ولا يعـرفـ الفضل إلاّ ذووهُ، فـلا تبخس النـاس أعمـالها،
وفي الصدر فاحفظ وعُودك دهراً أو اقـطع لسانـك إن قـالها،
كـفـاك عـفـاف عـلى عـزّة تؤيّـد بـالفـضـل إجـلالهـا،
ولا تحن رأساً ولا تدنِ نفساً تـقـطّع بـالـذلّ أوصـالهـا
وخـلّ الحسـودَ عـلى كيـدهِ، فـإنّ مـن الـنـار أكّـالهـا
إذا العرض زين بطيب الفَعال، وسوء المـطالب مـا طَـالَهـا،
فلستُ أُبـالي بقيـلٍ، وقـالٍ، ولـو سنّت الـلُّسن أنْبـالَهـا

ومن نظمه:

ولا يقـوم بنـاء لا تحيط بـِـهِ عـين العنايـة إلاّ شابـه الخَلَلُ

المنشئون

هم سائر أرباب العلم وحملة الأقلام الذين عززوا جانب الآداب وخدموا اللغة خدماً جليلة بما وضعوا من التآليف النفيسة وحبّروا[1] من المقالات الرائقة فاشتهروا بالكتابة والإنشاء وإن كان لأكثرهم شعرٌ حسن. وسنذكر ههنا أبعدهم صيتاً وأوسعهم شهرةً في عالم الأدب.

(١) زينوا.

رفاعة بك الطهطاويّ

(١٨٧١م ١٢٨٨هـ)

هو الشيخ رفاعة بن بدوي الطهطاوي ويرتقي نسبهُ الى فاطمة الزهراء[١]. وُلد بطهطا من صعيد مصر وكان قد أخنى الدهر على عشيرته[٢] فذاق في صغرِهِ مرارة العيش ولم يتمكن من تلقي مبادىء العلم إلاّ بالجهد والعناء الشديد ومات والدهُ وهو حديث السنّ فقدم القاهرة وجاور بالجامع الأزهر ثماني سنوات تضلّع في أثنائها من العلوم الدينية واللسانية وأظهر من النشاط والبراعة ما حبّبه الى أولياء أمرِهِ وجعل لهُ في الناس ذكراً حسناً.

وأحبّ محمد علي باشا في تلك الأثناء أن يرسل الى أوربّا عصابة[٣] من الشبان المصريين يتلقون في مدارسها العلوم الحديثة[٤] ويعودون الى بلادهم فيبثونها[٥] في أبناء جنسهم فأوعز الى الشيخ رفاعة أن يسافر بصحبتهم وعيّنه إماماً لهم في الوعظ والصلاة.

وناهز الفرص[٦] وهو في باريس من تعلم اللغة الفرنسية فأكبّ على درسها بما عهد فيهِ من الجدّ والذكاء فبلغ منها مبلغاً حسناً سهّل عليه مطالعة

---

(١) بنت محمد نبي المسلمين وزوجة علي بن أبي طالب.

(٢) أتى عليها ونكبها.

(٣) جماعة.

(٤) الجديدة.

(٥) ينشرونها.

(٦) اغتنمها.

مؤلّفاتها وتحصيل العلوم فيها ونقل المفيد منها الى اللغة العربية وقد عرّب وهو في باريس كتاباً سماهُ « قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأواخر » وهو فاتحة معرّباته النفيسة التي قربت مأخذ العلوم العصرية لأبناء الوطن وأحلّت صاحبها محلاً رفيعاً بين أركان النهضة العلمية الحديثة وهو أول من نهج[1] لكتاب العصر طريق التعريب وسبق الى نقل العلوم الغربية لبني الشرق وأن فاقه من جاء بعده بضبط الترجمة وبراعة التحبير فإن الفضل للمتقدم.

ولمّا عاد من فرنسا ولاّه محمد علي منصب الترجمة في المدرسة الطبية ثم في مدرسة الطوبجية[2] وعهد إليه سنة ١٨٣٥ برئاسة مدرسة الألسن فقام بجميع هذه المهام أحسن قيام ونال حظوة في عيني مولاهُ فرقاه وأنعم عليه ومنحه الرتب الفخرية إلى رتبة أمير ألاي ومن ثم دُعي الشيخ رفاعة بك وكان يلبس سابقاً اللباس العربي فاستبدله باللباس الافرنجي.

وأُرسل رفاعة بك الى السودان ناظراً لمدرسة الخرطوم ثم عاد الى مصر وتقلّد عدة مناصب حسنت فيها آثاره وخدم وطنه خير خدمة إلى وفاته. وله مؤلّفات ومعرّبات عديدة في عدة فنون كالتاريخ والجغرافيا والطب والهندسة والفنون العسكرية وغيرها ولهُ مقالات ومنظومات لم يطبع منها إلاّ القليل ومن تآليفه خلا ما ذكرنا « خلاصة الإبريز والديوان النفيس » وصف فيه رحلته الى فرنسا وما عاين فيها من آثار التمدن الحديث و« التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » و« مواقع الأفلاك في أخبار تليماك » و« مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية » في آداب العصر وعلومه وفنونه وسياسته وصنائعه وكتاب هندسة ساسير وجغرافية ملطبرون وغير ذلك. ومن آثاره سعيه ومساعدته في إنشاء « الوقائع المصرية » جريدة مصر الرسمية وهي أول جريدة عربية في الشرق كما قلنا سابقاً وتولى في آخر حياته إدارة جريدة « روضة المدارس ».

---

(١) أوضح وأبان.

(٢) نسبة الى طوب وهو المدفع بالتركية.

بطرس البستاني (١٨٨٣م ١٣٠١هـ)

هو بطرس بن بولس البستاني الماروني من أسرة عريقة[١] في الفضل والأدب والوجاهة[٢] وُلد بالدّبيّة وهي قرية على مقربة من دير القمر بجبل لبنان وتلقى العلوم الدينية واللغوية بمدرسة عين ورقة الشهيرة فتعلّم اللغات العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية وتفقّه في الفلسفة واللاهوت والحقّ القانوني وتضلّع من التاريخ والجغرافيا والحساب وقد عقد النية على الإنتظام في سلك خدام الكنيسة ثم عدل عن مقصدِهِ مدّة يتعاطى التدريس في المدرسة التي تخرّج فيها.

ثم سكن بيروت ودرس اللغة الإنكليزية وتقرّب الى دعاة المذهب الإنجيلي من مرسلي الأميركان فقرأ على بعض أساتذتهم العبرانية واليونانية وأخذ عنهم المعارف المستحدثة وعلّمهم العربيّة وما زالوا به حتى استمالوه فاستدرجوه الى[٣] مذهبهم فانتحل[٤] البروتستانية وصار ينشىء الرسائل الدينية وترأس مدرسة الأحد عندهم ببيروت خمس عشرة سنة وكان قد تولى

(١) من عشيرة أصيلة.

(٢) الرفعة.

(٣) إستدرجه الى كذا أدناه منه على التدريج.

(٤) إنتحل المذهب إتخذه.

التعليم في مدرسة عبيه الأميركانية سنتين ألّف في أثنائها كتابه المشهور « كشف الحجاب في علم الحساب » وإستعان بِهِ مرسلو الأميركان في أعمال مطبعتهم ولا سيما في تعريب التوراة وقلدتهُ قنصلية أميركا ببيروت منصب ترجمتها.

وأنشأ المعلم بطرس في بيروت سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سمّاها « المدرسة الوطنية » نالت عنايته ولطف تدبيره شهرة عظيمة في البلاد العربية وتقاطر[١] إليها الطلاب أفواجاً ثم تخلّى عن رئاستها لإبنه سليم وكان أديباً متفنناً يتقصى[٢] آثار والدِهِ في الفضل والعلم فتولى إدارة شؤون المدرسة الى أن قضت الظروف بإقفالها. وقد تقدم لنا كلام في صدر هذا الباب عمّا بذل المعلم بطرس البستاني وإبنه في ترقية الصحافة العربية في القطر السوري وما لكليهما من المآثر الحميدة في هذا المشروع الجليل الجزيل الفائدة.

وتفرّغ بطرس البستاني في المدة الأخيرة من حياته للمطالعة والكتابة والتأليف ومن آثاره الأدبية كتابهُ الشهير في اللغة « محيط المحيط » ضمّنه ما حوى القاموس المحيط للفيروزأبادي وزاد عليهِ شيئاً كثيراً من المصطلحات العلمية والألفاظ المتفرقة في المؤلّفات العديدة التي وصلت إليها يده فجاء مصنفاً جليلاً نفيساً غزير المادّة قريب المأخذ سهل المتناول حسن الترتيب وهو خير معجم وضع في اللغة مذ انتعاشها من عثرتها الى يومنا ولهُ مختصر لهذا الكتاب سماهُ « القطر المحيط ».

وشرع بعد ذلك في وضع مصنف خطير في كل علم وفن لم يسبق إليه في العربية سماه « دائرة المعارف » فأصدر منهُ ستة مجلّدات وتوفي وهو آخذ في إعداد السابع فأتمه من بعدِهِ إبنه سليم وألحقه بالثامن وحالت منيتهُ دون متابعة العمل فأصدر المجلدات التاسع والعاشر والحادي عشر ورثة الفقيد من آل البستاني الكرام ووقف هذا المشروع الجليل عند هذا الحدّ.

---

(١) أتوا من الأقطار المختلفة.

(٢) تقصى الأمر بلغ أقصاهُ.

وكان المعلم بطرس البستاني عالماً بعيد الغور[١] كثير الاطلاع مشاركاً في علوم عديدة شديد الغيرة على وطنه متفانياً[٢] في نشر المعارف في أبناء جلدتِهِ وترقية شؤونهم كبير النفس عالي الهمة عظيم القدر والخطر[٣] في عيون الناس على اختلاف مذاهبهم ومنازعهم[٤].

(١) العمق كناية عن سعة معرفتِهِ.

(٢) متهالكاً

(٣) رفعة القدر.

(٤) جمع منزعة وهي ما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره وتدبيره.

أديب بك إسحاق

(١٨٨٥م ١٣٠٣هـ)



هو من طائفة الأرمن الكاثوليك وُلد بدمشق وتلقى مبادىء العلوم وأصول اللغتين العربية والفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين وكان نبيهاً ذكياً متوقّد الفؤاد ونظم الشعر في صباهُ عفواً[1] ولا علم لهُ بالعروض وغادر[2] المدرسة صغيرا واستخدم في الجمرك بصفة كاتب ودرس أثناء ذلك اللغة التركية ولم يزل يتحين[3] الفرص للمطالعة والإشتغال بالآداب والإنشاء والنظم والتبحّر في العربية والإزدياد من الفرنسية والتركية.

---

(١) بسهولة دون استكراه قريحته. (٢) ترك.

(٣) يترصدها.

ثم قدم بيروت وخالط جماعة من الأدباء والشعراء وأهل العلم فأعجبوا بأدبه وطلاقة لسانه وبراعته في النظم والنثر وانقطع من ذلك الحين الى الكتابة واحترف[1] الصحافة فعرّب بعض المؤلّفات والروايات الفرنسية وألّف البعض الآخر فضلاً عما كان يظهر في الجرائد من نفثات[2] أقلامه التي فتن بها القرّاء لرشاقتها[3] وانسجام عبارتها وقرب مأخذها مع فصاحة عبارتها وبلاغة تركيبها لولا ما دسّ فيها من المبادىء الثورية فكدّر موردها على القرّاء.

وبارح[4] بيروت الى القطر المصري وأنشأ جريدة « مصر » ثم « التجارة » أطلق فيهما العنان لقلمه السيّال وحبّر الفصول الرائقة والمقالات الطنانة فتهافت[5] الناس على مطالعتها وتداولتها أيدي الأدباء وهم يكبرون شأن منشئها ويهشون لهذه اللغة الصحافية الجديدة الخالية من التعقيد والإغراب المنزهة عن الركاكة والإبتذال[6] فراجت كتاباته هنالك أيما رواج إلاّ انه لم يعدل عن خطته[7] المتطرفة وبث روح الثورة في الشعب فصدر أمر الحكومة المصرية بإلغاء[8] صحيفتيه.

فرحل الى فرنسا ونزل باريس وداخل جماعة من كتبة الفرنسيس والترك واختلف الى مجلس الأمة الفرنسية فزاد إعجابه ببلغاء خطبائها وما زال هنالك مهتماً بالسياسة والكتابة الى أن أصيب بصدره فعاد الى موطنه واستأنف[9] الإنشاء بالجرائد تارة في سوريا وطوراً في مصر الى أن غلبهُ الداء فمات في الحدث من قرى جبل لبنان في التاسعة والعشرين من عمرهِ.

---

(١) إتّخذ حرفة. (٢) كتابات.

(٣) سلاستها. (٤) ترك.

(٥) تسارع.

(٦) الكلام المبتذل هو الذي كثر استعمالهُ ولاكتهُ الأقلام والأفواهُ.

(٧) طريقة. (٨) إبطال.

(٩) جدد.

وكان أديب إسحاق كاتباً نحريراً[1] وخطيباً مصقعاً ذلق اللسان فصيح اللهجة سريع البديهة يرتجل[2] المقالة والخطبة ارتجالاً فتجيء على أحسن ما يكون مَبْنى ومعنى وقد جمعت منتخبات من إنشائه في كتاب سُمّي « الدُّرر » تمثلت فيها أخلاق الرجل ومواهبه ومناقبه وهي جديرة بهذا اللقب لولا ما ضمنها صاحبها من مزاعم أهل الثورة والإلحاد[3] وآراءهم المتطرفة ومذاهبهم الزائغة ودعاويهم الفارغة.

ولأديب إسحاق شعر رقيق حسن ومن أمثلتِهِ قوله المشهور في المرأة:

حسب المرأة قومٌ آفةً ... من يدانيها من الناس هلك[4]
ورآها غيرهم أمنيةً ... ملك النعمة فيها من ملك
فتمنى معشرٌ لو نُبذت ... وظلام الليل مشتدّ الحلك[5]
وتمنى غيرهُم لو جُعلت ... في جبين الليث أو قلب الفلك[6]
وصواب القول لا يجهله ... حاكمٌ في مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها ... كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها ... وإذا أصلحتها فهي ملك

ومن آثار أديب إسحاق ما عدا ما ذكر تعريب رواية « أندروماك » و« شرلمان » وتأليف « رواية الباريسية الحسناء » وغيرها.

---

(١) ماهراً نحر الأمور علماً.
(٢) إرتجل الكلام قاله دون سابق إستعداد.
(٣) الكفر.
(٤) الآفة العاهة والبلية.
(٥) نبذ طرح والحلك شدة السواد.
(٦) إشارة الى المثل: أعزّ من جبهة الأسد.

أحمد فارس الشدياق

(١٨٨٧م ١٣٠٥هـ)



هو فارس بن يوسف الشدياق الماروني. وُلد بعشقوت من قرى جبل لبنان وتلقّن مبادىء العلم في مدرسة عين ورقة وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء مولعاً منذ الصغر بمطالعة تآليف البلغاء ورواية الشعر والوقوف على أسرار اللغة واستظهار الألفاظ الغريبة ولم يزل هذا دأبه[1] الى أن بلغ من الشعر واللغة والكتابة ما بلغ.

ورحل الى القطر المصري فأتمّ دروسه وكتب في « الوقائع المصرية » ونظم الشعر فبرّز وأجاد واشتهر اسمهُ بين علماء مصر وأدبائها ثم دعاهُ المرسلون الأميركان الى مالطة فتولى إدارة أعمال مطبعتهم وتصحيح ما يطبع

---

(١) شأنه وعادته.

فيها وسافر الى أوربا فتجوّل في مدائنها وقصد لندن تلبية لمقترح جمعية ترجمة التوراة فاشتغل بضبط عبارة الترجمة العربية وتنقيحها وعاد الى باريس وأقام فيها زمناً.

وقدم عاصمة الفرنسيس في تلك الغضون[١] أحمد باشا باي تونس فأحسن القوم وفادته[٢] ونظم فارس الشدياق قصيدة طنانة في مدحه جارى فيها لامية كعب بن زهير وبعث بها الى الباي بعد عودته الى ولايته فأعجب بها وأحب مشاهدة ناظمها فاستقدمه إليه وأمر بإعداد سفينة حربية تُقلّه[٣] الى تونس فدهش الشاعر من هذه الدعوة واستغرب جداً هذا الإكرام وقال: «ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها» فاحتفى[٤] الباشا بقدومه وأنزلهُ على الرحب والسعة وقلدهُ المناصب الرفيعة وكان يكتب المقالات الشائقة في الرائد التونسي جريدة الولاية الرسمية.

وطلبته الصدارة العظمى من باي تونس فقدم الأستانة وأنشأ جريدة «الجوائب» وأبدى فيها من البراعة في ضروب الإنشاء والمهارة في أساليب الكتابة ما بهر العقول وملأ الأسماع ودلّ على بعد غوره في فنون الأدب ورسوخ قدمِهِ في علوم اللغة فضلاً عن حنكته في المباحث السياسية وطول باعه في تحبير المقالات العمرانية[٥] ودقة نظره في المسائل الإجتماعية ووقوفه على أسرار الصحافة واستبطان دخائلها واستجلاء[٦] غوامضها بحيث كان لكلامه في أمور الشرق شأن عظيم عند زعماء السياسة في الأقطار الأوربية فضلاً عن ترامي شهرته في البلاد العربية وسائر الآفاق الشرقية.

وكان مع اهتمامه بإنشاء الجوائب لا ينقطع عن مراسلة الأدباء ومساجلة[٧] الشعراء ووضع المصنّفات الجليلة ونشر الآثار الأدبية القديمة التي

---

(١) الأثناء.
(٢) قدومهُ.
(٣) تحملهُ.
(٤) بالغ في إكرامهِ.
(٥) إسم لما تعمر بِهِ البلاد.
(٦) إستكشاف.
(٧) مناشدة.

تصل إليها يده فأحيا عدداً وافراً من نفائس مؤلّفات السلف وهي خدمة للآداب العربية جزيلة الفائدة عظيمة القدر.

وكان فارس الشدياق وحيد زمانه ونابغة عصرِهِ في علوم اللغة والأدب والكتابة والشعر ولهُ آثار حميدة تشهد بسعة اطّلاعه وعلو كعبه في كلّ فنّ تعاطاه وألّف فيه. فمن مؤلّفاته «الواسطة في أحوال مالطة» ذكر فيه تاريخ تلك الجزيرة وجغرافيتها وأخلاق أهلها وعوائدهم وسائر شؤونهم. ومنها «كشف المخبّا عن أحوال أوربّا» وصف فيه ما شاهد في بلاد الأوربية من آثار التمدن الحديث بعبارة جليّة[1] وأسلوب رشيق ودقة نظر تحبب الى المطالع قراءته ومنها «الجاسوس على القاموس» وهو إنتقاد مطول تتبّع فيه هفوات[2] الفيروز أبادي في قاموسه وأودعه من الفوائد اللغوية ما شاء ذوقه اللطيف وعلمه الواسع ومعرفته النادرة للغة العرب وهو يشتمل على مقدمة وأربعة وعشرين نقداً تبلغ نحو سبع مئة صفحة كبيرة ولهُ في المعنى نفسه أو ما يقرب منه «سرّ الليال في القلب والإبدال» و«منتهى العجب في خصائص لغة العرب» و«اللفيف في كل معنى ظريف» ومن مؤلّفاته كتاب ودّ كل أديب لو ربأ بنفسه ونزّه قلمه عن تسطيره يعرف «بالساق على الساق في ما هو الفارياق» والفارياق لفظ مقتطع من أسمه (فارس الشدياق) وقد أطلق فيه العنان لقلمه الذرب[3] وشحنه بالقصص المجونية التي تتفادى[4] من سماعها الآذان ويندى لمطالعتها جبين الأدب ولا مزية لهذا التأليف سوى أنهُ جمع فيه شيئاً كثيراً من المترادفات لموضوعات شتى كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والمفروش والمركوب والحلى والجواهر وغير ذلك ولكن أين هذه الفائدة من التهافت على سحت[5] الكلام وانتهاك حرمة الأدب؟ ولهُ غير ذلك من المؤلّفات فضلاً عن جريدة الجوائب التي أصدرها ٢٣ سنة ووكل إدارتها في آخر مدتها الى إبنه سليم.

---

(١) واضحة. (٢) زلّات

(٣) الحادّ. (٤) المجون تجاوز حدود الأدب في المزاح وتفادى تحامى.

(٥) ما يجلب العار.

ولفارس الشدياق شعر رائقٌ حسن الديباجة[1] رقيق الحاشية متين العبارة يأخذ بمجامع الفؤاد. ومن أمثلة نظمه قولهُ يمدح باي تونس:

زارت سعاد وثوب الليل مسدولُ فما الرقيب بغير النشرِ مدلولُ[2]
وشاحها مثل قلبي لم يزل قلقاً وزندها أخرس الدملوج مجدولُ[3]
ما عاذلي في هواها غير ذي سفهٍ لم يدرِ أن الهوى للمرءِ تجميلُ
أمّا المديحُ فإنّي قد خصصت بهِ في وصف أحمدَ ما تُتلى أقاويلُ
ملكٌ يُجير إذا دهرٌ يجور فمن ناداه كان لـه كالجـار تنفيلُ[5]
يعطي الجزيلَ ابتداءً وهو معتذرٌ حتى الكثيرُ من الإطراءِ تقليلُ[6]
لمـا بـدا بفـرنسـا نـورُ طلعتـه ومن يديهِ لهم سحّت أهاليلُ[7]
غار الحيا منه حتى قال قائلهم لنـا سحابـان مسؤول ومملولُ[8]
لم يبقَ في الشرق أو في الغرب من أحدٍ إلاّ وعنـهُ مـديحٌ فيـه منقـولُ
أن يُشركَ الناسَ في الأسماء فهو بما لهُ من الفضل لم يشركه تفضيلُ[9]
ساسَ البلادَ بعدلٍ ليس يصرفهُ لهـوُ المعيشـة عنـهُ والأبـاطيـلُ

---

(١) الديباجة من الوجه حسن بشرتهِ استعيرت للكلام.
(٢) سدل الثوب أرخاه والنشر الرائحة الطيبة.
(٣) شبه قلادة من أديم عريض يرصع بالجواهر تشدهُ المرأة بين عاتقيها وكشحيها وأخرس الدملوج كناية عن امتلاء زندها وزند مجدول محكم الفتل.
(٤) عذلهُ لامهُ وجمّلهُ زيّنهُ.
(٥) أجارهُ أغاثهُ وجار يجور ظلم ونفّل عنه دفع عنهُ وحماهُ.
(٦) يعطي ابتداء أي دون أن يسأل والإطراء المدح.
(٧) سحّ المطر اشتد انصبابه والأهاليل جمع أهلة جمع هلال وهو الدفعة من المطر.
(٨) الحيا المطر والسحاب المسؤول هو الأمير والسحاب المملول هو الماطر وملّ الشيء ضجر منهُ.
(٩) أي إذا شاركهُ بعض الناس في الإسم فليس لهُ شريك في الفضل.

مُلّيت يا تونسُ الخضراء حضرتهُ ما دام في الأرض قطرٌ وهو مأهولُ[1]
إن كان في مصرٍ يرجى النيل آونةً ففيكِ في كل آنٍ جودهُ نيلُ
أو إن تكن عجمٌ تُزهى بأرضهم ففي سمائك كلّ الفجر مشمولُ[2]
حمداً على عوده الميمون يقدُمُهُ عزٌ ونصرٌ وتعظيمٌ وتبجيلُ[3]
ما غاب عن بلدٍ إلاّ ونائلهُ فيه مقيمٌ بهِ الأيسارُ مكفولُ[4]
في الغرب حضرتُهُ والأرض قاطبةً ثناؤهُ بالدعاءِ الدهرَ موصولُ[5]
ظِلّ الالـهِ وداعيه ونائبهُ وسيفهُ لاجتياح الضدّ مسلولُ[6]
وهل يناويه إلاّ الأخسرون ومن إليهم الحتف قبل الفتح تعجيلُ[7]
مؤيّد العزم والرحمان ناصرهُ مسدّدُ الرأي والمقدور مجهولُ[8]
إن ينو أمراً فإنّ الحقّ مقصدُهُ أو يقضِ أمراً فبالتوفيق مفعولُ
أدامهُ الله فخراً للورى وعلى هاماتهم من أياديهِ أكاليلُ[9]
ودام مبتهجاً هذا الزمانُ بهِ ما إن تلا قارئٌ حَم تنزيلُ[10]

وكان فارس الشدياق مع رجاحة عقله وحصافة رأيه[11] واهي العقيدة

---

(١) ملّى الله عمر فلان أطاله وقطر مأهول عامر بأهلِهِ.
(٢) زُهي الرجل تاه وشمل الأمر القوم عمّهم.
(٣) الميمون المبارك يقدمه يسبقه.
(٤) النائل العطاء والأيسار الغنى.
(٥) قاطبة جميعاً والثناء المدح يقول أن حسن ذكرِهِ جعل الدنيا قاطبة حضرة لهُ ولا يثنى عليه أحد ألاّ قَرن ثناءهُ بالدعاء لهُ.
(٦) ظلّ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (أي الأمير) ظلّ الاله واجتاح أهلك والضدّ العدوّ.
(٧) ناوأه قاومه والحتف الموت وبين الحتف والفتح جناس مقلوب.
(٨) مؤيد مقوّى ومسدّد الرأي مستقيمه والمقدور بمعنى القدر والواو في قولِهِ والمقدور حالية.
(٩) الورى الخلق والهامات الرؤوس واياديي النعم.
(١٠)وحم (حاميم) لفظ تفتتح به بعض سور القرآن وقولهُ تنزيل إشارة الى ما جاء في القرآن بعد حم: تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم.
(١١) جودتِهِ وأحكامِهِ.

مذبذباً[1] في الدين فلما عاشر الأميركان جنح[2] الى البروتستانية ثم نزل تونس فأسلم وتسمى أحمد. وهذه خلة ذميمة في كل إنسان فكيف بمن منّ عليه الخالق سبحانه وتعالى بالمواهب الغزيرة والمدارك السامية. وقد أخبرنا ثقةٌ من أنسبائِهِ كثير الإطّلاع على أحوالِهِ أن الرجل لما أحسّ بدنّو أجله عاد الى نفسه وأقرّ بخطاياه بين يدي كاهن كاثوليكي ومات على دين أجدادِهِ نادماً تائباً.

(١) متردداً. (٢) مال.

يُوسُفُ الأسير

(١٨٩٠م ١٣٠٨هـ)

هو الشيخ يوسف إبن السيد عبد القادر الحسيني الأسير. وُلد بصيداء ومال من صغرِهِ الى الأدب فأخذ مبادىء العلم وحفظ القرآن في بلدِهِ ثم قصد دمشق ودرس مدة في المدرسة المرادّية وهاجر الى مصر وتفقّه في الجامع الأزهر على جماعة من شيوخ العلم المشهورين وكان على جانب من الذكاء والفطنة والرغبة في اقتباس المعارف فأعجب به أساتذته وأثنوا على فضله وأدبِهِ ولم يزل يكد في التحصيل حتى نبغ في كافة العلوم العقلية والنقلية التي تقرأ في الأزهر.

ثم عاد الى سوريا وتنقل في مدنها وتقلّد عدة مناصب حمدت فيها آثاره فسكن صيداء وطرابلس وبيروت ولبنان وانتقل الى الأستانة فتولّى رئاسة التصحيح في نظارة المعارف وتدريس العربية في دار المعلمين الكبرى وكان لهُ عند علماء الأستانة ومشايخها مكانةٌ عاليةٌ وحرمةٌ وافرةٌ لما آنسوا من نُبْلِهِ[1] وفضله وسعة علمه. ولم تطب لهُ الإقامة طويلاً في عاصمة السلطنة فرجع الى وطنه وأقام في بيروت منقطعاً إلى المطالعة والتأليف وافادة الطالبين الذين يقصدونه وكان شديد الرغبة في بث العلم ونشره بين طبقات الشعب وتقريب مناله لكل مريد.

وكان الشيخ يوسف الأسير عالماً فاضلاً بليغاً وشاعراً فصيحاً وأديباً متفنناً لطيف المحاضرة لينّ العريكة[2] زاهداً في حطام الدنيا وأباطيلها.

(١) آنس أبصر وعلم والنبل الفضل. (٢) سلس الخلق.

ومن تآليفه «رائض الفرائض» في الفقه وشرح «أطواق الذهب» للزمخشري ولهُ ديوان شعر حسن يُعرف «بالروض الأريض».

إبراهيم الأحْدب

(١٨٩١م ١٣٠٩هـ)

وُلد الشيخ إبراهيم الأحدب بطرابلس الشام وكلف[١] منذ الصبا في اقتباس العلوم فأقبل على الدرس وتخرج على شيوخ بلدِهِ ثم انقطع الى التبحّر[٢] في العلوم الدينية واللسانية فأتقنها جميعاً وأصبح نابغة عصرِهِ في الفقه والكلام والحديث والتفسير والفرائض[٣] والنحو واللغة وفنون الأدب وأمّا الشعر فكانت لهُ فيه قريحة عجيبة وقوةعارضة[٤] نادرة المثال حتى بلغ مجموع ما نظم نحو ثمانين ألف بيت وقلما اتفق ذلك لغيره من الشعراء.

ورحل الى الأستانة فلقي من عُلَمَائها التجلّة والإعزاز وعرَّج[٥] على القطر المصري فبالغ فضلاؤه في الإحتفاء به وسكن بيروت مدة طويلة خدم فيها الآداب والوطن بمن اشتغل عليه من طلاّب العلم وما وضع من التصانيف الجليلة. وتقلّد الخطط العالية والمناصب الخطيرة فاشتهر بعلّو الهمة ونزاهة النفس وتحدّث الناس بكرم أخلاقهِ وأريحيتهِ[٦] وكان في أثناء ذلك لا يمل

---

(١) أُولع.

(٢) التوسّع والتعمّق.

(٣) علم الفرائض ما يعرف بِهِ كيفية تقسيم الميراث على مستحقيهِ.

(٤) القدرة على الكلام.

(٥) مال إليه وقصده.

(٦) خصلة يرتاح بها المرء الى المحامد.

التأليف ويراسل الأدباء والشعراء في أنحاء العالم العربي ويمدح بقصائده الطنّانة الأمراء والوزراء وأكابر الفضلاء.

ولهُ تصانيف عديدة منها ثلاثة دواوين شعرية وثمانون مقامة جارى فيها الحريري زعيم هذا الفنّ و« فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق » نسجها على منوال مقالات الزمخشري و« فرائد اللآل في مجمع الأمثال » نظم فيه أمثال الميداني وشرحها شرحاً مطوّلاً وقد طبع هذا الكتاب طبعاً متقناً بحرف أنيق مشرق وميزت الأمثال عما سواها باللون الأحمر الزاهي فجاء تحفة نفيسة من تحف الطباعة العصرية التي أبرزتها مطبعة الآباء اليسوعيين الأفاضل. ولهُ « كشف المعاني والبيان غن رسائل بديع الزمان » وغير ذلك مما يطول تعداده.

ومن أمثلة نظمه قولهُ في قصيدة أرسلها الى الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني الشهير:

خذوا بثاري من قدود الحسان ... فهنّ أثخنّ جراح الجنانْ[1]
تلومني أن همت في شادنٍ ... في حبّه دمعي لهُ أيّ شان[2]
أبدى الحريريّ على خدّهِ ... مقامةً تنسي بديع الزمان[3]
شاعر قطر الشام من أصبحت ... لهُ أيادٍ ببيان المعانِ
صرفيّ فضلٍ ما نحي نحوُهُ ... لهُ بنقد الشعر أمسى يدان[4]
أقلامهُ في الطرس تُبدي لنا ... أغصانَ روضٍ أو فروعَ القِيَان[5]

---

(١) أثخن الجراح بالغ فيها والجنان القلب.
(٢) الشاذن ولد الظبية والشأن مجرى الدمع.
(٣) الخدّ الطريقة والأسلوب وأبدى أظهر.
(٤) نحا نحوهُ قصدهُ ونقد الشعر أظهر مواضع الخطأ فيه ومواضع الصواب ولهُ في الأمر يد أي قوة وفي هذه الأبيات تلميح إلى الفنون التي اشتهر بها الشيخ ناصيف اليازجي.
(٥) الطرس الصحيفة وأبدى يبدي أظهر وفروع جمع فرع وهو من المرأة شعرها والقيان جمع قينة وهي الجارية المغنية.

كم أَلِفٍ خُـطّت لنـا همـزُها ... ورقاءُ قد قامت على غصن بان[١]

أين عيون البيض من سودهـا ... إذا جـرت في كفِه والبنـان[٢]

أخْـرَجَ من كنـز المعـاني لنا ... جواهراً أزرت عقـودَ الجمان[٣]

صـرّح بأنّ الفضـل أمسى لـهُ ... ودع أحاديث فُلٍ أو فـلان[٤]

فقـل عـلاهُ مُبتـداً في الـورى ... من غير إخبارٍ ودع ذكر كان[٥]

والفـرق دانٍ أنـه في العـلى ... يقصُرُ عن إدراكِهِ الفـرقدان[٦]

---

(١) الورقاء الحمامة الرمادية اللون. شبه الهمزة فوق الألف بورقاء قامت على غصن بان وفي ذلك إشارة الى حسن خط الشيخ ناصيف.

(٢) البنان الأصابع واحدها بنانة.

(٣) أزرى به وضع من شأنهِ وحقره وعقود منصوب على نزع الخافض والجمان اللؤلؤ والواحدة جمانة.

(٤) فل مقتطع من فلان وهو خاصّ بالنداء فيقال يا فُل ولا يجيء لغير النداء إلاّ ضرورة كما ترى في البيت.

(٥) يقول أن رفعته في الخلق ابتداء لم يكن لها نظير في أخبار الأقدمين ولا يخفى ما في البيت من التوجيه.

(٦) دانٍ قريب والفرقدان نجمان قريبان من القطب الشمالي.

سليم بك وبشارة باشا تقلا

(١٨٩٢ م - ١٣١٠ هـ
١٩٠١ م - ١٣١٩ هـ)

هما مؤسسا جريدة الأهرام الشهيرة وشيخا الصحافة في البلاد المصريّة ولد سليم بن خليل تقلا بكفر شيما وقرأ مبادىء العلوم بقريته ثم دخل مدرسة عبيه الأميركانية وامتاز بدماثة[1] أخلاقه وحدة ذكائهِ واجتهادِهِ في تحصيل المعارف. وشبت[2] في تلك الأثناء نيران الفتنة المشهورة (سنة ١٨٦٠) واتصلت بعبيه وما جاورها من القرى فنزل سليم تقلا الى بيروت ودخل المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني واستأنف[3] الدرس وما زال يكدّ ويجدّ حتى تفوّق على أقرانه وأُعجب أساتذته بقوة عزيمته ونادر ثباته ولّما أتمّ دروسه انتدبتهُ[4] المدرسة البطريركية لتعليم العربية فأبدى من النشاط والبراعة ما حببهُ الى أولي الأمر فولّوه رئاسة الأساتذة وتدبير شؤون المدرسة. وأسعدته وظيفته بالتقرّب من الشيخ ناصيف اليازجي فكان يلقي عليه مشاكلهُ[5] اللغوية ويستفيد من واسع علمه حتى رسخت قدمُه في فنون اللغة وألّف كتاباً في النحو سمّاه «مدخل الطلاب» اعتمدته المدرسة في تدريس العربية لسهولته وحسن تدبيره ثم حدثته نفسه عن الرحيل إلى مصر لما بلغه من أريحية أميرها وتقديره أرباب العلم والأدب حق قدرهم وإطلاقه لهم حرية القول والكتابة فقصد وادي

---

(١) لين.
(٢) اتقدت.
(٣) جدد.
(٤) دعته.
(٥) المشكل الأمر الملتبس.

النيل وتقرب إلى الخديوي إسماعيل بقصيدة رنّانة وقعت عنده موقع القبول ومهّدت له سبل النجاح في الحصول على امتياز[٢] بإصدار جريدة الأهرام وقد لقي في سبيل نشرها من العقبات وعانى من المسقّات ماتني له عزائم الرجل وتحبط[٣] فيه مساعي من كان دونه حزماً واقتداراً.

ولّما كانت الثورة العرابية اضطرّ الى المهاجرة وأحرقت مطبعة الأهرام وذهب قسم كبير من كتاباته ومؤلّفاته طعمة النيران غير أن ذلك لم يكن ليكفه عن إستئناف العمل فما كادت تنقشع غياهب الثورة[٥] حتى عاد الى مصر وأصدر الأهرام ثانية وبذل في تحريرها وتحبيرها وترقيتها من الهمة والعناية ما فوق الطاقة فذلّت لهُ الصعاب وخدمهُ النجاح وذاعت صحيفته في الآفاق وأصبحت في مقدّمة الجرائد العربيّة شهرة وانتشاراً.

وكان سليم تقلا كاتباً بليغاً وصحافياً ماهراً وشاعراً فصيحاً ووطنيّاً صادقاً ليّن الجانب رقيق الخلق معروفاً بسهولة المعاملة وحبّه للمسالمة عند الناس جميعاً وهي مناقب حميدة ومزايا سامية لا بدّ منها لكل من تحرّى[٦] إرضاء الخاصة وخدمة العامة.

وأصيب في آخر حياته بألم في القلب فقصد لبنان لتغيير الهواء فلم يجده[٧] التبديل نفعاً وما عتّم أن قضى نحبهُ وكان ذلك سنة ١٨٩٢.

وأمّا أخوهُ بشارة فولد أيضاً بكفر شيما وتلقى العلوم في المدرسة الوطنية وأتمّها في المدرسة البطريركية ثم قضى سنتين في مدرسة عين طورة يعلم

---

(١) سهلت.
(٢) رخصة تمنحها الحكومة بتعاطي عمل من الأعمال.
(٣) تذهب باطلاً.
(٤) أخذ الأمور بالضبط والتدبّر.
(٥) إنكشفت ظلماتها.
(٦) تعمّد وقصد. (٧) أجدى عليه أنعم.

ويتعلّم الى أن استقدمه أخوهُ سليم الى الديار المصرية فجاءها وشرع يعاونه ويشدّ أزرهُ[1] في تذليل الصعاب وتمهيد العقبات الشاقة التي اعترضتهما في إنشاء جريدتهما. ولم يكن بشارة دون أخيه ذكاءً وحزماً وهمةً وإقداماً وجرأة على اقتحام[2] الأخطار وركوب كل مركب خشن في سبيل النجاح وترقية الصناعة التي احترفها.

وما زال مشاركاً لشقيقهُ في السرّاء والضرّاء الى أن مُني بوفاتِهِ فآلت إدارة الأهرام إليه وحدهُ فقام بأعباء[3] هذا المشروع خير قيام وسلك بجريدتِهِ مسلك الدراية والجدّ والثبات حتى نالت باجتهادهِ وحسن سعيه أعلى مقام بين الجرائد العربية فنهج[4] لمن تبعه من الكتّاب سبل الصحافة وكان لهم بمنزلة الأستاذ الخبير والمرشد البصير وقد خدم العلم والآداب بما بذل من السعي الدائم في نشر المعارف بين الناس وترغيبهم في المطالعة حتى كثر إقبال الناس على قراءة الصحف وإهتمامهم لأمور السياسة واستطلع طلع[5] الحوادث مما حدا عدداً وافراً من الكتّاب الى إنشاء الجرائد وكانت الصحافة العربية قبل الأهرام أكسد الحِرَف بضاعة وأكثرها استهجاناً[6] في عيون القوم.

ونال بشارة تقلا من الجاه والرفعة ما لم ينله كاتب شرقيّ قبله وكثيراً ما تردّد الى الأستانة والعواصم الأوربية فقابل الملوك والأمراء والوزراء وزعماء السياسة ولقي منهم رعاية وحفاوة[7] وإعزازاً وإعجاباً بمناقبه ومعارفِهِ السياسية ونال المكافآت الكثيرة من لدن جلالة السلطان والدول الأجنبية.

---

(١) ظهرهُ.
(٢) إقتحم الخطر رمى بنفسه فيهِ.
(٣) أحمال.
(٤) أوضح وأبان.
(٥) إستكشاف باطن الأمر.
(٦) إستقباحاً.
(٧) المبالغة في الإكرام.

ولم تكن المنزلة السامية التي رقي إليها ذلك الرجل العصاميّ لتستفزهُ[1] الى العجب والترفع فقد كان لينَ العريكة وديع الأخلاق كثير المجاملة والمسالمة مشهوراً برأفته ورفقِهِ بمستخدميهِ غيوراً على مصالح وَطَنِهِ وخدمة مواطنيه ولا سيما الضعفاء منهم وهذا ما جرّهُ الى تسطير مقالة شهيرة بعنوان « ظلم الفلاح » نشرها في الأهرام سنة ١٨٧٩ واستهدف[2] بها لصواعق إسماعيل باشا فعُطِّلت جريدته وسُجن وإضطرّ أخوه سليم الإستتار. ومقالاتهُ التي حلّى بها جيد[3] الأهرام وأبدى فيها من البراعة والحنكة والمقدرة السياسية أكثر من أن تحصى.

---

(١) تستخفهُ.

(٢) جعل نفسهُ هدفاً وهو الغرض ينصب للرمي.

(٣) عنق.

علي باشا مبارك (١٨٩٣م ١٣١١هـ)

ولد في قرية برنبال من مديرية الدقهلية بمصر وشغف[١] بالعلم من صغرهِ وقاسى في تحصيلهِ غصص المحن ومضض[٢] الأوجاع ولم يزل يسعى حتى دخل مدرسة القصر العيني ثم مدرسة الهندسة واقتبس من العلوم الرياضيّة ما تيسر لهُ وأُرسل الى باريس بأمر محمد على باشا فدرس فنّ الحرب وأُلحق عند عودتِهِ بالجيش المصري وعهد إليه عباس باشا الأول بوضع نظام للمدارس فشرع في العمل ورفع تقريراً أعجب الأمير فأنعم عليهِ وولّاه نظارة المدارس وتنفيذ[٣] القانون الذي سنّه فأحسن القيام بذلك جميعهِ.

وإنتشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فأُوعز إليه بالمسير مع الحملة المصرية لمساعدة تركيا فسافر وحضر حرب القريم وعاد سالماً إلاّ أنّ الحسّاد حالوا بينه وبين الأمير فأُخلي سبيلهُ من العسكرية وظلّ مقصيًا[٤] منسيّاً مدة ولاية سعيد باشا فصبر صبر الكرام وتفرّغ للآداب حتى وليَ الأريكة الخديوية إسماعيل باشا فأخرجه من زوايا الاهمال والحقه بمعيتة فعلا مقامهُ بعد الخمول واخضلّت[٥] أغصان آمالِهِ بعد الذبول.

---

(١) أولع.
(٢) حرقة.
(٣) إجراء.
(٤) مبعداً.
(٥) إخضرّ وصار رطباً.

وتوالت على إثر ذلك الوكالات والنظارات ورئاسة الدواوين والمهامّ الخطيرة التي عُهد إليه بها وقد أبدى فيها كلها من الهمّة والنشاط والحنكة وبعد النظر ما أنطق الألسنة بالثناء عليه ووجّه التفات أولياء الأمر إليه فأُنعم عليه بالإمتيازات والرُتب وأهدت إليه أعاظم الدول الأجنبية الأوسمة(١) الفاخرة دلالة على ارتياحها الى معاملته وحسن دربته. ولهُ المآثر الغرّاء في إنشاء المدارس وترتيب أساليبها وتوسيع نطاق الدروس وتنشيط أرباب العلم وتعزيز جانب الآداب وهو الذي أنشأ المكتبة الخديوية الشهيرة ففتح كنوز الفوائد للعلماء والأدباء وسهّل لهم الإطّلاع على المؤلّفات النفيسة وجعلها منهم على حبل الذراع(٢).

وكان عليّ مبارك رجلاً هماماً حازماً ووطنياً صادق الخدمة لبلادهِ خبيراً بتقلبات الأمور مطّلعاً على أطوار الرجال ولمّا هبت زعازع(٣) الفتنة العرابية لم يكن ليغترّ بهدرات المتشدّقين(٤) المدّعين الإصلاح وإن هم إلاّ رسل الخراب يعيثون(٥) في الأرض فساداً وظلّ محافظاً على ولاء الأمير يدعو القوم الى الطاعة ويشدّ أزر مولاهُ بما استطاع.

ولهُ آثار أدبية حسنة أشهرها « الخطط(٦) التوفيقية » نسبة الى توفيق باشا خديوي مصر وهو تكملة لخطط المقريزي نسجهُ على منوالهِ ووصف فيهِ ما استحدث في مصر من الخطط الجديدة وضمّنهُ فوائد صناعية وفنّية وتاريخية كثير الفائدة. وله « تقريب الهندسة » و« عَلَم الدين » على شكل رواية أدبية عمرانية في عدة أجزاء أودعها الفوائد الجمة. ومؤلّفات أُخر في الرياضيّات تشهد بطول باعه وتضلّعهُ من الفنون التي تعاطاها.

---

(١) جمع وسام وهو علامة فخرية تنعم بها الدول على من أتى عملاً مجيداً.
(٢) هو عرق في الذراع يضرب مثلاً للقرب.
(٣) ريح زعزع شديدة تزعزع الأشياء.
(٤) الهدرات جمع هدرة وهي المرة من هدر البعير إذا ردّد صوتهُ في حنجرتهُ وتشدّق بكذا ملأ به شدقيه.
(٥) يفسدون أشر الفساد.
(٦) جمع خطة وهي الأرض تخط للبناء.

عبد الله نديم

(١٨٩٦م ١٣١٤هـ)



هو السيد عبد الله بن مصباح وينتهي نسبه الى إدريس الأكبر من أسباط[١] الحسن بن علي. وُلد بالإسكندرية وقرأ العلوم على مشاهير شيوخ زمانِهِ فأتقن الفقه والأصول والمنطق وعلوم اللغة وفنون الأدب ونظم الشعر فأحسن وبرع وحبّر المقالات الفريدة فأجاد وأبدع وكانت لهُ في الكتابة أساليب خاصة وفنون مستحدثة يعجب بها الأدباء ويتسابقون الى الوقوف على نفثات قلمِهِ السيّال فيتناشدون قصائدهِ الرقيقة ويتجاذبون فصولهُ الأنيقة وكلّ يحرص على التعرّف بِهِ والتقرب إليهِ بحيث كان مجلسه نادي[٢] رجال العلم وحملة الأقلام لا يخلو من مباحثة لغوية ومطارحة[٣] أدبية ومساجلة شعرية

(١) السبط ولد الولد.

(٢) مجتمع.

(٣) طارحه الكلام ناظرهُ فيه وجاوبهُ.

ومفاوضة[1] سياسية وهو في أثناء ذلك ينثر من لآلِيء نثره ما يبهر الكتّاب وينظم من قلائد شعرِهِ ما يفتن الألباب.

ثم مال الى السياسة فأخذ يعقد الجمعيّات وينشيء الجرائد والمجلات وينشط المشروعات الوطنية ويسعى في نشر المعارف وتعميم فوائد العلم ويشدّ أزر كل داع الى الإصلاح وترقية الشعب وتهذيبه وتنويرهِ وقد وقف على المصلحة العامة ما أوتي[2] من المواهب والمقدرة الأدبية وما كاد يقوم قائم الثوّار العرابيين حتى جنح الى حزبهم[3] ومالأهم على مقاصدهم وتمكنت منهُ مزاعم القوم لما سمع من تشدقهم بإصلاح الفساد واستنقاذ البلاد وتحرير رقاب العباد ولمّا كان عبد الله نديم خطيباً مفوّهاً[4] سريع الخاطر قويّ العارضة استهوته النفس الى خوض غمرات الجهاد ودعوة القوم الى الدفاع عن حوزة الوطن بحيث أصبح لسان حال الخوارج وخطيب الحزب الوطني.

وكان من أمر الثورة ما كان واختفى عبد الله نديم وظل عشر سنوات ينتقل في بعض الجهات فبثّت الحكومة في إثرِهِ العيون[5] والأرصاد وجعلت الجعائل لمن يدلّ عليه وهو يضلّل الرقباء بالتنكّر فيتزيّا تارة بزيّ الدراويش وطوْراً بزيّ المغاربة وغيرهم الى أن قُبض عليه أخيراً وأُمر بالخروج من مصر فقصد يافا وتجول في أنحاء فلسطين مدّة ثمّ عفي عنه فعاد الى مصر إلاّ أنه ما عتم أن كُلّف مغادرة[6] مصر ثانية فعاد الى يافا ثم رحل الى الأستانة فعينّ مفتشاً للمطبوعات ونال حظوة كبيرة عند جلالة السلطان وعظماء القوم وعلمائهم واتّصل هنالك بفيلسوف الشرق الشهير جمال الدين الأفغاني فتمكّنت بينهما عرى[7] الصداقة ورأى كلّ من صاحبِهِ فوق ما سمع.

---

(١) محادثة. (٢) أعطى.

(٣) مال الى عصبتهم. (٤) بليغاً.

(٥) الرقباء. (٦) ترك.

(٧) جمع عروة وهو كل ما يؤخذ باليد ويتمسك به من حلقة ونحوها.

وللسيد عبد الله نديم مؤلّفات كثيرة فُقد أكثرها ومما أبقى عليه الدهر ثلاثة دواوين شعرية وبعض رسائل وروايتان تمثيليتان « الوطن » و« العرب » وقد جُمعت منتخبات من أقوالهُ في كتاب سُمّي « سلافة[1] النديم في منتخبات السيد عبد الله نديم » ومن أمثلة نظمِهِ قولِهِ يصف القطار البخاري:

نـظر الحكيم صفـاتِـهِ فتحيّـرا ... شكلاً كطودٍ بـالبخار مسيّـرا[2]
دومـاً يحنّ الى ديـار أصـولـهِ ... بحـديـد قلب بـاللهيب تسعّـرا
ويـظلّ يبكي والـدمـوع تـزيـدهُ ... وجداً فيجري في القضاء تستّرا
تلقاهُ حال السـير أفعى تلتوي ... أو فارس الهيجا أثار العِثْيرا[3]
أو سبعَ غابٍ قد أحسّ بصائدٍ ... في غابِهِ فعـدا عليه وزمجـرا[4]
أو أنها شهبٌ هوت من أفقها ... أوقبـةُ المنـطاد تنبـذ بـالعـرا[5]

---

(١) خمرة.

(٢) الطود الجبل.

(٣) الهيجا الحرب والعثير الغبار.

(٤) عدا عليه هجم عليه.

(٥) الشهب جمع شهاب وهو الكوكب الذي يخيل للرائي أنه يسقط من السماء ونبذ طرح

(٦) والعراء الفضاء.

محمد عبده (١٩٠٥ م ١٣٢٣ هـ)

وُلد الشيخ محمد عبده بمحلّة النصر وهي قرية صغيرة من مديرية البحيرة بمصر وكان أبوه يتعاطى الفلاحة وأدخل فيها أولادهُ إلاّ محمداً فأنّهُ عزم على تعليمهِ لما توسّم(١) فيه من مخايل النجابة والذكاء فقرأ الولد مبادىء العلم في مكاتب ناحيتهِ ثم أرسلهُ والده الى الجامع الأزهر فأحرز جانباً صالحاً من العلوم بكدِّهِ واجتهادهِ واستنبط لنفسه أسلوباً في المطالعة غير الأسلوب المعتمد عليه في تدريس الطلبة عاد عليه بالنفع الجزيل وأُولع من ذلك الحين بالتبحّر في العلم والإزدياد منهُ كلما سنحت(٢) له الفرصة.

وورد مصر في تلك الأثناء الفيلسوف العلامة جمال الدين الأفغاني وتولى تعليم المنطق والفلسفة فانتظم محمد عبده في سلك تلامذته واغترف من بحر علمِهِ الزاخر وأخذ نفسهُ بتقيّل(٣) أستاذهِ في أخلاقهِ وآدابهِ وعلومِهِ فدبّت فيه روح جمال الدين وأصبح نابغة زمانه في العلوم الدينية والعقلية واللسانية فضلاً عن روح الحرّية وعلو الهمّة وعزّة النفس التي اقتبسها كلّ من اتّصل بذلك الرجل العظيم. ولم تكن مناقب التلميذ لتخفى على إستاذهِ فأنهُ رأى ببصيرتِهِ النقّادة ما سيكون منهُ ولمّا قُضي عليه بالخروج من مصر لأسباب سياسيّة قال

---

(١) نظر إليه ليعرف أمره.

(٢) عرضت.

(٣) التشبه به.

لبعض خاصّته: « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى بِهِ لمصر عالماً ».

واشتغل بعد ذلك بالمطالعة والكتابة والتأليف وتقلّد عدة مناصب قام بها أحسن قيام حتى كانت الثورة العرابية فوافق أصحابها وأيّدهم[1] بما عنده من السلطة الأدبية وأفتى[2] بخلع الخديوي توفيق باشا ثم انجلت غياهب الثورة عما هو معلوم وقبض على الشيخ محمد عبده وحكم عليه بالنفي فقصد سوريا وحلّ فيها ضيفاً كريماً عظيم الحرمة معزّز الجانب يقصدهُ فضلاءُ القوم ويستفيدون منهُ علماً وأدباً وفضلاً غزيراً.

وأقام في سوريا ست سنوات ثم لحق بأستاذه جمال الدين في باريس وأنشأ هنالك جريدة « العروة الوثقى » فدبَّج فيها الشيخ محمد عبده المقالات الرنانة وحلاّها بدرر علمه وغرر أدبه فترامت شهرتها في الآفاق الاّ أنها لم تعش طويلاً. وانتهز فرصة اقامته بباريس لدرس اللغة الفرنسية. ثم عفي عنه فعاد الى وطنه وولي الخطط الرفيعة وعين أخيراً مفتياً عاماً للديار المصرية وظل في هذا المنصب الخطير إلى وفاته.

---

(١) قواهم.

(٢) أدى الفتوى وهي الحكم في مسألة شرعية.

وكان الرجل جليل المناقب[1] شريف المزايا غزير العلم والفضل فسيح الذرع[2] حصيف الرأي قويّ الحُجّة بليغ اللسان دَمِث الأخلاق رَحْب الصدر بعيداً عن المقيت[3] وهو مع ذلك شديد التمسك بدينه حريصاً على كرامته وإقامة شعائرِهِ[4] وقد وقف مواهبه ومداركه على إصلاح قومِهِ ورفع شأن ملّته وتمهيد سبل النجاح لبني جنسِهِ وهي الأمنية التي سعى إليها سعياً حثيثاً[5] طول عمرِهِ والى ذلك أشار في قولِهِ من قصيدة نظمها قبيل وفاتِهِ:

ولستُ أُبالي أن يقال محمدٌ أَبَلّ أو اكتظّت عليهِ المآتمُ[6]
ولكنّ ديناً قد أردتُ صلاحُهُ أحاذرُ أن تقضي عليهِ العمائمُ

ومن آثارِهِ تعريب رسالة لأستاذه عنوانها « الرد على الدهريين[7] » صدرها بترجمته ولهُ شرحٌ نفيس مطول على مقامات بديع الزمان تزيد فوائدهُ على فوائد المتن نفسه وشرحٌ على مجموع خطب الإمام عليّ المعروف « بنهج البلاغة ».

---

(١) المكارم.
(٢) كناية عن مقدرته.
(٣) البغيض.
(٤) عبادته.
(٥) سريعاً.
(٦) أبلّ بريء واكتظ ازدحم والمآتم جمع مأتم وهو المناحة.
(٧) الذين يقولون بقدم الدهر وينكرون البعث.

إبراهيم بك المُوَيلحيّ

(١٩٠٦م ١٣٢٣هـ)



هو إبراهيم المويلحي المصريّ. كان نادرة في الذكاء، وتوقّد الذهن والإقتدار على تفهّم الأمور، والإحاطة بخفاياها، وكشف غوامضها ولد في القاهرة ونشأ ميّالاً الى الأدب، والشعر. تعاطى في صدر حياته تجارة ورثها عن والِدِهِ، إلاّ أن الطمع أودى بها فاستنزفت المضاربة كلّ ثروتِهِ وأثقل الدين عاتقه، فأمدّه إسماعيل باشا الخديويّ بالمال. واستخدمه ولم تكن مهامّ التجارة ولا الشؤون السياسية لِتُضعف ميله الى الأدب فأسّس شركة لنشر الكتب، وتسهيل اقتنائها، وأنشأ مطبعة باسمه لهذه الغاية، وأصدر جريدة غير أن مساعيه لم تكلّل بالنجاح.

ولمّا سافر إسماعيل باشا الى إيطاليا، إستقدم المترجم، فأقام لديه مدّة، ثم قصد القسطنطنيّة فألقى عصا الترحال، وإستوطنها خلال عشر سنوات،

فلم يبلغ أمانيه، ولعلّ في سرعة تقلّبه، وشدّة رغبته في النجاح السريع، وتشتيت قواه سببا من أسباب إحباطه. ولما عاد من أسفارهِ الى مصر، كانت ملكة إنشائهِ قد نضجت بالممارسة، والإختبار، ومؤالفة أعاظم الرجال فعلق يدبّج المقالات السياسيّة، والأدبية الشائقة في الجرائد، ثم أنشأ « مصباح الشرق » جريدته الأسبوعية ولم يزل عاملاً في خدمة الصحافة مخلصاً للوطن، وللأسرة العلويّة الكريمة، حتى توفّي، وهو في الثانية، والستين من عمرهِ.

وكان حلو المحاضرة، لطيف النادرة، سريع الخاطر، حسن الأسلوب، نابغة في الإنشاء الصحافيّ السياسيّ، متين السبك، رشيق السّنن، مع ميل الى النقد، والمداعبة، ولا يخلو انتقاده من لواذع، ولواسع، لا يحجم عن شحذ لسانِهِ على صديقه، وقريبه، ونسيبه، حتى قيل: « لم ينجُ من قوارص قلمه، إلاّ الذي لم يعرفه ».

يوسف الدِّبْس

(١٩٠٧م ١٣٢٥هـ)

هو يوسف بن إلياس الدبس الماروني وُلد براس كيفا من قضاء الجبّة ونشأ على التقوى والصلاح ولما ترعرع أرسلهُ المطران بولس موسى رئيس أساقفة طرابلس الى مدرسة عين ورقة الشهيرة فتلقى فيها العلوم الدينية واللسانيّة وأتقن السريانيّة ولما غادر المدرسة تفرّغ سنتين كاملتين لإتقان اللغة اللاتينيّة وكان قد أخذ بطرف منها في المدرسة والتعمّق في اللاهوت والفلسفة بحيث أصبح راسخ القدم في الفنون التي أخلى لها ذرعهُ يشار إليهِ بالبنان ويذكرهُ بالخير كلّ إنسان لما اشتهر من فضلِهِ وعلمِهِ ودربته وهو لا يزال في عنفوان الشباب تام القوى غضّ الأهاب لم يتجاوز العشرين ربيعاً. فاستقدمه حينئذٍ المطران بولس واتّخذهُ كاتباً لسرِّهِ. ثم انتدبه غبطة البطريرك للتدريس في مدرسة ما يوحنا مارون فلبّى الأمر وقام بهذه المهمّة خير قيام ورقّي في تلك الأثناء الى درجة الكهنوت المقدسة. وألفتت فضائله العديدة ومزاياه الفريدة أنظار البطريرك فآثر الإنتفاع بخدمِهِ فاستدعاه وعهد إليه بكتابة سرّه فتولى أعمال هذه الخطة الخطيرة بما لا مزيد عليهِ من الحنكة والصدق والتفاني في مصالح الطائفة فاستنطق الألسنة بالثناء على محامد خصالِهِ وحكمة أقوالِهِ وأفعالِهِ.

وكان الخوري يوسف الدبس مكبّا على العمل مُتوفراً لشؤون الوظيفة التي قُلّدها إذ فُجعت الطائفة بوفاة الطيب الذكر المطران طوبيا عون رئيس أساقفة

بيروت فاتّجهت أنظار البطريرك الى كاتب سرّهِ وآنس من لفيف المطارنة ارتياحاً الى استخلافهِ أبرشية بيروت. فحسر المطران الجديد عن ساعد الجدّ وأقبل يحرث كرم الربّ بهمّة ونشاط وعزيمة لا يدركها وناء ولا ملل ولا تزيدها الأيام إلّا قوّة وثباتاً فقضى خمساً وثلاثين سنة لا يلهو لهُ طرف ولا يسهو منهُ بال عن السعي في خير رعيتهِ والإهتمام بمصالحهم الروحية والأدبية والمادّية. وهذه آثارهُ الباهرة الغراء في أيدينا وبين ظهرانينا لا تزال ناطقة بفضلِهِ ذاكرة ما لهُ في خدمة الدين والآداب من الأيادي البيضاء شاهدة لهُ بعلّو الكعب وبُعْدِ الغور في العلوم الدينية والأدبية وصدق الخدمة والإخلاص والتفاني في سبيل المشروعات الوطنية. أما ما أتاهُ من عظائم الأعمال الروحيّة والمادّية فنكتفي بالإشارةإليها إذ ليست من غرضنا ونكتفي بذكر فضلِهِ في نشر العلم وترقية الآداب في هذا الوطن العزيز.

كان المطران يوسف الدبس نابغة عصرِهِ وعلّامةَ دهرِهِ في العلوم العقلية والنقليّة ففي المباحث الفلسفيّة كان جدليّا محنكاً ومناظراً دَرِباً قويّ العارضة دامغ الحجّة حاضر البرهان واضح الدليل سديد المنهج على رحابة صدرِهِ ونزاهة أسلوبِهِ ووفرة أدبِهِ بحيث لا يتمالك الخصم من الإعجاب به والتسليم لهُ. وفي المسائل التاريخيّة كان قريع وحدِهِ في الإحاطة بكلّيّاتها وجزئياتها وتمحيص مقدماتها ونتائجها وكثيراً ما كشف القناع عن جهات الحوادث وغوامض الأمور بما أُوتي من استنارة البصيرة وبُعد النظر وصحة الإنتقاد فضلاً عن كثرة اطّلاعِهِ وسعة محفوظه بحيث أصبح رأيه حجّة في تاريخ الشرق المدني والكنسي وهذا كتابهُ « تاريخ سوريا » أصدق شاهدٍ على تفوّقِهِ في هذا الفنّ الجليل.

ورُزِق صاحب الترجمة في الخطابة مَلَكة نادرة فكان إذا تسنّم منبر الوعظ بهر العقول بفصاحة منطقِهِ وبلاغة عبارته وحسن أُسلوبِهِ وإستولى على قلوب سامعيهِ وتصرّف في أهوائهم كيفما شاء فانقادوا الى دعوتِهِ وصدوروا عن رأيه لما خامرهم من صدق لهجتِهِ وقوّة برهانِهِ وسداد منهجِهِ. وقد جُمعت عدّة من

مواعظه وطبعت على حدة لما تضمّنت من الفائدة الدينيّة والأدبيّة فهي والحق يقال مشكاة تنبعث منها أنوار الحق الساطعة فتبدد دجى الأضاليل التي ركمتها الدهور وتمزق حجب التمويه والسِفْسِطة التي سدلتها أيدي العصور.

وللمطران يوسف الدبس مؤلّفات عديدة بين معربة وموضوعة في أغراض شتى فمن معرباته « تاريخ الأرطقات » للقديس الفونس ليغوري و« الرسوم الفلسفية » للأب لويس دوموفسكي و« الدروس اللاهوتية » للأب يوحنا بروني اليسوعي. ومن مؤلّفاته « تحفة الجيل في تفسير الأناجيل » و« سِفْر الأخبار في سَفَر الأحبار » وصف فيهِ المدن التي مرّ بها في سفرهِ بمعيّة البطريرك بولس مسعد الى رومة. ولهُ « مغنى المتعلّم عن المعلم » في الصرف والنحو على أسلوب سهل مستحدث و« روح الردود » أثبت فيهُ بالحجج الملزمة ثبات الموارنة في الإيمان الكاثوليكي منذ القدم الى أيّامنا وهذا الكتاب هو فصل الخطاب في هذه المسألة الخطيرة عند الطائفة المارونية وقد أملاهُ عليهِ قلبهُ وعقلهُ معاً. ومن مصنّفاته « مربّى الصغار ومرقّى الكبار » في واجبات الإنسان. إلّا أنّ رأس تآليفهِ وأشهرها « تاريخ سورية » من الخليقة الى أيامنا وهو كتاب كبير يقع في تسعة مجلّدات حشر فيهِ كل ما وصلت إليه يدهُ من الأخبار المتعلّقة بسوريا قربت أو بعدت مستعيناً بما اكتشفهُ الأثريّون من مخلّفات الأمم الغابرة ودوّنوهُ في كتبهم على كثرتها وتنوّعها وقد انتزع منهُ مختصراً في جزئين لتلامذة المدارس. الى غير ذلك من المؤلّفات التي لا محلّ لذكرها ههنا.

ومما لا يسعنا إغفال ذكرهِ فضلهُ على الآداب بتشييدهِ مدرسة الحكمة الزاهرة فقد تخرّج فيها من مشاهير الكتبة عددٌ غفيرٌ تغنى شهرتهم عن ذكرهم وكفى بهم شاهداً على ما لهذا المعهد العلمي من الخدم الجليلة في ترقية أبناء العصر وما لمؤسسه من الأيادي البيضاء على الناطقين بالضاد. فضلاً عن المدارس الإبتدائية التي أمر بإنشائها في أنحاء لبنان لتربية الناشئة من الجنسين على مبادىء الدين والعلم.

السّيد عليّ يوسف

(١٩١٣م ١٣٣٢هـ)



هو عليّ بن أحمد بن يوسف زعيم الحركة الوطنية المصرية، ولسان حالها، وفارس حلبتها، غير مدافع ،وُلد في بَلَصْفورة، من مديرية جرجا بصعيد مصر، وأخذ بقسط من العلم في مدينة بني عديّ، ثم اتّصل بالأزهر وهو في الثامنة عشرة من سنّهِ، فأقبل على اكتساب العلوم بجدّ ونشاط عظيمين، ومال خاصّة الى الأدب والشعر

إشترك بإصدار « المؤيّد » مع الشيخ أحمد ماضي، ولم يلبث أن إستقلّ بتحريره، بعد وفاة شريكهِ فحمل فيه الحملات العنيفة على الجرائد المؤيّدة للإحتلال، وخاصّة المقطّم، فكان لصوته صدى استحسان ردّده وادي النيل، من أقصاه الى أقصاه.

ولم يقتصر السيّد عليّ في أبحاثه على الشؤون الوطنيّة، بل تخطّاها الى مصالح العالم الإسلامي بأسرهِ، وأصبح « المؤيّد » بفضلِهِ، في مقدّمة الجرائد الراقية، ولسان حال المسلمين كافّة.

ولّما شعر أن سياسة العنف، والشدّة لا تثمر ثمر الرجاء، مال الى اللين والملاطفة، بيد أنه لم يزل متمسكاً بمبدأ الوطنيّة، والمطالبة بالجلاء الى أن وافته المنيّة، وهو في الخمسين من عمرِهِ.

وللسيّد علي يوسف ديوان شعر، نظمه في صباه، سماه « نسمة السحر » وأكثر ما فيه مقطعات، ومدح، وتهاني تحدّى فيها طريقة الأقدمين من التغزّل وذكر الأحبة، مما يتجافى عنه الذوق العصري، إلاّ أنّهُ سهل الأسلوب، منسجم التركيب، ومنه قوله في الدهر:

يا بارق الدهرِ! قد أبطأتَ بالمطر،
فاقرأ على السمع منّي صفحة الخَبَرِ،
فإنّ طولَ انتظارِ المرءِ مَتْعَبةٌ،
والناس تُألف دوماً راحةَ الفِكَرِ،

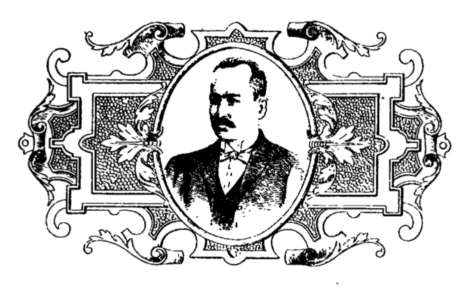
منها:

ما شئتَ، يا دهرُ! فافعل، إنّني جَلِدُ،
ما قلت عند خطوبي: « ضاعَ مصطبري »
أَرَشْتَ لي سهمَ غدرٍ، بان عن وَتَرٍ،
ولم أقل في الورى: « قد خانني وَتَري »
وكم تعدّيتَ، لا جرمٌ، ولا سبب،
ولم يغيّر جَناني حادثُ الغِيَرِ،
إذْ لستُ أرتاعُ من سهم تُسدّدهُ
نَحْوي. ولو كان فيه أعظمُ الضّررِ

آمنتُ بالله، هذا الدهرُ منعكسٌ
في صفحتيهِ لأهلِ الجدّ، والهَزَرِ
هذا اعتقادي، ولا يرتابني أحدٌ،
والحمدُ اللهِ، إني صادقٌ خَبَري.

أما نثره لذلك العهد، فهو مسجّع، على النسق القديم، يعتوره التكلّف، والتعمّل، بخلاف ما صار إليه فيما بعد.

جرجي زيدان (١٩١٤م ١٣٣٣هـ)



هو جرجي بن زيدان مـطر، من طائفة الروم الأرثوذكس، وُلد ببيروت، ونشأ متوقّد الـذهـن. حادّ الفؤاد. وأخذ بقسط من العلوم الإبتدائية، في بعض المدارس، ثم اضطرّ الى مساعدة والده صغيراً، فبارح المدرسة، ونفسه تائقة الى ارتياد منهل العلم، ولم يزل يكافح الدهر، والدهر يكافحه، حتى تمكّن من درس اللغة الانكليزية. في مدرسة ليليّة، وتأهّب للإنخراط في سلك طلبة الطّب، بالكليّة الأميركيّة، فقضى فيها ما ينيف على سنة، ولمّا اختلّ نظام المدرسة غادرها، وبعض زملائه. ثم أمّ القطر المصري، مصمماً النية على إتمام دروسه الطبيّة، إلاّ أنّ طول المدّة الدراسيّة، وضيق ذات يده، حالا دون أُمنيته فاشتغل بالعلم وتحرير جريدة الزمان سنة، ورافق الحملة النيليّة سنة ١٨٨٤ مدّة عشر أشهر، عاد بعدها الى بيروت، فطالع العبرانيّة والسريانيّة خلال عشرة أشهر، ووضع كتاب الفلسفة اللغويّة، وعاد الى مصر، فساعد في تحرير

المقتطف مدة، ثم استقال وألّف تاريخ مصر الحديث وفوّض إليه إدارة التدريس في المدرسة العبيدية، لكنه لم يعتّم أن تخلى عنها وانتظم في سلك حملة الأقلام، فأصدر مجلّة الهلال سنة ١٨٩٢، واستقلّ بتحريرها، الى أن كبر نجله «أميل» توفي فجأة على اثر سكتة قلبيّة.

وكان المترجم دمث الأخلاق، ليّن المعاشرة، لطيف الحديث، متوقّد الذكاء، عظيم الصبر، صادق العزيمة لا يثبط همّته أمر مهما كان فادحاً، ولولا ذلك لما تمكن من أن يبلغ ما بلغه وهو صفر اليدين، مدفوع الى كسب معاشه، بكدّه، وقد برهن عما وهبه المولى من كريم الأخلاق بما أبقى من الآثار الأدبيّة الجمّة، وهي تناهز الخمسين مجلّداً، ما عدا مجلّة الهلال.

وكان محبّا للسلم، أبغض شيء لديه الخوض في المسائل التي ينجم عنها الجدال، إلاّ أنّه، يؤخذ عليه التهافت على بعض آراء حديثه لا تتّفق مع العلم الصحيح والتاريخ الصادق، والتعريض ببعض أشياء ينبذها الدين القويم، وكان الأجدر به أن يتحاشاها.

ولم يكن يتحدّى في سبك عباراته أسلوباً خاصاً، أو يتعمّد التنميق، بل كان يرسل لفظه مسوقاً للمعنى المطلوب، دون تكلّف أو صنعة، رغبة في إفادة الجمهور، وللجمهور قد ألّف، ومؤلّفاته كثيرة جداً منها تاريخ مصر الحديث، وتاريخ التمدن الإسلامي، والعرب قبل الإسلام، ومشاهير الشرق، وآداب اللغة العربية، وغيرها، وإثنتان وعشرون رواية تاريخيّة.

ومن أقواله: لا يصحّ إلاّ الصحيح، ولا يبقى إلاّ الأنسب.

ألاخ ساروفيم فيكتور (١٩٢٢م ١٣٤١هـ)

هو رشيد بن يوسف عطا الله المارونيّ، وُلد من أسرة عريقة في الفضل، والتقوى، بعبيه من قرى لبنان، ونشأ في بيروت، ولما ترعرع دخل مدرسة الفرير، وتلقّى فيها مبادىء العلوم الدينيّة، والدنيويّة، وامتاز بين أقرانِهِ بورعِهِ، توقّد ذِهْنِهِ، وحدّة ذكائهِ، والإنكباب على اكتساب المعارف، ولمّا ناهز الثانية عشرة من سنّه، طلب الإنضواء الى أخوة المدارس المسيحيّة، فلم يلبَثُ طلبه، بادىء بدء، رغبةً في اختباره، ولما بقيّ مصمّماً على عزمِهِ، استجيب ملتمسهُ، فأرسل الى بيت لحم حيث قضى بضع سنوات أَتَمّ في خلالها دروسه، وأتقن اللغتين العربيّة والفرنسيّة ونبغ في كافة الفنون التي يتلقاها الطلبة، ورسخت قدمه في سبيل البرّ، وتجلّت فضائله، وكرم أخلاقهِ من لين الجانب، ونبل الفطرة، وصدق الطوية ومضاء العزيمة وسداد البرهان، بحيث أصبح نموذج الفضل والعلم، وتفوئل بأنه سيكون فريد زمانه، ولم يلبث أن احتفل بقبولِهِ بين أعضاء الجمعيّة، ولقّب بالاخ « ساروفيم فيكتور » فأقام سنة متفرغاً لممارسة الواجبات الرهبانية، والتدرّب على أسمى الفضائل المسيحيّة، ثمّ عينّ أستاذاً لصغار المبتدئين، فقام بأعباء منصبِهِ خير قيام، واكتسب القلوب بحسن أسلوبه، وأدهش العقول بما أحرزه من ذلاقة اللسان، وفصاحة المنطق، وانّكب منذ ذاك على العمل فعرّب عدّة كتب روحية ونظم كثيراً من القصائد الرقيقة، وحيينئذٍ شعِر بوفود الداء الذي أنهك قواه، وأودى

بحياته. وقصد سنة ١٩٠٠ القاهرة ليستجمّ ويغيّر الهواء، حذرَ استشراء الداء، فتحسّنت صحته نوعاً، ثم قفل راجعاً الى القدس الشريفَ، ففوض إليه تدريس الآداب العربيّة ومراقبة التدريس في كليّة الفرير، فزاول عمله هذا عدّة سنين بهمة ونشاط جديرين بكل ثناء، ونفسه لا تطمح إلاّ الى تهذيب الناشئة، وترويضها على حسن الخصال، وشريف الفعال، وإعزاز شأن اللغة العربيّة، ولم يذّخر وسعاً لبلوغ هذه الأماني، فعرّب روايات تمثيلية أدبيّة المغزى صحيحة المبنى، وألّف كتباً شتّى منها هذا الكتاب « تاريخ الآداب العربيّة » خصيصاً لهذه الغاية، رغماً مما كان يلمّ به من انتكاس صحته، وتراكم الأشغال عليه.

إلاّ أنّ الداء اشتدّت وطأته عليه، فلم يدع له في قوس الصحة منزعاً، وأثخنه[1] السقم، وتخوّنه[2] فاضطرّ الى مغادرة القدس، وأُعفي تماماً من مزاولة كل عمل وهو في ريعان الشباب، وفي الآونة التي كان ينتظر منه فيها جليل الخدم في التعليم، والتأليف، ولما لم تجده الراحة نفعاً في ربوع فلسطين، أمّ فرنسا انتجاعاً للصحة، ولكن على غير جدوى فقضى فيها زهاء عشر سنوات يتألّم من مضض الأوصاب، ويحنّ الى وطنِهِ، ولقي ربّه، نازحاً عن مسقط رأسه، نازعاً إليه، وهو في الثالثة والأربعين من عمرِهِ.

وكان، رحمه الله، حاضر الجواب، مفحم التفنيد، يستغني بالرمز عن العبارة، راجح حصاة الرأي، يجلّي ليل الخطوب بسداد قوله، لا يجري لسانه بغير الصدق، ولا يخشى في الحقّ لومة لائم، وهو، مع ذلك، متجاف عن مقاعد الكبر، يتلقى من يقصده بوجه منطلق، ولا يلقاهُ أحد إلاّ متهيّباً، فإذا خَبَرَ ما عندهُ من سعة الصدر، يستسلم إليه بثقته، ويكل أمره الى رأيه، وتدبيره، فيتحرّى له المترجم وجوه النصح، وبالإجمال، كان لإخوانه،

---

(١) إشتدّت قوته عليه.

(٢) إنتابه مرّة بعد أخرى، وبرى جسمه.

وتلاميذه، كَوكبهم اللامع، ونبراسهم الساطع، فلا عجب أن بكوه بدمع المزن.

وكان الأخ ساروفيم متضلّعاً من اللغة العربيّة والفرنسيّة، حافظة، راوية، قد أَلَمّ بالكثير من المعارف، والعلوم، وحفظ ما بين دفتيّ «الفرائد الدرّيّة» وشيئاً كثيراً من الشعر العربي والأمثال.

أما أنشاؤه فمنمّق العبارة، سلس الأسلوب، ناصع البيان، حسن الديباجة، له في الشعر القصائد الحسان، والموشّحات اللطيفة، وفي النثر القدم الفارعة، والقدح المعلّى يحذو فيه حذو الشيخ إبراهيم اليازجي، في شدّة الأسر، وتنقيح العبارة، وتنزيهها عن سخف الألفاظ، وركاكة التأليف، لا ظلّ عليها للإبتذال، مهما كان الموضوع مطروقاً، ولو أمدّ الله تعالى عمره، وأناله قسطاً وافراً عن الصحة، لكان منقطع القرين، ولتبوأ منصباً عالياً في الجمعيّة، وخدم اللغة العربيّة خدماً لا تحصى.

ومن نظمه، موشّح بديع، ذكر فيه وفود المجوس الى بيت لحم افتتحه بقولهِ:

سكنت أورشليمُ، وانتشرْ بين أهليها الكرى، بعد السَّهَرْ،
وعلى الأبواب أجناد الخَفَرْ يدفعون الهمّ عنهم، والضّجرْ
بحديثٍ راق في ضَوْءِ القمر

وهو طويل، ختمه بقولِهِ:

وكذا نُهديك يا فادي الأنام ذهبَ الحبّ، وقلباً مستهام،
وتسابيح بَخورٍ باحترام، وبَلى الأيام صبراً في الختام،
واهدِ دارَ الخُلْدِ عبداً قد صَبَرْ

ومما نظمه في صدر حياته في الزهد، وغرور الدنيا، قصيدة جعل رويها الواو الساكنة، أصعب قافية في اللغة العربيّة.

مطلعها:

عاشقَ الدنيا، الى ما أنت غَوْ! قلب إيٍّ ودَّهـا، ولم يُـدَوْ[1]؟
قد ظننت ماءَها يروى الـظما، أتـرومَ الريّ، والأنـاءُ صَـوْ[2]؟

منها:

كـلُّ خـير نـازحٌ عنهـا، ألاَ إنّما الأكدار فيهـا شبه نَـوْ[3]،
فبجـام الراحِ تسقيـك الرَّدى، وكـأيّ جَـدَحَتْ سَمّا بِخَـوْ[4]!
كم وكم قومٍ بها هاموا، وقد خـدعتهم، فَهَوُوهـا، وَهَـوَوْا[5]!

وختمها بقولِهِ:

واذْكـرْ في أربـعٍ لا تَنْسَهـا، إنّ ذكـراها لنـور الله كَـوْ[6]!
موتُ جسمٍ عاجلاً، أو آجلاً، دينُ نفسٍ، ثمّ دارُ الخَلْدِ أو . . .

وآخر ما نظمه قصيدة بعث بها من فرنسا، يذكر فيها حنينه الى وطنه، وأصدقائه:

يا نسيمَ الصبحِ، سِرْ نحوَ الشآم، وزُرِ الأحبـاب، واقرئْهم سـلامْ

منها:

نـابني الـدهـر بـأنـواع البـلا سهمـه جـاز فؤادي، والعـظام
يا ربوعَ الشام، لا زال الهنا شـامـلاً أهليـك طـراً للدوام
لسواك القلب لم يعرف هوى، وهـوى الأوطان مـا فيه مـلام
لـن تـزالي في فـؤادي أبـداً في فمي ذكرك أشهى من مُدام!
أنـتِ فِـرْدوسُ نعيـمٍ دائـمٍ، تـربك العنبـر في ريّا الخزام!

---

(1) الغو: مخفف غوٌّ، وهو الفصيل المهزول لفساد جوفه، أستعير للمنصب على الملاهي، ودوّى الرجل: سار في الدوّ، أي المفازة، يريد: تاه، وهلك.
(2) مخفّف، صوٌّ: فارغ.
(3) النو: المطر.
(4) جدحت: خلطت، والخو: العسل.
(5) هووها: عشقوها، وهوَوْا: سقطوا وماتوا.
(6) الكو مخفّف: كوٌّ وهو النافذة والكوّة.

نسمـــاتٌ منــك تحيي مهجتي، ماؤك العـذب شفـاءٌ للسقـام!

ومنها:

كلّما هـبت اليـنـا ريحكـم، قشعت غيم إكتئاب، وإغتمام
ومتى عــادت الى أرجــائكـم، حملت شــوقي إليكم، والهيام
هـل الى لبنان لي من عـودة فتـرى عينـاي هـاتيـك الأكـام

وختمها قائلاً:

إن يشأْ، يجمع إلهي شملنـا، وبمــرآكــم يــبــلـغــني المــرام،
وإذا بــالبعــد يـقضـي أبــداً، فعليكم، وعـلى الشام السـلام!

ومؤلّفات الاخ ساروفيم كثيرة جداً بالنسبة لما عاناه من مضض الأسقام، منها ما لعبت به يد الضياع، بسبب انحراف صحته، وتنقله أثناء اعتلاله، ومنها ما لا يزال مخطوطاً والبعض نشر بالطبع، وإليك أسماءها:

١ ـ تاريخ الآداب العربيّة، وهو أعظمها، وأنفسها، وأشهرها.

٢ ـ كتيّب في الصلوات، طبع في القدس الشريف.

٣ ـ نجوى العابد، مجموع صلوات، طبع في بيروت.

٤ ـ مجموع مقالات دينية.

٥ ـ نظامات جمعية أخوة المدارس المسيحيّة.

٦ ـ كتاب آداب المعاشرة، وقد لعبت به يد الضياع.

٧ ـ كتاب علم المعاني، والبيان، والبديع، لم يتمّه.

٨ ـ خمس روايات تمثيلية، عربها عن الفرنسية، وجعل لها أغاني وألحاناً موسنيقيّة، وهي: من غربل الناس نخلوه، والدسيسة، والمملكة المريخية، وجلالة الأمير، والغلام الآبق.

٩ ـ ديوان شعر، وفيه ٢٩ قصيدة مرتّبة قوافيها على كل حرف من حروف المعجم، وقد ضاع معظم هذا الديوان، ولم يبق منه إلاّ نتف مبعثرة في بعض المخطوطات.

١٠ ـ مجمـوعة أمـالي، وبضع رسـائل ـ وكـلّ هذه الكتب لم ينشـر منهـا إلاّ الـثـلاثــة الأولى فــقط.

السيّد مصطفى المَنْفلُوطيّ

(١٩٢٥م ١٣٤٣هـ)

هو مصطفى بن محمّد بن لطفي المنفلوطيّ، وُلد بمدينة مَنْفلوط في صعيد مصر سنة ١٨٧٦م، من أُسرة مشهورة بالنبل والفضل، وتلقّى مبادىء القراءة في مدرسة أوّليّة بمسقط رأسه، وخرج منها حافظاً القرآن. دخل الأزهر، فأقام فيه عشر سنوات امتاز في خلالها بين أقرانه بحدّة الذكاء، والفطنة، والذوق السليم، وكلف بدراسة كتب الطبيعة، والأخلاق، والأدب، والحكمة، وشغف بها شغفاً يفوق الوصف، فرقت مداركه، وصقلت ذهنه، فقال الشعر، وأجاد النثر، ثم التحق بالشيخ محمّد عبده وأكثر من مصاحبته مدّة عشر سنوات كاملة، فأَتَمّ ما نقص من علومه، ونضجت ملكة إنشائه. بارح الأزهر عند وفاة استاذه، وعاد الى مسقط رأسه، منفلوط، وراسل جريدة « المؤيّد » بمقالات أسبوعية شائقة رائقة، تكسو فائدتها اللذة، وتجمع بين طلاوة الجديد وبلاغة الأقدمين. ثمّ استدعاه للعمل سعد زغلول باشا، وهو وزير للمعارف، فتقلّب في مناصب الحكومة مدّة طويلة، ووافته المنون، وهو عضو في مجلس الشيوخ.

وكان المترجم صادق الوطنيّة، رزيناً وقوراً أنوفاً عزيز النفس، مترفعاً عن مخالطة من لا تلائمه أخلاقه، ولذلك كان فيه انقباض عن الناس يخاله الرائي صلفاً، وكبراً، أمّا انشاؤه فقد نهج فيه أسلوباً بليغاً لم يحد عنه في كل ما كتبه، فإذا عمد الى موضوع، وإن يكن مبتذلاً، كساه من قلمه برداً قشيباً،

يأخذ بمجامع القلوب، ولا بَدْع إن كان الإِقبال على مؤلّفاته عظيماً، « وقد فتح باب الإنتقاد الصحيح، وأحيا آداب اللسان، بإدخالهْ في الإنشاء العربي، أسلوباً عصرياً جميلاً، فأجاد وجمع بين بلاغة صدر الإسلام، وأدب هذه الأيّام[1] » وانتقاد حادّ اللهجة. مُرّ لاذع، لا يخلو من تطرّف.

إلّا أننا نأخذ على المنفلوطي بعض مقالات وددنا لو نزّه قلمه عن كتابتها لما فيها من إثارة الأحقاد، وزيادة التنافر، وامتهان ما من شأنه أن يكرم ويصان، ولعلّهُ كان الأجدر به أن يتحف اللغة العربيّة بغير « العبرات » و« ماجدولين » لأنهما تضمّنا حكايات محزنة، وغراماً، وانتحاراً، وكلّ ذلك مّما لا يجدي القارىء نفعاً، وإنّما يدفع بِهِ الى الأئتساء بهؤلاء البؤساء.

ويرى بعضهم أنه فشل فشلاً تاماً في تصوير أشخاص رواياته فإنها أشباح لا أرواح[2].

وللمنفلوطي، ما عدا النظرات، وفي سبيل التاج، والشاعر، وغيرها من الروايات المعرّبة عن الفرنسيّة شعر قليل، نظمه في صدر حياته، ثم عدل عن الشعر الى النثر، لقصيدة اتّهم في الإشتراك بنظمها طعناً بالخديوي.

ومن شعرِهِ في وصف القلم:

يا يَراعي، لولا يدٌ لك عندي،	عِفتُ نظمي في وصفك الأشعارا
يا يراعَ الأديب، لولاكَ، ما أصـ	ـبحَ حظّ الأديب يشكو العِثارا
غير أنّي أحنو عليك، وإن لم	تك عوناً في النائبـات، وجارا
أنت نِعم المعينُ، في الدهر، لولا	أنّ لـلدهــر همّــة لا تجـارى

(١) جرجي زيدان.

(٢) محمود تيمور.

وقال في الحكم:

إذا ما سفيهٌ نـالني مه نـائلٌ من الذمّ لم يَحْرَجْ بموقفِهِ صدري
أعود الى نفسي، فإنّ كان صادقاً عتبت على نفسي، وأصلحت من أمرى
وإلّا، فما ذنبي الى الناس، إن طغى هواها، فما ترضى بخير، ولا شرّ

ومثله قوله:

ضلالٌ يرى الإنسان فضلاً لنفسهِ، وسـاعده في المكـرمات قصـيرُ،
وما المرء إلّا صدقه، ووفاؤه، وكـلّ كبـير بعـد ذاك صغـيرُ

المستشرقون

هم جماعةٌ من علماء الغرب تفرّغوا للبحث في الآثار الشرقية. ولما كانت اللغة العربيّة أرقى لغات الشرق وأغناها بالمؤلّفات الخطيرة[١] كثر الراغبون في دراستها والمُقبلون على تحصيل آدابها، وقد نبغ من فضلاء الأجانب أفرادُ أماثل[٢] بلغوا من العربية مبلغاً بعيداً ووضعوا في لغاتهم تآليف غرّاء عن لغات العرب وأدبيّاتهم ودياناتهم وأخلاقهم وأخبارهم وسائر شؤونهم لا يتمالك المطّلع عليها من الإعجاب بسعة علمهم ودقة نظرهم فضلاً عمّا هو مشهورٌ من بُعد غَورهم في المباحث العلميّة وحنكتهم في حلّ المشكلات واستجلاء الغوامض بما فطروا عليهِ من الولوع في التنقيب والتنقير والعناية بجمع الآثار وأمهات الكتب للمقابلة والتنظير والإستنتاج. وقد أدّت بهم هذه الخطة المثلى الى الجَرح والتعديل[٣] والتنقيح والتصحيح فأماطوا اللثام[٤] عن كثير من مُبهمات المسائل وقلبوا عدّة من القضايا التأريخيّة ظهراً لبطن فجاءوا بالعجب العجاب.

---

(١) ذات القدر.

(٢) أفاضل.

(٣) جرح الشاهد أظهر فيه ما تردّ به شهادته وعدّله أظهر أنه شاهدعدل.

(٤) كشفوا النقاب.

ولم تقف خدمتهم لهذه اللغة عند هذا الحد بل استنطقوا الألسنة بعاطر الثناء على همتهم وأريحيتهم بما نشروا من آثار السلف التي أخرجوها من زوايا النسيان فجعلوها من قرّاء العربية على حبل الذراع وكانت لولاهم أسماءً يسمع بذكرها السامع ولا يطمع بسمّياتها طامع. ولهم في إبراز هذه المكنونات(١) الثمينة مزايا فريدة من الدقّة والأمانة. والعناية قلّ من يمتاز بها من أبناء الشرق. وهي أنهم إذا عزم أحدهم على نشر مؤلّف قديم شرع في البحث عن نسخة في مظانّها(٢) واستنفد(٣) في إحرازها أو استنساخها ما في وسعه من الوسائل المادية والمعنوية لا يضنّ(٤) بمال أو وقت أو مشقة. حتى إذا اجتمع لديهِ كل ما وصلت إليه يدهُ من هذا الشأن عمد الى المقابلة بين النُسخ واستخلص منها ما هو الأصح أو الأقرب الى الصواب وإذا لاح لهُ أن لروايتين أو أكثر وجهاً من الصواب أحال(٥) القارىء الى حاشية يثبت فيها تلك الإختلافات بل ربما ذكر الروايات كلها حرصاً على الحقيقة ووفاءً بحق الخدمة لواضع الكتاب. ثم يأخذ على نفسه تذييل التأليف بالفهارس الواسعة المتعددة بحيث تنجلي للمطالع أغراض الكتاب لأول وهلة(٦) فتكفيه نظرة الفهرس مؤونة البحث والتنقيب الساعات الطوال، ويشفع الخدمة العلمية باستكمال معدّات الطبع فيبرز المؤلّف للطالبين طُرفة أدب وتُحفة(٧) صناعة الخواطر وتحلو للنواظر.

---

(١) أظهار هذه المستورات.

(٢) جمع مظنة وهي الموضع الذي يظن فيه وجود الشيء.

(٣) استفرغ.

(٤) يبخل.

(٥) ردّ وصرف.

(٦) على الفور.

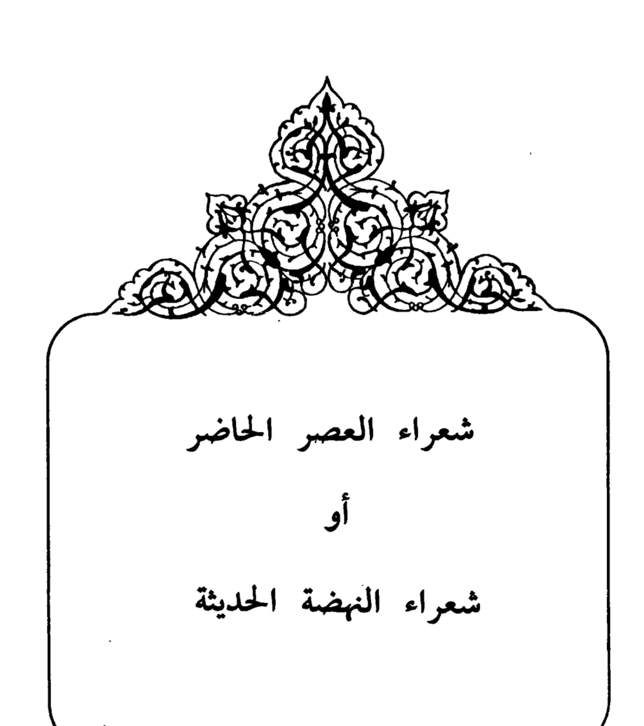
(٧) الطرفة الشيء الأنيق المعجب والتحفة الشيء الثمين.

وإن شئت تقدير هذه الخدمة الجليلة حقّ قدرها فعليك بكتاب نُشِرَ في الأقطار الأوروبية وقابله بنظيره مطبوعاً في البلاد الشرقية يتضح لك جليّاً أن أولئك الأجانب أشدّ غيرة منا على آدابنا وأبرّ بالآباء من الأبناء أنفسهم. هذا إذا لم تكن الطبعة الشرقية نسخة عن الطبعة الأوربية أعادها أحد الورّاقين ممن اتّخذوا العلم سِلعة[١] يُتاجر بها وسكت عن أصلها وأغفل أسم المستشرق السابق الى نشرها فحرمه ما هو أهلٌ لهُ من الشهرة وأكل ثمرة أتعابه غنيمة باردة[٢] ... وفي ذلك من امتهان[٣] الآداب وهضم الحقوق والإجحاف[٤] بالمصلحة العامّة ما فيهِ. ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

وكنا نودّ ذكر شيء من تراجم أولئك الأفاضل لولا ضيق المقام وقلّة ما لدينا من أخبارهم واقتصارهم في الغالب على التأليف بلغاتهم. وقد جمع حضرة الأب لويس شيخو اليسوعيّ في كتابه «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» فذلكة[٥] أعمالهم فنحيل إليها المطالع اللبيب.

---

(١) بضاعة.
(٢) هي التي يظفر بها بدون تعب.
(٣) احتقار.
(٤) هضم الحق غصبه ونقصهُ وأجحف بمصلحتهِ أضرّ بها.
(٥) خلاصة.



شعراء العصر الحاضر

أو

شعراء النهضة الحديثة

(١) محمود سامي البارودي | ١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ

هو لبُّ السيف والقلم أمير الشعراء، وشاعر الامراء، احد زعماء الثورة العربية، واشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية، ولد سنة ١٢٥٥هـ وتأدب وادخل المدرسة الحربية، ومازال يترقى حتى ولاه الخديوي توفيق باشا نظارتي الحربية والأوقاف، شارك في الثورة العرابية، وبعد إنقضائها نفي الى جزيرة (سيلان) حتى عمي وشفع فيه فآذن له بالقدوم الى مصر بعد مضي ١٧سنة من منفاه، وبقي في منزله يشتغل بالأدب إلى أن مات سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م

ومن قوله:

والدَهرُ كالبحر لا ينفك ذاكدر ... وإنما صفوُه بين الورى لُمَعُ
لو كان للمرء فكر في عَوَاقبه ... ما شان اخلاقه حرص ولا طمعُ
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث ... مَنْ لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دَهْــرٌ يَغُــرُّ وآمــال تُسِــرُّ وأعــ ... ــمـارٌ تمر وايام لها خدَعُ
يسعى الفتى لأمور قد تضرُّ به ... وليس يعلم مـا يـأتي ومـا يـدع
يا أيها السَّادر المزورّ من صَلَفٍ ... مهلاً فإنك بالأيام مُنخدعُ
دع ما يُريب وخُذْ فيما خُلِقت لهُ ... لعـلَّ قلبك بـالإيمان ينتفـعُ
ان الحياة لثوبٌ سوف تخلعهُ ... وكل ثـوبٍ اذا مارث ينخلع

ومن قوله في الحماسة والفخر:

أنــا مصــدر الكَلِم البـوادي ... بــين المحــاضـر والنـوادي

أنــا فــارس أنــا شــاعــر في كــل مــلحَــمَــة ونــادي
فــإذا ركــبــتُ فــإنــي زيــد الــفــوارس في الجــلادِ
وإذا نــطقــتُ فــإنــي قسَّ بــن ســاعِــدة الأيــادي

ان الصفة التي تطبع شعر البارودي هي صفة البعث والتجديد للشعر العربي، وليس ذلك بالغرابة اذا ما عرفنا ان البارودي عندما أراد أن يكون شاعراً عرف المنبع الصافي والعذب الذي عليه أن يستقي منه، فكان شعر فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين، أمثال أمرىء القيس والمتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهم من الشعراء الذين حفظ الكثير من شعرهم فجاء شعره مرآة صادقة لما انتجوه من الشعر، وجاءت عباراته فخمة تتخذ صفة الخطابه والإرتجال، وجاء شعرهْ غنياً وجزلاً، يحمل في ثناياه الإنفعالات الشخصية مصورة احسن تصوير، وليس هذا فحسب، بل تجد عنده التصوير الذاتي الذي جاء حصيلة للتجربة الخاصة والمعاناة عند الشاعر. فجاء شعره أيضاً انعكاساً للإحداث وتصويراً للتجارب الإنسانية المؤثرة.

(٢) احمد شوقي

١٣٥١هـ - ١٩٣٢م

أشهر شعراء العربية في العصر الحاضر واقدرهم على التصورات البديعية وهو شاعر النيل ولد بمصر سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م

عاش شوقي في كنف الاسرة المالكة، مما أتيح له ان يكتسب في حياته هذه الكثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالنواحي السياسية أو الأجتماعية، غير أنه فقد مقابل ذلك الكثير من حرية التعبير عما يريد ان يعبر عنه، لكن القيد الذي شديديه فترة زمنية عاد فتكسر تحت ضغط اليدين التواقتين الى الحرية والأنعتاق. فسافر إلى أوروبا ليطلع على الآداب العالمية، وعلى الوجه الخصوص الأدب الفرنسي. مما وسع مداركه وفتح عينيه على أمور لم يكن يراها في مجتمعه.
وشوقي الذي حمل على كتفيه أعباء النهضة بالآدب العربي وبعثه من جديد بعد ركوده الطويل أتى إلينا بما لم يأتي به من جاء بعده من الشعراء، فهم حاولوا ولكن شوقي بقي القمة التي يصعب على أي شاعر موهوب غيره الوصول اليها.

تناول شوقي موضوعات متنوعة في شعره، وكلها درر من الشعر الرفيع والاختيار لأفضلها أمر صعب

منها هوذا يتحدث (عن عيد الفداء) فيقول:

أما العتاب فبالآ حبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدقُ
يا من أحبُّ ومن أُجِل وحسبه في الفيد منزلة يجل ويعشقُ
البعد أدنا ني اليك فهل ترى تقسو وتنفر أم تلين وترفقُ
في جاه حسنك ذلتي وضراعتي فاعطف، فذاك بجاه حسنك اليقُ(*)

وكلما نغم شوقي شعره تراقصت على الفاظه وقوافيه على انغام تفيض بالسحر والعذوبة وخير ما نلمس ذلك في قصيدته (خدعوها) فقال:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء
أتراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الاسماء
ان رأتني تميل عني كأن لم تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء(**)

وعند ما تحركت نفوس المسلمين بالدعوة الى وحدة الكلمة وقيام جامعة اسلامية نرى شوقي يتغنى لهذه الدعوة ويمدح النبي الكريم.

ولد الهدى، فالكائنات ضياءَ وفم الزمان تبسم وثناءُ
يا من له عز الشفاعة وحْدَهُ وهو المنزه، ماله شفعاءُ
عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاءُ
ظلموا شريعتك التي نلنا بها ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سناها، واهتدى في الدين والدنيا بها السعداء(***)

(*) الديوان جـ ١ ص ١٦١.
(**) الديوان جـ ٢ ص ١١٢.
(***) الديوان جـ ١ ص ٣٤، ٤١.

(٣) محمد حافظ إبراهيم

١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م

هو الشاعر الكبير المرحوم محمد حافظ ابراهيم أفندي فهمي المولود سنة ١٢٨٨هـ يقول الشعر في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه، ويتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج تمثال جميل من حجره.

يؤثر الجزالة على الرقة، وله فيها آيات، يطرق الموضوع في الغالب من جوهره وربما نظم اكثر الأبيات قبل المطلع، شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما بين يديه، آمناً أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد، عالماً أن الكلام لا بد أن يأتيه في أي مقام طبعاً ولو بعد حين.

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى، وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى، فإذا فاته الابتكار حيناً في التصور لم يفته الإبتكار حيناً في التصوير، أولع. بالإجتماعات فقال فيها وأجاد ما شاء.

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته، وإضاءته وأثره الخالد.

أما شعره فشعر البيان، وإن من البيان لسحرا ـ ومن شعره الإجتماعي قوله:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حُب مصر كثيرة العشاقِ
إني لأحمل في هواك صبابة   يا مصر، قد خرجت عن الأطواقِ

لهفي عليك ، متى اراك طليقة يحمي كريم حماك شعبٌ راقِ
كلَفٌ بمحمود الخلال متيمٌ بالبذل بين يديكِ والإنفاقِ
أني لتطربني الخلال كريمةً طربُ القريب بأوبةٍ وتلاق
ويهزني ذكرى المروءة والندى بين الشمائل هزة المشتاقِ
فالناس هذا حظه مالٌ ، وذا علم، وذاك مكارم الأخلاقِ
والمال أن لم تدخِرْهُ محصناً بالعلم كان نهاية الإملاقِ
لا تحسبنَّ العلم ينفع وحده ما لم يتوَّجُ ربُّه بخلاقِ

وهكذا تجد حافظ إبراهيم يسير في شعره على نمط الأقدمين من حيث الصياغة المتينة والصور والمفردات مما أكسب شعره الجزالة والقوة والرصانة ومن شعره أيضاً واصفاً رحلته الى إيطاليا:

عاصفٌ يرتمي وبحرٌ يغير أنا بالله منهما مستجيرُ
أَزْبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدورُ
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك وللفلك عزمةٌ لا تخورُ
ثم طافت عناية الله بالفلك فزالت عمن تقل الشرورُ

(٤) خليل مطران | ١٨٧١ م

هو شاعر الشعور والخيال، وشاعر بعلبك والأهرام، ولد عام ١٨٧١م ببعلبك وتعلم بها، ثم قدم مصر عام ١٨٩٣ ، واشتغل بمكاتبه الصحف، وانشأ باسمه (المجلة المصرية) عام ١٨٩٩م، وأنشأ أيضاً (جريدة الجوائب المصرية). وله ديوانه المسمى (ديوان الخليل)

شعره مجمع الصور، وملعب الخيال، ونفسه كالصحيفة الحساسة، ينطبع عليها كل ما يمر بها بل الغصن الرطب يميل به كل نسيم، بل وجه البحيرة الصافي يحركه كل ريح.

قال من قصيدة يصف فيها ضرب الاسطول الإيطالي لسواحل الشام ويستنهض الهمم

بـلادي لا يـزالُ هـواك مني ... كـما كان الهـوى قبـل الفـطام
أُقَبِّلُ منك حيث رمى الأعادي ... رغـامـاً طـاهـراً دون الـرغـامِ
وأفـدي كـل جـلـود فتيـتٍ ... وهى بقنابـل القـوم اللئـامِ
لحى الله المطـامعَ حيث حلَّتْ ... فتلك أشـدُّ آفـات الـسلامِ
أقول وقد أفاق الشرق ذعْـراً ... من الحـال الشبيهـة بـالمنـامِ
عـلى صخب المدافـع في حُماةٍ ... ورقص الموت بين طـلى وهامِ
أبـاة الضيم من عـرب وتـرك ... نُسـورَ الشـمِّ آسـاد المـوامي
عـلى هذا الـرجـاءِ ونحنُ فيـه ... نـسـير مَـوُفقـينَ إلى الأمـامِ

وأما شعر مطران ذو النزعة الوجدانية فتجده في قصيدته الرائعة (المساء)

ولقد ذكرتك والنهار مُوَدِّعٌ والقلبُ بين مهابة وَرَجاءِ
وخواطري تبدو تُجاه نواظري كلْمَى كدامية السَّحاب إزاءِ
والدمعُ من جَفْني يسيلُ مشعشعاً بسنى الشعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نُظَارُه فوق العقيف على ذُرىً سَوْداء
مَّرتْ خلال غما متين تحدُّراً وتقطرَّتْ كالدمعة الحمراءِ
فكَانَّ آخر دمْعَةٍ للكون قدْ مُزجتْ بآخر أدمعي لرثائي
وكأنَّني آنسْتُ يومي زائلاً فرأيت في المرآة كيف مسائي

ففي هذه القصيدة لم نجد مطران كشعراء الرومنطيقية يخاطبون الطبيعة مخاطبة بل نراه يندمج ويتحد معها كامل الإتحاد، فقد أضفى عليها مشاعره وهو عليل في الاسكندرية، فبدت هذه الطبيعة حيال عينيه أسيفة حزينة، وأخذ يشكو الأيام ويقصى على البحر حزنه وأمله، فاذا هو ثاوٍ على صخرة صماء كقلبه يرتطم بها الموج الثائر فيعلوها سقام نفسه، ويضيق صدر البحر على سعته، كما يضيق صدره بما يحمل من هموم وغموم، واذا الشمس تسعى الى مصرعها عند الأصيل، والاضواء تقبل عند الشفق على مأتم حزين والسحاب مخضب بالدماء، والغمام يهمي بالدموع الحمراء والشمس في شفق يسيل نضارة فوق العقيق على ذرى سوداء.

شعراءُ أصحابُ نزعةٍ رومنتيكية

(١) أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥)

هو من دعاة التجربة الذاتية، وقد أبدع فيها وأجاد.

كان أبو شادي غزير الانتاج ثر العطاء متنوع النشاط. وتتجلى رومنتيكيته في وصفه للطبيعة التي يندمج فيها الشاعر، كما تتجلى في تمجيده للحب. ولما كان أبو شادي من أصحاب النزعة التطويرية ودعاة الأصلاح الاجتماعي، والمنادين للتحرر، كان لا بد من أن يواجه اخصاماً كثيرين من دعاة التحجر والجمود، والخائفين من كل دعوة الى الإصلاح في مجتمع متخلف في جميع النواحي، لا لشيء الالأنهم يحسبون أن كل تجديد أو تغيير سيؤل الى تفريغ أعمالهم من كل لا قيمة، وسيسحب منهم كل مكاسبهم الغير شرعية. من هنا نجد أبو شادي غريباً في وطنه، يحارب حتى في نعمة العيش له ولعياله ليثنى عن دعوته وأفكاره، مما اضطره الى هجر وطنه الذي يحبه (مصر) الى أمريكا.

لكن سفره المكره عليه لم يحل دون استمراره في دعوته للدفاع عن القيم الانسانية والدعوة كما قلنا لحرية الفكر والعدالة الاجتماعية.

لقد انعكس على شعر أبي شادي اضطرابه النفسي والآمه لغربته عن وطنه، مما جعل سمة الكآبة والحزن باديتان على شعره، فها هو يغني نفسه، ويبوح بآلامه في قصيدة (نسيم الصباح) فيقول:

هـذي حياتي كلهـا تعبٌ على تـعب، وأتـراح عـلى أتـراحِ

أبكي وأضحك غير اني لا أرى ... الا الضحوك بنشوة الملاحِ
وكأنني جاوزت خلجان الردى ... بسفينتي فنعمت بالأقداحِ
والدهر يعلم أنني في نشوتي ... في قبضة الجراحِ والسفاحِ
لم أدرِ إن كان الشقاء أو الردى ... بيديه أو ان المنيّة راحي
ألهو وأداب مازحاً ومجاهداً ... في ثورة السباق والسباحِ
واليمّ يطبق شاطئيه عليّ في ... مرحي، وتلك نهاية المراحِ(*)

ولننظر أيضاً لنرى كيف ينعكس حزن هذا الشاعر على الطبيعة في قصيدته (الشفق الباكي) فترى أن كل شيء حول أبي شادي حزين باكٍ، الصباح، والأرض، والشمس وغيرها فيقول:

هذا هو الشفق الباكي بحرقته ... وهذه السحب فيها الدمع نيرانٌ
بانت عن الشمسِ فارتاعت لفرقتها ... كم يراعُ لدفن الحسن هَيْمانُ
كـأنما الشفق الباكي يمثلني ... لكن حزني أضعاف والوانُ
الأرض تُشجي التياعاً للفراق وان ... جاء الصباحُ بوصل منه تزوانُ(**)

(*) ديوان اطياف الربيع (١٩٣٣) ص ٥١.
(**)المرجع نفسه ص ١١١.

(٢) الياس أبو شبكة (١٩٠٣ - ١٩٤٧)

استقى ابو شبكة ثقافته الشعرية من رافدين هامين كان لهما الأثر الكبير في نفسيته، حتى استقل فيما بعد بشاعريته الخاصة. وهذان الرافدان هما الشعر المهجري، والشعر الرومنتيكي الفرنسي.

ونحن نعلم أن أبا شبكة كان من المهاجرين أيضا والهجرة لا بد ان تؤثر عليه كما أثرت على غيره من حيث إثارة الحنين الى الوطن، والرغبة في العودة اليه، وتصوير جوانب مختلفة من حياة اللبنانيين وبوجه خاص حياة الريف. ومن أجمل قصائده وأكثرها تأثيراً في النفس قصيدة (غلواء) التي نظمها بين سنة (١٩٢٦ ـو١٩٣٢، وفي هذه القصيدة يظهر ابو شبكة فلسفته في الحياة، وما يجب ان يكون عليه الانسان من حيث الحب والاخلاص فيقول:

أجرح القلب واسق شعرك منه ... فدم القلب خمرة الاقلامِ
مصدر الصدق في الشعور هو القلـ ... ـب وفي القلب مهبط الالهامِ
واذا أنت لم تعذّب وتغمسْ ... قلما في قرارة الآلامِ
فقوا فيك زخرفٌ وبريقٌ ... كعظامٍ في مدفن من رخامِ
رب جرحٍ قد صار ينبوع شعر ... تلتقي عنده النفوس الظوامي
وعذاب قد فاح فيه بخور ... خالد في مجامر الاحلامِ

وقال أيضاً:

من ليس يرقى ذروة الجلجلة ولم يُسَمر في الهوى أنمله
ويُرفع العلقم والخل له
من لم يذق في الخبز طعم الألم ولم يعكر وجنتيه السقم
وتسلخ الأوجاع منه حطم
لن يعرف العمر شعاع الاله ولن يرى آماله في رؤاه
بل عالما يخبط في مهزله[1].

وفي ديوان (الألحان) لأبي شبكة أيضا نلمس نغمة الحب الرقيقة في أحضان الطبيعة الجملية وهو يشارك الحصادين تغنيهم ببلادهم[2].

صغيرة بين الدول كبيرة مثل الأمل كانت لنا ولم تزل
بلادنا اجدادنا أولادنا
زلالها ترياقْ ترابها اخلاق وشمسها ذهبْ

حُليُّها التفاحْ والعنبْ
ألحانها الرياحْ في القصبْ
وكلها لنا وللبنين بعدنا

هيا أحصدوا وانشدوا الحبُّ قَلبٌ ويد

والعمر زرع وجنى

(١) غلواء (١٩٤٥): ص ٦٥ .
(٢) الألحان (١٩٤١) ص ٩.

علي محمود طه (١٩٠٢ - ١٩٤٩)

علي محمود طه شاعر مصري رقراق الألفاظ متألف التعابير، جيد اختيار الكلمات، يعتني عناية خاصة بالموسيقى الشعرية، يكثر من وصف الطبيعة والجوانب المترفة من الحياة. يحب المغامرة والسفر، والطواف ويكاد لا يثبت في مكان. هو (الملاحَ التائه) بين الآفاق:

ضلّ في الليل سراه ومضى   لا يرى في افق منه شعاعا
يجتوي اللافحَ من حرقته   وعذابٍ يشعل الروح التياعا
والأسى الخالدِ من ماضٍ عفا   والهوى الثائر في قلب تداعى(*)

والشاعر يرقد في غرفته وحيداً تظلله الكآبة الصامته، بينما تضجُّ رعود الليل:

أيها الشاعر الكئيب مضى الليـ   ـلُ ما زلتَ غارقاً في شجونِكْ
مسلماً رأسك الحزين الى العكـ   ـرِ، وللسهد ذابلات جفونكْ
ويدٌ تمسك اليراع واخرى   في ارتعاش تمرّ فوق جبينكْ
وفم ناصب به حرّ أنفا   سك يطغى على ضعيفِ انينكْ
لست تصغي لقاصف الرعد في الليـ   ـلِ ولا يزدهيك في الابراقِ
قد تمشى خلال غرفتك الصمـ   ـتُ ودبَّ السكون في الأعماقِ
غيرَ هذا السراج في ضوئه الشا   حبِ يهفو عليك في اشفاقِ

(*) الملاح التائه (ط١٩٤٣٤) ص ٣٤.

وبقايا النيران في الموقد الذا بلِ تبكي الحياة في الارماقِ(*)

وقد سأله احمد حسن الزيات مرة عن سبب الكآبة في شعره فآجاب: «إنما أشكو من مرض الاغتراب. يخيل الي اني من قوم آخرين أو بلد آخر، فأنا لا أزال أشتاق الى الغريب المجهول وأحن الى الوطن النازح، ويشتدبي النزوع احيانا فأتمنى لو أطير، وأتوهم حين يخفق قلبي أنه طائر يريد ان ينهض، وأن ضلوعي من حوله قفص يأبى أن ينفرج (**)

وفي قصيدة (الطريد) يقول علي محمود طه:

شقيٌّ أجنته الدياجي السوداف سليب رقادٍ أرقته المخاوفُ
ترامى به ليل كأن سواده به الأرض غرقى والنجوم كواسفُ
الى اين تمضي أيها التائه الخطى يُساريك برقٌ او يُباريك عاصفُ
رأيتك في بحر الظلام كأنما إلى الشاطي المجهول يدعوك هاتفُ(***)

ويسأل الشاعر عن سر هذا النشر، فإذا به نتاج عن اضطهاد المجتمع الذي يحارب حرية الرأي ويجحد نبوغ النابغين.

(*) المرجع نفسه قصيدة (غرفة الشاعر) ص ٣٥.
(**) مجلة الرسالة ع ٧٨٠ (٦ آذار ١٩٥٠) ص ٢٦١.
(***) الملاح الثابتة: ص ١٧٦.

حمزة الملك طنبل

يعتبر حمزة الملك طنبل رائد حركة التجديد في الشعر السوداني المعاصر، وديوانه (الطبيعة) هو أول نتاج تلك الحركة التجديدية إذ كتبه فيما بين عامي ١٩١٦ ـ ١٩٣٠، وليس من المصادفة أن يتغلب التيار الرمانتيكي على حركة التجديد، لأن كل الظروف والملابسات في المجتمع السوداني، كانت تهيىء لوجود هذا التيار، وتغلّبه على كل ما عداه.

وأول ما نلحظه في أوزان قصائد الرومانتيكيين أنها ذات بحور قصيرة، أو على مجزوء بحور قديمة، أو ذات بحور غير مركبة التفعيلات. فلو نظرنا في ديوان حمزة طنبل مثلاً، لوجدناه يكثر من الكتابة في مجزوء الكامل ومجزوء الرمل، وفي المديد والخفيف، يقول حمزة طنبل من قصيدة (في جوف الليل).

مولاي قد نامت عيون وتيقظت أيضاً عيون
نامت عيون الخائنين وعيون نجمك لا تخون
ترنوا الينا وهي ساهـ ـية عن الدنيا الخؤون
أتراه أذهلها جلال الله أم مر القرون
أم أن من فوق الثرى لا يسمعون ولا يعون[1]

ومما لا شك فيه أن الثورة والسخط على أمور ينكرها الرومانتيكيون في

---

(١) من قصيدة (في جوف الليل).

مجتمعهم يتصلان اتصالاً وثيقاً بروح الكآبة التي هي سمة مميزة للمذهب الرومانتيكي.

فالشاعر الرومانتيكي الذي ينشد المثل الأعلى باعتباره قمة السعادة للفرد يصطدم بالواقع المر، فتغيم أمامه الرؤى ويصبح في حالة من القنوط واليأس تدفعه دائماً الى اظهار اللوعة والألم، بل تدفعه أحياناً الى طلب الموت الذي يعتبره راحة كبرى من عناء الحياة الواقعية المرة يقول حمزة طنبل أيضاً:

يــا ويح نفسي منـذ كـانت وهـي تـرسـف في سـجـون
آمـنـت أن الـفـرد فـوق الأرض أحـقـر مـا يـكـون
مـولاي لـو خـيـرتـني لا ختـرت أني لا اكـون[1]

ثم يشرح حمزة طنبل الأسباب التي تدفعه الى هذا التبرم اليائس حتى التمني بأن لا يكون موجوداً في هذه الدنيا فيقول:

سئمت نـفسي الحيـاة وملت وكـذا الحر في زمـاني يسأم
لا أرى أينـما أقلب وجهي ! غـير قيـد من النفـاق تحكم
ووجـوه سحـقـاً لهـا مـن وجـوه ورؤوس أحـرى بها أن تهـشـم
وأنـاس مـا بـين غـر جـهـول وسـفـيـه عـلى الـكـرام تهـجـم

(١) من قصيدة (يأس قاتل.).

التيجاني يوسف بشير

هنالك أمور تشغل بال التيجاني يوسف بشير مثله في ذلك كمثل سائر الرومانتيكين واهم هذه الأشياء التي تشغله (الصبي العابد) و(الصوفي المعذب) و (الفقير) و (طفل الخلوة)، وهو لا ينقطع عن التفكير في الايمان والشك والمصير.

ويتحدث التيجاني عن نفسه فيرى أنها إشراقة من الله تتصل بالملأ الأعلى ولا تتصل بهذا العالم الترابي فيقول:

هي نفسي إشراقة من سماء الله تحبو مع القرون وتبطي
موجة كالسماء تقلع من شط وترسي من الوجود بشط
خلصت للحياة من كل قيد ومشى للزمان في غير شرط
هي نفسي من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلط
هي من صفحة الشباب قوي تزخر بالحب أو تموج بسخط
هي قسطي من السماء، فما أضيع في العالم الترابي قسطي[1]

ويتأمل التيجاني يوسف بشير في أصغر شيء في الذرة، وفي تجليات الله الكبرى، وفي مظاهر ذاته المتعينة، وفي الكائنات. وهذه التأملات تصله بأحجاب نظيرة ومدة الوجود فيقول:

---

(١) قصيدة (نفس) من ديوانه اشراقة.

كل ما في الكون يمشي في حناياه الاله
هذه النملة في رقتها رجع صداه
هو يحيا في حواشيها وتحيا في ثراه
هي إن اسلمت الروح تلقتها يداه
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه(*)

ثم يرى التيجاني أن الله موجود في كل شيء متحداً به، غامراً لهذا الكون، وكل هذه الأفكار صادرة من ايمان عميق فيقول:

الوجود الحق ما أوسع في النفس مداهْ
والسكون المحض ما أوثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمشي في حناياه الإلّه
هذه النملة في رقتها رجع صداه
هو يحيا في حواشيها وتحيا في ثراه
وهي أن اسلمت الروح تلقتها يداه
لم تمت فيها حياة الله أن كنت تراه(**)

(*) ديوان اشراقه ص ٢١.
(**) المرجع نفسه ص ٩٠.

شعراء الرابطة القلمية

إيليا أبو ماضي ١٨٨٩ م

أبو ماضي هو زعيم شعراء الرابطة القلمية من حيث كمية الانتاج الشعري إذ أن له اربعة دواوين تعد الثلاثة الاخيرة منها دليل على شاعريته الأصيلة وفكره الثاقب وخياله الواسع وثقافته العميقة.

وهو لبناني الاصل من مواليد قرية (المحيدثة) عام ١٨٨٩، نشأ فيها صغيراً وبها تلقى المبادىء الأولى لدراسته، ولما ضاقت به وبأهله الحياة في لبنان هاجر كما هاجر غيره من الناس، وكانت المرحلة الأولى من هجرته إلى مصر، حيث نزل في الاسكندرية واشتغل بالتجارة إذ فتح محلاً صغيراً لبيع الدخان والسجاير. لكن التجارة لم تشغل كل تفكيره إذ نجده يشغل وقتاً واسعاً من حياته في المطالعة سواء المجلات او الجرائد أو اشعار الشعراء المشهورين مثل محمود سامي البارودي وخليل مطران واحمد شوقي وحافظ ابراهيم، وبعد ان أنس من نفسه القدرة على نظم الشعر بدأ ينظمه حتى اكتمل عنده ديوانه (تذكار الماضي) ونشره بين الناس.

وبعد فترة توجه الى امريكا الشمالية في عام ١٩١١. واقام في مدينة (سنسناتي) وفي عام ١٩١٦ توجه الى (نيويورك) وهناك اتصل بالأدباء واصحاب الصحف وفي عام ١٩١٩ صدر ديوانه الثاني المسمى (ديوان ايليا أبو ماضي) وبعد صدور هذا الديوان تحسن مركزه الأدبي والمالي.

ونحن لو تأملّنا اغلب شعر ابي ماضي لوجدنا فيه نزعة إنسانية خالصة تسمو على كل النزعات وروحاً عالية تفوق كل الأرواح، ثم نجد عنده التفاؤلَ الباسم، وهو يكره الشكوى والتبرم من الحياة نرى ذلك في قوله:

أيهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدوا أذا غدوْتَ عليلا
ان شر الجناة في الارض نفسٌ تتوقى، قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود، وتعمى أن ترى فوقها الندى أكليلاً
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً
ليس أشقى ممن يرى العيش مرّاً ويظن اللذات فيه فضولا

وفي قصيدة أخرى يخاطب ابو ماضي الباكين العابسين حتى في يوم العيد يوم الفرح فيقول لهم.

أيها الباكي، رويدا لا يسدُّ الدمعُ ثغرهْ
أيها العابس، لن تعطى على التقطيب أجرهْ
لا تكن مرّاً، ولا تجعلْ حياة الغيرْ مرّةً
أنَّ منْ يبكى له حوْلٌ على الضحك وقدرهْ
فتهلل وترنم فالفتى العابس صخرهْ
سكنَ الدَّهرُ وحانتْ غفلةٌ منهُ وغرَّةْ
انه العيد.. وأنّ العيد مثل العرس مرّة

رشيد أيوب

١٨٧١ م

ولد رشيد أيوب في مدينة (بسكنتا) ١٨٧١ وفي فترة شبابه هاجر إلى أمريكا وبوجه خاص مدينة (نيويورك). وفي المهجر أصدر دواوينه الثلاثة التي تعتبر أثراً خالداً من تراث الشعر المهجري القيم.

وفي المهجر جابه مشاكل الحياة الصعبة، فكان يكد ويتعب، ولكن نجاحه لم يكن موفقاً بالقدر الكافي، لهذا نجده حزيناً لا يبتسم، لفقره، حتى أن فقره وبؤسه كانت ذات تأثير في شعره فجاءت عليه مسحة الحزن والكآبه.

ونتيجة لإخفاق رشيد أيوب في حياته العملية راح يحن إلى وطنه لبنان، وبوجه خاص بلدته الصغيرة الآمنة.

وها هوذا يقف على نهر (الهدسن) في مدينة نيويورك الصاخبة، فتغيب عن عينيه مناظر الزحام، وتبتعد عن أذنيه أصوات الجلبة المحيطة به، ولا يكاد يرى ويحس الا ربى لبنان وجمال تلك الربى. ولا يسمع إلا خرير مياه لبنان واصوات عصافيره المغنية.

إن ألم الغربة على الشرقي صعب، وحنينه لأوطانه طاغي على كل شيء، ولهذا لا نعجب أن نرى رشيد أيوب يحلم بالعودة الى الوطن شرط أن يصبح السوريون أحراراً في اوطانهم فيقول في هذا:

متى يا ترى السوريُّ ينضج علمهُ ويفخر في أوطانه سامي القدْرِ

فيفرح محزونٌ ويلتذ نازحٌ ويرجع مشتاق ولو آخر العمْرِ

وكلما طال وقت الهجرة، ازدادت نيران الشوق في قلب رشيد أيوب استعاراً وتأججاً، لأنه أخذ ييأس في العودة فيقول:

انما انت الى البحر تعود وأنا هيهات عودي للديارْ

ولعل أبدع قصائده تلك التي عارض فيها مالك بن الريب التميمي في الشكوى والتي يقول فيها:

لا تلوموه فذا صبٌّ سقيمْ نازحُ مسكينَ
ليس يحييه سوى ذاك النسيمْ في حمى صنينْ

وقد امتلك رشيد أيوب قدرة عجيبة على اظهار الألم والحزن والشكوى عنده، وطالما ان اغلب الناس هم على شاكلته فلماذا لا يغني لهم ليطربهم ولكنه طرب من نوع آخرانه الطرب الحزين.

أنوح بالأشعار بعد النوى وأرقب الأيام حتى تؤوبْ
لو كان نوحي عدّ عند الورى ذنباً، لكنت اليوم كلي ذنوبْ
لكن عزاء القلب أن الأسى قد صار شعراً الفته القلوبْ

نسيب عريضه

شاعر آخر من شعراء الرابطة القلمية، ومتألم آخر من المتألمين الذين جابهتهم ظروف حياة المهجر مجابهة عنيفة وقاسية، مما ترك في نفسه الأثر القوي من التشاؤم والتبرم من الحياة ؛ فما ان ترك نسيب عريضه بلدته (حمص) عام ١٩٠٥ ووطأت قدماه المهجر، حتى بدأ رحلة العذاب والألم، ومجابهة الواقع الذي هو على نقيض ما رآه في وطنه، ! انه عالم المادة الذي لا يتكلم الا بأرقام المال، وهو الشرقي ذو النزعة الانسانية البسيطة المتحلله من رغبات المادة.

رغم الجهود المضنية والصعبة التي بذلها نسيب عريضة لتغيير وضعه المادي، نجده يفشل في تحقيق هذا الغرض، ويعيش حياة فقر واملاق، لكنه أراد ان ينجح في مجال آخر لعله يعوض عليه ما خسره، أراد أن ينجح في مجال الأدب والفن الرفيع، فأسس في عام ١٩١٢ مطبعة (الأتلنتيك)، وانشأ في العام التالي (مجلة الفنون)، وفي عام ١٩٤٦ صدر ديوانه (الأرواح الحائرة) وهو ديوان لم تــر الرابطة القلمية له مثيلاً من حيث سيطرة روح التشاؤم وانعدام الأمل فيه، ومن هذا الديوان يقول نسيب عريضة (في جلسة طرب):

غنى المغني في سكـون الدجى — فقـال لى صحبي: أما تسمعُ
نـراك لا تحسـو كؤوسَ الـطلا — ولا تنـادي: «آه» إذ تخشـعُ؟
قلتُ: دعـوني مـطرقـاً حـائـراً — فليس لي في لهـوكم، مـطمـعُ

منْ لي بأن أطرب والنفس قدْ أمستْ على اسماعها برقعُ
اذا سمعتم، فأنا ما ليس يصيبكم ولا يمتعُ
أبعد من ضجة الحانِكمْ عاصفُ انغام به أرتعُ
قرارُها الحُزْنُ ودولابها كآبةٌ ضاقتْ بها الأرْبعُ

ان نسيب عريضة له شخصية غامضة لها سر من الاسرار، فلا يحاول الفضوليون معرفة شيء عنها. وليتركوا الشاعر وشأنه، لأنه في وحدتهِ يهتصر لذة العذاب والألم، ويصرخ من اعماقه قائلاً:

أنا في الحضيضْ
وأنا مريضْ
أفلا يدٌ تمتد نحوي بالدواء
وتبث في جسمي ملامسها القوى
وتقلني من هَوتي نحو الذرى
فأسيرُ مستنداً إليها في الورى
ما من مجيب
ما من مجيبْ

شعراء الشعر الحديث

بدر شاكر السياب (١٩٢٦م - ١٩٦٤)

ولد بدر شاكر السياب عام ١٩٢٦ م في قرية (جيكور) في أبي الخصيب جنوبي البصرة وأنهى دراسته الثانوية في البصرة، ثم دخل دار المعلمين العليا فتخرج منها مدرساً، واشتغل في مهنة التدريس فترة قصيرة، ثم عين في مديرية التجارة العامة في الحكومة العراقية، ثم فصل لأسباب سياسية، فاتجه نحو العمل الحر، كان يسارياً متطرفاً ولكنه شعر بالألم من إنحراف ثورة تموز عام ١٩٥٨ م، أصيب آخر حياته بالشلل زاد معه شيئاً فشيئاً حتى توفي في الكويت عام ١٩٦٤ حيث نقلت جثته إلى البصرة ودفن في مقبرة الحسن البصري في قضاء الزبير.

من اهم ما يميز شعر السياب معالجته لقضايا اجتماعية في اطار انساني فهو يقول في قصيدته (المومس العمياء):

الليلُ يطبق مرةً اخرى فتشربُه المدينهْ
والعابرون إلى القرارة . . مثل أغنية حزينهْ
وتفتحت، كأزاهير الدِّفلْى، مصابيح الطريق
كعيون (ميدوزا) تحجرُ كلَّ قلب بالضغينه[1]

---

(١) في الاساطير اليونانية خرافة تقول أن عيني ميدوزا تحولان عيني كل من تلتقيان به الى حجر.

الحارسُ المكدودُ يعبرُ والبغايا متعبات

النوم في أحـداقهنَّ يرفُّ كالطير السجينْ

وعلى الشفاه او الجبينْ

ترفحُ البسماتُ والأصباغُ ثكلى باكيات

لقد استخدم السياب في قصيدته هذه صلابة التعبير والدقة في الألفاظ واللمحات الاقليمية المتصلـة بجذور تربة بلاده . . .

وقال من قصيدته (قافلة الضياع):

أرأيتُ قافلة الضياعْ؟ أما رأيت النازحينْ

الحاملين على الكواهل من مجاعات السنينْ

آثامَ كلِّ الخاطئينْ

النازحين بلا دماءْ

السائرين إلى وراء(*)

(*) ديوان أنشودة المطر.

عبد الوهاب البياتي

١٩٢٦ م

ولد في بغداد عام ١٩٢٦م وتخرج من دار المعلمين العالية ببغداد، حاملاً منها شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٥٠م، اشتغل بالتدريس ومارس الصحافة. ولكن تحسسه بقضايا بلده وقضايا العالم الإنساني جميعاً قاده للنضال فعذّب واضطُهد وفصل عن وظيفته عام ١٩٥٤، وتعرض للملاحقة، فسافر الى بيروت وعاش مدة في لبنان، ثم انتقل الى مصر ومنها سافر الى سوريا، وعاد الى بغداد أثر ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م.

اتخذ البياتي من الشعر الحر أسلوباً للتعبير عن قسوة الحياة، وعما يعتلج في صدره من اشجان ومن معضلات روحية هي صدى للموقف (الوجودي) الذي تأثر بـه الشاعر ذلك الحين. قال من قصيدة عنوانها (مسافر بلا حقائب).

من لا مكان

لا وجه لا تاريخ لي، من لا مكانْ

تحت السماء وفي عويل الريح أسمعُها تناديني «تعالْ»

عَبْرَ التلال

مستنقع التاريخ يعبره الرجال

عدد الرجالْ

والأرض ما زالت، وما زال الرجالْ

عبر التلالْ

وقال في قصيدة عنوانها (الملجأ العشرون)

كفراغ أيام الجنودِ العائدينَ من القتالْ
وكوحشة المصدور في ليلِ السُّعالْ
كانت أغانينا، وكنا هائمين بلا ظلالْ
متـرقبـين الليلَ، أنبـاءَ البـريدْ

الملجأ العشرونْ
مازلنا بخير، والعيالْ

وقال من قصيدة عنوانها (سوق القرية)

الشمس، والخمرُ، والهزيلهُ، والذبابْ
وحذاء، جندي قديم
يتداول الأيدي، وفلاحٌ يحدِّقُ في الفراغ
في مطلع العام الجديدْ

يعد البياتي من ابرز الشعراء التقدميين شاعرية واحلاهم نغماً يجمع شعره بين حقائق الوعي الاجتماعي وحرارة الانفعال الشخصي، يستقي مضامينه من واقع الحياة.

صلاح عبد الصبور

شاعر مصري بدأ حياته الأدبية بكتابة القصة القصيرة والكتابة الفلسفية على نمط محاورات أفلا طون التي كان يقرؤها في مطالع الصبا. ولكنه بدأ نظم الشعر منذ عام ١٩٥٣م ومنذ ذلك الحين وهب حياته للشعر، نظم الشعر التقليدي يحاكي فيه المتنبي، وأبا العلاء المعري، ثم أخذ يحاكي بعض الشعراء المحدثين، فانقطع أثر ذلك عن نظم الشعر التقليدي وبدأ ينظم الشعر الحر من عام ١٩٥١م وأخرج منذ ذلك الحين عدة دواوين.

ويتراوح شعره بين الرؤية والوضوح والفلسفة والحقيقة، وتظهر في شعره روح القصة وصلاح عبد الصبور يؤمن بالتقدم والانسانية والحب والسلام والنضال من أجل إنتصار الكلمة وإنتصار الإنسان شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء المحدثين فقد جسد في شعره رسالة الشعر الجديدة خير تجسيد قال:

وهل من مات لم يترك له رسماً على الجدرانْ؟
وخطا فوق ديباجةْ
وذكرى في حنايا قلبْ
وحفنة طينةٍ خصبةْ
على وجه الفضاء الجدْبِ
وما الانسان ـ ان عاش ـ وإن ماتا ـ وما الانسان؟

وعبد الصبور فارس من فرسان الحزن في شعرنا الحديث يخاف الموت ويكاد يعلن لا انتمائيته في سبيل ذلك، إلا انه مؤمن أن الكلمة سلاح بيد الانسان، وهو ينقل الحزن الى مستوى الفجيعة العمياء، مع انغلاق على نفسه وانطوائيته على ذاته.

يتخذ عبد الصبور رسائل عدة للتعبير عن الذات، وابرز ما تتضح هذه السمة في قصيدته (زهران) التي يقول فيها:

كان زهران غلاماً
أمه سمراءُ . . . والأب مولدْ
وبعينيه وسامةُ
وعلى الصدغ حمامة
وعلى الزند أبو زيدِ سلامة
ممسكاً سيفاً وتحت الوشم نبشٌ كالكتابة
اسم قرية
(دنشواي).

وزهران هذا بطل من الابطال الشعبيين يسرد قصته عبد الصبور بلغة سلسة وحركة سريعة حتى تتمشى مع المضمون.

محمد مصباح الفيتوري ١٩٣٠ م

زنجي الجد من آعالي بحر الغزال، سوداني الوالد، مصري الأم، ولد عام ١٩٣٠م وقضى الجانب الأكبر من حياته في مدينة الاسكندرية، فيها شهد غارات النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية ودخل الأزهر بعد الحرب. سعى في شعره الى ان يرفع من مستوى الافريقيين والجنس الأسود:

يمتاز شعر الفيتوري بشعور الغربة والضياع ومعاناة أزمة نفسية تصل الى حد الاحساس بالنقص تجاه البيض الذين يتصورهم يحتقرون آدمية السود، ويتوهم أن المعركة لونية بين أبيض وأسود، فيدق الطبول ويقرعها مستنفراً أبناء جلدته لكي يستيقظوا من حلمهم الأسود، ويخرجوا من سراديبهم واكواخهم واقبيتهم الرطبة، يقول من قصيدة عنوانها (اغاني أفريقيا).

يا أخي في الشرق في كل سكنْ   يا أخي في الأرض في كل وطنْ
أنا ادعوك.. فهل تعرفني؟   يا أخاً اعرفه، رغم المحن
إنني فرقت أكفانَ الدُّجىْ   إنني هدَّمتُ جدران الوَهنْ
لم اعد مقبرة تحكي البلى   لم اعد ساقيةً تبكي الدِّمنُ
لم أعدْ عبد قيودي لم أعدْ   عبدَ ماضيٍ هرمٍ عبد وثن

وقال في قصيدة عنوانها « يوميات حاج الى بيت الله الحرام » من ديوانه « معزوفة درويش متجول»،

قوافل يا سيدي قلوبنا اليك

نحجُّ كلَّ عامْ
هيا كلُّ مثقلة بالوْجدِ والهيامُ
تسجد عند عتباتِ البيتِ والمقامْ
تقرئكَ السلامْ
يا سيدي عليك أفضل السلامَ
من أمة مضاعةٍ
خاسرة البضاعةْ
تقذفها حضارة الخراب والظلام
إليك كلَّ عام
لعلها أن تجد الشفاعةْ
لشمسها العمياء في الزمامْ

ان اسلوب الفيتوري الشعري يراوح بين الصياغة القديمة والصياغة الجديدة، وان كان الى الصياغة القديمة أميل، لكن عنف الموضوع يهبه نفساً شعرياً زاخراً لاهباً يتدفق بالثورة

فهرس الجزء الثاني

المؤرخون والجغرافيون ٧
البلاذري ١٦
ابن خرداذبة ١٨
الطبري ١٩
المسعودي ٢١
أبو الفرج الأصبهاني ٢٣
الإصطخري ٢٥
ابن حوقل ٢٦
ابن النديم ٢٧
البيروني ٢٩
المقدسي ٣٠
الإدريسي ٣٢
أسامة ٣٣
ياقوت ٣٥
ابن الأثير ٣٨
ابن ابي اصيبعة ٤٠
ابن خلكان ٤١
القزويني ٤٣
ابن العبري ٤٤
العلماء ٤٧
حنين بن اسحاق ٥٦
اسحاق بن حنين ٥٩
ثابت بن قرة ٦٠
قسطا بن لوقا ٦١
الأطباء ٦٣
آل بختيشوع ٦٥
جرجيس بن بختيشوع ٦٦
بختيشوع بن جرجس ٦٨
جبريل بن بختيشوع ٧٠
بختيشوع بن جبريل ٧٢
سهل الكوسج ٧٤
يوحنا بن ماسويه ٧٦
الرازي ٧٩
سنان بن ثابت ٨٢
ابن الطيب ٨٥
ابن التلميذ ٨٧

أبو البركات ٨٩
الكندي ٩٢
الفارابي ٩٤
ابن سيناء ٩٩
السهروردي ١٠٣
الطوسي ١٠٥
الفلكيون والرياضيون ١٠٧
ابناء شاكر ١٠٩
أبو معشر البلخي ١١٢
البتاني ١١٤
ابن الهيثم ١١٥
عمر الخيام ١١٨
اللغة في الأندلس ١٢٣
الأدباء ١٣٣
ابن عبد ربه ١٣٣
ابن هانىء ١٣٥
ابن زيدون ١٣٨
ابن عمار ١٤١
الحُصري ١٤٤
ابن حمديس ١٤٦
ابن خفاجة ١٤٨
ابن سعيد ١٥٠
ابن الخطيب ١٥٣
ابن قزمان ١٥٧
ابن خاقان ١٥٩
ابن جبير ١٦١
ابن حزم ١٦٥
ابن عبد البر ١٦٨
ابن ابي رندقة ١٦٩
ابن العربي ١٧١
الأطباء والفلاسفة ١٧٥
ابو القاسم الزهراوي ١٧٥
ابن باجة ١٧٧
بنو زُهر ١٧٩
ابن الطُفيل ١٨٣
ابن رشد ١٨٤
ابن ميمون ١٨٧
ابن البيطار ١٨٩
اللغة في طور الإنحطاط ١٩٣
الشعراء ٢٠١
ابن زيلاق ٢٠١
ابن الثردة ٢٠٥
صفي الدين الحليّ ٢٠٧
ابن نباتة الفارقي ٢١٢
عائشة الباعونية ٢١٥
الشبراوي ٢١٩
ابن معتوق ٢٢١
جرمانوس فرحات ٢٢٤
نيقولاوس الصائغ ٢٣٠
النحاة واللغويون ٢٣٥
ابن منظور ٢٣٥
ابن آجروم ٢٣٧
ابن هشام ٢٣٨
الفيروزا بادي ٢٤٠

المؤرخون والجغرافيون ومن اليهم	٢٤٣
ابن الفداء	٢٤٣
النويري	٢٤٥
ابن الوردي	٢٤٦
الصعذي	٢٤٩
ابن بطوطة	٢٥١
ابن خلدون	٢٥٣
الدميري	٢٥٨
القلقشندي	٢٥٩
المقريزي	٢٦٠
ابن حجر العسقلاني	٢٦٢
السيوطي	٢٦٤
المقري	٢٦٧
ملحق في المؤلفات الغفل[1]	٢٧١
أمثال لقمان	٢٧٥
اللغة في طور الأنبعاث	٢٧٧
من اوائل القرن التاسع عشر	
إلى ايامنا اليقظة	٢٧٩
النهضة المصرية	٢٨٢
النهضة السورية	٢٨٤
وسائل النهضة	٢٨٨
الطباعة[1]	٢٨٩
الصحافة	٢٩٣
الشعراء	٣٠١
بطرس كرامة	٣٠٣
آل اليازجي	٣٠٧
ناصيف اليازجي	٣٠٨
خليل اليازجي	٣١٤
ابراهيم اليازجي	٣١٧
عبد الغفار الأخرس	٣٢٤
فرنسيس المراش	٣٢٦
عمر الإنسي	٣٢٨
ارسانيوس الفاخوري	٣٣٠
عبدالله باشا فكري	٣٣٣
نجيب الحداد	٣٣٧
حفني ناصف	٣٤٢
اسماعيل صبري باشا	٣٤٥
سليمان البستاني	٣٤٨
المنشئون	٣٥٣
رفاعة بك الطهطاوي	٣٥٤
بطرس البستاني	٣٥٦
أديب بك اسحاق	٣٥٩
احمد فارس الشدياق	٣٦٢
يوسف الأسير	٣٦٨
ابراهيم الأحدب	٣٧٠
سليم بك وبشارة باشا تقلا	٣٧٣
علي باشا مبارك	٣٧٧
عبدالله نديم	٣٧٩
محمد عبده	٣٨٢
ابراهيم بك المويلحي	٣٨٥
يوسف الدبس	٣٨٧
السيد علي يوسف	٣٩٠
جرجي زيدان	٣٩٣
الأخ ساروفيم فيكتور	٣٩٥

السيد مصطفى المنفلوطي . . . ٤٠٠
المستشرقون.. . . .. ٤٠٣
شعراء العصر الحاضر
او شعراء النهضة الحديثة . ٤٠٧
(١) محمود سامي البارودي .. ٤٠٩
(٢) احمد شوقي ٤١١
(٣) محمد حافظ ابراهيم ٤١٣
(٤) خليل مطران. . . ٤١٥
شعراء اصحاب نزعة رومنتيكية ٤١٧
(١) احمد ذكي ابو شادي ٤١٩
(٢) الياس ابو شبكة ٤٢١
علي محمود طه ٤٢٣
حمزة الملك طنبل. ٤٢٥
التيجاني يوسف بشير. ٤٢٧
شعراء الرابطة القلمية... .. .. ٤٢٩
ايليا ابو ماضي ٤٣١
رشيد ايوب ٤٣٣
نسيب عريضة. ٤٣٥
شعراء الشعر الحديث ٤٣٧
بدر شاكر السياب ٤٣٩
عبد الوهاب البياتي . ٤٤١
صلاح عبد الصبور ٤٤٣
محمد مصباح الفيتوري . . . ٤٤٥

